

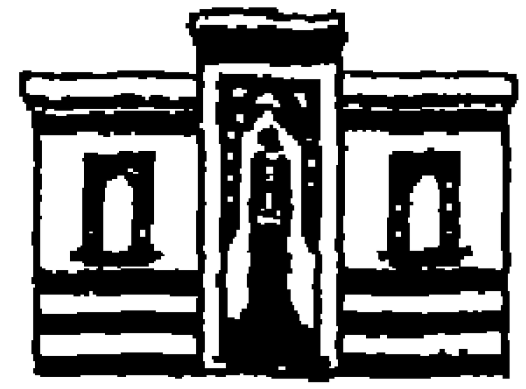
الثورة .. والحرية

عَشَرَة أيّام هَزّت العَالم

وصف شاهد عيان لثورة أكتوبر الرّوسية ١٩١٧

تأليف: جُون ريد

عَشرَة أيـّام هَـزّت العَالم



الثورة .. والحرية (العدد الأول)

جُون ريد

عشرَة أيّام هَزّت العَالم

وَصف شاهد عيان لثورة أكتوبر الروسية ١٩١٧

ترجمة

فوّاز طرَابلسي

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

ريد، جون.

عشرة أيام هزت العالم: وصف شاهد عيان لثورة اكتوبر الروسية ١٩١٧/ جون ريد؛ ترجمة فواز طرابلسى. - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ، 2011-

٤٧٢ ص ؛ 20 سم. - (الثورة والحرية)

تدمك 9 - 0803 - 18 - 977 - 978

١ - روسيا - تاريخ - العصر الحديث

أ - طرابلسى، فواز (مترجم).

ب - العنوان.

٩٤٧

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٨٠٢٠

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0803 - 9



الثورة .. والحرية
سلسلة غير دورية

باهتمام بالغ وانتباه لا يكل قرأت كتاب جون ريد "عشرة أيام هزت العالم". بدون أي تحفظ أوصي جميع عمال العالم بقراءته. أود أن أرى هذا الكتاب منشورًا في ملايين النسخ ومترجمًا إلى جميع اللغات لأنه يرسم صورة صادقة ودقيقة عن احداث هي ذات اهمية قصوى لفهم حقيقة ثورة البروليتاريا وديكتاتورية البروليتاريا. هذان الموضوعان يناقشان على نطاق واسع، ولكن قبل ان يقدم المرء على قبول مثل هذه الاراء أو رفضها عليه ان يعي ادراك المغزى الكامل لقراره. ولا شك في ان كتاب جون ريد سيساعد على توضيح هذه المسألة التي هي المسألة الاساسية بالنسبة للحركة العمالية العالمية.

ف. ا. لينين

اواخر عام ١٩١٩

لينين

مقدّمة المؤلف

هـذا الكتاب نبذة من التاريخ المكثف – التاريخ كما شاهدته . انـه لا يدّعي كونه اكثر من سرد مفصل لثورة اكتوبر ، حين قام البلاشفة ، على رأس العمال والجنود ، باستلام الحكم في روسيا ووضعوه بين أيدي السوفييت.

يدور القسم الاكبر منه ، طبعاً ، حول بتروغراد الحمراء ، عاصمة الثورة وقلبها . ولكن لا بد من ان يعلم القارىء ان ما حدث في بتروغراد قـد تكرر بحذافيره تقريباً ، في اوقات مختلفة ، في جميع انحـاء روسيا بنسبة أقل او اكثر من الحدّة .

لقد اضطررت في هذا الكتاب ، الذي هو واحد من عدة كتب أعدها ، الى الاقتصار عـلى سردٍ متسلسل زمنياً للأحداث التي شاهدتها شخصياً واختبرتها وعلى مـا هو مدعوم منها بالأدلة الثابتة . ويسبق ذلك فصلان يوضحان ، بايجـاز ، خلفية الثورة واسبابها . واني على بينة من ان هذين الفصلين ليسا سهلين للقراءة ، ولكنهما اساسيان لفهم ما يليهما .

سوف يواجه القارىء بعدة أسئلة : ما هي البلشفية ؟ اي نوع من الجهاز الحكومي أنشأ البلاشفة ؟ اذا كان البلاشفة قـد تبنوا الجمعية التأسيسية قبل ثورة اكتوبر ، فلماذا فرقوها بقوة السلاح فيما بعد ؟ واذا كانت البرجوازية

ظلت تعارض الجمعية التأسيسية الى حين بروز الخطر البلشفي ، فلماذا تبنتها فيما بعد ؟

لا يمكن الاجابة على هذه الاسئلة ولا على اسئلة غيرها في حيز هذا الكتاب . في الجزء الثاني منه : « من كورنيلوف الى بريست — ليتوفسك » سوف أتتبع مسيرة الثورة حتى معاهدة الصلح مع الالمان . وفيه أفسر أصول المنظمات الثورية ووظائفها ، وتطور الشعور الشعبي ، وحل الجمعية التأسيسية ، وتركيب الدولة السوفييتية ، ومجرى مفاوضات « بريست — ليتوفسك » ونتائجها .

وفي معرض معالجة نشوء البلشفية ، لا بد من ان نفهم ان حياة روسيا الاقتصادية ووضع الجيش الرومي لم يكونا في حالة فوضى في ٧ تشرين الاول عام ١٩١٧ فقط ، وانما تعود هذه الفوضى الى ما قبل ذلك بأشهر عديدة كنتيجة منطقية لعملية ترجع بدايتها الى عام ١٩١٥ . فقد عمل الرجعيون الفاسدون الذين يسيطرون على البلاط القيصري ، عن قصد ، على تدمير روسيا ليعقدوا صلحاً منفرداً مع الالمان . ونحن نعلم الآن ان نقص الاسلحة في الجبهة ، الذي أدى الى التراجع الكبير في صيف ١٩١٥؛ وندرة الغذاء في الجيش والمدن الكبيرة ، وانهيار الصناعات ، وتعطيل حركة النقل عام ١٩١٧ انما كانت جزءاً من حملة تخريب واسعة النطاق . ولقد وضعت ثورة آذار حداً لهذه الحملة في الوقت المناسب .

خلال الاشهر الاولى من ثورة آذار ، ورغم الفوضى التي ترافق أية ثورة كبيرة ، عندما حقق مليون وستمائة الف من اكثر شعوب العالم انسحاقاً الحرية فجأة ، تحسن بالفعل الوضع الداخلي وازدادت قوة الجيش القتالية .

الا ان « شهر العسل » لم يدم طويلاً . فالطبقات المالكة لا تريد سوى ثورة سياسية تنتزع السلطة من القيصر وتضعها بين ايديها . وتريد إقامة

جمهورية دستورية في روسيا على غرار مـا هو موجود في فرنسا او الولايات المتحدة ، او ملكية دستورية على غرار ما هو موجود في انكلترا . ومقابل ذلك ، كانت الجماهير الشعبية تطالب بديمقراطية صناعية وزراعية حقيقية .

ولقد أجاد وليام انغليش وايلنغ ، في كتابه عن ثورة عـام ١٩٠٥ – « رسالة روسيا » – في وصفه لكيفية تفكير العمال الروس الذي دعمـوا البلاشفة فيما بعد دعماً شبه مطلق :

« لقـد رأوا (أي العمال) ان من الممكن ، حتى في ظل حكومة حرة ، ان يبقوا في حالة الجماعة التي يعانون منها اذا ما سيطرت على الحكم طبقات اخرى غير طبقتهم.

العامل الروسي عامل ثوري . ولكنه ليس عنيفاً ولا قطعياً ولا غبياً . انه مستعد ان يقيم المتاريس ، غير انـه الوحيد بين عمال العالم الذي درس هذه المتاريس وتعلم عنها من خلال التجربة العملية . انـــه مستعد ومندفع في خوض الصراع ضد الطبقـة الرأسمالية التي تضطهده الى النهـاية . الا انه لا يتجاهل وجود الطبقات الاخرى. بل يطلب منها فقط ان تنضم الى هذا الجانب او ذاك في الصراع المرير المقبل .

كانوا (اي العمال) يعترفون بأن مؤسساتنـا السياسية (في امريكا) أفضل من مؤسساتهم ، الا انهم لم يكونوا على استعداد لأن يستبدلوا مستبداً بآخر (اي الطبقة الرأسمالية) .

ان عمال روسيا لم يقتلوا ويعدموا بالمئات في موسكو، وريغا، واوديسا ، ولم يسجنوا بالمئات في كل سجن من سجون روسيا ، ولم ينفوا الى الصحاري والى المناطق الجليدية ، لكي يحصلوا على

امتيازات وهمية كالتي حصل عليها العمال الاميركيون في « غولد فيلدز » و « كريبل كريك » ...

وهكذا ، ففي خضمّ حرب أجنبية ، نمت الثورة الاجتماعية في روسيا ، على سطح الثورة السياسية ، وانتهت بانتصار البلشفية .

وهذا ما يقوله « ا. ج. ساك » ، مدير « مكتب الاستعلامات الروسي» المناهض للحكومة السوفييتية في هذا البلد ، في كتابه « ولادة الديمقراطية الروسية » :

« شكل البلاشفة وزارتهم برئاسة نيقولا لينين، وعضوية ليون تروتسكي وزيراً للخارجية . ولقد تجلت حتمية استلامهم الحكم بعد ثورة آذار مباشرة .. ان تاريخ البلاشفة بعد تلك الثورة هو تاريخ تطورهم المضطرد » .

غالباً ما يؤكد الأجانب ، والاميركيون منهم خاصة على « جهل » العمال الروس . لا شك في انهم يفتقرون الى التجربة السياسية التي اكتسبتها شعوب الغرب ، الا انهم قد تدربوا تدريباً ممتازاً على التنظيم الطوعي . ففي عام ١٩١٧ ، كان عدد أعضاء الجمعيات التعاونية الاستهلاكية في روسيا يبلغ اثني عشر مليوناً ؛ وما السوفييت نفسها الا دليل رائع على عبقريتهم التنظيمية . والى جانب ذلك ، فلا يكاد يوجد شعب من شعوب العالم بلغ ذلك المستوى من الثقافة الاشتراكية النظرية ومن معرفة بتطبيقها العملي كالذي بلغه الشعب الرومي .

هكذا يصفهم « وليام انغليش والينغ » :

« ان شعب روسيا العامل قادر في معظمه على القراءة والكتابة . خلال عدة سنوات ، كان البلد في وضع مضطرب

فسنحت له فرصة ان يقوده افراد ليسوا أذكياء خرجوا من بين صفوفه فحسب ، وانما قسم كبير من الطبقة المثقفة التي لا تقل عنه ثورية كذلك ، توجه الى الطبقة العاملة حاملاً معه آراءه في بعث روسيا سياسياً واجتماعياً » .

يفسر عدة كتّاب عداءهم للحكومة السوفييتية بحجة ان المرحلة الأخيرة من الثورة الروسية كانت مجرد صراع العناصر « المحترمة » ضد هجمات البلشفية الوحشية . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت الطبقات المالكة هي التي حطمت المنظمات الشعبية الثورية وجمدت الثورة عندما أدركت مدى قوة هذه المنظمات . ولتحقيق هذه الغاية ، لجأت الطبقات المالكة الى إجراءات انتحارية . فلكي تنسف حكومة كرنسكي والسوفييت عمدت الى تعطيل حركة النقل ، وإثارة الاضطرابات الداخلية ؛ ولكي تسحق « لجان المصانع والمتاجر» اغلقت المصانع وحولت الوقود والمواد الاولية عن وجهتها الاصلية، ولكي تحطم لجان الجيش في الجبهة ، أعادت فرض عقوبة الاعدام وساهمت في الهزيمة العسكرية .

وكان ذلك وقوداً غذى اضطرام النار البلشفية . فرد البلاشفة بالدعوة الى حرب طبقية ، وبالتشديد على سيادة السوفييت .

وبين هذين الطرفين ، كان يقف الذين يطلق عليهم اسم الاشتراكيين « المعتدلين » ، أي المناشفة والاشتراكيون الثوريون وسائر الأجنحة التي تمحضهم تأييدها كاملاً او جزئياً، بالاضافة الى بضعة أحزاب سياسية أخرى. وقد تعرضت هذه المجموعات ايضاً ، التي كانت نظرياتها تعطل قدرتها على المقاومة ، الى هجمات الطبقات المالكة .

كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون ، بشكل عام ، يؤمنون بأن روسيا لم تنضج بعد لقيام الثورة الاجتماعية ، وبأن الثورة السياسية هي وحدها

الممكنة . ويفسرون ذلك بأن الجماهير الروسية لم تصل بعد الى المستوى الكافي من الثقافة لكي تتمكن من استلام الحكم ، وان اية محاولة في هذا الاتجاه سوف تستجلب حتماً ردة فعل يستغلها سياسي انتهازي لا يرحم لكي يعيد العهد البائد . وقد نتج عن هذا الموقف انه عندما أجبر الاشتراكيون « المعتدلون » على استلام الحكم تخوفوا منه .

كانوا يعتقدون انه على روسيا ان تمر بمراحل التطور السياسي والاقتصادي التي عرفتها اوروبا الغربية ، وتخرج في النهاية ، مع سائر بلدان العالم ، الى نظام اشتراكي كامل . لذا ، كان من الطبيعي ان يتفقوا مع الطبقات المالكة على ضرورة مرور روسيا أولاً في طور برلماني يحوي بعض التعديلات على الديمقراطية الغربية .

بين هذا الموقف وبين دعمهم للطبقات المالكة خطوة من السهل ان يخطوها. فالاشتراكيون « المعتدلون » بحاجة الى البرجوازية ، ولكن البرجوازية ليست بحاجة اليهم . فنجم عن ذلك اضطرار الوزراء الاشتراكيين الى التنازل ، شيئاً فشيئاً ، عن برنامجهم بأكمله ، في حين ازداد تصلّب الطبقات المالكة في مواقفها .

وفي النهاية ، عندما وضع البلاشفة حداً لهذه المساومة الخرقاء ، اذا بالمناشفة والاشتراكيين الثوريين يحاربون الى جانب الطبقات الحاكمة... ويمكن مراقبة الظاهرة عينها اليوم في كل بلد من بلدان العالم تقريباً .

ويبدو لي ان البلاشفة ، عوضاً عن ان يكونوا قوة هدّامة ، كانوا الحزب الوحيد في روسيا الذي يملك برنامجاً بنّاء ، الى جانب مقدرة على فرض هذا البرنامج على البلد . ولو انهم لم يستلموا الحكم في الوقت الذي استلموه فيه ، فما من شك لديّ ان جيوش المانيا الامبراطورية كانت قد دخلت

بتروغراد وموسكو في كانون الاول وأعادت روسيا مرة اخرى الى ظل الحكم القيصري .

هناك عادة ما تزال سارية بعد مضي سنة كاملة على قيام الحكومة السوفييتية ، وهي التحديث عن الثورة البلشفية على انها « مغامرة » . نعم . لقد كانت مغامرة . ولكنها إحدى أروع المغامرات التي خاضتها البشرية ، مكتسحة التاريخ على رأس الجماهير الكادحة ، ومراهنة بكل شيء في سبيل رغباتها الكبيرة البسيطة . لقد تمّ منذ الآن إنشاء الجهاز الذي سيتولى توزيع ملكيات الارض الكبيرة على الفلاحين . أما « لجان المصانع والمتاجر » والنقابات ، فكانت موجودة من قبل لتحقيق سيطره العمال على الصناعة . وفي كل قرية وبلدة ومدينة وحيّ ومقاطعة يوجد « سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين » المهيأ للاضطلاع بمهام الادارة المحلية .

ومهما يكن رأينا في البلشفية ، فلا يمكن ان ننكر ان الثورة الروسية هي واحدة من أعظم احداث التاريخ الانساني ، وان بروز البلاشفة ظاهرة ذات أهمية عالمية . ومثلما ينقب المؤرخون بين الوثائق بحثاً عن أدق التفاصيل المتعلقة بتاريخ « عامية باريس » ، كذلك سوف يودّون معرفة ما الذي جرى في بتروغراد في شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧ ، وما هي الروح التي حرّكت الشعب ، وكيف كان القادة يتكلمون ويتصرفون . لهذا السبب كتبتُ هذا الكتاب .

لم تكن عواطفي على الحياد في هذا الصراع . غير اني ، في عرضي لقصة هذه الأيام العظيمة ، حاولتُ ان أرى الأحداث بعين المراقب الأمين الحريص على كشف الحقيقة .

جون ريد

نيويورك ، ١ كانون الثاني ، ١٩١٩

مُلاحَظات وَشُرُوح

إن تعدد المنظمات الروسية من مجموعات سياسية، ولجان، ولجان مركزية، ومجالس سوفييت ، ومجالس دوما ، ونقابات سيولد بعض الالتباس في ذهن القاريء العادي. لهذا السبب أقدم فيما يلي بعض التعريفات والشروح الموجزة.

الأحزاب السياسية

في انتخابات الجمعية التأسيسية ، تقدمت سبع عشرة لائحة في مدينة بتروغراد وحدها ، وما يقارب الاربعين في بعض بلدان الريف ، على ان هذا العرض الموجز لأهداف الاحزاب السياسية ولتكوينها ينحصر بالمجموعات والاجنحة المذكورة في هذا الكتاب . ولم أتعرض فيه إلا لجوهر براجها وللطابع العام لمقوماتها .

١ ـ **الملكيون** : على مختلف اتجاهاتهم من تشرينيين* وغيرهم . لم تعد هذه

* حزب يميني يمثل البرجوازية الكبيرة التجارية والصناعية والعقارية يرأسه غوشكوف . اطلق عليه هذا الاسم بسبب دعمه للبيان الامبراطوري الذي صدر في تشرين الاول عام ١٩٠٥ والداعي الى انشاء مجلس دوما . (المترجم)

الاجنحة ، التي كانت قوية فيا مضى ، تعمل بشكل علني ، فإما انها استمرت بالعمل السري ، واما أخذ اعضاؤها ينضمون الى حزب الكاديت كلما اقترب هذا الحزب شيئاً فشيئاً من تبني برنامجها السياسي . ممثلوهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب : رودزيانكو ، شولفين .

٢ —

أ — **الكاديت** : اختصار لاسم « الديمقراطيين الدستوريين » . اسم الحزب الرسمي « حزب حرية الشعب » ، كان يتكوّن خلال الحكم القيصري من الليبراليين المنتمين الى الطبقات المالكة ، وكان الكاديت حزب الإصلاح السياسي بلا منازع . وعندما اندلعت الثورة في آذار عام ١٩١٧ ، شكّل الكاديت أول حكومة مؤقتة . وقد سقطت وزارتهم في نيسان لأنها أعلنت تأييدها لمطامع الحلفاء الاستعمارية بما فيها مطامع الحكومة القيصرية . وبقدر ما كانت الثورة تكتسب طابع الثورة الاجتماعية والاقتصادية ، كان الكاديت ينحازون اكثر فأكثر الى المحافظة . ممثلو الحزب المذكورون في هذا الكتاب: مليوكون ، فينافير ، شاتسكي .

ب — **مجموعة رجال الحياة العامة** Group of Public Men . بعد ان فقد الكاديت تأييدهم الشعبي بسبب ارتباطهم بثورة كورنيلوف المضادة ، تشكلت مجموعة رجال الحياة العامة في موسكو . وشغل ممثلوها مناصب وزارية في حكومة كرنسكي الاخيرة . وأعلنت المجموعة انها منظمة غير حزبية ، رغم ان أناساً مثل رودزيانكو وشولفين كانوا في عداد قادتها الفكريين . كانت المجموعة تتكون من أصحاب المصارف والتجار الصناعيين « الحديثين » الذين كانوا على جانب كاف من الذكاء يجعلهم يدركون انه يجب محاربة مجالس السوفييت بسلاحها ، أي بالتنظيم الاقتصادي ، من ممثلي هذه الجماعة : ليانوزوف ، كونومالوف .

٣ ـ **الاشتراكيون الشعبيون** : أو الترودوفيكي (المجموعة العمالية) .

حزب صغير من حيث العدد . يتكون من مثقفين راديكاليين وقادة جمعيات تعاونية وفلاحين محافظين . وهم ، بالرغم من ادعائهم الاشتراكية ، يمثلون ، في الواقع ، مصالح البرجوازية الصغيرة من موظفين وأصحـــاب حوانيت وغيرهم. وهم الورثاء المباشرون لتقاليد المساومة التي انتهجتها المجموعة العمالية في مجلس الدوما الامبراطوري الرابع عندما كانت مكوّنة في غالبيتهـا من ممثلي الفلاحين . وكان كرنسكي قائد المجموعة العـمالية في مجلس الدومـا الامبراطوري عندما اندلعت ثورة آذار ١٩١٧ . الاشتراكيون الشعبيون حزب « وطني » * . ممثلوهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب : بيشيخونوف ، شايكوفسكي .

٤ – **حزب العمال الاشتراكي – الديمقراطي الروسي :** يتكون في الأصل من الاشتراكيين الماركسيين. انشق الحزب في مؤتمره عام ١٩٠٣ ، حول مسألة الخطط التكتيكية ، الى جناحين : البلاشفة – أعضاء الاكثرية – والمناشفة – اعضاء الأقلية . واصبح هـذان الحزبان تنظيمين منفصلين يسمي كل منهما نفسه « حزب العمال الاشتراكي – الديمقراطي الروسي » ويتبنى الاشتراكية . بعد ثورة ١٩٠٥ ، أصبح البلاشفة اقلية الا انهم عـادوا فأصبحوا اكثرية في أيلول عام ١٩١٧ .

أ – **المناشفة :** يضم هذا الحزب مختلف الاتجاهات الاشتراكيـة التي تؤمن بأنه يتوجب على المجتمع ان ينتقل بواسطة التطور الطبيعي الى الاشتراكية ، وانه على الطبقة العاملة ان تسيطر أولاً على السلطة السياسية. والحزب حزب « وطني » وهو حزب المثقفين الاشتراكيين ، وبما ان جميع وسائل تحصيل

---

* تجدر الاشارة هنا الى ان صفة « وطني » تشير خاصة الى الذين يقدمون « الدفـاع عن الوطن » ، اي الاستمرار في الحرب ضد المانيا ، على جميع المشكلات والمطالب الداخلية . (المترجم)

العلم محصورة بيد الطبقات المالكة ، فان المثقفين يتصرفون تلقائياً بما ينسجم مع تربيتهم ، فيقفون الى جانب الطبقات المالكة . من ممثليهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب : دان ، ليبر ، تسيريتللي .

ب – **المناشفة الأميون** : الجناح الراديكالي من المناشفة . أممي ومعارض لأي تحالف مع الطبقات المالكة ، الا انه يرفض قطع العلاقات مع المناشفة المحافظين ، ويعارض دكتاتورية البروليتاريا التي يدعو اليها البلاشفة . كان تروتسكي عضواً في هذه المجموعة . من قادتها : تشيرنوف ، مارتينوف .

ج – **البلاشفة** : ويطلقون على انفسهم الآن اسم الحزب الشيوعي تأكيداً على انقطاعهم التام عن تراث الاشتراكية « المعتدلة » او « البرلمانية » الذي يطغى على المناشفة وعلى من يسمّون « اشتراكيو الأكثرية » في جميع البلدان. دعا البلاشفه الى ثورة بروليتارية مباشرة ، والى استلام الحكم للتعجيل بقيام الاشتراكية بواسطة الاستيلاء القسري على الصناعة والأراضي والموارد الطبيعية والمؤسسات المالية.هذا الحزب يعبّر عن رغبات عمال المصانع بشكل خاص ، وعن رغبات قطاع واسع من الفلاحين الفقراء كذلك . من قادته : لينين ، تروتسكي ، لوناتشارسكي .

د –**الاشتراكيون– الديمقراطيون الأميون المتحدون** ويطلق عليهم ايضاً اسم جماعة « الحياة الجديدة » ، الصحيفة ذات النفوذ الواسع الناطقة باسمهم. هم مجموعة صغيرة من المثقفين تحظى بتأييد جد بسيط في أوساط الطبقة العاملة هذا اذا استثنينا الشعبية الشخصية التي يتمتع بها قائدها مكسيم غوركي : وتتكون المجموعة من المثقفين ، وبرنامجها مطابق تقريباً لبرنامج المناشفة الأميين فيما عدا كونها ترفض الارتباط بأي من الجناحين الرئيسيين (اي البلاشفة والمناشفة) . لم تنسحب المجموعة من الحكومة السوفييتية رغم معارضتها لخطط البلاشفة التكتيكية . ممثلوها الوارد ذكرهم في هذا الكتاب: افيلوف ، كراماروف .

ﻫ – يدينستوفا : مجموعة صغيرة في طريق الاضمحلال تتكون في غالبيتها الساحقة من اتباع بليخانوف الشخصيين . وبليخانوف أحد رواد الحركة الاشتراكية – الديمقراطية الروسية في الثمانينات ومفكرها الأكبر . الآن اصبح بليخانوف عجوزاً ووطنياً متطرفاً وأكثر محافظة من المناشفة انفسهم . اختفت منظمة يدينستوفا بعد الانقلاب البلشفي .

ه – **الحزب الاشتراكي الثوري** : في الأصل : حزب الفلاحين الثوري ، حزب « المنظمة المقاتلة » اي حزب الارهابيين . انضمّت اليه بعد ثورة آذار عناصر كثيرة بعيدة عن الاشتراكية . كان آنذاك يؤيد إلغاء الملكية الفردية في الارض فقط، على شرط ان يعوّض على الملاّك بطريقة ما . واخيراً ، دفع الشعور الثوري المتزايد عند الفلاحين بالاشتراكيين الثوريين الى التخلي عن مبدأ « التعويض » ، كما ادّى الى انشقاق المثقفين الأكثر ثورية عن الحزب الأصلي في خريف ١٩١٧ ، والى تكوين حزب جديد : الحزب الاشتراكي الثوري اليساري . وأطلق فيما بعد على أعضاء الحزب الاصلي اسم « الاشتراكيين الثوريين اليمينيين » ، وقد تبنى هؤلاء موقف المناشفة السياسي وتعاونوا معهم . وأصبحوا ، في النهاية ، يمثلون الفلاحين الميسورين ، والمثقفين ، والمجموعات غير الواعية سياسياً في المناطق الريفية النائية . الا ان التباين في وجهات النظر السياسية والاقتصادية فيما بينهم أكبر منه عند المناشفة ، من قادتهم الوارد ذكرهم في هذه الصفحات : افاكسانتييف ، غوتز ، كرنسكي ، تشيرنوف ، « بوشكا » بريشكوفسكايا .

ا – **الاشتراكيون الثوريون اليساريون** : رغم تبنّيهم النظري لبرنامج البلاشفة ، حول دكتاتورية الطبقة العاملة ، فقد تلكأوا ، باديء بدء ، في اتباع الخطط التكتيكية الصارمة التي اتبعها البلاشفة . على انهم بقوا في الحكومة السوفييتية وشغلوا المناصب الوزارية وخاصة وزارة الزراعة . انسحبوا عدة مرات من الحكومة ، لكنهم كانوا يعودون اليها في جميع

الحالات . وعندما أخذ الفلاحون يهجرون صفوف الحزب الاشتراكي الثوري باعداد متزايدة ، انضموا الى الحزب الاشتراكي الثوري اليساري وقـــد غدا حزب الفلاحين الكبير الذي يدعم الحكومة السوفييتية والداعي الى مصادرة الملكيات الكبيرة دون تعويض والى إدارتها من قبـل الفلاحين أنفسهم . من قادتهم : سبيريدونوفا ، كاريلين ، كامكوف ، كالاغاييف .

ب – **المتطرفون** Maximalists : مجموعة انشقت عن الحزب الاشتراكي الثوري خلال ثورة ١٩٠٥ عندما كان هـذا الأخير حركة فلاحية جبارة ، مطالبين بالتطبيق الفوري لبرنامج الحد الأقصى الاشتراكي. أضحوا الآن مجموعة ليست ذات بال من الفلاحين الفوضويين .

الاجراءات البرلمانيـة

ان الاجتماعات والمؤتمرات الروسية مبنية على النموذج الأوروبي أكثر ممـا هي مبنيـة على النموذج الاميركي . ويكون الاجراء الاول انتخاب المقررين والبريزيديوم .

البريزيديوم : هو مجلس الرئاسة ، ويتكوّن من ممثلي المجموعات والأجنحة السياسية الممثلة في الاجتماع حسب قوتهـا العددية . يحضّر البريزيديوم جدول الأعمال ، ويحق للرئيس دعوة أعضائه لترؤس الاجتماع حسب الحاجة .

يطرح كل سؤال بشكل عام ثم تتمّ مناقشته ، وعند انتهاء النقاش، تقدم المجموعات المختلفة مقرراتها ويجري التصويت على كل واحدة منها على حدة . بالامكان تجاوز جدول الاعمال ، وهذا ما يتم في معظم الأحيان في اول نصف ساعة من الاجتماع . فبحجة « ظرف استثنائي » ، يوافق عليه الحضور عادة، يستطيع اي كان من القـــاعة ان يقول ما يشاء عن اي موضوع . الحضور

يسيطرون على الاجتماع،والوظيفتان الوحيدتان اللتان يمارسهما الرئيس عملياً هما ان يقرع جرساً صغيراً للمحافظة على النظام وان يعطي حق الكلام لطالبيه. القسم الأكبر من عمل الجلسة يتم في اجتماعات تشاور تعقدها مختلف المجموعات والأجنحة السياسية التي تصوّت في غالبية الاحيان كمجموعة ممثلة بقادتها . فتكون النتيجة انه عندما تبرز نقطة هامة جديدة ، او عند التصويت ، يأخذ المجتمعون استراحة ليتسنى لمختلف المجموعات والأجنحة السياسية ان تعقد اجتماعاتها الخاصة .

المنظمات الشعبية

١ – **السوفييت** : كلمة سوفييت تعني « مجلس » . منذ الثورة ، أصبح اسم سوفييت مرتبطا بنوع من البرلمان الذي ينتخبه أعضاء المنظمات الاقتصادية للطبقة العاملة ، كسوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين* . علاوة عن منظمات السوفييت المحلية التي تنتخب في كل مدينة وبلدة وقرية في روسيا ، وعلاوة عن سوفييت الأحياء في المدن الكبرى ، توجد سوفييت المقاطعات ، واللجنة المركزية لمنظمات السوفييت لعموم روسيا التي يطلق عليها اسم « تسايكا » ومقرّها العاصمة .

بعد ثورة آذار مباشرة، توحدت سوفييت مندوبي العمال ومجالس مندوبي الجنود في جميع أنحاء روسيا تقريباً . أما فيما يتعلق بالمصالح الخاصة لكل فريق ، فقد ظلت قطاعات العمال والجنود تجتمع على انفراد للبت فيها . ولم تنضم سوفييت مندوبي الفلاحين الى المجلسين الأخيرين الا بعد الانقلاب

* سنعتمد في هذه الترجمة كلمة « سوفييت » للاشارة الى هذا النوع من المنظمات لتمييزها عن المجالس الاخرى .

(المترجم)

البلشفي . وكانت هي كذلك منظمة على غرار تنظيم العمال والجنود ، وكانت العاصمة مقر « اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا » .

٢ ـ **النقابات** : ظل يطلق على النقابات العمالية الروسية اسم « النقابات المهنية » ، رغم غلبة الطابع الصناعي عليها . وكان عدد أعضائها يتراوح بين ثلاثة واربعة ملايين عضواً عند قيام الثورة البلشفية . وكانت هذه النقابات منضمة الى اتحاد عام لعموم روسيا ، وكانت العاصمة مقر لجنته المركزية التنفيذية .

٣ ـ **لجان المصانع والمتاجر** : هي منظمات شكلها العمال بشكل عفوي في محاولتهم السيطرة على الصناعة ، مستغلين الانهيار الاداري الذي أصاب الدولة . وكانت مهمتها العمل الثوري للسيطرة على المصانع وإدارتها . وللجان المصانع والمتاجر تنظيم لعموم روسيا ولجنته المركزية في بتروغراد تتعاون مع النقابات .

٤ ـ **مجالس الدوما** : كلمة « دوما » تعني : «هيئة استشارية » . إن مجلس الدوما الامبراطوري القديم ، الذي عايش الثورة خلال ستة أشهر بشكل ديمقراطي ، توفي وفاة طبيعية في أيلول عام ١٩١٧ . اما مجلس دوما المدنية المشار اليه في هذا الكتاب ، فهو المجلس البلدي بعد إعادة تنظيمه ، وكان يسمى ايضاً : « الحكومة الذاتية البلدية » . ينتخب بواسطة الاقتراع السري المباشر ، ويعود السبب الوحيد لفشله في السيطرة على الجماهير خلال الثورة البلشفية الى ضعف نفوذ جميع المنظمات السياسية المختصة مقابل تزايد قوة المنظمات المبنية على المجموعات الاقتصادية .

٥ – **زييمستوفا** : يمكن ترجمتها بشكل عام بـ « مجالس المقاطعات » . وهي منظمات شبه سياسية وشبه اجتماعية ذات صلاحية إدارية محدودة . نمت في ظل حكم القيصر ، وكان يسيطر عليها ، الى حد بعيد ، المثقفون

الليبراليون من أبناء الطبقات المالكة للأرض. وأهم مسؤولياتها العمل التثقيفي والخدمات الاجتماعيـة في أوساط الفلاحين . خلال الحرب ، حصرت مجالس الزيمستوفا بنفسها ، شيئاً فشيئاً ، جميع مسؤوليات تقديم الكسوة والغذاء للجيش الرومي ، ومهمات الاستيراد من الدول الأجنبية والقيام بنشاطات في أوساط الجنود تشابه النشاطات التي تقوم بها جمعية الشبان المسيحية الاميركية في الجبهة . وبعد ثورة آذار ، تم تحويل الزيمستوفا ديمقراطياً بغية جعلهـا مؤسسات للحكم الذاتي في المناطق الريفية . على أنهـا ، شأنها شأن مجالس دوما المدن ، فشلت في منافسة السوفييت .

٦ – **التعاونيات** : هي جمعيات العمال والفلاحين التعاونية التي كانت تضم بضـع مليون عضو في جميـع أنحـاء روسيا قبل الثورة . أسسها الليبراليون والاشتراكيون « المعتدلون » ، الا ان المجموعات الأكثر ثورية لم تدعمها لأنها كانت بديلاً لانتقال وسائل الانتـاج والتوزيـع كليـاً الى ايدي العمال . نمت التعاونيات نمواً سريعاً بعد ثورة آذار ، وسيطر عليها الاشتراكيون الشعبيون والمناشفة والاشتراكيون الثوريون ، ولعبت دور القوة السياسية المحافظة الى حين قيام الثورة البلشفية . ولكن التعاونيات هي التي أطعمت روسيا عندما انهار البنيان القديم للتجارة والمواصلات .

٧ – **لجان الجيش** : شكل الجنود لجان الجيش في الجبهة للنضال ضد نفوذ ضباط العهد البائد الرجعي . وكان لكل سرية وفوج وكتيبة وفرقة وجيش لجنتها ، وتشكل لجنة الجيش المنتخبة السلطة العليا . وكانت اللجنة المركزية للجيش تعمل بالتعاون مع القيادة العامة . ومع انهيـار إدارة الجيش نتيجـة الثورة، أخذت لجان الجيش على عاتقها معظم أعمال دائرة الاعاشة والتموين، حتى انها تولت قيادة الجنود في بعض الحالات .

٨ – **لجان الاسطول** : المنظمات المقابلة للجان الجيش في الأسطول .

اللجان المركزية

في ربيع وخريف ١٩١٧ ، عقدت في بتروغراد اجتماعات لمختلف انواع المنظمات لعموم روسيا، فعقدت مؤتمرات وطنية لمجالس مندوبي العمال والجنود والفلاحين ، والنقابات ولجان المصانع والمتاجر ، ولجان الجيش والاسطول ، ولجان كل فرع من فروع القطاع العسكري او البحري ، والتعاونيات ، والقوميات ، الى آخره . وانتخب كل مؤتمر من هذه المؤتمرات لجنة مركزية، او لجنة مركزية تنفيذية ، لرعاية مصالحه الخاصة في مقر الحكومة ، ومع ضعف الحكومة المؤقتة، أجبرت هذه اللجان على ان تأخذ بين أيديها سلطات إدارية متوسعة باستمرار .

١ - **اتحاد الاتحادات** : خلال ثورة ١٩٠٥ ، اسس البروفسور مليوكوف، مع غيره من الليبراليين ، اتحادات لرجال المهن الحرة من أطباء ومحامين وصيادلة وغيرهم . واجتمعت هذه في منظمة مركزية واحدة دعيت اتحاد الاتحادات . وفي عام ١٩٠٥ ، عمل اتحاد الاتحادات الى جانب الديمقراطية الثورية الا انه وقف ضد الانتفاضة البلشفية عام ١٩١٧ ووحّد جهود الموظفين الحكوميين المضربين ضد سلطة السوفييت .

٢ - **تسايكا** : هي « اللجنة المركزية التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال والجنود لعموم روسيا » . وسميت هكذا نسبة الى الأحرف الاولى من اسمها.

٣ - **تسنترفلوت**: (الاسطول المركزي) هي اللجنة المركزية للاسطول .

منظمات أخرى

الحرس الاحمر : يضم عمال المصانع المسلحين في روسيا . تشكل الحرس الأحمر للمرّة الاولى خلال ثورة ١٩٠٥ ، وعاد الى الظهور من جديد في أيام

اذار عام ١٩١٧ عندما برزت الحاجة الى حفظ الامن في المدينة . كان العمال مسلحين ، حينذاك ، وقد فشلت جميع محاولات الحكومة المؤقتة لتجريدهم من السلاح . وفي كل أزمة كبيرة من ازمات الثورة، كان الحرس الأحمر يظهر في الشوارع ، بدون تنظيم ولا تدريب كاف ، ولكنه ، مع ذلك ، مـــليء بالاندفاع الثوري .

الحرس الابيض : ويضم المتطوعين البرجوازيين . برز في آخـر مراحل الثورة للدفاع عن الملكية الخاصة ضد البلاشفة الساعين الى إلغائها . وكان قسم كبير من أعضائه من الطلاب الجامعيين .

تيخنتسي : او « الفيالق المتوحشة » في الجيش . وتضم رجـال القبائل المسلمين من أواسط آسيا الذين يدينون بالولاء الشخصي للجنرال كورنيلوف . وهم مشهورون بطاعتهم العمياء وبعنفهم الوحشي في الحرب .

فيالق الموت : او « فيـالق الصدام » . عرف « فيلق النساء » بالنسبة للعالم باسم « فيلق الموت » . ولكن كانت توجد فيالق موت أخرى مكونة من الرجال . تشكلت هذه الفيالق في صيف عـــام ١٩١٧ بأمر من كرنسكي لتقوية انضباط الجيش واستعداده للقتال بواسطة الامثولة البطوليـة . كانت فيـــالق الموت تتكون ، في معظمها ، من الشباب الوطنيين المندفعين الذين ينتمون الى الطبقات المالكة .

اتحاد الضباط : وهو منظمة كونهـا الضباط الرجعيون في الجيش للعمل السياسي ضد تزايد نفوذ لجان الجيش .

فرسان القديس جورج : كان صليب القديس جورج يمنح لكل من يقوم بعمل خارق خلال القتال . فيصبح حامله فارساً من فرسان القديس جورج . والنفوذ الأقوى داخل المنظمة لمؤيدي الفكرة العسكرية .

اتحاد الفلاحين : كان اتحاد الفلاحين عـام ١٩٠٥ منظمة فلاحية ثورية . على انه أصبح عام ١٩١٧ الممثـل السياسي للفلاحين الأوفر يسراً ، فحارب « سوفييت مندوبي الفلاحين » المتزايد قوة ، وأهدافه الثورية .

التسلسل الزمني

اعتمدت في هـذا الكتاب الروزنامة الغربية عوضاً عن الروزنامة القديمة المتأخرة ثلاثة عشر يوماً عن الأولى .

المصادر

القسم الاكبر من هـــذا الكتاب مأخوذ من ملاحظاتي الخاصة . ولكني اعتمدت كذلك على ملفّ هو مزيج من بضعة مئـات من الصحف الروسية المنوعة ، تغطي تقريباً كل يوم من الايام التي أعالجهـا ؛ وعلى ملف الصحف الانـكليزية : Russian Daily News (الاخبـــار اليومية الروسية) ؛ وعلى الصحيفتين الفرنسيتين : Journal de Russie , Entente . وقد أفادني أكثر من اي شيء آخر النشرة الصحفية Bulletin de la Presse التي تصدر يومياً عن مكتب الاستعلامات الفرنسي في بتروغراد ، والتي تنقل أخبار جميع الخطب والاحداث الهامة مع تعليقات الصحافة الروسية عليها . وبحوزتي ملف كامل تقريباً من هذه النشرة بين ربيع عام ١٩١٧ ونهاية كانون الثاني ١٩١٨ .

وقد جمعتُ ، الى جانب كل ذلك ، جميع البيانات والقرارات والبلاغات التي علّقت على جدران بتروغراد بين منتصف أيلول ١٩١٧ ونهاية كانون الثاني ١٩١٨ . هـذا بالاضافة الى جميع القرارات والأوامر الحكومية ، والنصوص الرسمية للمعاهدات السرّية التي نشرتها الحكومة ، ووثائق أخرى اكتشفت في وزارة الخارجية بعد استيلاء البلاشفة عليها .

مساق تاريخي للثورة الروسيّة

(حسب الروزنامة الروسية القديمة)

١٧٧٤

ثورة الكوزاك والفلاحين بقيادة بوغاتشيف .

١٨٢٥ كانون الأول

انتفاضة كانون الأول ضد القيصرية بقيادة الضباط الليبراليين .

١٨٤٨

كارل ماركس وفريدريك انغلز ينشران « البيان الشيوعي » ، أساس الاشتراكية الثورية أو الشيوعية .

١٨٦١

إصلاحات تمسّ الفلاحين ؛ إلغاء الرق في روسيا .

١٨٦٤

ماركس ورفاقه يؤسسون « الأممية الأولى » .

١٨٧١

ثورة عامية باريس .

١٨٨٢

بليخانوف يصدر أول منشور مدخلاً الاشتراكية الماركسية الى روسيا .

١٩٠٥

ثورة عام ١٩٠٥ في روسيا . عمال بتروغراد يشكلون أول منظمة لهم : « سوفييت مندوبي العمال » في بتروغراد ، برئاسة ليون تروتسكي.

٩ كانون الثاني : « يوم الأحد الدموي » تظاهرة عمالية سلمية في بتروغراد بقيادة الأب غابون تتوجه الى القيصر حاملة عريضة يحدد فيها العمال مشاكلهم ومطالبهم . القيصر يأمر بأطلاق النار على العمال . مئات القتلى .

١٩١٤

١ آب : بداية الحرب العالمية الاولى .
ألمانيا تعلن الحرب على روسيا .

٤ تشرين الثاني: اعتقال النواب البلاشفة في مجلس الدوما ونفيهم الى سيبيريا .

١٩١٥

نيسان : صدور الصحيفة الثورية الأممية الروسية في باريس : « ناشي سلوفا » (كلمتنا) .

أيلول : مؤتمر اشتراكي أممي في زيمروالد بسويسرا .

١٩١٦

ايار : المؤتمر الثاني للاشتراكيين الأمميين في كيينثال .

١٩١٧

٩ كانون الثاني : اجتماعات في الشوارع وإضراب عمال الطباعة في ذكرى «يوم الأحد الدموي » .

١٤ شباط : اجتماع آخر مجلس دوما .

٢٣ « : الاحتفال بيوم المرأة العالمي يطلق شرارات الثورة .

٢٤ « : اضراب ٢٠٠ الف عامل في بتروغراد .

٢٥ « : إضراب عام في بتروغراد .

٢٦ « : القيصر يحل مجلس الدوما. النواب يتفرقون ولكنهم يقررون عدم مغادرة بتروغراد .
عشرات الآلاف من العمال يملأون الشوارع .

٢٧ « : تمرّد فرق الحرس .
تكوين سوفييت مندوبي العمال .
تكوين لجنة الدوما المؤقتة .

٢٨ « : اعتقال وزراء القيصر .
اجتياح سجن « سلوزلبرغ » .
صدور أول عدد من صحيفة « ازفستيا » (الأنباء) لسان حال السوفييت .

١ آذار : صدور « الأمر رقم ١ » الى الجنود .
تكوين قطاع خاص بالجنود تابع للسوفييت .
أول اجتماع لسوفييت مدينة موسكو .

٢ « : القيصر يتنازل عن العرش لصالح الدوق الأكبر ميخائيل .
لجنة الدوما المؤقتة تعلن قيام الحكومة المؤقتة التي يدعمها السوفييت والتي يشغل فيها كرنسكي منصب وزير العدل .

٣ « : استقالة الدوق الاكبر ميخائيل .
الحكومة المؤقتة تعلن قيام الثورة الى العالم بواسطة الراديو .

٥ آذار : صدور صحيفة « برافدا » (الحقيقة)، لسان الحال المركزي لحزب البلاشفة .

٦ » : الحكومة المؤقتة تعلن العفو عن المساجين السياسيين .

٨ » : اعتقال القيصر في موغيلييف .

١٤ » : نداء السوفييت « الى شعوب العالم أجمع » معلناً السلم بدون ضمّ او تعويضات .

٢٣ » : جنازة شهداء الثورة .

٢٩ » : مؤتمر مجالس السوفييت لعموم روسيا .

٣ نيسان : وصول لينين وزينوفييف وبلاشفة آخرين من سويسرا .

٤ » : لينين يعرض « أطروحات نيسان » التي يحدّد فيها سياسة الثورة البروليتارية .

١٨ » : الاحتفال بعيد أول ايار ، العيد الاشتراكي الدولي .
ميليوكوف، وزير الخارجية ، يبعث بمذكرة الى الحلفاء واعداً باستمرار الحرب حتى النصر على أساس الشروط السابقة .

٢٠ » : تظاهرات مسلحة احتجاجاً على مذكرة ميليوكوف – « أيام نيسان » .

٢٤ » : انعقاد المؤتمر العام للحزب البلشفي .

١١ ايار : سوفييت بتروغراد يصوّت مع إنشاء حكومة ائتلافية .

٢ » : استقالة ميليوكوف .

٤ » : تروتسكي يصل من الولايات المتحدة ، ويتبنى سياسة لينين .
افتتاح المؤتمر العام لمندوبي الفلاحين في بتروغراد .

٥ ايار : تشكيل الحكومة الائتلافية . كرنسكي وزير حربية فيها .

١١٧ » : سوفييت كرونستاد يعلن نفسه السلطة الحكومية الوحيدة في كرونستاد .

٢٥ » : انعقاد المؤتمر العام للحزب الاشتراكي الثوري .

٣٠ » : أول ندوة للجان المتاجر والمصانع في بتروغراد .

٣٠ حزيران : أول مؤتمر عام للسوفييت .

١٦ » : كرنسكي يأمر الجيوش الروسية بالهجوم .

١٨ » : البلاشفة يسيطرون بشعاراتهم على مظاهرة دعا اليها المناشفة والاشتراكيون الثوريون .

١٩ حزيران : مظاهرات وطنية في شارع نيفسكي ، تحمل صور كرنسكي .

٣ — ٥ تموز : « أيام تموز » : شبه ثورة تعقبها حملة قمع ضد البلاشفة في بتروغراد .

٦ » : فشل الهجوم الذي دعا اليه كرنسكي عندما حطم الالمان الخطوط الروسية في « ترنا بول » على الجبهة الجنوبية .

٧ » : كرنسكي يشكل ويترأس حكومة اشتراكية لانقاذ الثورة .

١٢ » : إعادة عقوبة الاعدام في الجيش .

١٦ » : كورنيلوف يحل محل بروزيلوف في منصب القائد الأعلى للجيش .

٢٣ » : اعتقال تروتسكي ولوناتشارسكي . لينين يختبىء .

٢٤ » : حكومة ائتلافية جديدة يدخلها « الكاديت » ، تحلّ محلّ حكومة انقاذ الثورة .

٢٦ تموز : المؤتمر السادس للحزب البلشفي . دخول منظمة المناطق (٤٠٠٠ عامل، من قادتها تروتسكي ، يوفا ، لونا تشارسكي، انطونوف – اوفسينكو) . في الحزب البلشفي . انتخاب اللجنة المركزية التي قادت الحزب في ثورة اكتوبر .

١٢ آب : ندوة حكومية في موسكو يجابهها إضراب عام لعمال موسكو . الندوة تحيي كورنيلوف الذي يحدد سراً يوم ٢٧ آب موعداً لثورته المضادة .

١٨–٢١ آب : الألمان يخترقون الجبهة الشمالية ، يحتلون « ريغا » ويهددون بتروغراد .

٢٦ » : الحكومة تضاعف سعر الحبوب . الوزراء يستقيلون ليجعلوا كرنسكي طليق اليد في الحكم .

٢٧ » : يحاول كرنسكي خلع كورنيلوف الذي يتجاهل أوامره ويبدأ زحفه على بتروغراد . تشكيل لجنة تابعة للسوفييت للنضال ضد الثورة المضادة .

٢٧،٢٩،٣٠ » : فشل مؤامرة كورنيلوف بعد ما نسف العمال طريق تقدمه وفر جنوده .

١ ايلول : اعتقال كورنيلوف في مقره العام في « موغيلييف » . نجاح اقتراح بلشفي في سوفييت بتروغراد لأول مرة .

٤ » : الحكومة المؤقتة تطلق سراح تروتسكي بكفالة .

٥ » : نجاح اقتراح بلشفي في سوفييت موسكو .

٩ » : البلاشفة يحصلون على أغلبية ثابتة في سوفييت بتروغراد . مجلس الرئاسة الائتلافي يستقيل .

١٤ ايلول : افتتاح « الندوة الديمقراطية » في بتروغراد .

٢١ » : انتهاء جلسات « الندوة الديمقراطية » بعد ان انتخبت « مجلس الجمهورية » او الهيئة التحضيرية للبرلمان . سوفييت بتروغراد يدعو الى عقد المؤتمر العام للسوفييت في ٢٠ تشرين الاول .

٢٤ » : تشكيل آخر حكومة ائتلافية برئاسة كرنسكي .

٧ تشرين الاول: انسحاب البلاشفة من « مجلس الرئاسة » .

٩ » : سوفييت بتروغراد يصوّت مع اقتراح بتكوين « لجنة الدفاع الثورية » .

١٠ » : اللجنة المركزية لحزب البلاشفة تتبنّى اقتراح لينين الداعي الى الانتفاضة المسلحة كمهمة عاجلة .

١٣ » : سوفييت جنود بتروغراد يصوّت مع اقتراح بنقل السلطة العسكرية من القيادة العامة الى « اللجنة العسكرية الثورية ». سوفييت منطقة الشمال يدعم الدعوة الى عقد المؤتمر العام للسوفييت ، ويعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة .

١٥ » : سوفييت « كييف » يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة.

١٦ » : المؤتمر المنطقي لسوفييت الجنوب الغربي في « مينسك » يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة . اجتماع اللجنة المركزية لحزب البلاشفة يدعم اقتراح لينين حول الثورة مرة أخرى ، ضد معارضة زينوفييف وكامنييف .

١٧ » : إشاعة بأن البلاشفة يحضّرون الانتفاضة . الاشاعة لا تصدق. زينوفييف وكامنييف يهاجمان سياسة اللجنة المركزية البلشفية

الثورية في الصحافة. اللجنة المركزية التنفيذية العامة للسوفييت تعلن تأجيل موعد المؤتمر العام للسوفييت من ٢٠ تشرين الأول الى ٢٥ منه .

١٩ تشرين الاول: مؤتمر السوفييت المنطقي في « الأورال » يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة .

٢٠ « : « لجنة الدفاع الثورية » ، المسماة «اللجنة العسكرية الثورية» ، تبدأ بالتحضير للثورة .

٢٢ « : اجتماعات ضخمة في جميع أنحاء بتروغراد لمشاهدة عرض الفرق العسكرية التابعة للسوفييت .

٢٣ « : « حصن بطرس - بولس » ، آخر عقبة عسكرية هامة في بتروغراد ، ينضم الى السوفييت .

٢٤ « : الحكومة المؤقتة تصدر أوامرها باتخاذ اجراءات قانونية ضد « اللجنة العسكرية الثورية » ، ومصادرة الصحف البلشفية ، وجلب الفرق العسكرية الموالية الى العاصمة . إلا ان هذه الأوامر لم تنفذ . كرنسكي يخطب لآخر مرة أمام « مجلس الجمهورية » . الاشتراكيون الثوريون اليساريون يعلنون استعدادهم للاشتراك في « اللجنة العسكرية الثورية » .

٢٥ « : الثورة تبدأ في الساعة الثانية صباحاً . الجنود يقفلون «مجلس الجمهورية » في الساعة الثانية عشرة ظهراً . لينين يظهر علناً لأول مرة في اجتماع سوفييت بتروغراد في الساعة الثالثة بعد الظهر . العمليات العسكرية ضد مقر الحكومة المؤقتة في « قصر الشتاء » تبدأ في الساعة التاسعة مساء . المؤتمر العام

الثاني للسوفييت يعقد اول اجتماع له في « سمولني » في الساعة الحادية عشر مساء .

٢٦تشرين الاول: سقوط « قصر الشتاء » واعتقال أعضاء الحكومة المؤقتة في الساعة الثانية صباحاً .

٢٦و٢٧ « : المؤتمر العـــام للسوفييت يصدر قراراته عن السلم والأرض ، ويشكّل حكومة جديدة : مجلس مفوّضي الشعب .



١

خلفيّة

في أواخر شهر أيلول عام ١٩١٧ ، جاءني مدرّس أجنبي في علم الاجتماع كان يزور روسيا . وكان قد أخبره بعض رجال الاعمال والمثقفين ان الثورة في جزْر . فكتب الاستاذ مقالة عن الموضوع ، ثم راح يتجول في البلاد ، زائراً المدن الصناعية والمجتمعات الفلاحية حيث أدهشه ان يلاحظ ان الثورة في تقدم مضطرد . فقد ألِف المرء ان يسمع ، في أوساط المأجورين والعمال الزراعيين ، حديثاً عن « كل الاراضي للفلاحين ، وكل المصانع للعمال » . ولو ان الاستاذ زار الجبهة ، لسمع الجيش بأسره يتحدث عن السلم .

ووقع الاستاذ في حيرة،مع انه لا يوجد مبرر لهذه الحيرة، كلا الملاحظتين على صواب . الطبقات المالكة تزداد محافظة ، وجماهير الشعب تزداد جذرية في مواقفها .

كان ثمة شعور في أوساط رجال الاعمال والانتلجنسيا عامة بأن الثورة قد تعدت حدودها ، وبأنها قد طالت اكثر مما كان مقدراً لها ، وبأن الوقت قد حان لتعود الأمور الى مجراها الطبيعي. وتشاركهم في ذلك الشعور جميع الفئات الاشتراكية « المعتدلة » المسيطرة ، « المدافعون[1] » من مناشفة

(١) الهوامش موجودة في نهاية كل فصل .

واشتراكيين ثوريين ، التي تدعم حكومة كرنسكي المؤقتة .

في ١٤ تشرين الأول ، كتبت الصحيفة الناطقة بلسان الاشتراكيين « المعتدلين » :

(« ان مسرحية الثورة ذات فصلين : هدم النظام القديم وبناء النظام الجديد . لقد طال الفصل الاول . وحان وقت الانتقال الى الفصل الثاني وانهائه بأسرع وقت ممكن . فقد قال أحد الثوريين الكبار : « فلنسرع ، ايها الأصدقاء ، بإتمام الثورة . لأن الذي يجعلها تطول كثيراً لن يجني ثمارها »).

غير ان الشعور العنيد الذي كان يسود أوساط الجماهير العمالية والفلاحية هو ان « الفصل الاول » لم ينته بعد . فغالباً ما كانت « لجان الجيش » في الجبهة تسجل الشكاوى بحق الضباط الذين لم يعتادوا معاملة رجالهم كبشر ؛ وفي المؤخرة كان مندوبو « لجان الارض » ، الذين انتخبهم الفلاحون ، يزجّون في السجون لانهم يحاولون تنفيذ تشريعات الحكومة بشأن الارض ، وكان العمال في المصانع يحاربون اللوائح السوداء وإغلاق المصانع[٢] . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فالمنفيون السياسيون الذين عادوا الى بلادهم طردوا منها بحجة انهم مواطنون « غير مرغوب فيهم » وحصل في بعض الحالات ان سُجن وعُذب العائدون من الخارج الى قراهم على نشاط ثوري قاموا به عام ١٩٠٥ .

إزاء التذمر الشعبي المتعدد الجوانب ، قدّم الاشتراكيون « المعتدلون » حلاً واحداً : انتظروا « الجمعية التأسيسية » التي ستنعقد في كانون الأول . على ان الجماهير لم تكتف بذلك . الجمعية التأسيسية على الرأس والعين.ولكن ثمة أشياء محددة قامت الثورة من أجلها ، ولها أودع الشهداء الثوريون في « مقبرة الأخوة » المقفرة في « حقل آذار »، ويجب تحقيقها أوجدت الجمعية

التأسيسية أم لم توجد : السلم ، الأرض ، سيطرة العمال على الصناعة . لقد تأجلت الجمعية التأسيسية المرة تلو الأخرى ، وربما تأجلت مجدداً الى حين يهدأ الشعب – وربما حتى يعدّل مطالبه ! وعلى كل حال ، ها قد انقضت ثمانية شهور على الثورة وليس الا النزر اليسير ليشير الى انها قامت أصلاً .

خلال تلك المدة ، بدأ الجنود يحلّون مسألة السلم بالفرار من الجيش ، بكل بساطة ، وأحرق الفلاحون قصور الاقطاعيين وصادروا الملكيات الكبيرة ، وأضرب العمال وقاموا بعمليات تخريب.. وكما كان متوقعاً وطبيعياً ، استعمل الصناعيون وملاك الارض وضباط الجيش كل ما لديهم من نفوذ لكي يحولوا دون أية تسوية ديمقراطية ...

سياسة الحكومة المؤقتة تتراوح بين إصلاحات غير مجدية وبين اجراءات القمع الصارمة . فقد صدر قرار عن وزير العمل الاشتراكي يحرم فيه على « لجان العمال » الاجتماع الا بعد ساعات العمل . وفي الجبهة ، بين الجنود ، شُنت حملة اعتقالات على دعاة أحزاب المعارضة ، وأغلقت الصحف الراديكالية ، ونفذت أحكام الاعدام بحق الدعاة الثوريين . وجرت محاولات لتجريد « الحرس الأحمر » من السلاح . وأرسلت فرق القوزاق للمحافظة على الأمن في المقاطعات .

ولقد دعم الاشتراكيون « المعتدلون » وقادتهم من المتربعين على كراسي الوزارة هذه الاجراءات لاعتقادهم بضرورة التعاون مع الطبقات المالكة . فتخلى الشعب عنهم بسرعة وانضم الى البلاشفة الذين ينادون بالسلم ، والارض وسيطرة العمال في المصانع ، وبحكم الطبقة العاملة . وفي شهر ايلول عام ١٩١٧ ، تأزمت الأمور . كان كرنسكي والاشتراكيون « المعتدلون » قد نجحوا في تشكيل حكومة ائتلافية مع الطبقات المالكة ، متحدين بذلك الرأي العام في البلاد ، فخسر المناشفة والاشتراكيون الثوريون بذلك ثقة الشعب الى الأبد .

وفي منتصف شهر تشرين الاول ، نشرت صحيفة « رابوشي بوت » (طريق العمال) * مقالة بعنوان « الوزراء الاشتراكيون » ، تعبّر عن شعور جماهير الشعب تجاه الاشتراكيين « المعتدلين » :

« فيما يلي لائحة بخدماتهم[٣] :

تسيريتللي : جرّد العمال من أسلحتهم بالتعاون مع الجنرال بولوفلسيف ، واضطهد الجنود الثوريين ، وأقر عقوبة الاعدام في الجيش .

سكوبيليف : بدأ بمحاولة فرض ضريبة بنسبة ١٠٠ ٪ على ارباح الرأسماليين ، وانتهى بمحاولة حل « لجان العمال » في المصانع والمتاجر .

أفاكسانتييف : سجن مئات الفلاحين من أعضاء « لجان الارض» ، وأغلق عشرات الصحف الناطقة باسم الجنود والعمال.

تشيرنوف : وقّع على البيان « الامبراطوري » القاضي بحل « مجلس الدييت الفنلندي » .

سافينكوف : عقد تحالفاً علنياً مع الجنرال كورنيلوف . واذا كان « منقذ البلاد » هذا قد فشل في خيانته بتروغراد ، فذلك يعود الى أسباب خارجة عن إرادته .

زارودني : سجن افضل عمال وجنود وفلاحي الثورة ، حائزاً بذلك على بركة ألكزينسكي وكرنسكي .

نيكيتين : تصرّف كشرطي مبتذل مع عمال سكك الحديد .

---

* لسان حال البلاشفة .

كرنسكي : الافضل ألا نقول عنه شيئاً . ان لائحة خدماته طويلة جداً ... »

وفي مؤتمر مندوبي اسطول البلطيق المنعقد في « هلسينغفورس » ، أقرّت التوصية التي تبدأ كما يلي :

« اننا نطالب بعزل المغامر السياسي « الاشتراكي » كرنسكي من الحكومة المؤقتة فوراً لأنـــه يمتهن كرامة الثورة العظيمـة ويخربها ، ومعها الجماهير الثورية، بعملية الابتزاز السياسي الصلفة التي يقوم بها لحساب البرجوازية ... »

وكان صعود البلاشفة النتيجة المباشرة لجميع هذه الأحداث .

منذ اذار ۱۹۱۷ ، عندما تدفقت السيول الهادرة من العمال والجنود نحو « قصر التوريد » ، وأجبرت « مجلس الدومـــا الامبراطوري » المتردد على استلام السلطة العليا في روسيا ، أصبحت جماهير الشعب من عمـال وجنود وفلاحين هي التي تقرر كل خطوة من خطوات مسيرة الثورة . فأسقطت هذه الجماهير وزارة مليوكوف ؛ وكان سوفييت مندوبيها هو الذي أذاع على العـــالم شروط روسيا لتحقيق السلم : « لا دمج ، لا تعويض ، حق تقرير المصير لجميع الشعوب » ، وهكذا فان الانتفاضة العفوية التي قامت بهـــا البروليتاريا غير المنظمة ، في تموز، هي التي اجتاحت مجدداً « قصر التوريد » مطالبة بتسليم الحكم في روسيا الى السوفييت .

كان البلاشفة على رأس هـذه الحركة وهم في ذلك الحين مجموعة صغيرة . ونتيجة للفشل الذريع الذي منيت بـــه هذه الانتفاضة ، ثار الرأي العام عليهم ، وتراجعت قواهم ، التي فقدت قادتها ، الى « حي فيبورغ » المقابل في بتروغراد لحي سان انطوان الباريسي* . وعقبت ذلك حملة وحشية ضد

* منطقة البروليتاريا الصناعية في باريس ومعقل ثوراتها في عام ١٨٤٨ و١٨٧١ .

البلاشفة سجن فيها المئات ، وبينهم تروتسكي، ومدام كولانتاي، وكامنيف، واختبأ لينين وزينوفييف هرباً من وجه العدالة ، وألغيت صحفهم . وأشاع المخربون والرجعيون ان البلاشفة عمـــلاء لالمانيا حتى صدّقهم الناس في جميع أنحاء العالم .

الا ان الحكومة المؤقتة وجدت نفسها عاجزة عن اثبــات تهمها ، وتبين ان الوثائق التي تثبت وجود المؤامرة الالمانية مزورة ، فأطلق سراح البلاشفة الواحد تلو الآخر ، بدون محاكمة، بواسطة كفالة اسمية وحتى بدونها احياناً، ولم يبق منهم داخـــل السجن إلا ستة . وكان عقم الحكومة المؤقتة المتقلبة وترددها أمراً لا يستطيع أحد إنكاره . فعاد البلاشفة الى رفــع شعار عزيز جــداً على قلب الجماهير : « كل السلطات للسوفييت » ، ولم يكونوا بذلك يسعون الى الحكم لانفسهم لان غالبية منظمات السوفييت كانت آنذاك بيــد الاشتراكيين « المعتدلين » — اعدائهم الألداء .

ومما يؤكد خصب رؤياهم ، أكثر من ذلــك ، انهم تبنوا رغبات الجنود والعمال والفلاحين الخــام والبسيطة ، وبنوا على أساسها برنامجهم المرحلي . وهكذا ، في حين كان « المدافعون » من مناشفة واشتراكيين ثوريين منشغلين بمساومة البرجوازية ، كان البلاشفة يسيطرون بسرعة على الجماهير الروسية . كانوا مطاردين ومكروهين في تموز ، ولكن ما ان حل شهر ايلول حتى كانوا قد كسبوا تأييد عمال المدن ، وبحارة أسطول البلطيق، والجنود الى قضيتهم . وللانتخابات التي جرت في ايلول ، في المدن الكبيرة ، دلالة عميقة ، فقــد بلغت نسبة نجــاح المناشفة والاشتراكيين الثوريين فيها ١٨ ٪ مقابل ٧ ٪ في انتخابات حزيران (٤) .

ظاهرة حيّرت المراقبين الأجانب : «اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييت» (التسايكا) ، « واللجــان المركزية للجيش وللأسطول » ، واللجان المركزية

لبعض النقابات وخاصة عمال البرق والبريد وعمال سكك الحديد قد عارضت جميعها البلاشفة بعنف شديد. لقد تم انتخاب هذه اللجان المركزية في أواسط الصيف ، أو قبل ذلك الوقت ، عندما كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يتمتعون بشعبية ضخمة ، فأخذوا يؤجلون الانتخابات الجديدة او يمنعونها . بمقتضى دستور « سوفييت مندوبي العمال والجنود »، كان يجب دعوة « المؤتمر العام » الى الانعقاد في ايلول ، الا ان « التسايكا » امتنعت عن دعوته بحجة ان الجمعية التأسيسية ستنعقد بعـــد شهرين فقط ، وألحت الى ان السوفييت ستحل نفسها آنذاك . وفي ذلك الحين ، كان البلاشفة يفوزون في السوفييت المحلية ، الواحد تلو الآخر، من اقصى البلاد الى أقصاها ، وفي فروع النقابات، وبين الجنود والبحارة . وظلّت « سوفييت الفلاحين » ذات اتجـاه محافظ ، لان الوعي السياسي كان ينمو ببطء في المناطق الريفيـة الكسولة ، وكان الحزب الاشتراكي الثوري ما زال نافذاً، هذا الحزب الذي ظل يحرك الفلاحين طوال جيل بأكمله .. الا ان جناحاً ثورياً بدأ بالظهور بين أوساط الفلاحين . وقد حدث ذلك في تشرين الأول عندما انشق الجناح اليساري من الاشتراكيين الثوريين وشكل تنظيماً سياسياً جديـداً يسمى « الحزب الاشتراكي الثوري اليساري » .

وفي عين الوقت ، ظهرت في كل مكان ، إشارات تؤكد ان قوى الرجعية آخــذة باسترداد ثقتها بنفسها [٥] . ففي « مسرح ترويتسكي الهزلي » في بتروغراد ، مثلاً ، أوقفت مجموعة من الملكيين ملهاة تدعى « خطايا القيصر » وهددت بشنق الممثلين لانهم « أهانوا الامبراطور » . وبدأت بعض الصحف تتحسّر على « نابليون روسي » . وكان من المألوف في أوساط الانتلجنسيا البرجوازية تسمية سوفييت مندوبي العمال بسوفييت مندوبي الكلاب .

في ١٥ تشرين الأول ، أجريت مقابلة مع رأسمالي روسي كبير ، ستيفان جيورجيفيتش ليازانوف ، الملقب « روكفلر روسيا » ، والذي ينتمي سياسياً

الى حزب الكاديت .

قال : « الثورة مرض . ولا بد للقوى الأجنبية من ان تتدخل هنا ، عاجلاً ام آجلاً ، كما يتدخل الطبيب لمداواة طفل مريض وتعليمه المشي . سيكون الأمر غير لائق طبعاً ، ولكن على الشعوب ان تعي خطر البلشفية في بلادها، المتمثل بأفكار سارية مثل « دكتاتورية البروليتاريا »، و « الثورة الاجتماعية العالمية » . ثمة امل بان لا يكون هذا التدخل ضرورياً . النقل مشلول ، والمصانع مقفلة ، والالمان يتقدمون . ولعل الجوع والهزيمة يعيدان الشعب الروسي الى صوابه » .

وقد أصرّ السيد ليازانوف على رأيه بأنه من المستحيل ، مهما تكن الأحوال ، ان يسمح التجار والصناعيون بوجود « لجان العمال في المتاجر » ، او بأن يساهم العمال بادارة القطاع الصناعي .

« اما بالنسبة للبلاشفة ، فسوف يتم القضاء عليهم بإحدى طريقتين . فإما ان تخلي الحكومة بتروغراد وتعلن حالة حصار ، فيصبح بامكان الحاكم العسكري في المقاطعة ان يتدبر امر هؤلاء السادة بمعزل عن الشكليات القانونية ؛ وإما ان يتم تفريق الجمعية التأسيسية بقوة السلاح مثلاً ، اذا تبين انها تحمل اتجاهات طوباوية » ...

الشتاء الروسي الرهيب يقترب . وقد سمعت رجال الأعمال يتكلمون عنه بهذا الشكل : « لقد كان الشتاء أوفى صديق لروسيا . ولعله سيخلصنا الآن من الثورة » . الجيوش البائسة تجوع وتموت بدون حماس ، ودرجة الحرارة تهبط تحت الصفر . سكك الحديد تتوقف ، والغذاء يقلّ ، والمصانع تقفل . فصاحت الجماهير البائسة ان البرجوازية تخرّب حياة الشعب جالبة الهزيمة على الجبهة . وتم تسليم « ريغا » بعد ان صرح الجنرال كورنيلوف علناً : « هل يجب ان تذهب « ريغا » ثمن إعادة الوطن الى الشعور بالواجب ؟ » .

قد لا يصدق الاميركيون ان الحرب الطبقية قد تصل الى هذا الحد . ولكني قابلت ، شخصياً ، ضباطاً على الجبهة الشمالية يفضلون صراحة الكارثة العسكرية على التعاون مع لجان الجنود. وقال لي أمين سر فرع حزب الكاديت في بتروغراد إن انهيار الحيـاة الاقتصادية في البلد هو جزء من حملة غايتها التجريح بالثورة . وقد أكد هذا القول دبلوماسي تابع لإحدى دول الحلفاء ، وعدت ألا أنشر اسمه ، اعتماداً على معلوماته الخاصة . وسمعت عن بعض مناجم الفحم في « خاركوف » أحرقها أصحابها وأغرقوها ، وعن مصانع للنسيج في موسكو عطّل المهندسون آلاتها عندما تركوها ، وعن موظفين في سكك الحديد قبض عليهم العمال وهم يعطّلون القاطرات ...

وكان قسم كبير من الطبقات الحاكمة يفضل الالمان على الثورة – حتى على الحكومة المؤقتة – ولم يكن يتردد في الإفصاح عن رأيه هذا . ففي النزل الرومي الذي أسكن ، كان موضوع الحديث الدائم على طاولة الطعام هو مجيء الالمان حاملين « الأمن والنظام » ... وذات أمسية قضيتها في منزل تاجر روسي ، سُئل أحد عشر شخصاً ، خلال العشاء ، من الذي يفضلون « وليام – القيصر الالماني – أم البلاشفة » . وكانت نتيجة التصويت عشرة أصوات لصالح وليام مقابل صوت واحد ضده .

واستغل المضاربون الفوضى العـامة ليكدسوا الثروات التي أنفقوها على الحفلات الصاخبة او على رشوة موظفي الحكومة . وخزنت المواد الغذائية والمحروقات او جرى إرسالها خارج البلد الى السويد . ففي الأشهر الأربعة الاولى من الثورة ، مثلاً ، نُهِب المخزون من المواد الغذائية في مستودعات البلدية في بتروغراد ، بشكل شبه علني ، بحيث لم يبقَ من مؤونة سنتين من الحبوب ما يكفي لإعاشة المدينة مدة شهر واحد ... ويقول تقرير رسمي رفعه آخر وزير للتموين في الحكومة المؤقتة ان القهوة التي كانت تشترى بالجملة من « فلاديفوستوك » على أساس روبلين للبيرة الواحدة، كانت تباع للمستهلك

في بتروغراد بثلاثة عشر روبلا . جميع مخازن المدن الكبرى تعج" بأطنان الغذاء واللباس ، ولكن الأغنياء هم وحدهم الذين يستطيعون شراءها .

في بلدة ريفية ، عرفت عائلة من التجار تحولت الى المضاربة ، او الى قطاع طرق على حد تعبير الروس . الأبناء الثلاثة تخلصوا من الخدمة العسكرية بواسطة الرشوة . أحدهم يهرّب المواد الغذائية . والآخر يبيع الذهب ، في السوق السوداء،من مناجم « لينا » الى جهات مجهولة في فنلندا. بينما يملك الثالث أكبر حصة في معمل « للشوكولا » ويمّون الجمعيات التعاونية المحلية ، على شرط ان تمده هذه بدورها بكل ما يحتاجه ... وهكذا ، في حين لا يحق لجماهير الشعب أكثر من ربع ليبرة من الخبز الأسود ، حسب بطاقات تموين الخبز ، كان هو يملك فيضاً من الخبز الأبيض ، والسكر ، والشاي ، والسكاكر ، والحلوى والزبدة ... ومع ذلك ، فعندما لم يعد الجنود يستطيعون الاستمرار في القتال على الجبهة بسبب البرد والجوع والارهاق ، كانت العائلة تصيح مستنكرة : « انهم جبناء ! » – وكم كانوا خجلين لأنهم روس ... وفي النهاية عندما وجد البلاشفة مخازن تحوي إمدادات مخبأة ، وصادروها ، قالوا : « انهم لصوص » .

تحت هذا التعفن الخارجي كله ، كانت تتحرك القوى السوداء العائدة الى عهد مضى ، والتي لم تتغير منذ سقوط نقولا الثاني ، وتعمل سراً وبنشاط عظيم . عملاء « الاوخرانا * » الشهيرة ما زالوا نشيطين، يعملون لصالح الذي يدفع ، أكان مع القيصر أو ضده ، مع كرنسكي او ضده ... وتحت جنح الظلام ، كانت المنظمات السرية المختلفة ، كمنظمة « المئات السوداء* » ،

---

* منظمة الشرطة السرية القيصرية .

* الاسم الذي يطلق على « اتحاد الشعب الروسي » . وهي منظمة من العناصر الرجعية المتطرفة من ملكيين ووطنيين تستعمل وسائل الارهاب الاجرامي ضد الثوريين .

منشغلة في محاولة إعادة الرجعية بشكل او بآخر .

وفي هذا الجو الخانق من الفساد والأكاذيب الكبرى، يصدح صوت واحد هو صوت البلاشفة الذي يزداد ارتفاعاً يوماً بعد يوم : « كل السلطات للسوفييت ! الحكم لممثلي الملايين من العمال والجنود والفلاحين العاديين. الارض والخبز ونهاية الحرب التي لا معنى لها ونهاية الدبلوماسية السرية والمضاربة والخيانة ... الثورة في خطر ومعها قضية الشعب في جميع انحاء العالم » !

الصراع القائم بين البروليتاريا والطبقة الوسطى ، وبين السوفييت والحكومة ، الذي بدأ في أول أيام شهر آذار ، يبلغ ذروته . فبقفزها دفعة واحدة من القرون الوسطى الى القرن العشرين ، كانت روسيا تكشف للعالم المشدوه نظامين من أنظمة الثورة — النظام السياسي والنظام الاجتماعي — في صراع مميت بينهما .

ويا له من تعبير عن حيوية الثورة الروسية بعد كل هذه الأشهر من الجوع وخيبة الأمل . كان على البرجوازية ان تعرف روسيا معرفة أحسن . سوف يمر زمن طويل قبل ان يأخذ « مرض » الثورة مجراه ...

اذا ألقينا نظرة على روسيا ما قبل ثورة تشرين الثاني ، بدت لنا محافظة الى درجة لا تصدّق وكأنها في عصر آخر . لقد كيّفنا أنفسنا بسرعة مع الحياة الجديدة السريعة ، والسياسة تنحاز الى اليسار بحيث أصبح الكاديت منبوذين « كأعداء للشعب » ، وكرنسكي « معادياً للثورة » ، والقادة الاشتراكيون أمثال تسيويتللي ودان وليبر وغوتز وافاكستيف مغرقين في الرجعية بالنسبة لاتباعهم، واصبح امثال فكتور تشيرنوف وحتى مكسيم غوركي محسوبين على الجناح اليميني .

في أواسط كانون الأول عام ١٩١٧ ، قامت مجموعة من قادة « الاشتراكيين

الثوريين » بزيارة خاصة للسفير الانكليزي ، السير جورج بوكانان ، وتوسلت اليه ألا يذكر لأحد امر الزيارة لأنهم – اي القادة الاشتراكيون – معتبرون « يمينيين متطرفين » .

فقال السير جورج : « تصوروا . منذ سنة ، كانت حكومتي تطلب مني ألا أستقبل مليوكوف* لأنه يساري خطر جداً » !

أيلول وتشرين الأول هما أسوأ شهرين في السنة الروسية وخاصة في بتروغراد . في النهارات التي تزداد قصراً يتساقط المطر مرنخاً بلا انقطاع تحت السماء الرمادية الباهتة . الوحل عميق تحت الأقدام ، دبقاً ولزجاً ، عليه آثار أحذية ثقيلة ؛ وكان أسوأ من العادة بسبب الانهيار التام الذي أصاب الادارة البلدية . الرياح الرطبة القارسة تهب من خليج فنلندا ، والضباب البارد يتجول في الشوارع . أنوار الشوارع قليلة ومتباعدة ، في المساء ، للاقتصاد وخوفاً من مناطيد « الزبلين » ؛ وفي بنايات السكن والمنازل الخاصة ، كانت الكهرباء تشعل من السادسة مساء حتى منتصف الليل ، والشموع تباع بأربعين سنتاً لكل شمعة والمحروقات نادرة. الظلام يخيّم من الثالثة بعد الظهر حتى العاشرة صباحاً. وقد ازدادت السرقات وعمليات السطو على البيوت . فراح سكان البنايات من الرجال يتناوبون على الحراسة طوال الليل متنكبين البنادق المحشوة . وكان ذلك في ظل الحكومة المؤقتة .

وازداد الخبز ندرة اسبوعاً بعد اسبوع . وهبطت الاعاشة اليومية للخبز من ليبرة ونصف الى ليبرة واحدة ثم الى ثلاثة ارباع الليبرة ، ثم الى نصف فربع ليبرة . وفي النهاية ، مرّ اسبوع بأكمله دون خبز . وكان يحقّ للشخص الواحد ما يقارب الليبرتين من السكر شهرياً ، هذا عندما يكون السكر متوفراً ،

* مليوكوف احد قادة الكاديت — حزب البرجوازية .

ونادراً ما كان . وكان ثمن لوح الشوكولاته ، أو ثمن ليبرة من الحلوى بـــدون طعم، في اي مكان، ما بين سبعة أو عشرة روبلات، وعلى الاقل دولاراً واحداً . الحليب يكفي نصف اطفال المدينـة فقط ، ومعظم الفنادق والمنـازل لم تستلم الحليب منذ أشهر . وفي موسم الفاكهة ، كان التفـاح والإجاص يبـاع بحوالي الروبل للقطعة الواحدة عند زاوية الشارع .

ولكي يحصل المرء على الخبز والسكر والتبغ،كان عليه أن يقف في الصف ساعات طوالاً تحت المطر المنهمر. وفي طريق عودتي الى البيت من اجتماع دام طوال الليل ، كنت أرى صفاً بدأ يتكون قبل الفجر من النساء خـــاصة ، يحمل بعضهن الاطفال . لقد وصف « كارلايل » في كتابه «الثورة الفرنسية» الشعب الفرنسي بأنه يتميز عن سائر الشعوب بقدرته على الوقوف في الصف . لقد اعتادت روسيا على هذه العـــادة ابتداء من عهد « نقولا المبارك » عام ١٩١٥ ، واستمرت فيها بدون انقطاع حتى صيف عام ١٩١٧ عندما أصبحت هذه العادة جزءاً من المجرى الطبيعي للأمور . تصوروا هؤلاء الأناس المساكين الواقفين في شوارع بتروغراد المكسوة بالثلج أياماً بأكملها في الشتاء الروسي ! لقـد أنصتُ الى صفوف الخبز وسمعت نبرة التذمر المريرة الغاضبة التي كانت تنفجر ، من وقت لآخر ، وسط الجمع الروسي ذي الطيبة العجائبية .

كانت المسارح ، طبعاً ، تعمل كل ليلة بمـــا فيها ليالي الآحاد . وظهرت كارسافينا في باليه جديد في مسرح مارنيسكي ، وذهب جميـع محبي الرقص في روسيا لمشاهدتهـــا . شالابين يغني . وفي مسرح « الكسندريلسكي » كانوا يحيون إخراج ميبرهولد لمسرحية تولستوي « موت إيفان الرهيب » ؛ واذكر اني لاحظت في تلك المسرحية طالباً من « مدرسة الخدم الامبراطورية » يقف بين الفصول ، مرتدياً بزته الرسمية ، قبالة المقصورة الامبراطورية الخالية وقد نزعت عنهـــا الشارة ذات النسور . وفي « كريغوبي زيركالا » عرض فخم لمسرحية شنيتزلر : « ريجين » .

ورغم ان معرض « الهيرميتاج » وغيره ومعارض الرسم قـــد نقلت الى موسكو ، كان ثمة معارض اسبوعية للرسم . جموع المثقفات من النساء تتدفق لحضور المحاضرات عن الفن والأدب والفلسفة. وكان الموسم يتميز بنشاط بارز قام به فلاسفة اللاهوت ، في حين ملأ « جيش الإنقاذ » ، الذي سُمح به في روسيا لأول مرة ، الجدران بالاعلانات عن اجتماعات انجيليــة كانت تُضحِك المستمعين الروس وتدهشهم .

طوال تلك المدة ، كانت نوافل الحياة اليومية في المدينــة تسير بمجراها الطبيعي ، متجاهلة الثورة بقدر الإمكان . الشعراء ينظمون الأشعار ولكن ليس عن الثورة . والرسامون الواقعيون يرسمون مناظر من تاريخ روسيا في القرون الوسطى ، يرسمون كل شيء ما عدا الثورة . السيدات الشابات ينزلن العاصمة من الريف لتعلـّم اللغة الفرنسية ولتحسين أصواتهن؛ والضباط الشباب الوسيمون المرحون ، يعتمرون « البشاليك » * الحمراء الموشـّاة باللون الذهبي ويضعون سيوفهم القوقازية المنمقة ، ويتجمعون في باحات الفنادق . أمـــا السيدات اللواتي ينتمين الى القطـــاع الأدنى من البرقراطية ، فكن يتناولن الشاي معاً بعد الظهر ، تحمل كل واحدة منهن علبة السكر الصغيرة خاصتها ، المصنوعة من الذهب أو الفضة أو المرصعة بالأحجار الكريمة ، ونصف رغيف من الخبز ، ويتمنين عودة القيصر أو مجيء الألمان ، أو أي كان ليحلّ لهن مشكلة الخدم . وأذكر أن ابنة أحد أصدقائي عادت ذات بعـــد ظهر الى البيت بحالة هستيرية لأن قاطمة التذاكر في السيارة العمومية نادتهـــا « يا رفيقة » !

وحول هؤلاء جميعاً كانت روسيا تعاني آلام المخاض ، حبلى بعالم جديد . بدأ الخدم ينالون استقلالهم ، وقد كانوا في السابق يعاملون كالبهائم ويأخذون

---

* البشليك هي القبعة القوقازية .

أجوراً جد ضئيلة . كان ثمن الحذاء يزيد عن مئة روبل ، ولما كانت الأجور لا تتعدى خمسة وثلاثين روبل في الشهر ، امتنع الخدم عن الوقوف في الصف حتى لا تهترىء أحذيتهم . بل اكثر من ذلك : في روسيا الجديدة ، نال كل رجل وامرأة حق الانتخاب ، وصدرت صحف الطبقة العاملة تتكلم عن أشياء جديدة مذهلة ؛ وتأسست منظمات السوفييت ، وتكونت الاتحادات . وكوّن سائقو السيارات العمومية اتحاداً لهم ، وكانوا ممثلين في سوفييت بتروغراد. وكان مستخدمو المقاهي والفنادق منظمين ويرفضون « البقشيش » وقد علقوا على جدران المطاعم اعلانات تقول : « لا يُقبل البقشيش هنا » او « لمجرد ان الانسان مضطر الى ان يخدم على الطاولة ليحصل على لقمة العيش ، فهذا ليس مبرراً لاهانته بإعطائه البقشيش » !

وفي الجبهة ، كان الجنود يخوضون المعارك ضد ضباطهم ، وقد تعلموا الحكم الذاتي من خلال لجانهم . وفي المصانع ، كانت « لجان المصنع والمتجر » تلك المنظمات الروسية الفريدة من نوعها ، تكتسب الخبرة وتزداد قوة وتعي رسالتها التاريخية من خلال النضال ضد العهد القديم . كل روسيا تتعلم القراءة ، وتقرأ في السياسة والاقتصاد والتاريخ لأن الشعب كان متعطشاً للمعرفة . وفي كل مدينة ، وعلى طول الجبهة ، وفي معظم المدن ، كان لكل جناح سياسي صحيفة أو عدة صحف أحياناً . آلاف المنظمات توزّع مئات الآلاف من المنشورات وتغرق بها الجيوش والقرى والمصانع والشوارع . إن التعطش الى العلم ، وقد كان مكبوتاً مدة طويلة ، انفجر مع الثورة ، معبراً عن نفسه بشكل محموم . خلال الأشهر الستة الأولى ، كانت تخرج كل يوم من « مؤسسة سمولني » وحدها أطنان الورق تحملها السيارات والقطارات الى مختلف أنحاء البلاد . كانت روسيا تمتص مواد القراءة مثلما تمتص الرمال الحارة الماء ، دون أن ترتوي . ولم تكن هذه أساطير ، أو تاريخاً مشوّهاً ، أو كتابات دينية مخففة ، أو قصصاً رخيصة

مفسدة ، بل نظريات اجتماعية واقتصادية ، وفلسفة ، وأعمال تولستوي وغوغول وغوركي .

أما الكلام ، فكان « طوفان الكلام الفرنسي » — على حدّ تعبير كارلايل — يبدو الى جانبه مجرّد جدول صغير . محاضرات ، مناظرات ، خطابات في المسارح والسيرك والمدارس والنوادي وغرف اجتماع السوفييت ومقرات الاتحادات والثكنات ... واجتماعات في خنادق الجبهة ، وفي ساحات القرى،والمصانع ... ويا له من مشهد رائع أن يرى المرء عمال مصنع « بوتيلوف » الأربعين الف يتدفقون للاستماع الى أي شيء يقوله الاشتراكيون — الديمقراطيون ، أو الاشتراكيون الثوريون ، أو الفوضويون ، أو الى أي كان ، ما دام ثمة من يتكلم ! خلال أشهر ، تحولت كل زاوية شارع في بتروغراد وفي مختلف أنحاء روسيا الى منبر عام . وفي القطار أو السيارات العمومية ، كان النقاش يبدأ بشكل عفوي دائماً وفي كل مكان ..

وانعقدت المؤتمرات والمؤتمرات العامة ، مقرّبة بين أبناء القارتين ، اجتماعات للسوفييت ، والتعاونيات ، والزيمستوفا ، والقوميات ، والقسس ، والفلاحين ، والاحزاب السياسية ؛ والندوة الديمقراطية ، وندوة موسكو ، ومجلس الجمهورية الروسية . كان يوجد باستمرار ثلاثة او اربعة اجتماعات منعقدة في بتروغراد. وفي كل اجتماع، تفشل محاولات تحديد وقت للمتكلمين، ويتمتع كل شخص بكامل الحرية في التعبير عن آرائه ..

نزلنا الى جبهة الجيش الثاني عشر ، وراء « ريغا » ، حيث الرجال الأشداء الحفاة الذين أمرضهم وحل الخنادق ويأسها ؛ وعندما رأونا توجهوا الينا بوجوههم المنكمشة والجلد المزرقّ البادي من خلال ثيابهم الممزّقة ، يسألون بلهفة : « معكم اي شيء للقراءة » ؟

ورغم ان المظاهر الخارجية المرئية للتغيّر كانت عديدة : تمثال « كاترين

العظيمة » قبالة « مسرح الكسندرينسكي » يحمل علماً صغيراً أحمر في يده ، في حين ترفرف أعلام أخرى ، بهت لونها بعض الشيء ، على جميع البنايات العامة ؛ والشعارات والنسور الامبراطورية قد انتزعت او غطيت ؛ وراحت دوريات الميليشيا المكونة من المواطنين المؤدبين غير المسلّحين تجوب الشوارع عوضاً عن شرطة المدينة المتوحشة ، رغم هـذا كله ظل المرء يشاهد عدداً كبيراً من المفارقات الأليفة .

مثلاً ، كانت « لائحة الرتب » ، التي فرضها بطرس الأكبر على روسيا بيد من حديد ، مـا تزال موضع تنفيذ . فالجميع تقريباً ، ابتداء من تلميذ المدرسة، يرتدي الزي المعين له مع إشارة الامبراطور على الزر او على الكتف وحوالي الساعة الخامسة بعد الظهر ، كانت الشوارع ملأى بالكهول المرهقين الذين يرتدون الزي الرسمي ويحملون الحقائب وهم في طريقهم من الوزارات او المؤسسات الحكومية الضخمة الشبيهة بالثكنات الى منازلهم ، يحسبون عدد الذين يجب ان يموتوا من رؤسائهم لكي تـتم ترقيتهم الى منصب مفتش ضرائب او مستشار خاص ، ويحلمون بالإحـالة الى التقاعد بتعويض مريح ، وربما بنيل « صليب القديسة حنة » .

ويحكى عن سوكولوف ، عضو مجلس الشيوخ ، الذي جاء ذات يوم من أيام الثورة العصيبة الى اجتماع مجلس الشيوخ مرتدياً ثيابه المدنية العادية ، فمنع من الدخول لأنـه لا يرتدي الزي المعين له بوصفه أحـد الذين يعملون في خدمة القيصر !

أمام هذه الخلفية لأمة بكاملها في حالة غليان وتفكك ، حدثت انتفاضة الجماهير الروسية ...

هوامش

(الفصل الأول)

١ ـ **المدافعون** : جميع المجموعات الاشتراكية « المعتدلة » تبنّت، أو أطلق عليها ، هذا الاسم ، لأنها وافقت على استمرار الحرب بقيادة الحلفاء على أساس أنها حرب دفاع وطني . كان البلاشفة ، والاشتراكيون الثوريون اليساريون ، والمناشفة الأمميون (جناح مارتوف) ، والاشتراكيون ـ الديمقراطيون الأمميون (جماعة غوركي) يؤيدون إجبار الحلفاء على إعلان أهداف ديمقراطية للحرب ، وعرض الصلح على ألمانيا على هذا الأساس .

٢ ـ الأجور وأكلاف المعيشة قبل الثورة وبعدها

الجداول التالية عن الأجور والأكلاف جمعتها ، في تشرين الأول ١٩١٧ ، لجنة مشتركة من غرفة التجارة في موسكو وفرع موسكو في وزارة العمل ، ونشرت في « الحياة الجديدة » (نوفايا جيزن) في ٢٥ تشرين الأول ١٩١٧ .

الأجور اليومية (روبل وكوبك)

الصنعة	تموز ١٩١٤	تموز ١٩١٦	آب ١٩١٧
نجّار	١،٦٠ — ٢	٤ — ٦	٨،٥٠
فاعل	١،٣٠ — ١،٥٠	٣ — ٣،٥٠	—
معلم عمار	١،٧٠ — ٢،٣٥	٤ — ٦	٨
دهّان ، منجّد	١،٨٠ — ٢،٢٠	٣ — ٥،٥٠	٨
حداد	١ — ٢،٢٥	٤ — ٥	٨،٥٠
منظف مداخن	١،٥٠ — ٢	٤ — ٥،٥٠	٧،٥٠
مصلّح أقفال	٠،٩٠ — ٢	٣،٥٠ — ٦	٩
مساعد	١ — ١،٥٠	٢،٥٠ — ٤،٥٠	٨

بالرغم من الروايات العديدة عن الزيادات الضخمة في الأجور التي عبقت ثورة آذار ١٩١٧ مباشرة ، فإن هذه الأرقام التي نشرتها وزارة العمل على أنها تلخص الظروف في جميع أنحاء روسيا ، تبيّن أن الأجور لم ترتفع رأساً بعد الثورة وإنما تدريجياً . وكان معدّل زيادة الأجور يزيد قليلاً عن ٥٠٠٪ .

ولكن قيمة الروبل هبطت في الوقت ذاته الى أقل من ثلث قوته الشرائية السابقة ، وازدادت تكاليف ضروريات الحياة بشكل ضخم .

الجدول التالي أعدّه مجلس موسكو البلدي ، حيث الغذاء أرخص وأكثر وفرة من بتروغراد :

سعر المواد الغذائية (روبل وكوبك)

	آب ١٩١٤	آب ١٩١٧	نسبة الزيادة المئوية
خبز اسود	٠,٠٢ ١/٢	٠,١٢	٣٣٠
خبز ابيض	٠,٠٥	٠,٢٠	٣٠٠
لحم بقر	٠,٢٢	١,١٠	٤٠٠
لحم عجل	٠,٢٦	٢,١٥	٧٢٧
لحم خنزير	٠,٢٣	٢	٧٧٠
سمك	٠,٠٦	٠,٥٢	٧٦٧
جبنة	٠,٤٠	٣,٥٠	٧٥٤
زبدة	٠,٤٨	٣,٢٠	٥٥٧
بيض	٠,٣٠	١,٦٠	٤٤٣
حليب	٠,٠٧	٠,٤٠	٤٧١

وقد ارتفع سعر المواد الغذائية بمعدّل ٥٦٦ ٪ ، أو ٥١ ٪ أكثر من الأجور .

أما بالنسبة للحاجيات الضرورية ، فإن سعرها ارتفع بشكل ضخم .

أعدّ الجدول التالي القسم الاقتصادي التابع لسوفييت مندوبي العمال من موسكو ، ووافقت على صحته وزارة التموين في الحكومة المؤقتة .

سعر الحاجيات الضرورية الأخرى (روبل وكوبك)

	آب ١٩١٤	آب ١٩١٧	نسبة الزيادة المئوية
كاليكو	٠٫١١	١٫٤٠	١١٧٣
نسيج قطني	٠٫١٥	٢	١٢٣٣
نسيج للثياب	٢	٤٠	١٩٠٠
قماش كاستور	٦	٨٠	١٢٣٣
أحذية رجالية	١٢	١٤٤	١٠٩٧
نعل جلد	٢٠	٤٠٠	١٩٠٠
نعل كاوتشوك	٢٫٥٠	١٥	٥٠٠
ثياب رجالية	٤٠	٤٠٠ — ٤٥٥	٩٠٠ — ١١٠٩
شاي	٤٫٥٠	١٨	٣٠٠
عود كبريت (العلبة)	٠٫١٠	٠٫٥٠	٤٠٠
صابون	٤٫٥٠	٤٠	٧٨٠
كاز	١٫٧٠	١١	٥٤٧
شمع	٨٫٥٠	١٠٠	١٠٧٦
كاراميل	٠٫٣٠	٤٫٥٠	١٤٠٠
حطب	١٠	١٢٠	١١٠٠
فحم	٠٫٠٨	١٣	١٥٢٥
أوعية حديدية متفرقة	١	٢٠	١٩٠٠

إن أسعار مجموعات الحاجيات الضرورية المذكورة أعلاه قد ارتفعت بمعدّل ١١٠٩٪ ، أي ضعف زيادة الأجور . وقد ذهب الفرق ، طبعاً ، الى جيوب المضاربين والتجار .

في تشرين الأول عام ١٩١٧ ، عندما وصلت الى بتروغراد ، كان معدل الأجر اليومي لعامل صناعي ماهر – مثلاً عامل صلب في مصانع بوتيلوف – يبلغ حوالي ٨ روبل . وفي الوقت ذاته ، كانت الأرباح هائلة ... وقال لي أحد أصحاب الشركة الانكليزية « مصنع ثورنتون للأصواف » في ضواحي بتروغراد أنه بينما ازدادت الأجور بحوالي ٣٠٠٪ في مصنعه ، ارتفعت أرباحه الى ٩٠٠٪ .

٣ - الوزراء الاشتراكيون : إن تاريخ جمهور الاشتراكيين في حكومة تموز المؤقتة لتحقيق برنامجهم بالتحالف مع الوزراء البرجوازيين ، هو مثال مفيد عن الصراع الطبقي في السياسة . يقول لينين في تفسيره لهذه الظاهرة :

« إن الرأسماليين ... وقد وجدوا أن مركز الحكومة موشك على الانهيار ، لجأوا الى أسلوب استعمله الرأسماليون منذ ١٨٤٨ لعدة عقود من الزمن لكي يضللوا ويقسّموا الطبقة العاملة وبالتالي ينتصروا عليها . هذا الأسلوب هو ما يسمى « الوزارة الائتلافية » التي تضم البرجوازيين والمرتدّين من المعسكر الاشتراكي .

في تلك البلدان حيث تعيش الحرية السياسية والديمقراطية جنباً الى جنب مع حركة العمال الثورية – في انكلترا وفرنسا مثلاً – إستعمل الرأسماليون هذه الخديعة وقد نجحوا فيها نجاحاً ملحوظاً . إن القادة « الاشتراكيين » عند دخولهم الوزارات ، يكشفون، في جميع الحالات، عن كونهم مجرد واجهات ، لعب ، مجرد درع للرأسماليين ، وأداة لخدع العمال . إن الرأسماليين « الديمقراطيين » و « الجمهوريين » في روسيا حركوا هذا النهج نفسه . وقد وقع الاشتراكيون الثوريون والمناشفة ضحية له ،

وفي ١ حزيران ، تكوّنت وزارة « ائتلافية » اشترك فيهـا تشـيرنوف ، وتسيريتللي ، وسكوبيليف ، وافاكسانتييف ، وسافينكوف ، وزارودني ، ونيكيتين ... »

(لينين ، « قضايا الثورة »)

٤ ـ انتخابات أيلول البلدية في موسكو : في أول أسبوع من تشرين الاول ١٩١٧ ، نشرت صحيفة « الحياة الجديدة » الجدول الذي يحوي مقـارنة لنتائج الانتخابات ، مبيّنة ان هذا يعني افلاس سياسة التحالف مع الطبقات المالكة : « اذا كان ما يزال بالامكان تفادي الحرب الأهلية ، فهذا يمكن أن يتم فقط بواسطة جبهة موحدة تضم جميع القوى الديمقراطية الثورية ... »

انتخابات مجالس الأحياء والمجلس المركزي في موسكو

	حزيران ١٩١٧	أيلول ١٩١٧
الاشتراكيون الثوريون	٥٨ عضو	١٤ عضو
الكاديت	١٧ »	٣٠ »
المناشفة	١٢ »	٤ »
البلاشفة	١١ »	٤٧ »

٥ ـ تزايد صلافة الرجعيين : ١٨ ايـلول . يقول شولفين ، عضو حزب الكاديت ، في مقالة له في احدى صحف « كييف » ان تصريح الحكومة

المؤقتة بأن روسيا جمهورية يشكل تجاوزاً كبيراً على صلاحياتها : « إننا لن نسمح بجمهورية ولا بالحكومة الجمهورية الحالية .. ولسنا أكيدين من أننا نريد جمهورية في روسيا » .

٢٣ تشرين الأول : في اجتماع لحزب الكاديت عقد في « ريازان » ، صرح السيد دوكونيين : « يجب ان ننشيء ملكية دستورية في أول آذار. لا يجوز أن نرفض الوريث الشرعي للعرش ، ميخائيل الكسندروفيلتش ... »

٢٧ تشرين الأول : القرار الذي صدر عن « ندوة رجال الأعمال » في موسكو :

« إن الندوة ... تصر على أن تتخذ الحكومة المؤقتة الاجراءات الحالية في الجيش :

١ – حظر جميع أنواع الدعاية السياسية ؛ يجب أن يظل الجيش بمعزل عن السياسة .

٢ – إن الدعاية المضادة للقومية والأفكار والنظريات الأممية تنكر ضرورة الجيوش وتسيء الى الانضباط ؛ لذا يجب منعها ومعاقبة جميع دعاتها ...

٣ – يجب حصر وظيفة لجان الجيش بالقضايا الاقتصادية فقط . ويجب أن تنال جميع قراراتها موافقة الضباط الرؤساء الذين يتمتعون بحق حل هذه اللجان في أي وقت ...

٤ – يجب إعادة التحية وجعلها إجبارية . يجب إعادة السلطة التأديبية كاملة الى الضباط مع حق مراجعة العقوبة ...

٥ – يطرد من سلك الضباط الذين يسيئون اليه باشتراكهم في

حركة جماهير الجنود التي تعلمهم عصيان الأوامر ... إعادة تكوين « محاكم الشرف » لهذه الغاية ...

٦ - يجب على الحكومة المؤقتة أن تتخذ الاجراءات اللازمة لتمكين الجنرالات والضباط الآخرين، الذين سرّحوا ظلماً تحت تأثير اللجان أو المنظمات غير المسئولة الأخرى، من العودة الى الجيش ... »



٢

العاصفة المقتربة

في أيلول، هجم الجنرال كورنيلوف على بتروغراد لينصب نفسه دكتاتوراً عسكرياً على روسيا. وفجأة، لاحت وراءه قبضة البرجوازية، مزرّدة، تحاول سحق الثورة بصلافة. كان لبعض الوزراء الاشتراكيين علاقة بالمؤامرة وحتى كرنسكي نفسه كان موضع شبهة [1]. وعندما دعي سافينكوف للمثول امـــام اللجنة المركزية لحزبه – الاشتراكيون الثوريون – رفض، ففصل. وقبضت لجان الجنود على كورنيلوف وجرت عملية تسريح جنرالات وتجريد الوزراء من مناصبهم، وسقطت الحكومة.

وحاول كرنسكي تشكيل وزارة جديدة تضم الكاديت، حزب البرجوازية فأمره حزبه – الاشتراكيون الثوريون – بطرد الكاديت. فلم يذعن، وهدد بالاستقالة من الحكومة إذا مـــا اصر الاشتراكيون. ومهما يكن من أمر، فالشعور الشعبي كان مضطرماً بحيث لم يتجرأ كرنسكي على معارضة في ذلـك الوقت، فأعطيت السلطة الى مديرية مكونة من خمسة وزراء سابقين برئاسة كرنسكي الى حين يتم البت نهائياً بالأمر.

لقد وحدت مؤامرة كورنيلوف صفوف جميع المجموعات الاشتراكية – «معتدلين» وثوريين على حد سواء – في غريزة دفاع عن النفس قوية. يجب

الحيلولة دون مجيء كورنيلوف آخر . ويجب تكوين حكومة جديدة مسئولة امام العناصر التي تؤيد الثورة . لهذا السبب ، وجهت « التسايكا » دعوة الى المنظمات الشعبية لارسال مندوبين عنها الى « الندوة الديمقراطية » التي تقرّر عقدها في بتروغراد في شهر ايلول .

وبرزت حالاً ثلاثة أجنحة داخل « التسايكا » . طالب البلاشفة بدعوة « المؤتمر العام للسوفييت » الى الانعقاد . وانضم الجناح « الوسطي » من الاشتراكيين الثوريين بقيادة تشيرنوف الى الاشتراكيين الثوريين اليساريين بقيادة كامكوف وسبيريدونوفا، والى المناشفة الأمميين الذين يمثلهم بوغدانوف وسكوبيليف في المطالبة بتشكيل حكومة اشتراكية صرفة . أما تسيريتللي ودان وليبر ، قادة الجناح اليميني من المناشفة ، والاشتراكيون الثوريون اليمينيون ، بقيادة أفاكسانتييف وغوتز ، فقد أصروا على اشتراك الطبقات المالكة في الحكومة الجديدة .

بسرعة حاز البلاشفة على الأكثرية في سوفييت بتروغراد ، وسرعان ما لحقت به مجالس السوفييت في موسكو وكييف وأوديسا والمدن الأخرى .

واكتشف الاشتراكيون الثوريون ، الذين يسيطرون على « التسايكا » ، بذعر ، انهم اصبحوا يخافون خطر كورنيلوف أقل مما يخافون خطر لينين . فعدلوا خطة التمثيل في « الندوة الديمقراطية » (٢) ، مدخلين اليها عدداً اكبر من مندوبي الجمعيات التعاونية والهيئات المحافظة الأخرى . وحتى هذا الاجتماع المزوّر صوّت ، في باديء الأمر ، الى جانب حكومة ائتلافية بدون الكاديت . ولكن تهديد كرنسكي العلني بالاستقالة وصيحات الذعر التي أطلقها الاشتراكيون « المعتدلون » ان « الجمهورية في خطر » هي وحدها التي اقنعت الندوة بأن تعلن ، بأغلبية ضئيلة ، تأييدها لمبدأ التحالف مع البرجوازية ، وان توافق على انشاء نوع من البرلمان الاستشاري ، لا يتمتع بأية سلطة

تشريعية ، وعي « المجلس المؤقت للجمهورية الروسية » . وقـــد سيطرت الطبقات المالكة عملياً عـلى الوزارة الجديدة ، واحتلت في مجلس الجمهورية الروسية عدداً من المقاعد أكثر مما يحق لها .

والواقع ان « التسايكا » لم تعد تمثل قاعدة السوفييت، وكانت قد رفضت، بطريقة غير شرعية ، ان تدعو الى عقد مؤتمر عام جديد للسوفييت ، الذي كان مفروضاً ان ينعقد في ايلول . فـلم يكن في نيتها دعوة المؤتمر أو السماح بدعوته للانعقاد . وبـدأ لسان حالها الرسمي ، « إزفستيا » (الانباء) ، بالتلميح الى ان وظيفة السوفييت قد قاربت نهايتها [٣] ، وانه ربمـــا جرى حلها قريباً . وفي ذلـك الحين ، أعلنت الحكومة كذلك عزمها على تصفية « المؤسسات غير المسئولة » — اي مجالس السوفييت .

فردّ البلاشفة بدعوة « المؤتمر العام للسوفييت » الى الانعقاد في بتروغراد في ٢ تشرين الثاني واستلام الحكم في روسيا . وانسحبوا في عين الوقت مـن مجلس الجمهورية الروسية ، معلنين رفضهم الاشتراك في « حكومة خيانـــة الشعب » [٤] .

إلا أن انسحاب البلاشفة لم يجلب الأمان للمجلس السيء الطالع . فقـد أصبحت الطبقات المالكة متعجرفة ، الآن وقد اضحى أعضاؤها في مراكز السلطة . فأعلن الكاديت انه لا يحق للحكومة ، شرعياً ، ان تعلن الجمهورية في روسيا . وطالبوا باتخـــاذ اجراءات حازمة في الجيش والبحرية لتحطيم لجان الجنود والبحارة ، وهاجموا السوفييت . وفي الطرف الثاني من القاعة ، كان المناشفة الامميون والاشتراكيون الثوريون اليساريون يطالبون بالسلم فوراً وبالأرض للفلاحين ، وبسيطرة العمال عـــلى الصناعة — اي البرنامج البلشفي تقريباً .

سمعتُ خطاب مارتوف رداً على الكاديت . كان هذا الرجل المشرف على

الموت منحنياً فوق المنبر ، يتكلم بصوت أبحّ لا يكاد يسمع ، ويهزّ بإصبعه مشيراً الى مقاعد اليمين .

« تنعتوننا بالانهزاميـــة . إن الانهزاميين الحقيقيين هم الذين ينتظرون فرصة أفضل ليعقـدوا الصلح ، ويصرّون على تأجيل السلم الى وقت لاحـق حتى لا يتبقى شيء من الجيش الروسي ، وحتى تصبـح روسيا موضـع مساومـــة الأطراف الاستعمارية المختلفة ... إنكم تحاولون فرض سياسة تمليهـا مصالح البرجوازية على الشعب الروسي . يجب إثارة موضوع السلم بدون تأخير ... وسوف ترون أن نشاط جماعة « زيمروالد » الذين تتهمونهم بأنهم عملاء لألمانيا لم يكن عبثاً ، فهؤلاء هم الذين مهّدوا ليقظة الوعي عند الجماهير الديمقراطية في كل البلاد » .

كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يتأرجحون بين هاتين المجموعتين ، يجذبهم الى اليسار ضغط لا يقاوم هو تذمر الجمـــاهير المتزايد . وكان العداء المستشري يفصل القاعة الى جماعات لا يمكن أن تتعايش فيما بينها .

هكذا كان الوضع عندما أعلن عن عقد ندوة الحلفاء في باريس ، وكانت موضع انتظار منذ مدّة ، فأثارت مسألة السياسة الخارجية بإلحاح .

نظرياً ، كانت جميع الأحزاب السياسية في روسيا تؤيد سلمـــاً عاجلاً قدر الامكان وفق شروط ديمقراطية . ومنـــذ أيار ١٩١٧ ، أعلن سوفييت بتروغراد ، الذي كان تحت سيطرة المناشفة والاشتراكيين الثوريين آنذاك ، شروط السلم الروسية الشهيرة مطالبـاً الحلفاء عقد ندوة لمناقشة أهـــداف الحرب . وكان المفروض أن تعقد النـدوة في آب ، ثم تأجلت الى أيلول ، فإلى تشرين الأول ، حتى حدّد موعد انعقادها في ١٠ تشرين الثاني .

اقترحت الحكومة المؤقتة أن يمثلها : الجنرال الكسييف ، وهو عسكري رجعي ، وتيريشنكو ، وزير الخارجية ، واختــارت السوفييت سكوبيليف متكلماً باسمها وأصدرت بيانهــا الشهير : « التعليمات » (ناكاز[٥]) . وقــد اعترضت الحكومة المؤقتة على سكوبيليف وعلى « التعليمات » وحذا حذوها سفراء الحلفاء ، وأخيراً أعلن بونارلو ببرودة رداً على سؤال وجّه اليــه في مجلس العموم البريطاني : « لن تناقش ندوة باريس ، على حدّ علمي ، أهداف الحرب مطلقاً ، وانما ستناقش أساليب خوض الحرب فحسب » ...

وقد شعرت الصحافة الروسية الرجعية بنشوة النصر لهذا القول،بينما صاح البلاشفة : « أنظروا الى أين جرّت أساليب المساومة المناشفة والاشتراكيين الثوريين » !

على طول ألف ميل منَ خط الجبهة ، هــاج كالبحر ملايين الرجال في الجيوش الروسية لافظين الى العاصمة الآلاف ثم الآلاف من الوفود التي تصيح: « السلم ! السلم ! » .

ذهبتُ الى « السيرك العصري » على ضفة النهر الأخرى ، الى إحــدى الاجتماعات الشعبية الكبيرة التي تعقد في جميع أنحاء المدينــة ، والتي تتزايد ليلة بعد ليلة . كان المدرّج العــاري المظلم ، الذي تضيئــه خمسة أنوار صغيرة تتدلى من سلك رفيع ، مكتظاً من الحلبــة صعوداً الى السقف نفسه ، وعلى المنحدر السريع من المقــاعد الوسخــة كان يجلس الجنود والبحارة والعمال والنساء جميعهم منصتون فكأن حياتهم متعلقة بما يقال . جنــدي يتكلم عن الفرقة رقم ٥٤٨ ، وليس مهماً أن نعلم مــا هي وأين هي . فصاح والقلق الحقيقي يبدو على وجهه المستطيل وحركاته اليائسة :

« يا رفاق . الناس فوق يطلبون منّا دائماً ان نضحي أكثر وأكثر في حين نجد أن الذين يملكون كل شيء لا يمسّهم أحد .

نحن في حالة حرب مع ألمانيا . هل ندعو الضباط الألمان ليخدموا في قيادة الأركان عندنا ؟ حسناً . نحن في حالة حرب مع الرأسماليين كذلك ، ومع ذلك فنحن ندعوهم للاشتراك في حكومتنا ...

الجندي يقول : أرني ما الذي أقاتل من أجله . أمن أجل القسطنطينية أم من أجل تحرير روسيا ؟ أمن أجل الديمقراطية أم من أجل الرأسماليين اللصوص ؟ اذا استطعتم أن تقنعوني بأني أدافع عن الثورة ، فإني سأخرج وأقاتل دون حاجة الى عقوبة الإعدام لإجباري على ذلك .

عندما تصبح الأرض للفلاحين ، والمصانع للعمال ، والسلطة للسوفييت ، إذ ذاك نعرف من أجل ماذا نقاتل ، وسوف نقاتل من أجله » !

في الثكنات والمصانع وعند زوايا الشوارع متحدثون من الجنود لا حصر لهم ، وجميعهم يضجّ مطالباً بإنهاء الحرب ، معلنا أنه إذا لم تبذل الحكومة جهداً حيوياً لتحقيق السلم ، فإن الجيش سوف يغادر الخنادق ويذهب كل الى بيته .

قال متحدث باسم الجيش الثامن :

« نحن ضعفاء ، لم يبق منا إلا بضع رجال في كل سرية يجب أن يعطونا غذاء وأحذية وإمدادات ، وإلا لن يبقى إلا الخنادق الخاوية . إما السلم وإما الإمدادات ... إما أن تنهي الحكومة الحرب وإما أن تساعد الجيش » ...

وقال متحدث باسم المدفعية رقم ٤٦ في سيبيريا :

« الضباط يرفضون التعاون مع لجاننا ، إنهم يخونوننا للعدو ، ويطبقون بحق دعاتنا عقوبة الإعدام ، والحكومة المضادة للثورة تدعمهم . كنا نظن أن الثورة ستحقق السلم . أمـا الآن ، فإن الحكومـة تذهب الى حدّ منعنـا من التحدث عن مثل هـذه الأمور ، وتضنّ علينا ، في الوقت ذاته ، بالغذاء الكافي للبقـاء على قيد الحياة ، وبالذخيرة الكافية للاستمرار في القتال » ...

ووردت من أوروبا شائعات عن تحقيق السلم على حسـاب روسيا (٦) . وكذلك وردت أخبار عن سوء معاملة الجنود الروس في فرنسا فزادت حدة التذمر الموجود . فقد حاولت الكتيبة الأولى أن تستبدل ضباطها بلجان جنود ، مثلمـا فعلت زميلاتها في روسيا ، ورفضت أمراً بالتوجـه الى « سالونيكا » ، مطالبة بالعودة الى روسيا . فجرى تطويقها وتجويعهـا ، ثم أطلقت المدفعية النار عليها ، فقتل العديد من جنودها ...

في ٢٩ تشرين الأول ، ذهبتُ الى الباحة الحمراء ذات الرخام الأبيض في قصر « مارينسكي » حيث يجتمع مجلس الجمهورية، لأستمع الى بيان تيريشنكو عن سياسة الحكومة الخارجية ، الذي كان هذا البلد المنهك المتعطش للسلم ينتظره بفارغ الصبر .

شاب طويل أنيق الملبس ، ذو وجه حليق وعظام خـد عالية ، يقرأ بسلاسة خطابه الحذر الغامض . لا شيء...العبارات الفارغة نفسها عن سحق العسكرية الالمانية بمساعدة الحلفاء ، كلام عن « مصـالح الدولة الروسية » وعن « الإحراج » الذي أحدثته « تعليمات » سكوبيليف ، خاتماً بيانه بهذه الجملة الرئيسية :

« إن روسيا قوة كبرى . وسوف تبقى روسيا قوة كبرى مهما حصل . يجب أن ندافع عنها . يجب أن نثبت أننـا حماة

مثال عظيم . وأننا أبناء قوة كبرى » .

لم يكن أحد راضياً . الرجعيون يطالبون بسياسة استعمارية « قوية » ، والأحزاب الديمقراطية تريد تأكيداً بأن الحكومة ستصرّ على تحقيق السلم... فيما يلي افتتاحية صحيفة « رابوتشي إي سولدات » (العامل والجندي) لسان حال سوفييت بتروغراد الذي يسيطر عليه البلاشفة :

« جواب الحكومة الى الخنادق

إن السيد تريشنكو ، أكثر وزرائنا صمتاً ، قال للخنادق فعلياً ما يلي :

١ - إننا متحدون مع حلفائنا (مع حكوماتهم وليس مع شعوبهم) .

٢ - لا حاجة للقوى الديمقراطية أن تناقش إمكان أو استحالة شن حملة شتوية . هذا ما ستقرره حكومات حلفائنا .

٣ - إن هجوم الأول من تموز كان ضرورياً وقد نجح نجاحاً تاماً . (لم يذكر شيئاً عن النتائج) .

٤ - ليس صحيحاً أن حلفاءنا لا يهتمون بنا. في حوزة الوزير بلاغات جد هامة حول الموضوع (بلاغات ؟ ماذا عن الأعمال ؟ ماذا عن تصرف الاسطول البريطاني ؟ ماذا عن اجتماع ملك انكلترا بالجنرال المنفي « غوركو » المعادي للثورة ؟ لم يذكر الوزير أياً من هذه الأمور) .

٥ - إن « تعليمات» سكوبيليف سيئة، وهي لم ترق للحلفاء،

ولا للدبلوماسيين الروس . يجب أن نتكلم جميعاً « لغة واحدة » في ندوة الحلفاء .

أهذا كل ما في الأمر ؟ نعم . وما المخرج ؟ الحل هو الإيمان بالحلفاء وبتريشنكو . ومتى يتحقق السلم ؟ عندما يسمح الحلفاء .

هكذا كان جواب الحكومة للخنادق حول السلم ! »

الآن بـدأ يظهر في مؤخرة السياسة الروسية الغـامضة قوة رهيبة — القوزاق . إن صحيفة غوركي « الحياة الجديدة » لفتت الأنظار الى نشاطهم:

« عند بداية الثورة ، رفض القوزاق أن يطلقوا الرصاص على الشعب ؛ وعندما هجم كورنيلوف على بتروغراد ، رفضوا السير معه . لقد انتقل القوزاق من الولاء المستكين للثورة الى الهجوم السياسي المتحرك ضدها . وتقدموا فجـأة من مؤخرة الثورة الى مقدمة المسرح ... »

كانت الحكومة المؤقتة قـد سرّحت خالدين — « اتامان » القوزاق في منطقة « الدون » لتواطئه في مؤامرة كورنيلوف . فرفض الاستقالة بكل وقاحة ، وأحـاط نفسه بثلاثة جيوش ضخمـة من القوزاق وتمركز في « نوفوتشيركاسك » يتآمر ويتوعّد . وكانت قوته من الضخامة بحيث أجبرت الحكومة على غضّ النظر عن عصيانه . بل أكثر من ذلك ، فقد اضطرت الى الاعتراف رسمياً « بمجلس اتحاد جيوش القوزاق » ، والى اعـلان لا شرعية « قطاع القوزاق التابع للسوفييت » الذي تشكل حديثاً ...

وفي اوائـل شهر تشرين الاول . جاء وفـد من القوزاق الى كرنسكي ، مصراً ، بغطرسة ، على إلغاء جميع الاتهامات الموجهة ضد خالدين ، لائماً رئيس الوزراء على انصياعه لارادة السوفييت . فوافق كرنسكي على ان يترك خالدين

وشأنه ، ويروى انه قال : « انا مستبد طاغية في نظر قادة السوفييت ، اما بالنسبة للحكومة المؤقتة ، فانها لا تعتمد على السوفييت وهي تعتقد انـه من المؤسف ان تكون السوفييت موجودة أصلاً » .

في عين الوقت ، قـام وفـد آخر من القوزاق بزيارة السفير البريطاني ، وواجهه بصراحة بصفته ممثل « شعب القوزاق المستقل » .

وأنشئت في منطقة « الدون » ما يشبه جمهورية القوزاق. واعلنت منطقة « كوبك » نفسها دولة قوزاق مستقلة . وقـام القوزاق المسلحون بتفريق اجتماع سوفييت « روستو — على — الدون » « وبيكاته يبرغ »؛ وهوجم المقر العام لاتحاد عمال مناجم الفحم في « خاركوف » . كانت حركة القوزاق ، بجميع اوجهها ، عسكرية ومعادية للاشتراكية . وكان قادتهـا من النبلاء ومـلاك الأرض الكبار أمثال خالدين وكورنيلوف والجنرالات دوتوف ، وكارولوف ، ومارديجي الذين يحظون بتأييد التجـار الكبار وأصحاب المصارف في موسكو ...

كانت روسيا القديمة تنهار بسرعة. واخذت الحركات القومية في اوكرانيا وفنلندا وبولونيا وروسيا البيضاء تستجمع قواها وتزداد إقداماً . وطالبت الحكومات المحلية ، التي تسيطر عليها الطبقات المالكة ، بالحكم الذاتي رافضة الانصياع لأوامر بتروغراد . وفي « هلسينغفورس » ، رفض مجلس الشيوخ الفنلندي إعطاء قرض للحكومة المؤقتة ، واعلن الحكم الذاتي في فنلندا ، وطالب بانسحاب القوات الروسية . وفي « كييف » ، وسع مجلس « الرادا » البرجوازي حدود اوكرانيا حـتى شملت كل الاراضي الزراعية الخصبة في جنوب روسيا الى جبال « الاورال » شرقاً ؛ وبدأ بتكوين جيش وطني . وألح رئيس الوزراء فينيشنكو بصلح منفرد مع الألمان ؛ ووقفت الحكومة المؤقتة عاجزة حيال كل ذلك . وطالبت سيبيريا والقوقاز بجمعيات تأسيسية

منفصلة . وفي جميع أنحاء البلاد ، شبّ صراع مرير بين السلطات وبـــين السوفييت المحلية لمندوبي العمال والجنود ...

الأوضاع تزداد اضطراباً يوماً بعد يوم . مئات آلاف الجنود تهجر الجبهة وتتحرك في موجات كبيرة تهـــيم على وجهها فوق سطح الارض . فلاحو حكومات « تامبوف » و « تفـــير » يحرقون الاهراءات ويقتلون مالكي الأرض ، بعد ان ملوا انتظار توزيع الاراضي عليهم ، ويئسوا من اجراءات القمع التي تمارسها الحكومة ضدهم . اضرابات ضخمة واقفال مصانع تهـــز موسكو وأوروبا ومناجم الفحم في الدون . المواصلات مشلولة ، والجيش جائع ، والمدن الكبيرة تفتقر الى الخبز .

حيال كل ذلك ، كانت الحكومة عاجزة عن القيام باي شيء ، إذ كانت تتأرجح بين الأجنحة الديمقراطية والرجعية : وعندما تجبر على العمل ، كانت تؤيد دوماً مصالح الطبقات المالكة . فترسل فرق القوزاق لتوطيد الأمن بين الفلاحين ولقمع الاضرابات: في طشقند، حلت السلطات الحكومية السوفييت وفي بتروغراد ، انتهى « المجلس الاقتصادي » ، الذي أنشيء لاعادة بنـــاء هيئات البلد الاقتصادية المنهارة ، الى طريق مسدود بـــين قوى رأس المال وقوى العمل المتناقضة ، فحله كرنسكي . عسكريو العهد البائـــد ، يدعمهم الكاديت ، يطالبون باتخـــاذ اجراءات قاسية لاعادة الانضباط الى الجيش والبحرية . وعبثاً أصرّ الأميرال فيرورفسكي، وزير البحرية الوقور، والجنرال فيرخوفسكي ، وزير الحربية ، على أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش والبحرية تكمن في قيام انضباط ديمقراطي طوعي جديد ، يقوم على التعـاون بين لجان الجنود والبحارة ، فأهملت توصياتهما .

بدا الرجعيون مصممين على إثارة الغضب الشعبي . كان موعـــد محاكمة كورنيلوف قـــد اقترب . فأخذت الصحافة البرجوازية تدافع عنـــه بصراحة

أكثر فأكثر ، متحدثة عنه باسم « الوطني الروسي العظيم » . ودعت صحيفة بورتزيف (القضية المشتركة) الى قيام دكتاتورية بقيادة كورنيلوف وخالدين وكرنسكي .

تكلمتُ مع بورتزيف ذات يوم في قاعة الصحفيين في مجلس الجمهورية . كان صغير الجسم ، منحنياً ، له وجه مجعّد وعينان ضعيفتا النظر وراء نظارتين سميكتين ، وشعر أشعث ولحية مخططة بالشعر الأبيض .

« تذكّر كلامي يا شاب ! إن ما تحتاجه روسيا هو رجل قوي . يجب أن نقلع عن التفكير بالثورة الآن ، ونركّز فكرنا على الألمان . قام السخفاء ليهزموا كورنيلوف ووراء هؤلاء السخفاء يستتر عملاء ألمان . كان يجب أن ينتصر كورنيلوف ... » .

وعند أقصى اليمين ، لم تعد صحف الملكيين بحاجة الى التستّر . فأخذت « منبر الشعب » لبوريشيفيتش ، و « روسيا الجديدة » و « الكلمة الحيّة » تدعو علناً الى إبادة الديمقراطية الثورية !

وعمّت الفرحة أجواء الصحافة البرجوازية . فكتبت «الكلام» ، صحيفة حزب الكاديت :

« في موسكو ، تستطيع الحكومة متابعة أعمالها في جو هادىء بعيداً عن إزعاج الفوضويين » .

وأعلن « رودزيانكو » ، قائد الجناح اليميني في حزب الكاديت في صحيفة « صباح روسيا » ان استيلاء الألمان على روسيا أمر مستحسن ، لأنه يؤدي الى تحطيم السوفييت والى التخلص من أسطول البلطيق الثوري :

« بتروغراد في خطر.أقول لنفسي: « ليحمي الله بتروغراد» ·
إنهم يخافون أن تتحطم المنظمات الثورية المركزية إذا سقطت بتروغراد . وأنا أجيبهم على ذلك : « إني أبتهل إذا تحطمت جميع هذه المنظمات لأنها لا تجلب إلا الدمار لروسيا » ...

ومع الاستيلاء على بتروغراد سيتحطم كذلك أسطول البلطيق ... ولكن لا شيء يؤسف عليه ، فإن معظم بوارجه محطّمة المعنويات تماماً » ...

وفي وجه عاصفة من المعارضة الشعبية ، رُفضت خطة الإخلاء .

في ذلك الحين ، كان مؤتمر السوفييت يحوم حول روسيا كغيمة رعد تخترقها البروق . لم تكن تعارضه الحكومة فحسب ولكن جميع الاشتراكيين المعتدلين أيضاً . إن اللجنة المركزية للجيش ، واللجنة المركزية للأسطول ، وبعض اللجان المركزية للنقابات ، وسوفييت الفلاحين ، وبشكل خاص « التسايكا » نفسها بذلت جميع الجهود لتحول دون انعقاد المؤتمر . فهاجمته بعنف « الأخبار » (إزفستيا) و « صوت الجندي » (غولوس سوالداتا) ، الصحيفتان اللتان أنشأهما سوفييت بتروغراد ، واللتان استولت عليهما « التسايكا » ؛ وحذت حذوهما كل مدفعية صحافة الحزب الاشتراكي الثوري: « قضية الشعب » و « إرادة الشعب » .

أُرسل المندوبون الى جميع أنحاء البلاد ، كما أُرسلت البرقيات الى اللجان المسؤولة عن السوفييت المحلية ، والى لجان الجيش مع تعليمات بوقف انتخابات المؤتمر أو تأخيرها . واتخذت قرارات عامة صارمة ضد المؤتمر ، وصدرت بلاغات تقول أن القوى الديمقراطية تعارض اجتماعاً قريباً ذلك القرب من موعد انعقاد « الجمعية التأسيسية » ؛ واحتجّ مندوبو الجبهة ، واتحاد الزيمستوفا ، واتحاد الفلاحين ، واتحاد جيوش القوزاق ، واتحاد الضباط ،

وفرسان القديس جورج ، وفيالق الموت... وأعلن «مجلس الجمهورية الروسية» معارضته . وأخـذ الجهاز الذي أنشأته ثورة آذار يعمل بكامله لعرقلة مؤتمر السوفييت ...

وفي جهة ثانية، كانت إرادة البروليتاريا الهلامية ، عمالاً وجنوداً وفلاحين فقراء . وكان العديد من منظمات السوفييت المحلية قد انضمت الى البلاشفة، وحذت حذوها منظمات عمال الصناعة – «لجان المصنع والمتجر» – ومنظمات الجيش الثائر والبحرية . وفي بعض الأمكنه ، حيث مُنِع الناس من انتخاب مندوبيهم العـاديين الى السوفييت ، أخذوا يعقـدون اجتماعات استثنائية ويختارون من يذهب منهم الى بتروغراد. وفي أمكنة أخرى، حطّموا اللجان التي تعمل على عرقلة المؤتمر ، وشكلوا لجاناً غيرها . كان بركان التمرّد يرعد حتى كسّر القشرة القـاسية على سطح نيران ثورية كانت ضامرة طوال تلك الأشهر. ولم يعد بالإمكان عقد مؤتمر عام لمنظمات السوفييت إلا بواسطة حركة جماهيرية عفوية .

يومياً يدور الخطباء البلاشفة الثكنات والمصانع مهاجمين بعنف « حكومة الحرب الأهلية » . وذات يوم ، ركبنا حافلة ضخمة تسير على البخار وتتعثر في بحور من الوحل بين المصانع والكنائس الضخمة الى « اوبوكوفسكي زافود » وهو مصنع ذخيرة حكومي يقع في شارع « شلوسلبرغ » .

عقد الاجتماع بين الجدران القرميدية الملساء لبناية ضخمة لم تنجز بعـد ، وقد اجتمع عشرة آلاف رجل وامرأة يرتدون الثياب السوداء حول الصقالة الموشحة بالأحمر، أناس تراكموا على كومات خشب وقرميد ، أو اعتلوا الجسور الخشبية المعتمة مركـزين أفكارهم على مـا يقال وأصواتهم تدوي كالرعد . خـلال السماء الباهتـة الثقيلة ، كانت الشمس تطل بين الحين والآخر ، مرسلة أشعتها الحمراء ، خلال النوافذ التي لم يتم بناؤها ، على جمع من الوجوه البسيطة الملتفتة نحونا .

لونا تشارسكي ، ذو القامة النحيلة الشبيهة بقامة تلميذ ، والوجه المرهف الشبيه بوجه فنان ، يشرح لماذا يجب أن يستولي السوفييت على السلطة . لا شيء غير السوفييت يستطيع أن يحمي الثورة من أعدائها الذين يخربون البلد والجيش عن قصد ، خالقين فرصة مجيء كورنيلوف جديد .

صاح جندي من الجبهة الرومانية نحيلاً ومأساوياً ووحشياً : « يا رفاق ! نحن نهلك من الجوع في الجبهة ونتجمد من البرد . نموت دون أي سبب . أسأل رفاقنا الأميركيين أن يقولوا لأميركا أن الروس لن يتخلوا مطلقاً عن ثورتهم حتى يموتوا : سنحمي هذا الحصن بكل ما نملك من قوة الى حين تهب شعوب العالم لنجدتنا ! قولوا للعمال الأميركيين أن يهبّوا وينـاضلوا من أجل الثورة الاجتماعية » !

وعقبه بتروفسكي النحيل ذو الصوت البطيء الشرس : « لقد حان وقت الأعمال لا الأقوال . الوضع الاقتصادي سيء ، ولكن يجب أن نعتاد عليه ، إنهم يحاولون إهلاكنا جوعاً وبرداً . إنهم يحاولون إستفزازنا . فليعلموا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون ، ولكن إذا تجاسروا على مسّ منظمات البروليتاريا فسوف نمحيهم كالحثالة عن سطح الأرض » !

فجأة اتسعت الصحافة البلشفية . الى جانب صحيفتي الحزب « رابوتشي بوت » (طريق العمال) و « سولدات » (الجندي) ، صدرت صحيفة جديدة للفلاحين : « ديريفنسكايا بيادنوتا » (فقراء الريف) ، التي تطبع نصف مليون نسخة يومياً ، وفي ١٧ تشرين الأول ، صدرت « رابوتشي أي سولدات » (العامل والجندي) . وكانت افتتاحيتها تلخّص وجهة النظر البلشفية .

« إن حملة السنة الرابعة سوف تؤدي الى إفناء الجيش والبلد . . الخطر يهدد سلامة بتروغراد . وأعداء الثورة يهللون لمآمي

الشعب ... الفلاحون يثورون بدافع اليـأس ، بينما يقتالهم ملاك الأرض والسلطات الحكومية بحملاتها التأديبية ، المصانع والمناجم تقفل ، والعمال مهددون بالهلاك جوعاً ... البرجوازية ، وأذنابها من القادة العسكريين، تريد إعادة الانضباط الأعمى الى الجيش.. وجماعة كورنيلوف تستعدّ ، بمساعدة البرجوازية ، لنسف اجتماع الجمعية التأسيسية ..

إن حكومة كرنسكي معـادية للشعب . وكرنسكي سيخرّب البلد . هذه الصحيفة هي للشعب وتقف الى جانب الشعب ، الى جانب الطبقات الفقيرة من عمـــال وجنود وفلاحين . لا خلاص للشعب إلا بإنجـــاز الثورة ... ولتحقيق ذلك يجب أن توضع جميع السلطات بيد السوفييت ..

هذه الصحيفة تدعو الى ما يلي :

كل السلطات للسوفييت - في العاصمة وفي المناطق .

الهدنة فوراً على جميع الجهات .

سلام عادل بين الشعوب .

أراضي الملاّك للفلاحين بدون تعويض .

سيطرة العمال على الانتاج الصناعي .

جمعية تأسيسية منتخبة في انتخابات صادقة نزيهة » .

وجدير بالذكر هنا هذا المقطع من الصحيفة نفسها ، الناطقة بلسان هؤلاء البلاشفة الذين يعرفهم العالم عملاءً للألمان :

« إن قيصر المانيا ، الملطخ بدماء ملايين القتلى ، يريد أن يهجم بجيشه على بتروغراد . إن العمال والجنود والفلاحين الالمان،

الذين يتوقون مثلنا الى السلم ، مدعوون الى الوقوف ضد هذه الحرب اللعينة .

وهذا لن يتحقق إلا بواسطة حكومة ثورية تتكلم حقاً باسم عمال روسيا وجنودها وفلاحيها ، تتوجه ، من فوق رؤوس الدبلوماسيين، الى الجيوش الالمانية مباشرة، وتملأ الخنادق الالمانية بالبلاغات المكتوبة باللغة الألمانية ... ويتولى الطيارون الروس إسقاط هذه البلاغات فوق جميع أنحاء المانيا » .

في مجلس الجمهورية ، كانت الهوة آخذة بالاتساع ، يوماً بعد يوم ، بين طرفي القاعة .

يصيح كاريلين ، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين: « الطبقات المالكة تريد أن تستغل جهاز الدولة الثوري لتربط روسيا بعربة الحلفاء الحربية ! إن الأحزاب الثورية تعارض هذه السياسة معارضة كاملة ... »

وتكلم نقولا تشايكوفسكي العجوز ، عن الاشتراكيين الشعبيين ، ضد توزيع الأراضي على الفلاحين ، واقفاً الى جانب الكاديت :

« يجب فرض انضباط قوي في الجيش ... منذ بداية الحرب لم أتوقف عن التأكيد على أن القيام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية في حالة الحرب هو جريمة . اننا نرتكب جريمة ، ومع ذلك فأنا لست عدواً لهذه الاصلاحات ، لأني اشتراكي » .

صيحات من اليسار : « لا نصدقك ! » . تصفيق حاد من اليمين .

وجاء كرنسكي نفسه مرتين يدافع بحماس عن الوحدة الوطنية ، وانفجر باكياً في نهاية احدى المرتين . وقد أنصت المجلس اليه ببرودة ، وقاطعه بتعليقات هازئة .

تقع مؤسسة « سمولني » ، المقر العام للتسايكا ولسوفييت بتروغراد على بعد اميال الى طرف المدينة ، قرب نهر « النييف » العريض . ذهبت الى هناك في سيارات عمومية ، تسير ببطء سلحفاة ، وتتأوه وسط شوارع محفرة وموحلة ومكتظة بالناس. عند نهاية الخط، ترتفع قباب « دير سمولني » بلونها الأزرق – الرمادي ، جميلة ، وموشاة باللون الذهبي الباهت . والى جانبها واجهة « مؤسسة سمولني » الكبيرة التي تشبه الثكنة ؛ طولها حوالي مئتي ياردة وعلوها ثلاثة طوابق ، وما يزال يعلو مدخلها بصفاقة الشعار الامبراطوري كبيراً ومحفوراً في الحجر .

استولت المنظمات الثورية للعمال والجنود على المؤسسة التي كانت ، في ظل العهد البائد ، ديراً ومدرسة لبنات النبلاء الروس تشرف عليها زوجة القيصر بنفسها . وكانت تحوي أكثر من مئة غرفة كبيرة ، بيضاء وفارغة على أبوابها إشارات فضية ما تزال تخبر العابر أن في داخلها «غرفة درس السيدات رقم ٤» او « مكتب المعلمات » ، وقد علقت فوقها إشارات مكتوبة بخط رديء تدل على حيوية العهد الجديد : « اللجنة المركزية لسوفييت بتروغراد » ، « تسايكا » ، « مكتب الشئون الخارجية » ، « اتحاد الجنود الاشتراكيين » ، « اللجنة المركزية العامة للنقابات » ، « لجان المصنع والمتجر » ، « اللجنة المركزية للجيش » ، والمكاتب المركزية للاحزاب السياسية وغرف اجتماعاتها.

الأروقة الطويلة ذات القناطر ، مضاءة ببضع أنوار كهربائية ، تمتلىء بالجنود والعمال المسرعين ، ينوء البعض تحت ثقل رزمات ضخمة من الصحف والبلاغات والدعاية المطبوعة من مختلف الأنواع . وصوت أحذيتهم الثقيلة يولد هديراً عميقاً متواصلاً على الارضية الخشبية ... الاشارات معلقة في كل مكان : « رفاق ! من اجل صحتكم ، حافظوا على النظافة ! » . وعند نهاية السلم في كل طابق او في الاستراحات طاولات مستطيلة تتكوم فوقها المناشير ومطبوعات الاحزاب السياسية المختلفة ، جميعها معروضة للبيع ...

المطعم الوسيع ذو السقف الواطىء مـا زال يستعمل للأكل . إشتريت بروبلين بطاقة تخولني تناول وجبة العشاء، ووقفت في الصف مع حوالي ألف شخص آخر منتظراً الوصول الى طاولات الخدمـــة المستطيلة حيث يغرف عشرون رجل وامرأة من جدور كبيرة حساء الملفوف وشرائح اللحم وقطع الخبز الأسود . خمسة « كوبيك » ثمن الشاي في طاسة صفيح . وتتنـاول من إحدى السِلال معلقة خشبية يعلوها الدهن .. القاعد الممتدة وراء الطاولات الخشبية مزدحمة بالعمال الجياع ، يلتهمون أكلهم ، ويخططون ، ويطلقون النكات الفظة من أقصى الغرفة الى أقصاها ..

في الطابق الأعلى ، تقع غرفة طعام أخرى مخصصة لأعضـاء « التسايكا » ومع ذلك فالكل يرتادها . هنـــاك تستطيع شراء خبز مطلي بزبدة سميكة وأعدادٍ لا حصر لها من أكواب الشاي ..

في الجناح الجنوبي من الطابق الثاني تقع قاعة غرفة الاجتماعات الكبرى ، التي كانت في السابق قاعة الرقص في المؤسسة. إنها غرفة بيضاء عالية السقف، تضيئها شمعدانات بيضاء لساعة تحمل مئـات اللمبـــات الكهربائية المزدانة ، يقسمها صفـّان من الأعمدة الضخمة ، وفي المؤخرة منصّة مرتفعة ينتصب الى جانبها شمعدانان لها عدّة فروع ، وخلفها إطار مذّهب انتزعت منه صورة الامبراطور . هنا، في المناسبات الاحتفالية كان يصطف ذوو الأزياء العسكرية والأسقفية ، مكان بمستوى النبلاء الكبار .

خارج القاعة مباشرة يقع مكتب « لجنة الاعتمادات لمؤتمر السوفييت » . وقفتُ هناك أتطلع الى المندوبين الجـدد ، جنود ملتحين ضخمين ، وعمـال يرتدون القمصان السوداء ، وبعض الفلاحين ذوي الشعور الطويلة . الفتـــاة المسؤولة التي تنتمي الى مجموعة « يدنيستوفا » التي يرأسها بليخانوف ، تبتسم بمكر ، وتقول : « هؤلاء يختلفون كثيراً عن مندوبي المؤتمر الأول ، أنظر كم

يبدون خشنين وجهلة ! انهم سواد الشعب »... صحيح ، لقد تحركت اعماق روسيا ؛ وطاف ما في القـــاع الى السطح . كانت « لجنة الاعتمادات » التي عينتها « التسايكا » القديمة تتحدى المندوب تلو الآخر متهمة إياه بأنه انتخب بطريقة غير شرعية . كاراخان ، عضو اللجنـــة المركزية لحزب البلاشفة ، يبتسم فقط ، قائلاً : « لا بأس . عندمـا يحين الوقت ، ستجدون مقـاعدكم محفوظة » ...

كتبت صحيفة « العامل والجندي » :

« نريد أن نلفت انتباه مندوبي المؤتمر العـــام الجديـد الى محاولات بعض أعضاء « لجنــة التنظيم » لعرقلة المؤتمر ، مؤكدين أنه لن يعقد ، وبأنه من المستحسن بالنسبة للمندوبين أن يغادروا بتروغراد ... لا تعيروا هذه الأكاذيب أي اهتمام ... إن أيامـاً عظيمة مقبلة » ...

إتضح أنـــه لا يمكن تأمين النصاب يوم ٢ تشرين الثاني ، فتقرر تأجيل موعد افتتاح المؤتمر الى السابع منه . ولكن البلد كلّه كان قـــد استنفر ، وأدرك المناشفة والاشتراكيون الثوريون أنهم قد هُزموا ، فغيّروا خططهم التكتيكية فجأة ، أبرقوا بنبرة هستيرية الى منظماتهم في الريف طالبين منها أن تنتخب أكبر عـدد من المندوبين الاشتراكيين « المعتدلين » . وفي الوقت نفسه ، أرسلت « اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين » نداء مستعجلاً تدعو فيه الى عقد مؤتمر فلاحي في ١٣ كانون الأول لإفشال أي محاولة يقدم عليها العمال والجنود .

ماذا سيفعل البلاشفة ؟ سرت شائعات في المدينة تقول إن العمال والجنود سيخرجون في تظاهرة مسلّحة . وتنبأت الصحافة البرجوازية والرجعيـــة بمحاولة ثورية ، وطالبت الحكومة بأن تعتقل أعضـاء سوفييت بتروغراد ،

أو على الأقل أن تحول دون اجتماع المؤتمر . ودعت بعض « الوريقات » مثل « روسيا الجديدة » الى مجزرة عامة يقتل فيها البلاشفة .

أعلنت « الحياة الجديدة » — صحيفة غوركي — اتفاقها مع البلاشفة بأن الرجعيين يحاولون تخريب الثورة ، وبأنـــه من الضروري مقاومتهم بقوّة السلاح ، ولكنها دعت الى التقاء جميع الأحزاب الديمقراطية الثورية في جبهة موحّدة :

« ما دامت الديمقراطية لم تنظّم قواها الرئيسية ، وما دامت مقاومة نفوذها ما تزال قوية ، فلا فائدة من الانتقال الى المرحلة الهجومية . ولكن إذا لجأت القوى المعادية الى العنف ، يتوجب على الديمقراطية الثورية ، آنـــذاك ، أن تخوض معركة استلام السلطة ، وسوف تدعمها في ذلك أوسع قطاعات الشعب » .

وأشار غوركي الى أن صحف الرجعية وصحف الحكومة على حد سواء تستفزّ البلاشفة للجوء الى العنف . هذا مع العلم أن الثورة سوف تمهّد الطريق لمجيء كورنيلوف جديـــد . وألحّ على البلاشفة أن ينفوا الشائعات . ونشر لوتريسوف في صحيفة « اليوم » المنشفية قصة مثيرة مصحوبة بخريطة ، مدّعياً أنها الخطة السرية لحملة البلاشفة .

وبمثل فعل سحري ، امتلأت الجدران بالتحذيرات والبلاغات والنداءات الصادرة عن اللجان المركزية للأجنحة « المعتدلة » والمحافظة في « التسايكا » تستنكر أي نوع من « التظاهر » ، وترجو العمال والجنود عدم سماع أقوال المحرّضين (٧) . وفيما يلي انموذج عنها صدر عن « القطاع العسكري » التابع لحزب الاشتراكيين الثوريين :

« عادت الشائعات تجوب شوارع المدينة مجدداً متحدثة عن مشروع تظاهرة مسلحة . ما هو مصدر هذه الشائعات ؟ من هي

المنظمة التي تسمح لدعاتها أن يبشّروا بالثورة ؟ لقد أنكر البلاشفة، رداً على سؤال وجه اليهم في « التسايكا » ، أن يكون لهم أية علاقة بذلك ... ولكن هذه الشائعات تحمل معها خطراً عظيماً . من السهل أن يقدم أفراد متهورون على دعوة بعض العمال والجنود الى النزول الى الشارع محرّضين إياهم على الثورة ، ومتجاهلين بذلك شعور غالبية العمال والجنود والفلاحين .

... في هذا الوضع المتأزم الذي تجتازه روسيا — الثورة ، يسهل تحويل أية ثورة الى حرب أهلية ، ولا ينتج عن ذلك إلا تحطيم جميع منظمات البروليتاريا التي بنيت بكثير من العناء والجهد ... إن المتآمرين المعادين للثورة ينوون استغلال هذه الانتفاضة لتحطيم الثورة ، ولفتح الجبهة للقيصر وليام ، وتخريب الجمعية التأسيسية ... أمكثوا بثبات في مراكزكم ! لا تخرجوا الى الشارع ! »

في ٢٨ تشرين الأول ، تكلمتُ الى كامنييف في أروقة « سمولني » ، انه رجل صغير ذو لحية حمراء دقيقة ، وحركات فرنسية . لم يكن متأكداً من حضور العدد الكافي من المندوبين .. قال : « اذا انعقد المؤتمر، فسوف يعبّر عن شعور غالبية الشعب ؛ واذا كان البلاشفة هم الأكثرية فيه ، كما سيحصل برأيي ، فسوف نطلب أن يستولي السوفييت على السلطة ، وأن تستقيل الحكومة المؤقتة ... »

أما فولودارسكي الشاب ذو الوجه الشاحب الدميم الذي يضع نظارة ، فقد كان أكثر تحديداً : « إن ليبردان وجميع المساومين يعملون على نسف المؤتمر . اذا نجحوا في أن يحولوا دون انعقاده ، إذ ذاك ، سنكون واقعيين بما فيه الكفاية فلا نعتمد على المؤتمر » .

وجدت بين أوراقي المواد التـالية المقتطفة من صحف يوم ٢٩ تشرين الاول :

« موغليف (مقر قيادة الأركان العامة) : تمركز أفواج الحرس الموالية ، والفرق المتوحشة ، وفيالق الموت .

تأمر الحكومة « النيكرز » في كليات الضباط في بافلوسك وستارسكوي وسيكومبيترهوف ، أن يستعـدوا للمجيء الى بتروغراد . إن « نيكرز » مدرسة اورانيانبوم قـد وصلوا المدينة .

قسم من فرقة السيارات المصفحة التـابعة لحاميـة بتروغراد تتمركز في القصر الجمهوري .

تمّ تسليم عدة آلاف بندقية من مصنع الأسلحة الحكومي في سيستروتيسك الى مندوبي عمال بتروغراد بأمر من تروتسكي .

في اجتماع لميليشيا المدينة في قطاع ليتيني السفلى ، فاز قرار يطالب باعطاء كل السلطات للسوفييت » .

هذه مجرّد عينة من الاحداث المضطربة في تلك الايام المحمومة عندما كان الجميع يعلم أن شيئاً سيحدث ، ومع ذلك فلم يكن أحد يعلم ما هو بالضبط.

في اجتماع سوفييت بتروغراد في سمولني ، ليـلة ٣٠ تشرين الأول ، وصم تروتسكي ادعاءات الصحافة البرجوازية ان السوفييت ينوون القيام بثورة مسلّحة بأنها « محاولة من قِبَل الرجعيين أن يلوّثوا مؤتمر منظمات السوفييت وينسفوه ... » وأعلن: « إن سوفييت بتروغراد لم يصدر أمراً بأي تظاهرة مسلّحة . وعندما يصبح ضرورياً أن نقوم بذلك ، سوف نحظى بـدعم

حامية بتروغراد ... إنها (أي الحكومة) تحضر لثورة مضادة ؛ وسوف نردّ عليها بهجوم حاسم وبلا هوادة » .

صحيح ان سوفييت بتروغراد لم يصدر أمراً بالتظاهر ، إلا أن اللجنة المركزية لحزب البلاشفة كانت تناقش موضوع الثورة . وقد احتجت طوال ليلة الثالث والعشرين من تشرين الاول ، بحضور جميع مثقفي الحزب وقادته ومندوبي عمال بتروغراد وحاميتها . كان لينين وتروتسكي الوحيدين من بين المثقفين الذين وقفوا الى جانب القيام بثورة. حتى العسكريين كانوا معارضين. وجرى تصويت وُهزم اقتراح القيام بثورة !

ثم وقف عامل فظّ تشنّج وجهه من الغضب وقال بحدّة : « اني أتكلم باسم عمّال بتروغراد . نحن نؤيد الثورة . إفعلوا ما تريدون ، ولكن اعلموا أنكم اذا سمحتم بتحطيم السوفييت . فسوف نتخلى عنكم » . وانضم اليه بعض الجنود ... ثم جرى التصويت مجدداً ، ففاز اقتراح القيام بالثورة * ...

ومع ذلك ، فقد واصل الجناح اليميني من البلاشفة ، بقيادة ريازانوف وكامنييف وزينوفييف ، شنّ حملته ضد الثورة المسلّحة . في صباح ٣١

---

* يبدو أن ريد لم يكن مطلعاً الاطلاع الكافي على ما جرى في اجتماع اللجنة المركزية لقد حضر الاجتماع اثنا عشر من اعضاء اللجنة هم : لينين ، زينوفييف ، كامنييف ، تروتسكي ، ستالين ، سفردلوف ، دزيرجنسكي ، اوريتسكي ، كولانتاي ، بوبنوف ، سوكولنيكوف ، لوموف . وتكلم لينين عن الوضع الراهن معلناً أن الوضع ناضج بما فيه الكفاية لاستلام الحكم . وعند التصويت ، صوت عشرة اعضاء مع الاقتراح واثنان فقط ضده هما كامنييف وزينوفييف .

وفي نفس الاجتماع ، جرى انتخاب المكتب السياسي الذي قاد الثورة من سبعة اعضاء هم : لينين ، زينوفييف ، كامنييف ، تروتسكي ، ستالين ، سوكولنيكوف ، بوبنوف . (من محاضر اجتماعات اللجنة المركزية للحزب البلشفي — آب ١٩١٧ الى شباط ١٩١٨ — كما وردت في كتاب : « البلاشفة وثورة اكتوبر » ، ص ١٣٥ – ١٣٩ — دارما سبيرو ، ١٩٦٤) .
(المترجم)

تشرين الاول ، ظهر في « رابوتشي بوت » (طريق العمال) القسم الاول من « رسالة الى الرفاق » للينين وهي أجرأ كتابات الدعاية السياسية التي عرفها العالم . يعرض لينين فيها ، بجدّية ، الحجج التي تؤيد الثورة ، منطلقاً من اعتراضات كامنييف وريازانوف . كتب : « اما أن نتخلّى علناً عن شعار « كل السلطات السوفييت » واما أن نقوم بالثورة . لا يوجد طريق وسط » .

في اليوم نفسه ، ألقى بول مليوكوف ، قائد الكاديت ، خطاباً لامعاً ومريراً في مجلس الجمهورية ، وصم فيه « تعليمات سكوبيليف » بأنها موالية للألمان ، معلناً أن الديمقراطية الثورية تسير بروسيا الى الخراب ، مهاجماً تريشنكو ، وصرّح علناً أنه يفضل الدبلوماسية الألمانية على الدبلوماسية الروسية ... وكانت مقاعد اليسار، طوال خطابه، تضجّ بصخب مرتفع ...

لم يكن باستطاعة الدولة ، من جهتها ، أن تتجاهل أهمية النجاح الذي أحرزته الدعاية البلشفية . في ٢٩ تشرين الأول ، صدر قانونان عن لجنة مشتركة من الحكومة ومن مجلس الجمهورية ، منح أحدهما الأراضي مؤقتاً للفلاحين ، دعا الآخر الى انتهاج سياسة خارجية نشيطة تؤدي الى السلم . وفي اليوم التالي ، علّق كرنسكي عقوبة الإعدام في الجيش . وبعد ظهر اليوم نفسه ، جرى ، في احتفال كبير ، افتتاح الجلسة الاولى « للجنة تدعيم النظام الجمهوري والنضال ضد الفوضى والثورة المضادة » الجديدة ، وكان ذلك أوّل وآخر ما سمعه التاريخ عن هذه اللجنة ... في صباح اليوم التالي ، قابلتُ كرنسكي مع مراسلين آخرين في آخر مقابلة له مع الصحفيين[٨] .

قال برارة : « إن الشعب الروسي يعاني من الارهاق الاقتصادي ومن خيبة أمل في الحلفاء ! يظن العالم أن الثورة قد انتهت . لا تخطئوا . هذه مجرد بداية الثورة الروسية » . كلمات تحمل مقداراً أكبر من النبوءة مما كان يظن قائلها .

كان اجتماع سوفييت بتروغراد عاصفاً طوال ليلة ٣٠ تشرين الأول الذي حضرته . كان الاشتراكيون « المعتدلون » من مثقفين وضبّاط وأعضاء لجان الجيش وأعضاء « التسايكا » موجودين بكثرة . يواجههم العمال والفلاحون والجنود العاديون باندفاعهم وبساطتهم .

تكلم فلاّح عن الاضطرابات في « تغير » وقال أن سببها هو اعتقال أعضاء « لجان الأرض » ، وصاح : « كرنسكي هذا ليس سوى درعٍ لملاك الأرض . إنهم يعرفون أننا سنستولي على الأرض في الجمعية التأسيسية على كل حال ، لذلك يحاولون تحطيم الجمعية التأسيسية » !

ووصف عامل ميكانيكي من مؤسسة « بوتيلوف » كيف يغلق مأمورو العمل الأقسام الواحد تلو الآخر ، بحجة عدم توّفر المحروقات والمواد الأولية . وأعلن أن « لجنة المصنع والمتجر » قد اكتشفت كمية كبيرة من الإمدادات المخزونة .

وأردف قائلاً : « هذا تحدٍ صارخ . إنهم يريدون تجويعنا أو دفعنا الى العنف » !

وتكلم أحد الجنود : « يا رفاق ! أحمل اليكم التحية من حيث يحفر الرجال قبورهم ويسمونها خنادق » !

ثم انتصب جندي شاب طويل نحيل ذو عينين برّاقتين أُستقبل بضجة ترحاب . إنه شود نوفسكي الذي أُشيع أنه مات خلال القتال في تموز ؛ وها هو الآن يبعث حياً : « لم تعد جماهير الجنود تثق بضباطها . حتى لجان الجيش التي رفضت دعوة السوفييت الى الانعقاد ، قد خانتنا ... إن جماهير الجنود تريد انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرّر ، والذين يتجرأون على تأجيلها سوف يلعنون ، ولن يلعنوا بالشتائم الافلاطونية فحسب ، لأن الجيش يملك أسلحة كذلك » ..

وتحدث عن حمى الحملة الانتخابية للجمعية التأسيسية في «الجيش الخامس»: « إن الضباط ، والمناشفة والاشتراكيين الثوريين خاصة ، يحاولون شلّ نشاط البلاشفة عن قصد . إنهم يمنعون توزيع صحفنا في الخنادق . ويعتقلون خطباءنا » ...

وصاح أحد الجنود : « لماذا لا تتكلم عن ندرة الخبز ؟ » .

فأجاب شودنوفسكي بجزم : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ...

ثم عقبه ضابط منشفي « مدافع » ، مندوباً عن سوفييت « فيتيبسك »: « المسألة ليست مسألة من يسيطر على الحكم . الحكومة لا تثير أية مشكلة ، وانما الحرب ... لذا يجب أن نكسب الحرب قبل تحقيق أي تغيير » . فقابله الزعيق والصيحات الهازئة : « هؤلاء الدعاة البلاشفة ديماغوجيون » ! وردت القاعة بالضحك . « فلننسَ الصراع الطبقي لحظة واحدة » ، لكنه لم يكمل جملته . فصاح صوت : « ألا تتمنى لو نفعل ذلك » !

كانت بتروغراد مشهداً غريباً في تلك الأيام . غرف اللجان في المصانع مليئة بكومات البنادق ، والرُسل يدخلون ويخرجون ، والحرس الأحمر يتدرب .. وفي الثكنات تعقد الاجتماعات كل ليلة ؛ وطوال النهار تجري نقاشات حامية متواصلة وعندما يحين المساء الخانق ، تتكثف الجموع في الشوارع في أمواج متدفقة على طول شارع « نيفسكي » ، وتتنازع الصحف. وتكاثرت السرقات بحيث اصبح خطراً أن يسير المرء في الشوارع الفرعية .. وذات عشية ، رأيت على « السادوفايا » ، جمعاً يضمّ المئات يضرب ويدوس حتى الموت جندياً قبض عليه يسرق ... وكان أفراد مشبوهون يحومون حول النسوة المقرورات اللواتي ينتظرن توزيع الخبز والحليب في الصف طوال ساعات باردة طويلة ، هامسين ان اليهود يخزنون الغذاء ، وإن اعضاء السوفييت يعيشون حياة باذخة في حين يموت الشعب من الجوع ...

عنـد ابواب « سمولني » الداخلية والخارجية ، وقف حرّاس صارمون يطلبون إذن المرور من الجميع . وغرف اللجان تطنّ وتضجّ طوال النهـــار والليل ، وينـام مئات الجنود والعمال على الارض حيثما يجدون متسعاً . وفي القاعة الكبرى في الطابق الاعلى يزدحم آلاف الناس الذين يحضرون جلسات سوفييت بتروغراد الصاخبة .

نوادي القمار تعمل بشكل محموم من الغسق الى الفجر ، فتفور «الشامبانيا» وتبلغ المراهنات عشرين الف « روبل » . وفي الليـــل تتسكع المومسات ، وسط المدينة ، بجواهرهن ومعاطف الفراء الثمينة ، ويملأن المقاهي ...

مؤامرات ملكية ، جواسيس المـــان ، ومهرّبون يعدّون الخطط ..

وفي المطر والـبرد القارس المرير ، تندفع المدينة النابضة الكبيرة ، تحت السماوات القاتمة ، اسرع واسرع نحو ... نحو ماذا؟

هوامش

(الفصل الثاني)

١ ـ لقد تأكدت الآن، بقدر كبير من الوضوح، مسئولية كرنسكي في إيجاد الوضع الذي أدى الى محـاولة كورنيلوف . يقول العديد من المدافعين عن كرنسكي انه كان يعلم بمخطط كورنيلوف ، وانه أجبره على أن يكشف نفسه قبل الوقت المناسب ، بواسطة خدعـة ، وسحقه . ولكن اناساً مثل ا. ج. ساك في كتابه « ولادة الديمقراطية الروسية » يقولون :

« ثمة عدد أشياء شبه أكيدة . أولها ان كرنسكي كان يعلم بتحرك عدة وحدات من الجبهة نحو بتروغراد ، ومن الممكن أن يكون رئيس الوزراء ووزير الحربية قد استدعياها بعد ان ادركا تفاقم الخطر البلشفي ... »

الخطأ الوحيد في هذه الحجة هي انه لم يكن ثمة «خطر بلشفي» في ذلك الحين ، لأن البلاشفة كانوا آنذاك أقليـة ضعيفة في السوفييت ، وكان قادتهم في السجون أو المخبأ .

٢ ـ الندوة الديمقراطية

عندما اقترح كرنسكي عقد ندوة ديمقراطية لأول مرة ، تكلم عن جمعية تضم جميع عناصر الأمة — « القوى الحية » كما سمّاها — بمــا فيها أصحاب المصارف ، والصناعيون ، وملاك الأراضي ، وممثلو حزب الكاديت . فرفض السوفييت وقدّم جدول الممثلين التالي الذي وافق عليه كرنسكي :

سوفييت مندوبي العمال والجنود لعموم روسيا	١٠٠ مندوب
سوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا	١٠٠ »
سوفييت مندوبي العمال والجنود في المحافظات	٥٠ »
لجان الأراضي الفلاحية في المناطق	٥٠ »
النقابات	١٠٠ »
لجان الجيش في الجبهة	٨٤ »
الجمعيات التعاونية للعمال والفلاحين	١٥٠ »
اتحاد عمال سكك الحديد	٢٠ »
اتحاد عمال البرق والبريد	١٠ »
موظفو المحلات التجارية	٢٠ »
المهن الحرّة — أطباء ، محامون ، صحفيون ، الخ .	١٥ »
« زيمستوفا » المحافظات	٥٠ »
المنظمات الوطنية — البولونيون، الاوكرانيون الخ .	٥٩ »

وقــد جرى تعديل هذه النسب مرتين أو ثلاث مرات . وكان التوزيع النهائي للمندوبين على الشكل التالي :

سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين	٣٠٠ مندوب
الجمعيات التعاونية	٣٠٠ «
البلديات	٣٠٠ «
لجان الجيش في الجبهة	١٥٠ «
« زيميستوفا » المحافظات	١٥٠ «
النقابات	٢٠٠ «
المنظمات الوطنية	١٠٠ «
مجموعات صغيرة متفرقة	٢٠٠ «

٣ ـ انتهت مهمة السوفييت

في ٢٨ ايلول ، ١٩١٧ ، نشرت صحيفة « الأنباء » (إزفستيا) ، لسان حال « اللسايكا » ، مقالة ورد فيها ما يلي عن الوزارة المؤقتة الأخيرة :

« أخيراً تشكلت حكومة ديمقراطية حقـّة ، ولدت من إرادة جميع طبقات الشعب الروسي ، وهي تشكل قائمة النظام البرلماني الليبرالي المقبل . عما قريب تعقد الجمعية التأسيسية ، التي ستحل جميع المسائل القانونية الأساسية والتي سيكون تكوينها ديمقراطياً في جوهره . إن مهمة السوفييت تشارف نهايتها ، وقــد اقترب وقت انسحابهــا ، مع سائر الجهاز الثوري ، من ساحة الشعب

الحرّ المنتصر الذي ستكون أسلحته ، من الآن فصاعداً، أسلحة العمل السياسي السلمية » .

وفي ٢٣ تشرين الأول ، كانت افتتاحية « إزفستيا » تحمل العنوان التالي : « أزمة منظمات السوفييت » . وبدأت بالقول ان المسافرين حملوا أخباراً تقول أن نشاط السوفييت المحلية يتناقصَ في كل مكان . قال الكاتب:

« هذا طبيعي ، لأن الشعب يهتمّ بالأجهزة التشريعية الأكثر دواماً — مجالس الدوما البلدية والزيمستوفا ...

في المراكز الرئيسية من موسكو وبتروغراد حيث توجد أفضل تنظيمات السوفييت ، نجد أنها لم تضمّ جميع العناصر الديمقراطية ... غالبية المثقفين لم تشارك في نشاطها والعديد من العمال كذلك ؛ أما بعض العمال الذي شارك فقد فعل ذلك إما لتخلفه السياسي وإما لأن مركز الثقل بالنسبة له هو النقابات... إننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه المنظمات ترتبط بعرى وثيقة مع الجماهير ، وهي أفضل من يخدم مصالح هذه الجماهير ...

إن التنظيم الحيوي للادارات الديمقراطية المحلية أمر في غاية الأهمية . يجري انتخاب مجالس الدوما بالاقتراع العام ، وهي تتمتع بسلطات أوسع من السوفييت في الشؤون المحلية المحضة . وما من ديمقراطي يرى أي خطأ في هذا ...

تجري الانتخابات في البلديات بشكل أفضل وأكثر ديمقراطية من انتخابات السوفييت ... جميع الطبقات ممثلة في البلديات ... وما أن تبدأ أجهزة الادارة الذاتية المحلية بتنظيم الحياة في البلديات ، حتى ينتهي دور السوفييت المحلية بشكل طبيعي .

ثمة عاملان يفسّران هبوط الاهتمام بالسوفييت. ويعزى الأول الى انخفاض مستوى الاهتمام السياسي لدى الجماهير ؛ أما الثاني ، فيعزى الى تزايد جهود الأجهزة الحاكمة المحلية والمنطقية في تنظيم بناء روسيا الجديدة ... وبقدر ما تسير الأمور في هذا الاتجاه الأخير ، بقدر ما تضمحل أهمية السوفييت ...

إنهم يقولون عنا أننا نحفر قبر منظمتنا بأيدينا . والواقع أننا أنشط العاملين لبناء روسيا جديدة ...

عندما سقط نظام الحكم الفردي والبرقراطية ، أنشأنا السوفييت كثكنات تلتجيء إليها الديمقراطية مؤقتاً . والآن ، ها نحن نشيّد البناية الدائمة لنظام جديد ، عوضاً عن الثكنات ؛ ومن الطبيعي أن يغادر الشعب الثكنات تدريجياً متنقلاً الى بنايات توفّر له راحة أكثر » .

٤ ـ خطاب تروتسكي في مجلس الجمهورية الروسية

« كان الهدف من الندوة الديمقراطية ، التي دعت إليها « التسايكا » ، القضاء على الحكومة غير المسؤولة التي ولّدت كورنيلوف ، وتكوين حكومة مسؤولة تستطيع أن تنهي الحرب ، وتضمن انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المحدد . ولكننا تلقينا نتيجة هي عكس الهدف المعلن رسمياً ، ذلك بواسطة الخداع والتحالفات بين المواطن كرنسكي والكاديت وقادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين التي عقدت وراء ظهر الندوة الديمقراطية ، فخلقت سلطة يوجد فيها ، وحولها ، أقران لكورنيلوف ، مستورين ومكشوفين ، يلعبون أدواراً بارزة . ولقد عبّرت الحكومة عن لامسؤوليتها رسمياً عندما أعلنت أن مجلس الجمهورية

الروسية سيكون جهازاً استشارياً وليس تشريعياً. وهكذا نجد الحكومة غير المسؤولة تخلق، في الشهر الثامن للثورة، ستاراً لها في هذه النسخة الجديدة عن مجلس دوما بيليفان.

إن الطبقات المالكة قد دخلت المجلس المؤقت بنسب تدل بوضوح، من خلال الانتخابات في جميع أنحاء البلد، على أنه لا يحق لها أن تكون فيه. وبالرغم من ذلك، فإن حزب الكاديت الذي كان حتى الأمس يطالب بأن تكون الحكومة مسؤولة تجاه «مجلس الدولة»، حزب الكاديت هذا نفسه هو الذي أمّن استقلال الحكومة عن مجلس الجمهورية. لا شك في أن الطبقات المالكة ستكون في الجمعية التأسيسية أضعف مما هي في هذا المجلس، ولا يمكنها ان تتصرف بطريقة غير مسؤولة تجاه الجمعية التأسيسية.

إذا كانت الطبقات المالكة تتهيأ حقاً للجمعية التأسيسية التي ستنعقد بعد ستة أسابيع، فلا يوجد مبرر لجعل الحكومة غير مسؤولة الآن. الحقيقة، كل الحقيقة، هي أن البروجوازية، التي تسيّر سياسة الحكومة المؤقتة، تهدف الى إفشال الجمعية التأسيسية. وهذا هو في الوقت الحاضر الهدف الرئيسي الذي تعمل له الطبقات المالكة المسيطرة على كل سياستنا الوطنية: الداخلية منها الخارجية. ففي مجالات الصناعة والزراعة والتموين تتجه سياسة الطبقات المالكة، العاملة يداً بيد مع الحكومة، نحو زيادة الفوضى الطبيعية التي أحدثتها الحرب. الطبقات المالكة تثير انتفاضات فلاحية! الطبقات المالكة تثير حرباً أهلية، وتستمر في سيرها علناً على يد الجوع الهزيلة، التي تريد بواسطتها، أن تقضي على الثورة والجمعية التأسيسية!

وليس أقلّ إجراماً من هذا سياسة البرجوازية والحكومة في المجـــال الدولي . بعـــد أربعين شهراً من الحرب نجـــد العاصمة مهددة بخطر محيق . وكجواب لهـــذا الوضع تبرز خطة نقل الحكومة الى موسكو . إن فكرة هجر العاصمة لا تثير احتجاج البرجوازية ، بل على العكس تماماً انها تقبلها كجزء طبيعي من سياسة عامة غايتها تقوية التآمر المعادي للثورة ... وعوضـاً عن الاعتراف بأن خلاص الوطن يكمن في عقد الصلح ، وعوضاً عن أن تقترح علناً فكرة الصلح الفوري على جميع الشعوب المنهكة، فوق رؤوس الدبلوماسيين والأمبرياليين ، وأن تحـول دون استمرار الحرب – عوضـاً عن أن تقوم بذلك ، فإن الحكومة المؤقتة ، بأمر من الكاديت وأعداء الثورة والحلفاء الاستعماريين، تحكم بموت لا معنى لـــه على مئات الآلاف الجديدة من الجنود والبحارة ، بدون سبب ، بدون هدف ولا خطة ؛ وتمهّد للتسليم بتروغراد والقضاء على الثورة . وبيـــنما يموت الجنود والبحارة البلاشفة جنباً الى جنب مع سائر الجنود والبحارة نتيجة لأخطاء وجرائم الآخرين ، ما يزال كرنسكي الذي يسمي نفسه « القائد الأعلى » يمنـــع الصحف البلشفية من الصدور . ان الأحزاب الرئيسية في المجلس تعمل كواجهة طوعية لهذه السياسة .

نحن ، الجناح الديمقراطي – الاشتراكي البلشفي ، نعلن أنـــه لا يوجد أي شيء مشترك بيننا وبين حكومة خيانة الشعب هذه. إننـــا براء من عمل مجرمي الشعب هـؤلاء الذي يجري وراء الكواليس الرسمية . إننـــا نرفض أن نتغافل ، مباشرة أو غير مباشرة ، عن يوم واحد من هذا العمل ، فبينما تهدد قوات وليام بتروغراد ، تحضّر حكومـــة كرنسكي وكورنيلوف للهرب من

بتروغراد وتحويل موسكو الى قاعدة للثورة المضادة !

إننا نحذّر عمال وجنود موسكو أن يقفوا على قدم التأهب. ونحن ، إذ نغادر هذا المجلس ، نتوجه الى رجولة وحكمة العمال والفلاحين والجنود في جميع أنحاء روسيا . بتروغراد في خطر ! الثورة في خطر ! الحكومة قد ضاعفت الخطر – والطبقات المالكة تجعله يتفاقم . الشعب وحده هو الذي يستطيع أن ينقذ نفسه وأن ينقذ وطنه .

إننا نناشد الشعب : عاش السلم الديمقراطي الصادق الفوري ! كل السلطات للسوفييت ! كل الأراضي للشعب ! عاشت الجمعية التأسيسية » .

٥ ـ « تعليمات » سكوبيليف (الناكاز)

تلخيص

(صدرت عن « التسايكا » وأعطيت لسكوبيليف كتعليمات يحملها ممثل القوى الديمقراطية الثورية في ندوة باريس) :

يجب أن تقوم معاهدة الصلح على مبدأ « لا ضم ، لا تعويض ، حق الشعوب في تقرير المصير » .

قضايا الحدود

١) انسحاب الجيوش الالمانية من روسيا . حق تقرير المصير الكامل لبولونيا ، ليتوانيا ، ليفونيا .

٢) الاستقلال لأرمينيا التركية ، ثم حق تقرير المصير لها بعد إنشاء الحكومات المحلية .

٣) حل قضيــة الألزاس – اللورين بواسطة استفتاء بعد انسحاب جميع القوات الأجنبية .

٤) إعادة بلجيكا ككيان . تعويض على الأضرار من صندوق دولي .

٥) إعادة كيان صربيــا ومونتينيغرو ، ومساعدتها بواسطــة صندوق دولي . يكون لصربيا منفــذ الى البحر الادرياتيكي . الحكم الذاتي لبوزنيــا وهيرزيفوفينيا .

٦) تمنح المقاطعات موضع النزاع في البلقان حكماً ذاتيــاً مؤقتاً يعقبــه استفتاء .

٧) إعادة رومانيا ككيان مع إجبارها على منح دوبرودجا حق تقرير المصير كاملاً ... تجبر رومانيا على تنفيــذ بنود « معاهدة برلين » فيما يتعلق بالاعتراف باليهود كمواطنين رومانيين .

٨) منح مقاطعــة ايريدنتا ، في ايطاليا ، حكماً ذاتيــاً مؤقتاً يعقبــه استفتاء لتقرير استقلال الدولة .

٩) إعادة المستعمرات الالمانية .

١٠) إعادة كيان اليونان وايران .

حرية البحار

إعتبــار جميع المضائق المؤدية الى الأبحر الداخليــة ، وقنـــاتي السويس وباناما مناطق حيادية . حرية البحرية التجارية . إلغاء حق السفن الخاصة في التعرّض لسفن العدو . منع إغراق السفن التجارية .

التعويضات

تتخلى جميع الأطراف المتحاربة عن جميع التعويضات ، المبــاشرة منهــا

وغير المباشرة ، مثلاً تكاليف إعاشة السجناء . تُعاد التعويضات والتبرعات التي جمعت خلال الحرب الى أصحابها .

الشروط الاقتصادية

لا تكون المعاهدات الاقتصادية جزءاً من شروط السلم . يجب ان تكون كل دولة مستقلة في علاقاتها التجارية ، ولا يجب أن تفرض معاهدة السلم ، أو تمنع أية دولة من عقد معاهدة اقتصادية . إلا أنه يجب على جميع الدول أن تلتزم ، وفق معاهدة السلم ، بعدم القيام بحصار اقتصادي بعد الحرب ولا عقد اتفاقات جمركية منفصلة . إن حق أكثر الدول امتيازاً يجب أن يمنح الى جميع البلدان دون تمييز .

ضمانات السلم

يتفق على السلم في ندوة السلم التي يحضرها مندوبون تنتخبهم المؤسسات التمثيلية الوطنية في كل دولة . وتقر هذه المجالس النيابية شروط السلم .

تلغى الدبلوماسية السرية ، وتتعهد جميع الأطراف بعدم عقد اتفاقات سرية . إن مثل هذه الاتفاقات تتناقض مع القانون الدولي وهي بالتالي لاغية . تعتبر جميع المعاهدات لاغية الى أن تقرّها المجالس النيابية في البلدان المختلفة .

نزع السلاح تدريجياً في البر والبحر ، وتكوين نظام ميليشيا . إن «عصبة الأمم» التي يقترحها الرئيس ويلسون قد تساعد في حفظ القانون الدولي إذا :
(أ) أجبرت جميع الأمم على الاشتراك فيها مع منحها حقوقاً متساوية ،
(ب) إذا أصبحت السياسة الدولية ديمقراطية .

الطرق نحو السلم

يعلن الحلفاء فوراً استعدادهم للبدء بمفاوضات سلم حالما تعلن قوات العدو تخليها عن أي ضم قسري .

يجب أن يلزم الحلفاء أنفسهم بعدم الشروع بمفاوضات السلم ، ولا عقـد اتفاقية سلم ، إلا في مؤتمر عام للسلم يشترك فيـه مندوبون عن جميع البلدان الحيادية .

تزال جميع العقبات من وجـه ندوة ستوكهولم الاشتراكية ، وتمنح جوازات السفر فوراً الى جميع مندوبي الأحزاب والمنظمات التي ستشترك فيها .
(ولقد أصدرت اللجنـة التنفيذية لسوفييت الفلاحين تعليمات – ناكاز – وهي تكاد لا تختلف عمّا سبق ذكره) .

٦ – السلم على حساب روسيا

إن اعترافـات ريبوت عن عرض النمسا الصلح عـلى فرنسا ؛ وما سمّي « ندوة السلم » في بيرن ، سويسرا ، خلال صيف ١٩١٧ التي اشترك فيهـا مندوبون عن البـلدان المشتركة بالحرب والذين يمثـلون المصـالح الاقتصادية الكبيرة في جميع هذه البلدان ؛ ومحاولة التفاوض التي أجراها عميل إنكليزي مع أحد أحبار الكنيسة البلغارية ؛ كل هذه تشير إلى أنه كانت توجد تيارات قوية ، في كلا الطرفين ، تدعو إلى عقد الصلح على حساب روسيا .

٧ – نداءات ضد الثورة

« إلى العمال والجنود »

أيها الرفاق ! إن القوات السوداء تضاعف محاولاتها لاحداث الفوضى والمجـازر في بـتروغراد والمدن الأخرى . إن الفوضى

ضرورية للقوى السوداء ، لأنها تتيح لهـا فرصة سحق الحركة الثورية سحقاً دموياً فهي ، بحجة توطيد الأمن وحماية المواطنين ، تأمل أن تحقق سيطرة كورنيلوف الذي استطاع الشعب الثوري أن يقمع مؤامرته منذ زمن ليس ببعيد . ويل للشعب اذا تحققت هذه الآمال ! إن الثورة المضادة ، اذا انتصرت ، سوف تقضي عـلى السوفييت ولجـان الجيش ، وتفرق الجمعيـة التأسيسية ، وتوقف عمليـة تحويل الأرض إلى لجـان الأرض ، وتقضي عـلى آمـال الشعب في سـلم سريـع ، وتمـلأ السجون بالجنـود والعمال الثوريين .

إن أعداء الثورة وقـادة « المئـات السوداء » يعتمدون في حساباتهم ، عـلى التذمر الخطر بـين الفئـات غـير المتنورة من الشعب من عـــدم تنظـيم تموين الغـذاء ، واستمرار الحرب ، ومصاعب الحياة بشكل عام . وهم يأملون أن تحولوا أية تظاهرة للجنـــود والعمال الى مجزرة تفزع السكان المسالمـــين وترميهم بأحضان « موطدي الأمن والنظام » .

في مثل هذه الظروف ستكون كل محاولة لتنظـيم مظاهرة الآن ، حتى ولو كانت لأنبل الأهداف ، جريمة لا تغتفر . إن جميع العمال والجنود الواعين، غير الراضين عن سياسة الحكومة ، سوف يجرون الخراب على أنفسهم وعـلى الثورة إذا اشتركوا في التظاهرات .

لذا فان التسايكا تطلب من جميع العمال عدم تلبية أيـــة دعوة للتظاهر .

أيها العمال والجنود! لا ترضخوا للتحريض! تذكروا واجبكم

تجاه وطنكم وتجـاه الثورة ! لا تبعثروا وحـدة الجبهـة الثورية بالقيام بتظاهرات ستفشل حتماً .

اللجنة المركزية التنفيذية

لسوفييت مندوبي العمال والجنود (التسايكا)

* * *

حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي

الخطر مداهم !

الى جميع العمال والجنود

اقرأها وأعطها للآخرين

« أيها الرفاق العمال والجنود »

بلادنا في خطر . وبسبب هذا الخطر ، تجتاز حريتنا وثورتنا أياماً عصيبة . العدو أمـــام أبواب بتروغراد . والفوضى تتزايد ساعة بعد ساعة . صعوبة تزويد بتروغراد بالخبز تتزايد . الجميـع ، من أصغر واحد الى أكبر واحد فينـــا ، مطالب بأن يضاعف مجهوداته ويحاول ترتيب الأمور بشكل سليم ... يجب أن ننقذ البلد ، وننقذ الحرية ... المزيد من الاسلحة والامدادات للجيش! الخبز للمدن الكبيرة . الأمن والتنظيم للبلد ...

وفي هذه الأيام العصيبة الرهيبة تروج إشاعات بـأن تظاهرة تحضّر في مكانٍ مـا ، وإن أحدهم يدعو العمال والجنود لتحطيم الأمن والنظام الثوريين ... « طريق العمال » ، صحيفة البلاشفة ، تصب الزيت على النيران ، تمدح ، محاولة إرضاء النـاس غـــير المتنورين ، وتراود العمال والجنود عن أنفسهم ، محرضة إياهم ضد

الحكومة ، واعــدة بكثير من الأشياء الجميلة ... فيصدقها السذّج الجـهلة لأنهم لا يفكرون ... ومن الجهة الأخرى ، ترد شائعات تقول إن القوى السوداء وأصدقاء القيصر والعملاء الألمان يفركون أيديهم فرحاً . إنهـم على استعداد للانضمام الى البلاشفة وتحويل الاضطرابات الى حرب أهلية .

إن البلاشفة والجنود والعمال الجهلة الذين غرروا بهم يصيحون بلا معنى: « تسقط الحكومة ! كل السلطة للسوفييت ! » وخدام القيصر المشبوهون وجواسيس وليـام سوف يحضرونهم قائلين : « أضربوا اليهود، أضربوا أصحاب الحوانيت، أسرقوا الأسواق ، اجتاحوا المتاجر ، انهبوا مستودعات الخمر ! اذبحوا ، احرقوا ، اسرقوا ! »

وإذ ذاك تبدأ فوضى رهيبـة ، تبدأ حرب بين قسم من الشعب وآخر . الكل سيصبح أقل انضباطاً ، وربما أريق المزيد من الدم في شوارع العاصمة . آنذاك ، ماذا يجري آنذاك ؟

آنذاك ينفتح طريق بتروغراد أمام وليـام . آنذاك ، لن يصل الخبز الى بتروغراد ، ويموت الأطفال من الجوع . آنذاك ، يبقى الجيش على الجبهـة بدون مساعدة ، ويترك إخواننـا في الخنادق تحت رحمة رصاص العدو . آنذاك ، تفقـد روسيا كل احترام لها في البلدان الأخرى ، وتفقـد عملتنا قيمتها ؛ ويصبح كل شيء باهظ الثمن بحيث تغدو الحيـاة مستحيلة . آنذاك ، يؤجل انعقاد الجمعية التأسيسية الذي ننتظره منذ أمـد بعيد ، فيستحيل عقدهـا في الموعـد المحدّد . آنذاك : الموت للثورة ، الموت لحريتنا ...

أهذا هو ما تريدون ، يا أيها العمال والجنود ؟ كلا ! واذا لم يكن هذا ما تريدونه ، فاذهبوا الى الأناس الجهلة الذين غرّر بهم الخونة ، وقولوا لهم الحقيقة الكاملة التي نقولها لكم !

فليعلم الجميع أن كل من يدعوكم للخروج الى الشارع والتظاهر ضد الحكومة في هذه الايام الراهنة ، هو عميل سري للقيصر ، أو محرّض ، أو متواطىء مع أعداء الشعب عميل ماجور لوليام .

إن كل عامل ثوري واعٍ ، وكل فلاح واعٍ ، وكل جندي ثوري ، وجميع الذين يقدورن الضرر الذي تتعرّض له قضية الشعب نتيجة تظاهرة أو ثورة ضد الحكومة ، يجب أن يضمّوا الصفوف وأن يمنعوا أعداء الشعب من القضاء على حريتنا » .

اللجنة الانتخابية التابعة للمناشفة
المدافعين في بتروغراد

٨ – مقابلة مع كرنسكي

جرّب مراسل « أسوسياتد بريس » حظه ، فقال مبتدئاً : « سيد كرنسكي في انكلترا وفرنسا خاب ظن الناس بالثورة » .

وقاطعه كرنسكي بطريقة هزلية : « نعم ، أعلم ذلك . ولم تعد الثورة مألوفة في الخارج » !.

« ما هو تفسيرك لسبب توقف الروسيين عن القتال » !

« هذا سؤال أحمق » ، قال كرنسكي منزعجاً : « إن روسيا قد دخلت الحرب قبل جميع الحلفاء وتحملت كل أعبائها وحدهـــا طوال فترة . إن

خسائرهـــا أضخم بكثير من خسائر جميع الأمم الأخرى مجتمعـة . ويحق لروسيا الآن أن تطالب الحلفـــاء بالمشاركة بقوى أكبر » . وتوقّف للحظة محدّقاً بمحدثه . « سألت لماذا توقّف الروسيون عن القتـال ، والروسيون يسألون أين البحرية البريطانية ، مع البوارج الالمانيـــة في خليج ريغـا ؟ » وتوقّف فجأة مرّة أخرى ثم انفجر قـــائلا : « الثورة الروسية لم تخفق ، والجيش الثوري لم يخفق . ليست الثورة هي التي أحـدثت الفوضى في تنظيم الجيش – إن هذه الفوضى أحدثها العهد البائد منذ سنين . لماذا لا يحـــارب الروسيون ؟ سأقول لك . لأن جماهير الشعب منهوكة اقتصـادياً ، ولأن أملها بالحلفاء قد خاب » !

لقد أرسل الحديث الذي اثبتنـا هنـــا مقطعاً منـه بالبرق الى الولايات المتحدة،وأعادته وزارة الخارجية الأميركية بعد بضعة أيام،طالبة« تعديله ». فرفض كرنسكي ، إلا أن التعديل جرى على يـد سكرتيره ، السيد دافيد سوسكيس ، وهكذا وزّع على الصحافة في العالم بعد أن حذفت منـه جميع الاشارات الهجومية على الحلفاء ...

٣

العَشِيّة

في العلاقات بين حكومة ضعيفة وشعب ثائر ، يأتي وقت يؤدي فيه أي عمل تقوم بـه السلطات الى إثارة غضب الجماهير ، كما يؤدي أي امتنـاع عن العمل الى إثارة حقدهم .

لقد أثار الاقتراح بالتخلي عن بتروغراد عاصفـة شعبية ، وعندما نفى كرنسكي علناً أن يكون للحكومة أية نيّة للقيـام بذلك ، قوبل بصرخات الاستهزاء . فصاحت صحيفة « طريق العمال » (رابوتشي بوت) :

« بعد أن أحرجت الحكومة البرجوازية المؤقتة من جرّاء ضغط الثورة ، أخـذت تحـاول التملص من الحرج بإطلاق التأكيدات الكاذبة بأنها لم تفكر مطلقاً أن تهجر بتروغراد ، وإنها لم تكن تريد أن تسلّم العاصمة » ...

في خاركوف ، أعلن ثلاثون الف عامل منظم من عمال المناجم أنه « لا يوجد أي شيء مشترك بين الطبقة العاملة وطبقة أرباب العمل » ! ففرقتهم قوات القوزاق ، وطرد أصحـاب المنجم بعضهم ، وأعلن البعض الآخر الاضراب . فأوكل كونومالوف ، وزير التجـارة والصنـاعة ، الى مساعده أورلوف ، مهمة القضاء على الفتنة مانحاً إياه صلاحيات استثنائيـة . وكان

عمال المناجم يكرهون أورلوف إلا أن « التسايكا » لم تؤيد تعيينه فحسب ، وإنما رفضت المطالبة بسحب القوزاق الى حوض نهر الدون كذلك ..

وعقب ذلك تفريق السوفييت في « كالوغا » . فبعد أن أحرز البلاشفة أكثرية في السوفييت ، أطلقوا سراح بعض المعتقلين السياسيين . فاستدعى مجلس الدوما الجنود من « مينسك » وقصف مقر السوفييت بالمدفعية بعد موافقة « مفوّض الحكومة » . فانصاع البلاشفة ، وبينما كانوا يغادرون البناية، هاجمهم القوزاق صائحين: « هذا ما سنفعله بجميع منظمات السوفييت البلشفية الأخرى ، بما فيها سوفييت موسكو وبتروغراد ! » فأثارت هذه الحادثة موجة من الذعر في جميع أنحاء روسيا .

في بتروغراد ، كان « المؤتمر المنطقي لسوفييت الشمال » يختتم جلساته ، وقد ترأسه كيريلنكو البلشفي . فقرر ، بأغلبية ساحقة ، أن يستلم مؤتمر السوفييت العام كل السلطات ؛ وختم قراراته محيياً البلاشفة المسجونين ، طالباً منهم أن يهللوا لأن ساعة تحريرهم أضحت وشيكة . وفي الوقت نفسه ، أعلنت الندوة الاولى « للجان المصنع والمتجر في عموم روسيا » تأييدها المطلق للسوفييت ، وورد في قراراتها هذا المقطع الهام [١] .

« إن الطبقة العاملة ، بعد أن حرّرت نفسها سياسياً من الحكم القيصري ، تريد انتصار النظام الديمقراطي في مجال نشاطها المنتج . وهذا يعبر عن نفسه أصدق تعبير في سيطرة العمال على الانتاج الصناعي ، الذي نشأ، طبعاً، في جو التفكك الاقتصادي الذي خلفته سياسة الطبقات الحاكمة المجرمة » .

وكان « اتحاد عمال سكك الحديد » يطالب باستقالة ليفيروفسكي ، وزير المواصلات ...

وأصرّ سكوبيليف ، باسم « التسايكا » ، على تقــديم « التعليمات » (الناكاز) الى « نـدوة الحلفاء » ، واحتجّ رسمياً على إرسال تريشنكو الى باريس ، فأعلن هذا الأخير استعداده للاستقالة .

لعجزه عن إنجـــاز إعادة تنظيم الجيش ، كان الجنرال نيرخوفسكي يحضر جلسات مجلس الوزراء في فترات متباعدة .

في ٣ تشرين الثاني، صدرت صحيفة «أوبشي ديلو» (القضية المشتركة) ، التي يحررها بورتزيف ، بالعناوين الكبيرة التالية :

« أيها المواطنون ! أنقذوا الوطن !

لقد علمتُ لتوّه أنه في اجتماع لجنة الدفـاع الوطني ، اقترح وزير الحربية الجنرال فيرخوفسكي ، أحد المسئولين الرئيسيين عن سقوط كورنيلوف ، عقد صلح منفرد بمعزل عن الحلفاء .

هذه خيانة لروسيا !

لقد أعلن تريشنكو أن الحكومة المؤقتة لم تدرس اقتراح فيرخوفسكي .

فقال تريشنكو : « يبدو لي كأننا في مستشفى للمجانين ! »

وذهل أعضاء اللجنة من كلمات الجنرال .

وبكى الجنرال اليكسييف .

لا ! ليس الأمر جنونياً ! إنه أسوأ من ذلك . إنـه خيانة صريحة لروسيا !

المطـلوب من كرنسكي وتريشنكو ونكرازوف أن يجيبونا فوراً حول كلمات فيرخوفسكي .

هبُّوا ، أيها المواطنون !

إن روسيا تباع !

أنقذوها ! »

أما مـــا قاله فيرخوفسكي فعلاً فهو أنه يجب الضغط على الحلفاء لعرض السلم ، لأنه لم يعد بإمكان الجيش الروسي أن يقاتل .

كانت الضجة عظيمة في روسيا والخارج . مُنح فيرخوفسكي « إجـــازة مرضية غير محدودة » واستقال من الحكومة . وألغيت صحيفة « القضيـــة المشتركة » .

وأعلن أن يوم الأحد في ٤ تشرين الثـــاني سيكون « يوم سوفييت بتروغراد » ، ووضعت خطـــة لعقد اجتماعات ضخمة في جميع أنحاء المدينة غايتها ، ظاهرياً ، جمع التبرعات للتنظيم والصحافة ، وفعلياً ، إظهـــار قوّة السوفييت . وفجـــأة أعلن أن القوزاق سيسيرون في « مسيرة الصليب » في اليوم نفسه تكريماً لأيقونة عـــام ١٦١٢ التي تمّ إجلاء قوات نابليون عن موسكو بفضل قدرتها العجائبية . كان الجو متوتراً ، وأي شرارة تهـــدّد باشتعال حرب أهلية . فأصدر سوفييت بتروغراد بياناً بعنوان : « أيهـــا الأخوة القوزاق ! »

« إنهم يحرضونكم ، أيها القوزاق ، ضدنا ، نحن العمال والجنود. إن أعداءنا المشتركين ، من مستغلين وطبقات ذات امتيازات ، وجنرالات واصحاب المصارف وملاك الأراضي وموظفين سابقين وخدام القيصر ، ينفذون خطـــة قايين ... إن جميع المرتشين والأثرياء والأمراء والنبلاء والجنرالات ، بمـــا فيهم جنرالات القوزاق ، يكرهوننا . وهم مستعدون ، في أية لحظة ، ان ينسفوا سوفييت بتروغراد وان يسحقوا الثورة ..

في يوم ٤ تشرين الثاني سينظم البعض مسيرة دينية للقوزاق . إن اشتراك المرء أو عدم اشتراكه فيها يعود الى ضميره الحي . إننا لا نتدخل في هذا الشأن، ولا نعرقل عمل أحد... ولكننا، ننذركم ، يا قوزاق ! احذروا ، ولا تستمعوا الى تحريض أمثال خالدين ضد العمال وضد الجنود بحجة « مسيرة الصليب » ...

فألغيت المسيرة بسرعة ...

كان البلاشفة يبشرون في الثكنات والمناطق العمالية في المدينة « كل السلطات للسوفييت ! » في حين يحث عملاء قوى الظلام الشعب على الانقضاض وذبح اليهود وأصحاب الحوانيت والقادة الاشتراكيين ...

من جهة الصحافة الملكية تحرّض على القمع الدموي ؛ ومن جهة أخرى يزأر صوت لينين المدوّي : « الثورة ... لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك ! » .

حتى الصحافة البرجوازية كانت مرتبكة [٢] . فقد اتهمت « مجلة البورصة » الدعاية البلشفية بأنها هجوم « على أبسط مبادىء المجتمع الأولية ، السلامة الشخصية ، واحترام الملكية الخاصة » .

إلا أن صحف الاشتراكيين « المعتدلين » كانت الأكثر عداء [٣] . أعلنت صحيفة « ديلو نارودا » (قضية الشعب) : « أن البلاشفة هم أخطر أعداء الثورة » . وكتبت صحيفة المناشفة « دين » (اليوم) : « يجب على الحكومة أن تحمي نفسها وتحمينا » . أما صحيفة بلخانوف « يديلستوفا » (الوحدة) [٤] ، فقد لفتت نظر الحكومة الى أن عمال بتروغراد يتسلحون ، مطالبة باتخاذ إجراءات حازمة ضد البلاشفة .

وبدت الحكومة أكثر فأكثر عجزاً يوماً بعد يوم . حتى الادارة البلدية

أخذت تنهار وكانت صحف الصباح مليئة بأخبار أكثر السرقات والجرائم وقباحة ، في حين ظلّ المجرمون طليقي الأيدي .

من جهة أخرى ، كان العمال المسلحون يجوبون الشوارع ليلاً ، ويشتبكون مع اللصوص ويصادرون الأسلحة أينما وجدوها .

وفي أول تشرين الثاني، صدر البلاغ التالي عن الكولونيل بولكوفنيكوف حاكم مدينة بتروغراد العسكري :

« رغم الأيام العصيبة التي يمر بها البلد ، فإن النداءات غير المسؤولة تحث على التظاهرات المسلحة والمجازر تعم بتروغراد ، والسرقة والفوضى تتزايدان يوماً بعد يوم .

إن الحالة هذه تزرع الفوضى في حياة المواطنين ، وتعيق عمل الحكومة والبلديات المنتظم .

وعياً مني لمسئوليتي وواجبي تجاه وطني ، آمر بما يلي :

١- يتوجب على كل وحدة عسكرية ، بمقتضى التعليمات الخاصة بها ، وضمن حدود عمل الحامية التي تنتمي اليها ، أن تقدّم كل مساعدة للبلدية والمفوضين والميليشيا للحفاظ على المؤسسات الحكومية .

٢- تنظيم الدوريات ، وبالتعاون مع قائد المنطقة ومع ممثلي ميليشيا المدنية ، واتخاذ إجراءات لإلقاء القبض على المجرمين والهاربين .

٣- إلقاء القبض على جميع الذين يدخلون الثكنات ليحثوا على التظاهرات المسلحة والمجازر ، وتسليمهم الى مقرّ نائب حاكم المدينة .

٤– قمع أية تظاهرة مسلحة أو أي شغب عند بدايته ، بواسطة جميع القوى المتوفـّرة .

٥– تقـــديم المساعدة للمفوضين في الحيلولة دون حدوث تفتيش كيفي للمنازل واعتقالات كيفية .

٦– إبلاغ قيادة منطقة بتروغراد العسكرية فوراً بجميع ما يحدث في القطاع الذي تعمل فيه الوحدة العسكرية .

إني أدعو جميع لجـــان الجيش وجميع المنظمات الى مساعدة القادة في القيام بالمهمات الموكلة اليهم » .

أعلن كرنسكي في مجلس الجمهورية أن الحكومة على علم تام بمـــا يحضّر له البلاشفة ، وأنها تملك القوة الكافية للردّ على أية تظاهرة [٥] . واتهم صحيفتي « نوفايا روس » (روسيا الجديدة) و « رابوشي بوت » (طريق العمّال) بأنهما تقومان بالعمل المخرّب نفسه . ثم أضاف : « ولكن ، نظراً لحريـــة الصحافة المطلقة ، فإن الحكومة ليست في وضع يسمح لهـــا أن تحارب الاكاذيب المطبوعة » ... وبعد أن أعلن أن اقوال الصحيفتين همـــا وجهان لدعاية واحدة تهدف الى الثورة المضادة التي تتمناها بشدّة « قوى الظلام » ، أردف قائلاً : « أنا انسان هالك ، لا يهم ماذا يجري لي ، واني املك الجرأة على القول أن القسم الآخر من اللغز هو حـــالة الاستفزاز المنيفة التي خلقها البلاشفة في المدنية » !

في ٢ تشرين الثاني كان خمسة عشر مندوباً لمؤتمر السوفييت قـــد حضروا فقط . وفي اليوم التالي ، أصبحوا مئة ؛ وفي صباح اليوم الذي تـــلاه ، اصبحوا مئة وخمسة وسبعين بينهم مئـــة وثلاثة مندوب بلشفي ... النصاب يحتاج الى اربعمائة مندوب ، والمؤتمر سيعقد بعد ثلاثة أيام .

قضيت وقتاً طويلاً في « سمولني » . لم يعد سهلاً دخولها . كانت مفرزتان من الحرس تحرسان البوابة الخارجية ، وما أن تدخل البوابة الامامية حتى تجد صفاً طويلاً ينتظر الدخول ، ويجري استجواب كل دفعـة من اربعة اشخاص عـن هويتها وشغلها . ووزعت الأذونات ، وكان يجري تغيير نظام الأذونات كل بضعة ساعات لأن الجواسيس كانوا يتسللون الى الداخـل باستمرار .

ذات يوم ، وأنا أقترب من البوابـة الخارجية ، رأيت تروتسكي وزوجته قدّامي وقـد أوقفهما أحد الجنود . تروتسكي يفتّش في جيوبه ولكنه عبثاً يجد إذنه .

فقال اخيراً : « لا بأس . انت تعرفني . اسمي تروتسكي » .

فأجابه الجندي بعناد : « ما معك إذن . لا تستطيع الدخول . الاسماء لا تعني شيئاً بالنسبة لي » .

— « ولكني رئيس سوفييت بتروغراد » !

« حسناً ! إذا كنت مهماً الى هذا الحد ، يجب أن يكون معك قصاصة ورق صغيرة على الأقل » .

كان تروتسكي جد صبور : « دعني أُقابل القائد » . فتردد الجندي وتمتم ما معناه أنه لا يريد إزعاج القائـد في كل مناسبة يأتي فيهـا شخص بدون إذن . ثم أومأ أخـيراً الى الجندي المسئول عن الحرس . فشرح له تروتسكي الوضع مردداً : « إسمي تروتسكي » .

« تروتسكي ؟ » وحك الجندي الآخر رأسه . ثم قال أخيراً : « سمعت هذا الاسم في مكان ما . أظن أن لا بأس . تستطيع أن تدخل يا رفيق » .

قابلتُ كاراخان ، عضو اللجنــة المركزية لحزب البلاشفــة ، في المشى وفسّر لي كيف ستكون الحكومة الجديدة :

« هي منظمة منفتحة ، حسّاسة للادارة الشعبية التي تعبّر عن نفسها من خلال السوفييت ، مفسحة المجال أمام القوى المحلية لكي تلعب دورهــا . الحكومة المؤقتــة ، حاليــاً ، تعيق عمل الادارة الديمقراطية المحلية ، تماماً مثلما فعلت حكومة القيصر . إن المبادرة في بنــــاء مجتمع جديــد سوف تأتي من تحت ... وسيكون شكل الحكومة عـــلى غرار دستور حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، فتكون « التسايكا » الجديدة، المسئولة تجــاه الاجتماعات المستمرة لمؤتمر السوفييت العــام ، هي البرلمان ؛ وتترأس اللجــان عمل الوزارات المختلفــة عوضاً عن الوزراء ، وتكون مسئولة مسئولية مباشرة تجاه السوفييت » .

في ٣٠ تشرين الاول ، كنتُ على موعــد لإجراء حديث مع تروتسكي ، فقصدت غرفة جرداء صغيرة في الطابق العلوي من « سمولني » . وكان يجلس في وسط الغرفة على كرسي عتيق وراء طاولة فارغة . لم يكن عليّ سوى أن أســـأل بضعة أسئلة ، فقد تكلم بسرعة ودون انقطاع طوال أكثر من ساعة . وفيما يلي ملخّص أقواله بكلماته هو :

« الحكومة الموقتة عاجزة تماماً. البرجوازية هي التي تسيطر، ولكن هــذه السيطرة مقنّعة بتحــالف وهمي مع الأحزاب « المدافعة » . اننا نشاهد الآن، في ظل حكم الثورة ، إنتفاضات الفلاحين الذين ملّوا انتظار الأراضي التي وُعدوا بها . كما يتجلى نفس القرف في جميع أنحــاء البلاد وفي أوساط جميع الطبقــات الكادحة . إن سيطرة البرجوازية هذه ليست ممكنة إلا بواسطة

حرب أهليـة . ووسيلة كورنيلوف هي الطريق الوحيـد الذي يؤمن سيطرة البرجوازية . ولكن البرجوازية تفتقر الى القوة... فالجيش معنا . وقـد فقد المساومون ودعـاة المصالحة ، من اشتراكيين ثوريين ومناشفة، كل سلطة ، لأن الصراع بين الفلاحين ومـلاّك الأرض ، وبين العـمال وأرباب العمل ، وبين الجنود والضباط قد أصبح أكثر مرارة وأكثر بعداً عن إمكان المصالحة من أي وقت مضى . إن تحقيق الثورة وخلاص الشعب لا يمكن أن يتما إلا بنضال الجماهير الشعبية المنسجم، إلا بانتصار دكتاتورية البروليتاريا .

إن منظمات السوفييت هي أصدق ممثل للشعب . إنهـا كاملة بتجربتهـا الثورية وبأفكارها وأهدافها . إنهـا العامود الفقري للثورة ، لأنها تعتمد مباشرة على الجيش في الخنادق ، والعـمال في المصانع ، والفلاحين في الحقول .

لقد جرت محاولة لإقامـة سلطة بدون السوفييت ، فكان مصيرهـا الفشل . إن مختلف أنواع الخطط المضـادة للثورة ترى النور حاليـاً في أروقة مجلس الجمهورية الروسية . إن حزب الكاديت يمثل القطاع المقاتل من الثورة المضادة . تقابله ، في الجهة الثانية ، السوفييت التي تمثل قضيـة الشعب . ولا توجد مجموعات ذات أهمية قصوى بين هذين المعسكرين ... هذه هي المعركة الأخيرة الحاسمة . الثورة البرجوازية المضادة تستجمع جميع قواها وتنتظر اللحظة الملائمة للانقضاض علينا . إن جوابنا سيكون حازمـاً . سوف ننجز العمل الذي بدأ تقريباً في آذار ، والذي تقدّم خلال مؤامرة كورنيلوف » ...

ثم انتقل للحديث عن السياسة الخارجية للحكومة الجديدة :

« سيكون أول عمل نقوم به هو الدعوة إلى الهدنة على جميع الجبهات وإلى انعقاد ندوة للشعوب لمناقشة شروط سلم ديمقراطي. إن كمية الديمقراطية التي سوف نتمكن من إدخالها الى اتفاقية السلم تعتمد على كمية الاستجابة الثورية الموجودة في أوروبا. إذا خلقنا هنا حكومة للسوفييت، فسوف يكون ذلك ركناً أساسياً في تحقيق سلم ناجز في أوروبا؛ لأن هذه الحكومة سوف تتوجه فوراً ومباشرة إلى جميع الشعوب، من فوق رؤوس حكوماتها، عارضة عليها الهدنة. وعندما يحين موعد توقيع اتفاقية الصلح، سيكون ضغط الثورة الروسية باتجاه المطالب التالية : «لا دمج. لا تعويض. حق الشعوب في تقرير مصيرها»، وبناء جمهورية فيدرالية أوروبية ...

وعند انتهاء هذه الحرب، أرى أوروبا قد خلقت من جديد بواسطة البروليتاريا وليس بواسطة الدبلوماسيين. جمهورية فيدرالية في أوروبا — الولايات المتحدة الأوروبية — هذا ما يجب تحقيقه. لم يعد الحكم الذاتي القومي يكفي. إن التطور الاقتصادي يفرض إزالة الحدود القومية. وإذا ظلّت أوروبا مجزأة إلى مجموعات قومية، فإن الامبريالية سوف تعاود نشاطها. إن جمهورية أوروبا الفيدرالية هي وحدها التي تستطيع تأمين السلام للعالم ».

وارتسمت على وجهه ابتسامته الرقيقة الساخرة بعض الشيء وأضاف :

« ولكن بدون نضال الجماهير الأوروبية لا يمكن تحقيق هذه الأهداف الآن » ...

بينما كان الجميع ينتظر أن يظهر البلاشفة في الشوارع فجأة ، ذات صباح، وأن يطلقوا الرصاص على كل ذي ياقة بيضاء ، أخذت الثورة الحقيقة مجراها بشكل جد طبيعي وعلني .

قررت الحكومة المؤقتة إرسال حامية بتروغراد إلى الجبهة . وكانت هذه الحامية تضم حوالي ستين الف جنـــدي ، ممن لعبوا دوراً بارزاً في الثورة . فهم الذين رجّحوا كفة الميزان في أيام آذار العظيمـــة ، وأنشأوا سوفييت مندوبي الجنود ، وصدّوا هجوم كورنيلوف عن أبواب بتروغراد .

وكان القسم الأكبر منهم قد انضمّ إلى البلاشفة. وعندما تحدثت الحكومة عن إخلاء العاصمة ، كانت حامية بتروغراد هي التي أجابتها : « إذا كنتم لا تستطيعون الدفاع عن العاصمة ، فاعقدوا الصلح ، واذا كنتم لا تستطيعون عقــد الصلح ، فافسحوا المجال أمـــام حكومة الشعب التي تستطيع أن تحقق كلا الهدفين » .

وكان واضحاً أن أية محاولة للقيـــام بثورة تعتمـــد على موقف حامية بتروغراد . وكانت خطة الحكومة استبدال أفواج الحامية بوحدات « يمكن الاعتماد عليها » من القوزاق ، وفيـالق الموت . وحظيت الحكومة بتأييـد لجان الجيش والاشتراكيين « المعتدلين » و « التسايكا » . فشنت حملة دعائية واسعة في الجبهة وفي بتروغراد تؤكد أن جنود حاميـــة بتروغراد يعيشون حياة مترفة ، منذ ثمانية أشهر في ثكنات العاصمـــة ، في حين يجوع رفـاقهم المنهكون ويموتون في الخنادق .

لا شك في أن التهمة القائلة أن أفواج الحاميـــة كانت مترددة في استبدال راحتها النسبية بمصاعب الحملة الشتوية تحوي بعض الحقيقـــة . ولكن كانت توجد أسباب أخرى لرفضهم الذهاب . كان سوفييت بتروغراد يتوجّس شراً

من نوايا الحكومة ، وجاء مئـات المندوبين من الجبهـــة ممن انتخبهم الجنود العاديون صائحين : « صحيح أننا بحاجة الى إمدادات ، ولكن الأهم من ذلك هو أن نتأكد أن بتروغراد والثورة محروستان حراسة جيّـــدة .. إحموا المؤخرة ، يا رفاق ، ونحن نحمي الجبهة » !

في ٢٥ تشرين الأول ، ناقشت اللجنـه المركزية لسوفييت بتروغراد ، سراً ، موضوع تكوين لجنـة عسكرية خاصـة لتبت بالأمر كله . وفي اليوم التالي ، تمّ ، في اجتماع قطاع الجنود التابع لسوفييت بتروغراد ، انتخـاب لجنـة أعلنت فوراً مقاطعـــة الصحافـة البرجوازية ، وأدانت « التسايكا » لمعارضتها انعقاد مؤتمر السوفييت ؛ وفي ٢٩ منه ، اقترح تروتسكي، في اجتماع علني لسوفييت بتروغراد ، أن يوافق السوفييت رسمياً على تشكيل اللجنـة العسكرية الثورية ، قائلاً : « يجب أن نخلق منظمة خاصة تسير الى المعركة وتموت إذا اقتضى الأمر » ... وتقرّر إرسال وفدين الى الجبهة ، وفـد عن السوفييت وآخر عن الحامية ، للتشاور مع لجان الجنود والقيادة العامة .

وفي « بسكوف » ، قابل الجنرال تشيريميزوف ، قائد الجبهـة الشمالية ، موفدي السوفييت وقال لهم باختصار أنه قد أصدر أمراً الى حامية بتروغراد بالانتقال الى الجبهة وأن هذا كل ما في الأمر . هذا وقد مُنِـعَ وفد الحاميـة من مغادرة بتروغراد .

وطالب وفد من قطاع الجنود في سوفييت بتروغراد تمثيله في قيادة منطقة بتروغراد العسكرية . فرفض الطلب كذلك، وقيل للموفدين برعونة : « إننا لا نعترف إلا « بالتسايكا » . إننا لا نعترف بكم ؛ وسوف نقتلكم إذا خالفتم القانون » .

في ٣٠ منه ، قرّر اجتماع ممثلي جميع أفواج بتروغراد ما يلي :

« إن حامية بتروغراد لم تعد تعترف بالحكومة المؤقتة . إن سوفييت بتروغراد هو حكومتنـــا . ولن نطيـع إلا أوامر سوفييت بتروغراد من خلال اللجنة العسكرية الثورية » .

وصدرت أوامر الى الوحدات العسكرية المحليـــة أن تنتظر تعليمات من قطاع الجنود في سوفييت بتروغراد .

وفي اليوم التالي ، دعت « التسايكا » الى عقـــد اجتماعها المؤلف بشكل خاص من الضباط ، وشكلت لجنة للتعاون مـع القيادة العسكرية ، وعيّنت مفوضين في جميع أحياء المدينة .

وفي اجتماع كبير للجنود في « سمولني » في ٣ منه ، تقرّر ما يلي :

« بعد أن نحيّي إنشاء اللجنة العسكرية الثورية ، تعد حامية بتروغراد هذه اللجنة بتأييدها المطلق في جميع اعمالها في سبيل وحدة اوثق بين الجبهة والمؤخرة من أجل مصالح الثورة .

وإلى جانب ذلك ، فإن الحامية تعلن بأنها سوف تحافظ على الأنضباط الثوري في بتروغراد بالتعاون مع البروليتاريا الثورية . إن أية محاولة استفزاز يقوم بهـا جماعة كورنيلوف او البرجوازية سوف تقابل بمقاومة ضارية » .

الآن ، وبعـد أن أصبحت مدركة لقوتها ، وجهت « اللجنة العسكرية الثورية » أمراً حازماً الى قيادة منطقة بتروغراد العسكرية بالامتثال لسلطتها. وأصدرت أوامر الى جميع المطابع بعـدم نشر أية نداءات أو بلاغات بدون موافقتها . وتوجّه مفوضون مسلحون الى مخزن « كرونفرسك » واستولوا على كميات وفـيرة من السلاح والذخيرة ، موقفين شحنة تحوي عشرة آلاف حربة كانت مرسلة الى « نوفوشيركاسك » ، المقرّ العام لخالدين ...

وفجأة ، أفاقت الحكومة على الخطر ، فعرضت العفو على اعضاء اللجنة إذا ما حلـّت نفسها . ولكن بعد فوات الأوان. وفي منتصف ليل ٥ تشرين الثاني ، أرسل كرنسكي ماليفسكي ليعرض على سوفييت بتروغراد تمثيله في القيادة العسكرية . فقبلت اللجنة العسكرية الثورية . وبعـــد مضي ساعة ، أقدم الجنرال مانيكوفسكي ، وزير الحربية بالوكالة ، على سحب العرض .

في صباح يوم الثلاثاء في ٦ تشرين الثاني ، كانت المدنية في حـالة هيجان بسبب ظهور بلاغ يحمل توقيع « اللجنة العسكرية الثورية الملحقة بسوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود » .

« الى شعب بتروغراد . أيها المواطنون !

إن الثورة المضادة قـــد رفعت رأسها المجرم . وجماعة كورنيلوف تستجمع قواها لسحق مؤتمر السوفييت العام وتحطيم الجمعية التأسيسية . وفي الوقت نفسه، قد يحاول المشاغبون دعوة شعب بتروغراد الى إثارة الاضطرابات وسفك الدمـاء . إن سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود يأخذ على عاتقه تأمين النظام الثوري في المدينـــة ضد جميع محاولات الثورة المضادة وأعمال الشغب .

إن حامية بتروغراد ترفض السماح بأي أعمال عنف أو تعكير للأمن. وهي تطلب من السكان أن يقبضوا على المتآمرين والمحرضين الذي ينتمون الى منظمة « المئات السوداء » ، وأن يسوقوهم الى مفوضي السوفييت في أقرب ثكنة . عند اول محاولة تقوم بهـا قوى الظلام لإثارة المشاكل في شوارع بتروغراد ، إن بواسطة السرقة أو بواسطة القتال ، فإن المجرمين سوف يمحون عن سطح الأرض !

أيها المواطنون ! إننا ندعوكم الى المحافظة على الهدوء التـام والسيطرة على النفس . إن قضية النظام والثورة بين أيـدٍ قوية أمينة .

لائحة الأفواج حيث يوجـــد مفوضو اللجنة العسكرية الثورية ... »

في ٣ منه، عقد قادة البلاشفة اجتماعاً تاريخياً سرياً آخر . أعلمني زالكنيد بالأمر ، فانتظرت في المشى خارج الباب ، وكان فولودارسكي يوافيني بآخر الأخبار كلما خرج .

تكلم لينين قائلاً : « ٦ تشرين الثاني سيكون باكراً جداً . يجب أن تكون ثمة قاعدة عامة في كل البلاد ترتكز اليها الانتفاضة ؛ وفي ٦ منه ، لن يكون مندوبو المؤتمر قـد وصلوا بعد ... ومن جهة أخرى ، ففي ٨ تشرين الثاني تكون الفرصة قد فاتت . حينذاك ، يكون المؤتمر قد انتظم، فيصعب على هيئة تحوي عدداً كبيراً من الناس المنظمين أن تأخذ قراراً سريعاً حاسماً. يجب أن نتحرّك في ٧ تشرين الثاني ، يوم انعقاد المؤتمر ، فنتوجه إليـــه قائلين : « هذه هي السلطة بين أيديكم ! ماذا ستفعلون بها ؟ » .

في غرفـــة من غرف الطابق الأعلى ، يجلس رجل ذو وجه نحيل وشعر طويل،كان ضابطاً في جيوش القيصر ثم أصبح ثورياً ونُفي . إنه اوفسينكو، الملقّب انطونوف ، عالم الحساب ولاعب الشطرنج الذي كان يعدّ الخطط المحكمة للسيطرة على العاصمة .

الحكومة تتهيأ من جهتهـــا . فاستدعت بعض الأفواج الموالية ، بشكل خفي، من وحدات جدّ متباعدة . وجلبت مدفعية « النيكرز » * الى قصر

* « النيكرز » هو الاسم الرسمي لطلاب كليات الضباط .

الشتـــاء . وظهرت دوريات القوزاق لأول مرّة في الشوارع في أيام تموز . وأصدر بولكوفنيكوف الأمر تلو الأمر مهدداً بقمع أي عصيان «بحزم تام». وجرى تعيين كيشكين ، وزير التربيـــة وأكره الوزراء في أعين الشعب ، مفوضاً خاصـــاً مهمته حفظ الأمن في بتروغراد ؛ فاختار لمعاونته رجلين مكروهين بقدر ما هو مكروه هما روتنبرغ وبالشينسكي . وأعلنت حـــالة الحصار في بتروغراد وكرونستاد وفنلندا ، ممـــا أدّى بصحيفة « الأزمنة الحديثة » البرجوازية الى أن تعلـّق بسخرية قائلة :

« لماذا أعلنت حالة الحصار ؟ لم تعد الحكومة قوّة . انهـا لا تملك السلطة المعنوية ولا الجهاز اللازم لفرض قوّتها ... وهي، في أحسن الحالات ، لا تستطيع أكثر من أن تفاوض أي طرف مستعد للتفاوض . إن سلطتها لا تتعدى ذلك ... »

في صباح يوم الاثنين في ٥ منه ، مررت بقصر « مارينسكي » لكي أطلع على الذي يجري في مجلس الجمهورية الروسية : نقـــاش مرير حول سياسة تريشنكو الخارجية . أصداء قضية بورتزيف – فيرخوفسكي . وقـــد حضر جميع الدبلوماسيين ما عدا السفير الايطالي الذي روى الجميع عنه أنـــه يعاني من انهيار نفسي من جرّاء كارثة « كورزو » .

دخلتُ وكاريلين ، الاشتراكي الثوري اليساري ، يقرأ افتتاحية صحيفة « التـايمز » اللندنية التي تقول : « إن علاج البلشفية هو الرصاص ! » . ثم التفت الى الكاديت صائحاً : « هذا رأيكم أنتم كذلك ! »

أصوات من اليمين : « إي ! إي ! »

ويجيب كاريلين بحدّة : « بلى . أعلم أن هذا رأيكم . ولكنكم لا تملكون الجرأة الكافية للقيام به ! »

ثم جاء دور سكوبيليف وقد بدأ مثل نجم سينمائي ناجح بلحيته الشقراء الملساء وشعره الأصفر المتماوج ، فدافع ، بما يقارب الاعتذار ، عن « تعليمات » السوفييت . وتلاه تريشنكو تقابله من اليسار صيحات : « الاستقالة ! الاستقالة ! » فأصّر على أن يكون لمندوبي الحكومة « والتسايكا » الى باريس وجهة نظر واحدة ، وجهة نظره هو . ثم تكلم قليلاً عن إعادة الانضباط الى الجيش وعن تحويل الحرب الى انتصار ... وتعالت جلبة ، ورغم المعارضة العنيدة التي شنتها اليسار بضراوة ، انتقل مجلس الجمهورية الى الجدول العادي لأعمال اليوم .

وكانت صفوف مقاعد البلاشفة خالية منذ اليوم الأول الذي انسحبوا فيه من المجلس حاملين معهم الكثير من الحيوية . وبينما كنت أنزل السلّم ، بدا لي أن ما من صوت حقيقي من هذا العالم الفظ في الخارج يستطيع أن يخترق جدران هذه القاعة العالية الباردة ، وأن الحكومة المؤقتة قد تحطمت على صخرة الحرب والسلم نفسها التي تحطمت عليها وزارة مليوكوف ... وتذمر البواب وهو يلبسني معطفي « لا أدري ماذا حلّ بروسيا المسكينة . كل هؤلاء المناشفة والبلاشفة والترودوفيك ... وأوكرانيا والاستعماريون الالمان والاستعماريون الانكليز ... عمري خمساً وأربعين سنة ، وطوال حياتي لم أسمع عدداً من العبارات كالذي اسمعه في هذا المكان » .

في المشى قابلت البروفسور شاتسكي ذا وجه الجرذ وهو يرتدي معطفاً أنيقاً ، وكان يتمتع بنفوذ كبير في أوساط حزب الكاديت . فسألته عن رأيه في التظاهرة البلشفية المسلحة التي كثر اللغو حولها . فهزّ كتفيه هازئاً . وأجاب :

« إنهم خرفسان ! لن يتجرأوا على ذلك ، وحتى لو تجرأوا فسوف يقضى عليهم . لن يكون الأمر سيئاً بالنسبة لنا ،

لأنهم سيجلبون الكارثة على أنفسهم ويفقدون قوتهم في الجمعية التأسيسية ...

ولكن ، اسمح لي ، يا سيدي العزيز ، أن أعرض عليك خطتي التي سأقدمها الى الجمعية التأسيسية حول تشكيل الحكومة. أنا ، كما تعلم ، رئيس لجنة عينتها هذه الهيئة بالتعاون مع الحكومة المؤقتة لتقديم مشروع دستور ... سيكون لنا جمعية تشريعية ذات مجلسين ، مثلما يوجد عندكم في الولايات المتحدة . فيضمّ المجلس الأدنى ممثلي المناطق ، ويضمّ المجلس الأعلى ممثلي المهن الحرّة والزيمستوفا والتعاونيات والنقابات » ...

في الخارج هبّت ريح غريبة رطبة وباردة، وأخذ الوحل ينفذ الى حذائي. ومرّت سريّتان من « النيكرز » مخترقة شارع « مورسكايا »، يدقّ أفرادها الأرض بخطاهم الثابتة وهم يرتدون المعاطف الطويلة ، وينشدون لحناً قديماً مدوياً من أيام القيصر ... عند أول مفترق طرق ، لاحظت أن أفراد ميليشيا المدينة يمتطون الأحصنة ويتمنطقون المسدسات في أغماد برّاقة جديدة ، بينما وقف جمع صغير من الناس يحدّق بهم بصمت . وعند زاوية « شارع نيفسكي » ، اشتريت منشوراً للينين بعنوان « هل يستطيع البلاشفة الاحتفاظ بالسلطة ؟ » ، ودفعت ثمنه إحدى الطوابع التي يستعاض عنها بالقطع الصغير. ومرّت السيارات العامة تجرجر نفسها ، والجنود متعلقون بها من الخارج ... وعلى طول الرصيف صف من الفارين من الجيش ، بزيّهم العسكري ، يبيعون السجائر وحبوب زهرة « دوار الشمس » .

وفي « شارع نيفسكي » ذاته ، كانت الجموع تتنازع آخر الصحف مع دغشة الغروب ، بينما تتدافع حلقات الناس لقراءة العدد الكبير من النداءات والبلاغات الملصوقة على كل مكان فارغ أملس ، صادرة عن « التسايكا » ،

وسوفييت الفلاحين ، والأحزاب الاشتراكية « المعتدلة » ، ولجان الجيش ، مهدّدة ، شاتمة ، ومتضرعة الى العمال والجنـــود أن يلزموا بيوتهم وأن يؤيدوا الحكومة (٦) .

سيارة مصفحة تعبر الشارع وتطلق زعيق صفارتها . وعند كل زاوية ، وفي كل فسحة تتحلق مجموعات كبيرة من الجنود والطلاب تتناقش فيما بينها . وهبط الظلام بسرعة وأضيئت أنوار الشارع المتباعدة ، وتدفقت موجات من الناس لا حصر لهـا ولا عـد ... هذا ما يحدث دائماً في بتروغراد قبـل حدوث الاضطرابات .

المدينة عصبية . تهب عند سماع أدنى صوت . ولكن لا أثر للبلاشفة ، فلازم الجنـود ثكناتهم والعمال مصانعهم ... دخلنـا عرضاً سينمائيـاً قرب « كاتدرائية قازان » ، وكان فيلمـاً إيطالياً دمويـاً عن الغرام والدسائس . وقد جلس ، في الصفوف الأمامية ، بعض الجنود والبحارة يحدقون بالشاشة بدهشة طفوليـة ، عاجزين تماماً عن فهم لماذا يدور هـذا القدر من العنف والقتال ...

من هنـاك أسرعت الى « سمولني » . وفي الغرفـة رقم ١٠ في الطابق الأعلى ، كانت اللجنة العسكرية الثورية تعقـد اجتماعاً متواصلاً برئاسة صبي في الثامنة عشر من عمره ، مرفوع الرأس ، يدعى لازيمير . وكان مـاراً ، فتوقف وصافحني ببعض الخجل وقال بابتسامة رضية : « استولت قواتنـا على « حصن بطرس – بولس » . منذ لحظـة بلغنا الخبر من فوج أمرتـه الحكومة بالتوجّه الى بتروغراد ، فارتاب الرجـال بالأمر ، وأوقفوا القطار في « غاتشينا » وأرسلوا وفداً الينا يسأل : ما الأمر ؟ ما هي أوامركم الينا ؟ لقد اتخــذنا قراراً لتوّه : كل السلطات للسوفييت ؟ فردّت عليهم اللجنة العسكرية الثورية : « أيهـــا الأخوة : نحييكم باسم الثورة . إلزموا أمكنتكم بانتظار تعليمات جديدة » !

وأبلغني أن جميع خطوط الهاتف مقطوعة ، إلا أن الاتصال بالمصانع والثكنات يجري بواسطة جهاز للتسجيل الهاتفي تابع للجيش .

تيّار متواصل من الرسل والمفوضين يروح ويجيء. وخارج الباب، عشرات المتطوعين ينتظرون ، مستعدين لنقل الرسائل الى أبعد أحياء المدينة . وقال أحدهم بالفرنسية، وهو رجل ذو وجه غجري يرتدي بزة ملازم : « كل شيء جاهز ويتحرك عند الضغط على الزر » ...

ومرّ بودفويسكي ، المدني النحيل الملتحي الذي وضع استراتيجية الثورة * ثم انطونوف بدون حلاقة وبياقة متسخة وقد بدا ثملاً من قلّة النوم ؛ ثم كريلنكو ، الجندي الأحدب ذو الوجه العريض الدائم الإبتسام بحركاته العنيفة وكلامه المنقطع ؛ وأخيراً ديبنكو ، البحّار العملاق الملتحي بوجهه الهادىء . هؤلاء كانوا رجال الساعة ، ورجال الساعات المقبلة .

في الطابق الأسفل جلس سيراتوف في مكتب « لجان المصنع والمتجر »

---

* في قول ريد بعض المبالغة . إن المخطط الرئيسي لستراتيجية الثورة هو تروتسكي ، رئيس سوفييت بتروغراد ورئيس اللجنة العسكرية الثورية . ولعل أصدق شهادة على ذلك هي ما يقوله ستالين ، عدوه الألد :

« إن كل التنظيم العملي للثورة جرى تحت قيادة الرفيق تروتسكي المباشرة، بصفته رئيساً لسوفييت بتروغراد . ومن الممكن أن نقول قول اليقين أنه فيما يتعلق بالانتقال السريع للحامية (حامية بتروغراد) الى جانب السوفييت ، والتنفيذ الجريء لعمل اللجنة العسكرية الثورية ، فإن الحزب مدين بهما أولاً وبشكل خاص للرفيق تروتسكي » .

(ستالين : « دور أبرز قادة الثورة » ، صحيفة « البرافدا » ، العدد ٢٤١ — عام ١٩١٨ — هذا النص موجود ايضاً في الطبعة الرسمية لكتاب ستالين « ثورة تشرين الثاني » باللغة الانكليزية ص ٣٠ — وظل منشوراً في « مؤلفات ستالين الكاملة » الجزء ٤ ص ١٥٤ حتى عام ١٩٤٧ عندما حذف ومنع المؤرخون السوفييت من الاستشهاد به) .

(المترجم)

يوقّع الأوامر الموجهة الى مخزن الحكومة لتسليم السلاح : مئة وخمسون بندقية لكل مصنع . وكان حوالي أربعين مندوباً يقفون في الصف . .

مررت في القاعة ببعض البلاشفة من أبناء القاعدة . وشهر أحدهم مسدساً وقال بوجه شاحب : « تمت اللعبة . إذا تحركنا أو لم نتحرك ، فإن الجبهة الثانية تعلم أنه يجب عليها أن تقضي علينا وإلا هلكت » . . .

كان سوفييت بتروغراد منعقداً ليل نهار ، فدخلت القاعة الكبرى وتروتسكي يوشك أن ينهي كلمته :

« يسألوننا إذا كنا ننوي القيام بتظاهرة مسلّحة . أستطيع أن أُجيب بوضوح على هذا السؤال. إن سوفييت بتروغراد يشعر أن الوقت قد حان أخيراً لتنتقل السلطة الى أيدي السوفييت . إن المؤتمر العام هو الذي سيحقق تغيير الحكومة . إن ضرورة التظاهرة المسلحة تتوقف على الذين يريدون التدخل في شؤون المؤتمر العام .

إننا نشعر أن حكومتنا ، وقد تسلّمها موظفو الوزارة المؤقتة ، هي حكومة عاجزة تدعو الى الشفقة ، وهي تنتظر مكنسة التاريخ لكي تخلي المجال أمام حكومة شعبية حقيقية . ولكننا ، حتى في هذا الوقت ، اليوم ، نحاول أن نتفادى الصراع. إننا نأمل أن يأخذ المؤتمر العام على عاتقه الحكم والسلطة التي تقوم على حرية الشعب المنظمة . ولكن، إذا كانت الحكومة تريد أن تستغلّ ما تبقّى لها من حياة – أربع وعشرون ساعة، ثماني وأربعون ساعة أو إثنان وسبعون ساعة – لتهاجمنا ، إذ ذاك سوف نجيب بالهجمات المضادة ، فنردّ الكيل كيلين ونقلّ الحديد بالفولاذ » ! .

ثم أعلن ، وسط المتسافات ، ان الاشتراكيين الثوريين اليساريين قد وافقوا على ارسال ممثليهم الى اللجنة العسكرية الثورية .

بينما كنت اغادر « سمولني » ، في الساعة الثالثة صباحاً ، لاحظت انه قد تمّ تنصيب مدفعين رشاشين ، واحداً عند كل جهة من الباب ، ورأيت دوريات الجنود المعززة تحرس البوابات وزوايا الشوارع القريبة . وكان بيل شاتوف * يصعد السلّم مهرولاً فصاح : « حسناً انطلقا . كرنسكي أرسل النيكرز ليغلقوا صحيفتي « الجندي » و « طريق العمال » . ولكن قواتنا حطمت الأختام الحكومية ، وقد أرسلنا الآن مفرزات لتستولي على مكاتب الصحف البرجوازية » . وبنشوة بالغة ضربني على كتفي وهرول الى الداخل .

في صباح يوم ٦ منه كنت على موعد مع الرقيب في مكتبه في وزارة الخارجية . كل الجدران مليئة بنداءات هستيرية تحث الشعب على أن يبقى « هادئاً » . وكان بولكوفنيتكوف يصدر الأمر تلو الأمر :

« اني آمر جميع الوحدات والمفارز العسكرية أن تلازم ثكناتها بانتظار صدور أوامر جديدة من قيادة المنطقة العسكرية ان جميع الضباط الذين يتصرفون بدون أوامر رؤسائهم سوف يقدمون الى المحكمة العسكرية بتهمة العصيان . اني أمنع منعاً باتاً تنفيذ الجنود لأي تعليمات تصدر لهم من منظمات اخرى » .

وورد في صحف الصباح ان الحكومة قد أغلقت الصحف التالية : « روسيا الجديدة » (نوفايا روس) و « الكلمة الحية » (جيفوي سلوفا)

---

* من الحركة العمالية الاميركية

« وطريق العمال » « والجندي » * ، وأمرت بالقاء القبض على قادة سوفييت بتروغراد وأعضاء اللجنة العسكرية الثورية .

وفيما كنت أجتاز « باحة القصر » كانت عدة وحدات من المدفعية التابعة لقوى « النيكرز » تجتاز « القوس الأحمر » بخبيب مرتفع الصوت واصطفت قبالة القصر . البناية الحمراء الضخمة ، مقر القيادة العامة ، حية بطريقة غير عادية ، وعلى الباب تصطف عدة سيارات مصفحة بينما السيارات المليئة بالضباط تروح وتجيء ... كان الرقيب متحمساً جداً مثل صبي صغير في السيرك . وقال ان كرنسكي قد توّجه لتوّه الى مجلس الجمهورية ليقدم استقالته . فأسرعت الى « قصر مارينسكي » حيث وصلت في نهاية خطاب كرنسكي ، الخطاب الذي لا يكاد يفهم، والمليء بالتبرير وبالاتهامات المريرة ضد أعدائه :

« سأقرأ أهم مقطع من سلسلة كاملة من المقالات التي نشرت في « طريق العمال » بامضاء اوليانوف ـ لينين ، وهو مجرم بحق الدولة قد فر من وجه العدالة ونحن نحاول العثور عليه .. ان هذا المجرم بحق الدولة قد دعا البروليتاريا وحامية بتروغراد الى تكرار تجربة ١٦ — ١٨ تموز ، وهو يصر على الضرورة الملحة للقيام بثورة مسلحة ... وعلاوة عن ذلك فان القادة البلاشفة الآخرين قد اعتلوا المنبر داعين ، هم ايضاً ، الى الثورة فوراً . وفي هذا الصدد يجب ان نشير ، بشكل خاص ، الى نشاط الرئيس الحالي لسوفييت بتروغراد : برونشتاين تروتسكي..

واني ارى من واجبي ان ألفت انتباهكم الى ان الأسلوب

---

* « نوفايا روس » و « جيفوي سلوفا » صحيفتان رجعيتان ، و « طريق العمال » و « الجندي » تنطقان بلسان البلاشفة .

والتعابير التي ترد في سلسلة كاملة من مقالات « طريق العمال » و « الجندي » تشبه مقالات « روسيا الجديدة » شبهاً كاملاً .

اننا لا نجابه تحركات هذا الحزب او ذاك بقدر ما نجابه عملية استغلال الجهل السياسي والغرائز الاجرامية لدى قسم من المواطنين تقوم به منظمة غايتها ان تثير في روسيا ، بأي ثمن ، حركة تخريب ونهب طائشة ، ونظراً للطريقة التي تفكر فيها الجماهير حالياً ، سوف تؤدي اية حركة الى افظع المجازر التي تغطي اسم روسيا الحرة بعار أبدي ...

لقد اعترف اوليانوف — لينين نفسه بأن اوضاع الجناح اليساري المتطرف من الاشتراكيين — الديمقراطيين في روسيا مشجعة للغاية » .

(وهنا تلا كرنسكي المقطع التالي من مقالة لينين) :

« فكروا في الامر .. ان الرفاق الالمان لهم قائد واحد اسمه لايبنخت ، وهم محرومون من الصحف ومن حرية الاجتماع ومن السوفييت ... تواجههم عداوة فظيعة من قِبَل جميع طبقات الشعب — ومع ذلك فان الرفاق الالمان مستعدون للعمل ، بينما نحن ، الذين نملك عشرات الصحف ، ونتمتع بحرية الاجتماع وبالأغلبية في السوفييت وبأحسن مكانة دولية بلغتها البروليتاريا في العالم كله ، نحن الذين نتمتع بهذا كله : هل يحق لنا ان نرفض تقديم المساعدة للثوريين الالمان ولمؤسساتهم الثورية ? »

(ثم اردف كرنسكي قائلاً :)

« هكذا ، فان منظمي الثورة يعترفون علناً ان افضل

الظروف لكي يعمل حزب سياسي بحرّية متوفرة الآن في روسيا التي تقودها حكومة برأسها رجل يعتبره الحزب : « غاصباً قد باع نفسه للبرجوازية — ذلك هو رئيس الوزراء كرنسكي » .

« ان منظمي الثورة لا يساعدون البروليتاريا الالمانيــة بل الطبقات الحاكمة في المانيا ، وهم يفتحون الجبهة الروسية امــام قبضات وليام الحديدية وامــام اصدقائه ... ان دوافع هــؤلاء الناس لا تهم الحكومة المؤقتة كثيراً ، ولا يهمهــا ايضاً مــا اذا كانوا يعملون بوعي او بدون وعي ، وعلى كل حــال ، فاني ، من على هــذا المنبر ، وبوعي كامل لمسئوليتي ، اعتبر مثل هــذه الاعمال التي يقوم بها حزب سياسي روسي اعمال خيانة لروسيا !

اني اقف الى جانب وجهة نظر اليمين، واقترح بدء التحريات واجراء الاعتقالات فوراً . (صخب من اليسار) » .

(فصاح بصوت عظيم :)

« اسمعوا لي ! في هذا الوقت ، والدولة تحدق بها الاخطار بسبب خيانة واعية ام غير واعية ، تجد الحكومة المؤقتــة ، كما أجد نفسي مع آخرين غيري ، انها تفضل أن نموت على ان نخون حياة روسيا وشرفها واستقلالها » .

(في تلك اللحظة أعطيت ورقة لكرنسكي) :

« لقد استلمت لتوّه البلاغ الذي يوزّعونه على الأفواج ، وها هي محتوياته :

(يقرأ) :

إن سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود في خطر. نأمر الافواج معه بأن تتأهب للحرب وان تنتظر أوامر لاحقة . إن كل تأخر او عصيان لهذا الامر يعتبر خيانة للثورة .

اللجنة العسكرية الثورية

عن الرئيس : **بودفوسكي**

السكرتير : **انطونوف**

هـــذا في الواقع محاولة لإثارة السوقة ضد الوضع الراهن ولنسف الدستور وفتح الجبهة لافواج قبضته وليام الحديدية ..

اني استعمل كلمة سوقــة عن قصد ، لأن القوى الديمقراطية الواعية ، « والتسايكا » التابعة لهــا ، وجميع منظمات الجيش ، وكل ما تمجده روسيا من تعقل وشرف وضمير الديمقراطية الروسية العظيمة يمج هذه الاشياء .

لم اجئكم متضرعاً ، وانمــا جئت لاؤكد ايماني الراسخ بــأن الحكومة المؤقتة التي تدافع ، في هـــذه اللحظة ، عن حريتنا المكتسبة ، وبان الدولة الروسية ، التي ينتظرها مستقبل زاه ، سوف تلقى تأييداً مطلقاً من الجميع ما عدا هؤلاء الذين لم يجرأوا ابداً على مواجهة الحقيقة .

إن الحكومة المؤقتــة لم تمسّ حرية مواطني الدولة في التمتع بحقوقهم السياسية . ولكن الحكومة المؤقتــة تعلن الآن : يجب ان تصفّى فوراً وبحزم تلك العناصر من الشعب الروسي ، وتلك المجموعات والاحزاب التي تجرأت على رفـــع أيديها ضد إرادة

الشعب الروسي مهددة ، في نفس الوقت ، ان تفتح الجبهة امام المانيا ... :

فليفهم سكان بتروغراد أن قوة حازمة ستواجههم فربما ينتصر ، في آخر الأمر ، التعقل والضمير والشرف في قلوب الذين ما زالوا يملكونه » ...

كانت القاعة تضج بأصوات مدوية طوال هذا الخطاب . وعندما نزل رئيس الوزراء شاحب الوجه ومبتلاً بالعرق ، وخرج يحيط به مرافقوه الضباط ، تتالى الخطباء من اليسار والوسط مهاجمين اليمين ، وكانوا جميعاً يزأرون زئيراً غاضباً واحداً بما فيهم الاشتراكيون الثوريون على لسان غوتز :

« ان سياسة البلاشفة ديماغوجية ومجرمة في استغلالهم التذمر الشعبي . ولكن ثمة سلسلة كاملة من المطالب الشعبية لم تتحقق بعد ... ان قضايا السلم والأرض وتحقيق الديمقراطية في الجيش يجب أن تُذكر بحيث لا يبقى أدنى شك لدى جندي أو فلاح أو عامل بأن حكومتنا تحاول ، بحزم وصواب ، أن تحلها ...

نحن المناشفة لا نريد اثارة ازمة وزارية ، ونحن على استعداد للدفاع عن الحكومة المؤقتة بكل ما أوتينا من قوة حتى آخر قطرة من دمائنا ، هذا اذا تكلمت الحكومة المؤقتة حول جميع هذه القضايا الراهنة بالوضوح والدقة اللذين ينتظرهما الشعب بفارغ الصبر » ..

ثم قال مارتوف غاضباً :

« ان كلمات رئيس الوزارة التي سمحت له بالتحدث عن « السوقة » ، في حين أن المسألة هي مسألة حركة قطاعات هامة

من البروليتاريا والجيش – رغم كونها تساق في الاتجاه الخاطيء ، ان هذه الكلمات ما هي الا دعوة الى الحرب الأهلية » .

وجرى التصويت على جدول الأعمال الذي اقترحه اليسار وكان يعني عملياً تصويتاً بنزع الثقة :

١ – « ان التظاهرات المسلحة التي يجري التحضير لها منذ بضعة أيام تهدف الى القيام بانقلاب ، وتهدد بإثارة حرب أهلية ، وبخلق الظروف المؤاتية لقيام أعمال الشغب والثورة المضادة ، واستنفار قوى الثورة المضادة كالمئات السوداء ، التي سوف تؤدي الى استحالة عقد الجمعية التأسيسية والى كارثة عسكرية وانهيار الثورة وشل حياة البلد الاقتصادية وخراب روسيا .

٢ – لقد توفرت الظروف الملائمة لهذا الاضطراب بسبب التأخر في اتخاذ الاجراءات السريعة ، وبسبب ظروف موضوعية خلقتها الحرب والفوضى العامة . انه لمن الضروري قبل اي شيء آخر أن يصدر فوراً قرار يضع الأراضي بين أيدي لجان الفلاحين وأن يتم تبني خط عمل حيوي في الخارج بواسطة تقديم اقتراح الى الحلفاء باعلان شروطهم للسلم ، والشروع بمفاوضات السلم .

٣ – لكي تجابه التظاهرات وحركات الشعب الملكية ، لا بدّ من اتخاذ اجراءات حازمة لقمع مثل هذه الحركات ؛ ولذا ، يجب انشاء لجنة للسلامة العامة في بتروغراد مؤلفة من ممثلي البلدية وأجهزة الديمقراطية الثورية التي تعمل بالتعاون مع الحكومة المؤقتة » .

وجدير بالذكر أن المناشفة والاشتراكيين الثوريين صوّتوا جميعاً الى جانب

هذا القرار ... ومع ذلك ، فلما رآه كرنسكي ، استدعى اناكسانتييف الى قصر الشتاء ليشرح له . فقال انه اذا كان هذا القرار يعني نزع الثقة عن الحكومة المؤقتة ، فهو يرجو اناكسانتييف أن يشكل وزارة جديدة . وهكذا نفذ القادة « المساومون » آخر مساومة لهم ... ففسّروا لكرنسكي أن القرار لا يحمل اي نقد للحكومة !

عند زاوية شارعي « مورسكايا » و « نيفسكي » ، كانت مفرزات من الجنود الذين وضعوا الحراب على بنادقهم ، توقف جميع السيارات الخاصة وتخرج ركابها وتأمرهم بالتوجه الى قصر الشتاء . وكان جمع كبير قد تحلق للتفرج عليهم . ولم يكن أحد يعلم ما اذا كان هؤلاء الجنود تابعين للحكومة أم للجنة العسكرية الثورية . وأمام « كاتدرائية قازان » جرى الشيء نفسه وكانت السيارات ترسل عبر شارع نيفسكي . وجاء خمسة أو ستة بحّارة يتنكبون بنادقهم ، ويضحكون بحماس ، وأخذوا يتحدثون مع اثنين من الجنود.وقد كتبت على شرائط قبعات البحّارة الكلمات التالية : « اورورا » « زاريا » ، « سفوبودي » وهي أسماء البوارج البلشفية الرئيسية في أسطول البلطيق . وقال أحدهم : « كرونستاد قادمة » ! فكأن أحدهم يقول عام ١٧٩٢ في شوارع باريس : « أهالي مارسيليا قادمون » ! لأن كرنستاد كانت تضمّ خمسة وعشرين ألف بحّار ، جميعهم بلاشفة حتى العظم ولا يهابون الموت ...

كانت صحيفة « العامل والجندي » (رابوتشي اي سولدات) وقد صدرت لتوّه ، وعلى صفحتها الأولى هذا البلاغ الضخم :

« ايها الجنود ! ايها العمال ! ايها المواطنون !

ان اعداء الشعب انتقلوا الليلة الماضية الى الهجوم . إن جماعة كورنيلوف في القيادة تحاول جلب فرق « النيكرز » والمتطوعين

من الضواحي . لقـــد رفض « النيكرز » في « اورانينبوم » والمتطوعون في « ستارسكوبي سيلا » ان يلبوا النداء. ان ضربة خيانة عظمى تهيأ ضد سوفييت بتروغراد ... ان حملة المعـادين للثورة موجهة ضد المؤتمر العام للسوفييت عشية افتتاحه ، وضد الجمعية التأسيسية ، وضد الشعب . ان سوفييت بتروغراد يحرس الثورة . واللجنـة العسكرية الثورية تقود عملية صـد هجوم المتآمرين . ان حامية بتروغراد وطبقتها العاملة بأسرها مستعدة لتوجّه لأعداء الشعب الضربة القاضية .

ان اللجنة العسكرية الثورية تأمر بما يلي :

١ — يطلب من جميع لجـان الافواج والفرق والبوارج ، بالتعاون مع مفوضي السوفييت وجميع المنظمات الثورية ، عقـد اجتماعات دائمة وجمع جميع المعلومات عن خطط المتآمرين .

٢ — لا يسمح لأي جندي بمغادرة فرقته دون اذن اللجنة .

٣ — يطلب من كل وحدة عسكرية ارسال مندوبَين عنهـا الى سمولني . كما يطلب من كل سوفييت في كل حي من أحيـاء المدينة ارسال خمسة مندوبين .

٤ — ان جميع اعضـاء سوفييت بتروغراد وجميع مندوبي المؤتمر العام مدعوون الى سمولني فوراً لحضور اجتماع استثنائي .

ان الثورة المضادة قد رفعت رأسها المجرم .

ان خطراً عظيماً يهدد جميع مكتسبات وآمال العمال والجنود ولكن قوى الثورة تفوق بكثير قوى أعدائها .

قضية الشعب بين أيد أمينة ، وسوف يسحق المتآمرون .

لا تردد ولا شكوك ! الحزم ، والصلابة ، والانضباط ، والتصميم !

عاشت الثورة ! » .

اللجنة العسكرية الثورية

كان سوفييت بتروغراد في اجتماع دائم في « سمولني » وقد أصبحت منطلق العاصفة ، والمندوبون ينامون على الارض ثم يستيقظون ليشاركوا في النقاش . وكان تروتسكي وكامنييف وفولودارسكي يتكلمون طوال ست أو ثماني أو اثنتي عشرة ساعة على التوالي كل يوم . .

نزلتُ الى الغرفة رقم ١٨ في الطابق الأول حيث كان المندوبون البلاشفة يعقدون اجتماعاً ، وكان صوت غليظ يتعالى بانتظام ، هو صوت الخطيب وقد حجبه الجمع عني :

« يقول المساومون اننا معزولون لا تسمعوا كلامهم . ما أن تبدأ (الثورة) حتى يجروا معنا ، والا فقدوا أتباعهم » .

ثم رفع ورقة : « اننا نجرهم ! وصلتني لتوه رسالة من المناشفة والاشتراكيين الثوريين ! يقولون انهم يدينون أعمالنا . ولكنهم لن يقفوا ضد قضية البروليتاريا اذا هاجمتنا الحكومة ! » صراخ فرح ..

فيما كان يحل المساء امتلأت القاعة الكبرى بالجنود والعمال في جمع رمادي عظيم ، يهدر هديراً عميقاً وسط سحابة من الدخان الأزرق . كانت « التسايكا » قد قررت أخيراً الترحيب بالمؤتمر الجديد الذي سيؤدي الى

دمارها ، وربما الى دمار النظام الثوري الذي شيدته . ولكن لم يسمح الا لأعضاء « التسايكا » بالتصويت في ذلك الاجتماع ...

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما ترأس غوتز الاجتماع ، وقام دان ليتكلم وسط صمت كثيف يكاد يكون معادياً . قال :

« ان الساعات التي نعيشها تبدو جد مأساوية . العدو على أبواب بتروغراد ، والقوى الديمقراطية تحاول تنظيم صفوفها لمقاومته ؛ ومع ذلك فاننا نتوقع أن يجري الدم في شوارع العاصمة ، وتهدد المجاعة ليس بابادة حكومتنا المتجانسة فحسب وانما الثورة نفسها كذلك ...

الجماهير مريضة ومرهقة لا تبدي أي اهتمام بالثورة . واذا حاول البلاشفة القيام بأية حركة فسيكون ذلك نهاية الثورة . (صيحات : هذا كذب) ان أعداء الثورة ينتظرون ، مع البلاشفة ، بداية أعمال الشغب والمجازر ... واذا قامت تظاهرة مسلحة ، فلن تنعقد الجمعية التأسيسية . (صيحات : « كذب ! عار ! ») .

ان ما نرفض السماح به هو عصيان حامية بتروغراد اوامر القيادة في منطقة العمليات العسكرية ... يجب ان تطيعوا اوامر القيادة « والتسايكا » التي انتخبتم . كل السلطات للسوفييت — هذا يعني الهلاك ! اللصوص والسارقون ينتظرون اللحظة الملائمة لينهبوا ويحرقوا ... عندما تطرح عليكم مثل هذه الشعارات : « ادخلوا المنازل ، وخذوا احذية البرجوازية وثيابها » (صخب . صيحات : « لا يوجد مثل هذا الشعار ! كذب ! كذب ! ») قد يبدأ الامر بشكل آخر ولكنه سينتهي هكذا !

ان « التسايكا » تتمتع بكافة السلطات للتصرف . ويجب ان نطيعها .. اننا لا نهـــاب الحراب .. « التسايكا » ستدافع عن الثورة ... (صيحات : « التسايكا جثة هامدة منـــذ زمن بعيد ! ») .

وتعالى صخب عظيم متواصل ، سمع فيه صوته زاعقاً وهو يضرب الطاولة بيده : « الذين يدفعونكم في هذا الاتجاه هم مجرمون ! » .

صوت : « لقـــد ارتكبتم جريمة منذ زمن طويل ، عندما استوليتم على السلطة ووضعتموها بين ايدي البرجوازية » !

غوتز (وهو يقرع جرس الرئاسة) : « سكوتاً ، والا اخرجتكم » .

صوت : « حاوِلْ » (هتافات وصفير) .

« والآن فـيما يتعلق بسياستنا حول السلم .. (ضحك) ان روسيا لا تتحمل استمرار الحرب مـع الأسف . سوف يتحقق السلم ، ولكن لن يتحقق اليوم السلم الدائم ولا السلم الديمقراطي. لكي نتفادى اراقة الدم، اصدرنا اليوم امراً ، في مجلس الجمهورية، نطلب فيه تسليم الارض للجان الارض ، والمباشرة بمفاوضات السلم » .. (ضحك . صيحات : « فات الأوان ») !

ثم اعتلى تروتسكي المنبر ، ممثلاً البلاشفة ، تحمله اليه موجة تصفيق مدوية تحولت الى هتافات ثم انتصبت القـاعدة راعدة . وكان وجهه النحيل المسنن مثل وجه ميفيستوفاليس * في تعبيره عن السخرية والازدراء :

---

* ميفيستوفاليس هو الشيطان في مسرحية « فاوست » الفتية .

« ان خطط دان التكتيكية تثبت ان الجماهير – الجماهير الواسعة التـــافهة ، اللامبالية – تمحضه دعمها المطلق ! »
(همهمة صاخبة) .

(ثم التفت الى الرئيس بحركة درامية قائلاً :)

« عندمـــا تكلمنا عن توزيع الاراضي على الفلاحين ، كنتم ضدنا . فقلنا للفلاحين: «اذا لم يعطوكم الارض خذوها بأنفسكم !» وسمع الفلاحون نصيحتنا. وها انتم الآن تدعون الى ما قمنا نحن به منذ ستة اشهر ..

لا اظن ان مُمثُل كرنسكي هي التي املت عليه ان يصدر أمراً بتعليق حكم الاعدام . ان حامية بتروغراد هي التي اقنعت كرنسكي عندما رفضت ان تطيعه ...

لقـد وُجهت الى دان اليوم تهمـة القـــاء خطاب في مجلس الرئاسة تكشف من خلاله أنه بلشفي مستتر. وقد يأتي يوم يقول فيه دان أن زهرة شباب الثورة اشتركت في انتفاضة السادس عشر والثامن عشر من تموز ... لا يوجد في قرار دان اليوم في مجلس الرئاسة اي ذكر لفرض الانضباط في الجيش مع ان دعاية حزبه تدعو الى ذلك ...

لا ان تاريخ الأشهر السبعة الأخيرة يبيّن أن الجمـاهير قـد تخلت عن المناشفة . لقد انتصر المناشفة والاشتراكيون الثوريون على الكاديت ، ولما استلموا الحكم سلّموه بدورهم للكاديت .

يقول دان : لا يحق لكم القيام بثورة . ان الثورة هي من حق جميع الثوريين! وعندما تثور الجماهير المسجونة، فهذا حقها. »

ثم تكلم ليبر ذو الوجه الطويل واللسان السليط . وقابله الحضور بالهمهمة والضحك :

« قال ماركس وانغلز انه لا يحق للبروليتاريا ان تستلم السلطة الا عندما تكون مهيأة لذلك . في ثورة برجوازية كهذه الثورة ، يؤدي استلام الجماهير للحكم الى نهاية الثورة نهـــاية مفجعة ... ان تروتسكي ، كمفكر اشتراكي ديمقراطي ، لا يتفق مع مـا دعا اليه الآن .. » (صيحات : « كفى ! يسقط ! »)

مارتوف يقـاطع باستمرار : « الامميون لا يعارضون انتقال السلطة الى الديمقراطية ، ولكنهم لا يوافقون على اساليب البلاشفة . ليس هـــذا وقت استلام الحكم » ...

واعتلى دان المنبر مجدداً ، ليحتج بعنف ضد عمل اللجنة العسكرية الثورية التي ارسلت مفوضاً لمصادرة مكتب صحيفة « ازفستيا » (الانباء) وفرض الرقابـــة عليها . وعقب كلامه أشرس ضجيج . وحاول مارتوف ان يتكلم ولكن احداً لم يسمعه . فقد كان مندوبو الجيش واسطول البلطيق واقفين ، في مختلف انحاء القاعة ، يصيحون ان السوفييت هي حكومتهم الوحيدة .

وسط هذه الفوضى الشاملة ، اقترح اهيرليتش مشروع قرار يناشد فيــه العمال والجنود المحافظة على الهدوء ، وعدم الاستجابة للتحريض على التظاهر ، معترفاً بضرورة انشاء لجنـة للسلامة العامة فوراً ، مطالباً الحكومة المؤقتة العمل فوراً على إصدار قرار تنتقل الأراضي بموجبه الى الفلاحين وتبـــدأ مفاوضات السلم .

ثم انتصب فولودارسكي صارخاً بقسوة انه لا يحق « للتسايكا » ان تتخذ لنفسها صلاحية المؤتمر عشية موعد انعقاده . وقال :

« ان « التسايكا » ميتة عملياً ، وما القرار سوى خدعة لبث الروح في قوتها المتهالكة .. امـــا بالنسبة لنا ، نحن البلاشفة ، فلن نصوّت على هذا القرار » ...

وعند ذاك غادر جميع البلاشفة القاعة ، وجرت الموافقة على القرار .

حوالي الرابعة صباحاً ، قابلت زورين في القاعة الخارجية وكان يحمل بندقيته .

وقال ببطء ولكن بارتياح : لقد انطلقنا . قبضنا على مساعـــد وزير العدل وعلى وزير الديانات . انهم في القبو الآن . ولقد تحرك فوج للاستيلاء على مركز الهاتف ، وآخر على وكالة البرق ، وآخر على مصرف الدولة . الحرس الأحمر في الشارع ...

عند درج « سمولني » ، في الظلمة الباردة ، شاهدنا الحرس الأحمر لأول مرة . كانوا جمعاً متراصاً من الشباب بثياب عمال ، يحملون البنادق ذوات الحراب ويتكلمون بعصبية فيما بينهم .

ومن البعيد ، فوق السطوح الآمنة جهة الغرب ، ترامت أصوات طلقات نار قصية ، حيث كان « النيكرز » يحاولون فتح الجسور على نهر « النيفا » لمنع عمال المصانع والجنود القاطنين في « حي فيبور » من الانضمام الى قوى السوفييت في وسط المدينة ، في حـــين كان بحارة كرونستا يعيدون فتحها من جديد ...

ووراءنا كانت « سمولني » العظيمـــة ، تتـــلألأ بالأنوار وتطن كقفير نحل كبير ...

هوامش

الفصل الثالث

١ ـ مقررات لجان المصنع والمتجر

السيطرة العمالية

١ – (راجع نص هذا البند في الفصل الثالث نفسه) .

٢ – ان تنظيم السيطرة العمالية هو تعبير عن نفس النشاط الصحي في مجال الانتاج الصناعي ، الذي تقابله التنظيمات الحزبية في مجال السياسة ، والنقابات في المجال المهني، والتعاونيات في مجال الاستهلاك ، والنوادي الادبية في مجال الثقافة .

٣ – للطبقة العاملة مصلحة أكبر في السير الصحيح والمنتظم للمصانع ... مما للطبقة الرأسمالية . وفي هذا الصدد ، تكون السيطرة العمالية ضماناً افضل لمصالح المجتمع الحديث ، والشعب بأسره ، من ارادة المالكين الكيفية الذين تحركهم فقط رغبتهم الأنانية في تحقيق الارباح المادية أو الامتيازات

السياسية . لهذا ، فان البروليتاريا تطالب بالسيطرة العمالية ليس فقط لأنها في مصلحتها وانما في مصلحة البلد كله أيضاً ، ويجب على الجيش الثوري والفلاحين الثوريين أن يساندوها في ذلك .

٤ — نظراً للموقف المعادي الذي تقفه غالبية الطبقة الرأسمالية من الثورة ، فإن التجربة تؤكد ان التوزيع السليم للمحروقات والمواد الاولية ، والطريقة الأفضل لادارة المصانع مستحيلة إلا في ظل السيطرة العمالية .

٥ — ان السيطرة العمالية على المؤسسات الرأسمالية ، التي تنمّي موقف العمال الواعي تجاه العمل وتوضح معناه الاجتماعي ، هي وحدها التي تستطيع أن تخلق الظروف المؤدية الى نمو انضباط ذاتي صارم في العمل وتطوير جميع الطاقات الانتاجية لدى الطبقة العاملة .

٦ — ان التحويل المطلوب للصناعة من صناعة حربية الى صناعة سلمية ، واعادة توزيع القوى العاملة على انحاء البلد وبين مختلف المصانع ، لا يمكن ان يتم ، بدون اضطرابات كبيرة الا بواسطة الادارة الذاتية والديمقراطية للعمال أنفسهم ... ولذا فان تحقيق السيطرة العمالية شرط أولي لا غنى عنه لرفع التعبئة العامة المفروضة على الصناعة .

٧ — بمقتضى الشعار الذي رفعه حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلاشفة) فان السيطرة العمالية على الصعيد الوطني ، لكي تأتي بالنتائج المرجوة ، يجب أن تشمل جميع المؤسسات الرأسمالية ، وألا تنظم بطريقة اعتباطية ، بل يجب توافر التخطيط الصحيح لها وعدم فصلها عن الحياة الصناعية للبلد ككل .

٨ — ان حياة البلد الاقتصادية — زراعة ، صناعة ، تجارة ونقل — يجب أن تخضع لخطة موحدة غايتها سد الحاجات الفردية والجماعية لأوسع

الجماهير الشعبية ، ويجب أن تحظى بموافقة ممثليهم المنتخبين ، وان تنفذ تحت إشراف هؤلاء الممثلين بواسطة تنظيمات محلية ووطنية .

٩ - القسم من الخطة الذي يتعلق بالعمل الزراعي يجب أن ينفذ تحت اشراف تنظيمات الفلاحين وعمال الارض ، والقسم المتعلق بالصناعة والتجارة والنقل يجب أن ينفذه الأجراء أنفسهم بواسطة السيطرة العمالية . تكون الهيئات الطبيعية للسيطرة العمالية داخل المصنع هي لجان المصنع والمتجر او اللجان المشابهة ؛ وتلعب النقابات الدور نفسه في سوق العمل .

١٠ - العقود الجماعية المتعلقة بالأجور التي تحققها النقابات لغالبية العمال في أي فرع من فروع العمل ، يجب ان تكون ملزمة على جميع أصحاب المصانع الذين يشغلون هذا النوع من العمل في منطقة معينة .

١١ - توضع مكاتب التوظيف تحت سيطرة وادارة النقابات بوصفها منظمات طبقية تعمل ضمن حدود الخطة الصناعية العامة وبمقتضى أحكامها .

١٢ - يحق للنقابات أن تبادر الى المطالبة باتخاذ اجراءات قانونية ضد كل ربّ عمل يخرق عقود العمل أو التشريع العمالي ، مثلما يحق لها أن تفعل ذلك نيابة عن أي عامل فرد في أي فرع من فروع العمل .

١٣ - يجب على النقابات أن تتشاور مع العمال في المؤسسات الفردية خلال لجان المصنع والمتجر التي ينتمي هؤلاء العمال اليها ، وذلك بشأن جميع القضايا المتعلقة بالسيطرة العمالية على الانتاج والتوزيع والتوظيف .

١٤ - إن جميع القضايا المتعلقة بالتوظيف والفصل ، والعُطَل ، وسلّم الأجور ، والامتناع عن العمل ، ونسبة الانتاجية والمهارة ، وأسباب الغاء الاتفاقات ، والخلافات مع الادارة والقضايا المشابهة المرتبطة بحياة المصنع

الداخلية ، يجب حلها بمقتضى التحقيقات التي تقوم بهـا لجنة المصنع والمتجر التي يحق لهـا أن تقصي أي عضو من أعضاء ادارة المصنع عن المشاركة في النقاش .

١٥ – تشكل لجنة المصنع والمتجر لجنة لمراقبة تزويد المصنع بالمواد الأولية والمحروقات ، والطلبات ، والقوة العاملة ، والجهاز التقني (بما فيه الادوات) ، وجميع الاتفاقات والامدادات الاخرى . ولتأمين عمل المصنع بانسجام مع الخطة الاقتصادية العامة على ادارة المصنع ان تضع تحت تصرف أجهزة السيطرة العمالية ، لمساعدتها واعلامهـا ، جميع الاحصائيات المتعلقة بالعمل ، وعليها ان تسمح لها بالتحقيق في هـذه الاحصائيات ، وان تبرز دفاتر الشركة عند طلب لجنة المصنع والمتجر .

١٦ – ان أي أعمال غير شرعية تقوم بها الادارة وتكتشفها لجان المصنع والمتجر ، أو أي شك بوجود مثل هـذه الأعمال ، التي لا يستطيع العمال بمفردهم التحقيق فيهـا أو تصحيحها ، يجب أن ترفع الى التنظيم المركزي المنطقي للجان المتجر والمصنع التابعة لفرع العمل المعني بالأمر ، والتي تناقش الأمر مع المؤسسات المكلفة بتنفيذ الخطة الصناعية العامة ، وتجد وسائل معالجة الموضوع التي قد تصل الى حجز المصنع .

١٧ – ان توحيد لجان المصنع والمتجر التابعة لمؤسسات مختلفة يجب أن يتم على أساس المهن المختلفة لكي يسهل السيطرة على فرع الصناعة كله بحيث ينسجم مع الخطة الصناعية العامة ؛ ولكي يضع خطة فعالة لتوزيع الطلبات ، والمواد الأولية ، والمحروقات ، والقوى العاملة والتقنيين بين مختلف المصانع ؛ وأيضاً لكي يسهل التعاون مع النقابات المنظمة وفق المهن .

١٨ – ان مجالس المدن المركزية التابعة للنقابات ولجان المصنع والمتجر تمثل البروليتاريا في المؤسسات المحليـة والمنطقية المقابلة والتي تكونت لكي

تساهم في وضع وتنفيذ الخطة الصناعية العامة ، ولتنظيم العلاقات الاقتصادية بين المدن والقرى (بين العمال والفلاحين) . وهي تتمتع أيضاً بأعلى سلطة لادارة لجان المصنع والمتجر والنقابات فيما يتعلق بالسيطرة العمالية في مناطقها، وعليها أن تصدر أنظمة اجبارية تتعلق بالانضباط في عملية الانتاج ، إلا انه يجب أن يقر العمال أنفسهم هذه الأنظمة بواسطة التصويت .

٢ – ما قالته الصحافة البرجوازية عن البلاشفة

روسكايا فوليا (ارادة روسيا) في ٢٨ تشرين الاول : « ان اللحظة الحاسمة تقترب ... وهي حاسمة بشكل خاص بالنسبة للبلاشفة . فإما أن يقدموا لنا نسخة جديدة عن أحداث ١٦ – ١٨ تموز ، وإما أن يضطروا الى الاعتراف بأنهم قد هزموا نهائياً مع خططهم ونواياهم ، ومع سياستهم الصلفة التي تعكس ارادتهم في أن يعزلوا أنفسهم عن كل عمل وطني واع ...

ما هي فرصة نجاح البلاشفة ؟

تصعب الاجابة على هذا السؤال لأن دعامتهم الرئيسية ... هي جهل الجماهير الشعبية . انهم يتكهنون حولها ، ويغذونها بديماغوجية لا يقف في وجهها رادع ...

يجب على الحكومة أن تقوم بواجبها في هذا الوضع . ان الحكومة يجب أن تتخذ موقفاً واضحاً ومحدداً من البلاشفة ، معتمدة على الدعم المنوي لمجلس الجمهورية ...

واذا قام البلاشفة بانتفاضة ضد السلطة الشرعية، وسهلوا بذلك الاجتياح الألماني ، يجب معاملتهم كعصاة وخونة ...

بيرجيفيا فييلوموستي في ٢٨ تشرين الاول : « ان النضال ضد البلاشفة قد أصبح أسهل الآن وقد فصلوا أنفسهم عن سائر القوى الديمقراطيـة . ولا يعقل في هـذا النضـال أن ننتظر الى حين قيـامهم بتظاهرة . يجب على الحكومة حتى ألا تسمح بمثل هذه التظاهرة ...

ان دعوات البلاشفة الى الثورة والفوضى هي أعمال تعاقب عليهـا المحاكم الجزائية ، في أكثر البلدان حرية ، ويتلقى دعاتها أشد العقاب . لأن ما يخوضه البلاشفة ليس نضالاً سياسياً ضد الحكومة ، أو حتى من أجل استلام السلطة ، انه دعاية للفوضى والمجازر والحرب الأهلية . يجب استئصال هذه الدعاية من جذورها ؛ ومن غريب الأمر أن ننتظر لكي نتخذ الاجراءات ضد الدعـاية للقيام بمذابح الى حين بداية هذه المذابح ...

نوفويي فريميا (١ تشرين الثاني) : « ... لماذا تهتاج الحكومة بسبب يوم الثاني من تشرين الثاني (موعد دعوة مؤتمر السوفييت الى الانعقاد) ولا تهتاج بسبب يوم ١٢ أيلول أو يوم ٣ تشرين الثاني ؟

ليست هذه أول مرّة تحترق فيهـا روسيا وتصبح ركامـاً ويعمي دخان الانفجار الرهيب أعين حلفائنا ...

منذ أن استلمت الحكومة زمام الحكم ، هل أصدرت أمراً واحداً غايته وضع حد للفوضى ، أو هل حاول أحد أن يوقف الانفجار الروسي ؟

كان ثمة مهام أخرى ...

اهتمت الحكومـة بمشكلة أكثر الحاحـاً . فسحقت الثورة (مؤامرة كورنيلوف) وبهذا الصدد الجميع يسأل « هل كان ثمة مؤامرة حقاً » ؟

٣ – ما قالته الصحافة الاشتراكية المعتدلة عن البلاشفة

« دييلو نارودا » (صحيفـــة الاشتراكيين الثوريين) في ٢٨ تشرين الأول : « ان أشنع جريمة ارتكبهـا البلاشفة بحق الثورة هي أنهم يعتبرون أن جميع المصائب القاسية التي تعانيها الجماهير انما تعود الى سوء نوايا الحكومة الثورية ؛ والواقع ان هذه المصائب هي وليدة ظروف موضوعية .

انهم يعدون الجماهير بوعود مغرية ، وهم يعرفون سلفاً انهم عاجزون عن تحقيق أي منها ؛ فيقودون الجماهير في الطريق الخاطىء ويخفون عنها مصدر جميع مشاكلها ... »

« ديين » (منشفية) في ٣٠ تشرين الأول : « هل هناك حرية صحافة حقيقية ؟ كل يوم تدعو صحيفتا « روسيا الجديدة » و « طريق العمال » الى الثورة . كل يوم تقترف هـاتان الصحيفتان جرائم فعليـة على صفحاتها . كل يوم تحرّضان على المجازر ... أهذه هي « حرية الصحافة » ؟ .

يجب على الحكومة ان تدافع عن نفسها وعنّا . لنا الحق في ان نصرّ ألا يبقى جهاز الدولة مستكيناً بينما الاضطرابات الدامية تهدد حياة المواطنين. »

٤ - يدينستوفا

توقفت « يدينستوفا » – صحيـفة بليخانوف – عن الصدور قبل بضعة أســابيع من استلام البلاشفة للحكم . «وعلى عكس الرأي الشائع ، فان « يدينستوفا » لم تمنع عن الصدور بأمر من الحكومة السوفييتية ؛ فقد ورد اعلان في آخر عدد لها يعترف بأنها عاجزة عن الاستمرار في الصدور بسبب قلة عدد المشتركين .

٥ - هل كان البلاشفة متآمرين ؟

يوم ١٥ تشرين الثاني ، نشرت الصحيفة الفرنسية « آنتانت » التي تصدر في بتروغراد مقالة نجتزىء منها المقطع التالي :

« حكومة كرنسكي تناقش وتتردد . حكومة لينين وتروتسكي تهجم وتعمل .

الحكومة الاخيرة تدعى « حكومة المتآمرين » ، ولكن هـذا خطأ . حكومة مغتصبين ؟ نعـم ، مثل جميع الحكومات الثورية التي تنتصر على أعدائها . متآمرون ؟ كلا !

كلا ! انهم لم يتآمروا . بل على العكس ، فقد عملوا علناً وبإقدام ودون كلمات خادعة ودون أن يخفوا نواياهم ، فضاعفوا التحريك ، وكثفوا الدعاية في المصـانع والثكنات والجبهة والريف ، في كل مكان ، حتى أنهم حددوا سلفاً موعد الثورة المسلحة ، موعد الاستيلاء على الحكم ...

هم - متآمرون ؟ أبداً ... »

٦ - نداء ضد الثورة

من اللجنة المركزية للجيش

« ... اننـا نؤكد ، قبل أي شيء آخر ، على التنفيذ الصارم للارادة المنظمة لغالبية الشعب ، كما تعبّر عنها الحكومة المؤقتة بالاتفـاق مع مجلس الجمهورية « والتسايكا » بوصفهما جهازين من أجهزة السلطة الشعبية ...

ان أية محاولة لأسقاط هذا الحكم بواسطة العنف - في وقت سوف تؤدي

أزمة حكومية فيه الى الفوضى وخراب البلد والحرب الاهلية ، سوف يعتبرها الجيش عملاً مضاداً للثورة ويقمعها بالقوة ...

يجب إخضاع مصالح الجماعات والأفراد لمصلحة واحدة : مصلحة زيادة الانتاج الصناعي وتوزيع ضرورات الحياة بعدالة ...

ان جميع المخربين وزارعي الفوضى والهاربين من الجيش وعلقة السبيل واللصوص يجب ان يجبروا على الخدمة في مؤخرة الجيش ...

اننا ندعو الحكومة المؤقتة الى ان تكوّن ، من خارقي ارادة الشعب وأعداء الثورة هؤلاء ، فرق عمل تعمل في المؤخرة ، على الجبهة ، في الخنادق تحت نار العدو » ...

٧ – احداث ليلة ٦ تشرين الثاني

عند المساء ، بدأت عصابات من الحرس الأحمر بالاستيلاء على مطابع الصحف البرجوازية ، واخذت تطبع محلها « طريق العمال » و « الجندي » وبلاغات اخرى بمئات الآلاف . صدرت الأوامر لميليشيا المدينة بأن تعاود الاستيلاء على هذه الامكنة ، إلا أنها وجدت المكاتب محصنة يحميها رجال مسلّحون . وعندما صدرت الأوامر للجنود بالهجوم على المطابع ، رفضوا تنفيذها .

وحوالي منتصف الليل ، وصل مقدّم وسريّة من « النيكرز » الى نادي « الفكر الحرّ » يحمل امراً بالقبض على محرّر « طريق العمال » . حالاً تجمع في الشارع جمع غفير مهدّداً بشنق « النيكرز » . فأخذ المقدّم يرجو أن يلقى القبض عليه وعلى « النيكرز » الذين بقيادته وأن يساقوا الى حصن بطرس – بولس حيث يكونون في أمان . وقد حققت رغبته .

في الواحدة صباحاً ، قامت فرقة من الجنود والبحارة القادمين من سمولني باحتلال وكالة البرق . وفي الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة ، تمّ احتلال مركز البريد . وحوالي الصبح ، كان قد تم الاستيلاء على الفندق العسكري ، كما تم احتلال مركز الهاتف في الخامسة صباحاً . وعند الفجر ، كان مصرف الدولة محاصراً . وعند العاشرة صباحاً بدأ الجنود يحاصرون قصر الشتاء .

٤

سقوط الحكومة المؤقتة

الاربعاء في ٧ تشرين الثـاني ، استيقظت متأخراً جـداً . دوّى صوت المدفع في « حصن بطرس بولس » وأنا أعبر شارع نييفسكي . النهـار جاف وقارس . وأمـام أبواب مصرف الدولة المقفـلة يقف بعض الجنـود وعلى بنادقهم حراب .

سألت : « الى أي جهة تنتمون ؟ الحكومة ؟ » .

فأجاب أحدهم بابتسامة : « لم يعد يوجد حكومة . الحمد لله » هذا كل ما استطعت أن أعلم منه ...

السيارات العمومية تجتاز شارع نييفسكي ، والرجال والنساء والأطفـال يتدلون من جميع جهاتها . الحوانيت مفتوحة ، وبدا كأن جموع الشارع أقل ضيقاً مما كانت عليه في اليـوم السابق . كانت مجموعـة كاملة من النداءات الجديدة المعادية للثورة قـد أُلصقت على الجدران خلال الليل ، موجهـة الى الفلاحـين ، الى الجنود في الجبهـة والى عمال بتروغراد . وهـذا ما جـاء في أحدها :

« من مجلس بتروغراد البلدي

ان مجلس بتروغراد البلدي يحيط المواطنين علماً انه ، في اجتماعه الاستثنائي يوم ٦ تشرين الثاني ، قد شكل « لجنة للسلامة العامة » مكونة من أعضاء مجالس الأحياء ، والمجالس المركزية ، ومن ممثلين عن المنظمات الديمقراطية الثورية التالية : « التسايكا » اللجنة المركزية العامة لمندوبي الفلاحين ، تنظيمات الجيش ، الاسطول المركزي ، سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود ، مجالس النقابات وغيرها .

سيداوم أعضاء لجنة السلامة العامة في بناية المجلس البلدي .
أرقام التلفون : ١٥ - ٤٠ ؛ ٢٢٣ - ٧٧ ؛ ١٣٨ - ٣٦ .

في ٧ تشرين الثاني ، ١٩١٧ »

هكذا أعلن المجلس البلدي الحرب على البلاشفة رغم اني لم أدرك ذلك في حينه .

اشتريتُ نسخة من « طريق العمال » (رابوتشي بوت) ، التي بدا انها الصحيفة الوحيدة المعروضة للبيع ، وبعد قليل دفعت لأحد الجنود خمسين « كوبيك » ثمن نسخة مستعملة من « اليوم » . كانت صحيفة البلاشفة ، المطبوعة على صفحات كبيرة في مكاتب « ارادة روسيا » بعد استيلائهم عليها تحمل العنوان الكبير التالي : « كل السلطات لسوفييت العمال والجنود والفلاحين ! السلم ! الخبز ! الارض ! » وكانت المقالة الرئيسية بامضاء زينوفييف ، رفيق لينين في المخبأ . وهذا مطلعها :

« ان كل جندي وعامل ، وكل اشتراكي حقيقي وديمقراطي صادق يدرك الآن أنه يوجد مخرجان للوضع :

اما أن تبقى السلطة بين أيـــدي طغمة البرجوازيين وملاك الأرض ، وهذا يعني ممارسة جميع أنواع القمع ضد العمال والجنود والفلاحين ، واستمرار الحرب ، والجوع والموت المحتم .

واما أن تنتقل السلطة الى أيـدي العمال والجنود والفلاحين الثوريين ، وهذا يعني إلغـاء استبداد ملاك الأرض إلغاء تاماً ، وايقاف الرأسماليين عند حدّهم فوراً ، والاقتراح رأساً بتحقيق سلم عادل .

اذ ذاك تؤمن للفلاحـــين أرضهم ، وللعمال سيطرتهم على الصناعة، وللجياع خبزهم ، اذ ذاك تنتهي هذه الحرب السخيفة »!

أما صحيفة « اليوم »، فكانت تحوي أخباراً متفرقة عن الليلة المضطربة، استيلاء البلاشفة على مركز الهاتف ، وقاعدة البلطيق ، ووكالة البرق ؛ عجز « يونكرز بيتر هوف » عن بلوغ بتروغراد ، تردّد القوزاق ، اعتقـال بعض الوزراء ، مقتل ماير رئيس ميليشيا المدينة ، اعتقالات ، اعتقالات مضادة ، مناوشات بين دوريات الجنود « واليونكرز » والحرس الأحمر(١) .

عنـد زاوية شارع « مورسكايا » التقيت بالنقيب غومبرغ ، وهو منشفي مدافع ، وسكرتير القطاع العسكري في حزبه . وعندمـا سألته اذا كانت الثورة قد حدثت فعلا ، هزّ كتفيه بتعب ، وأجاب : « الشيطان وحـــده يعلم ! ربمـــا كان باستطاعة البلاشفة أن يستولوا على الحكم ، ولكنهم لن يستطيعوا المحافظة عليه لأكثر من ثلاثـة أيام . انهم لا يملكون العدد الكافي من الرجال لادارة الحكومة ؛ وربما من المستحسن أن ندعهم يجرّبون ، هذا سيقضي عليهم » ...

البحارة المسلحون يحاصرون الفندق العسكري عند زاوية ساحة «القديس

اسحق » . وفي باحته العديد من الضباط الشباب الأذكيـاء يذرعونه ذهابـاً واياباً متمتمين فيما بينهم ، وقد منعهم البحارة من مغادرته ...

وفجأة دوت طلقة بندقية في الخارج ، عقبها دوي عـدة طلقات نارية متباعدة . أسرعت خارجاً. شيء غير عادي يجري حول قصر « فارينسكي » حيث يجتمع مجلس الجمهورية الروسية . من أقصى الساحة الى أقصاها كان ثمة صف من الجنود ، متأهبين لاطلاق النار ، محدقين بسطح الفندق .

« يا للمحرّضين ! أطلقوا الرصاص علينا » ! صاح أحـدهم بينما كان آخر يركض نحو الباب .

عند زاوية القصر الغربية تقف سيارة مصفّحـة كبيرة يرفرف عليها علم أحمر ، وقد خطّت عليها حديثاً الأحرف التالية « S. R. S. D. » (الأحرف الأولى من اسم « سوفييت مندوبي العمال والجنود ») ؛ وكانت كل مدافعهـا مصوبة تجاه ساحة « القديس اسحق » . عند مدخل « نوفايا أوليتزا » أقيم متراس بواسطة الصناديق والبراميل ورفاص سرير قديم وعربـة . وكانت كومـة من الخشب تسدّ مؤخرة رصيف « مويكا » . والأحطاب القصيرة تؤخذ من كومة مجاورة ويبنى منها حاميات للصدور ...

سألت : « هل سيجري قتال ؟ »

فأجاب أحـد الجنود بعصبية « قريباً . قريباً . ابتعد ، يا رفيق ، وإلا أصبت بأذى . سيأتون من هذه الجهة » وأشار باتجاه « مقر قيادة البحرية ».

« من سيأتي ؟ » .

« هذا ما لا استطيع أن اخبرك به ، يا أخ » . أجاب وبصق .

امام باب القصر جمع من الجنود والبحارة . وكان أحـد البحارة يقصّ

حكاية نهاية مجلس الجمهورية الروسية ، قـــال « دخلنا الى هناك وملأنا جميع الأبواب بالرفاق . ثم تقدمت من الكورنيلوفي المعادي للثورة الذي كان جالساً الى كرسي الرئاسة ، وقلت له : « انتهى المجلس . إذهب الى بيتك الآن » ؟

وتعالى ضحك . وتمكنت من الوصول الى الغرفة المخصصة للصحفيين بعد أن لوّحت بمجموعة من الاوراق . وعندها ، اوقفني بحّار ضخم باسم ، وقال عندما ابرزت إذني : « لن تستطيع الدخول ، يا رفيق ، حـــتى ولو كنت مار مخائيل نفسه » ! ومن خلال زجاج الباب بـدا لي الوجه المشوّه لمراسل فرنسي وذراعاه الملوّحان ، وكان محبوساً في الداخل ..

في مكان آخر ، كان رجل أشيب الشارب يرتدي بزّة جنرال يقف وسط حلقة من الجنود . وكان وجهه محمراً .

صاح : « انا الجنرال الكسييف . بصفتي رئيسكم وبصفتي عضو في مجلس الجمهورية ، أطلب المرور ! » فحكّ الحارس رأسه ، ناظراً بعدم ارتياح من طرف عينه ، ثم أومأ الى ضابط كان يقترب منهم ؛ وما إن وصل هذا حتى ارتبك عندما تعرّف على الجنرال والقى التحية قبل أن يدرك ما يفعل .

ثم تمتم على طريقة العهد البائد : « يا صاحب المعـــالي ، الدخول الى القصر ممنوع منعاً باتاً ، لا يحق لي — »

ومرت سيارة ، ورأيت غوتز جالساً في داخلها ، ويبدو انـه كان يضحك بفرح عظيم . وبعد بضعة دقائق ، مرت سيارة اخرى يجلس في مقعدها الامامي جنود مسلحون ، وكانت مليئة بأعضـــاء الحكومة المؤقتة المعتقلين . بيترز ، العضو الليتواني في اللجنة العسكرية الثورية يجتاز الساحة مسرعاً .

قلت له مشيراً الى السيارة : « ظننتُ انكم قـد سجنتم جميع هؤلاء السادة ليلة امس » .

وأجـاب بتعابير صبي خاب ظنه : « أوه . المجانين أطلقوا سراح معظمهم قبل أن نعتمد على قرار ... »

عند « شارع فوسكريفسكي » جمع كبير من البحارة ، ووراءهم، على مرمى البصر ، جنود يتقدمون .

واتجهنا نحو « قصر الشتاء » عن طريق مقرّ قيادة البحرية . أفراد الحرس يسدّون جميع مداخل ساحة القصر ، بيـــنما يمتد شريط من الجنود على طول الطرف الغربي يحاصره جمع مضطرب من المواطنين . كان كل شيء هادئاً فيما عدا جلبة جنود بعيدين يبدو انهم يحملون الخشب خارج باحة القصر ويراكمونه عند البوابة الامامية الرئيسية .

لم نستطع ان نتأكد ما اذا كان الحرس مع الحكومة أو مع السوفييت . ولم تكن اوراقنا من « سمولني » ذات نفع ، فاقتربنا من الطرف الثاني من الصف ، مدّعين الأهمية ، وأبرزنا جوازات سفرنا الاميركية : « مهمـــة رسمية ! » ، ودخلنا . عند باب القصر يقف أفراد حرس «الشفيتزاري» ذاتهم ببزتهم الزرقاء ذات الأزرار النحاسية والياقات الحمراء والذهبية ، فتناولوا منـــا معاطفنا وقبعاتنا بكل أدب ، وصعدنا ؛ في ارجـاء المشى المعتم الكئيب ، الذي جرّد من السجاد ، يرتاح بعض المساعدين ، وامـام باب كرنسكي ضابط شاب يروح ويجيء وهو يعضّ على شاربيه . سألناه اذا كان يمكننا ان نقابل رئيس الوزراء. فانحنى وقرقع حذائه ، وأجاب بالفرنسية :

« لا مع الأسف . الكسندر فيودورفيتش مشغول جـــداً الآن ... » ونظر الينا لبرهة ثم اردف قائلاً : « الواقع انه ليس هنا ... »

« أين هو ؟ »

« ذهب الى الجبهة . ولم يكن في سيارته ما يكفي من الوقود . فاضطررنا الى الذهاب الى المستشفى الانكليزي لنقترض من هناك . »

« هل الوزراء هنا ؟ »

« انهم يعقدون اجتماعاً في احدى الغرف — لست أدري أين »

« هل سيهجم البلاشفة ؟ »

« طبعاً سيهجمون بالتأكيد . اني اتوقع مخابرة هاتفية بين لحظة ولحظة تعلن قدومهم . ولكننا على استعداد . عندنا فرق من « النيكرز » في مقدمة القصر . وراء ذلك الباب هناك » .

« هل نستطيع الدخول » ؟

« لا . بالتأكيد لا . ممنوع » . وتصافحنا بسرعة ثم غادرنا . وتوجهنا نحو الباب الممنوع دخوله ، وكان وسط قاطع مؤقت يقسم البهو الى قسمين . انه مقفل من الخارج . وترامت اصوات من الجهة الثانية ، وكان احدهم يضحك . وفيما عدا ذلك ، كانت الفسحات الكبيرة في القصر القديم صامتة كمقبرة . وركض خادم عجوز نحونا : « لا ، يا سادة ، ممنوع الدخول » .

« لماذا أقفل الباب » ؟

وأجاب : « لكي لا يخرج الجنود » . وبعد دقائق تمتم شيئاً عن رغبته في تناول قدح شاي وعاد الى البهو . ففتحنا الباب .

المدخل يحرسه جنديان ولكنهما لم يتفوّها بشيء . في نهاية المشى غرفة واسعة مفروشة ذات إفريزات مذهبة وثريات ضخمة من الكريستال ، تحتها عدة ثريات صغيرة ، وكانت جدران الغرفة محاطة بالخشب الغامق . على جانبي الأرضية الخشبية صفوف من الفراش والأغطية المتسخة وقد تمدّد عليها بعض الجنود . اعقاب السجائر ، كسرات الخبز ، ثياب ، وزجاجات فارغة لاصناف ثمينة من النبيذ الفرنسي تملأ المكان . المزيد والمزيد من الجنود ، على اكتافهم شارات كلية « النيكرز » الحمراء ، يتحركون في جوّ عابق بدخان السجائر

ورائحة أجسام لم تغتسل منذ زمن بعيد . وكان احد الجنود يحمل زجاجة نبيذ « البرغاندي » الابيض ، وبديهي انه سرقها من أقبية القصر . الجنود ينظرون الينا بدهشة ونحن نمرّ بهم ، غرفة بعد غرفة ، الى أن وصلنا الى سلسلة من « الصالونات » الكبيرة التي تطلّ نوافذها الواسعة الوسخة على الساحة . الجدران تغطيها لوحات ضخمة في اطارات مذهبة ، تمثل معارك تاريخية ... « ١٢ تشرين الاول ١٨١٢ » ، « ٦ تشرين الثاني ١٨١٢ » ، و « ١٦ — ٢٨ آب ١٨١٣ » ... وكانت احدى اللوحات ممزوعة من فوق جهة اليمين .

المكان قد تحوّل الى ثكنة كبيرة ، والواضح انه على هذه الحال منذ أسابيع بسبب حالة الارضية والجدران . الرشاشات منصوبة على حافة النوافذ ، والبنادق موضوعة بين الفراش .

وبينا كنا ننظر الى اللوحات ، هجمت على اذني اليسرى رائحة كحولية ، وقال صوت بلغة فرنسية طليقة ولكنها غليظة ، « من الطريقة التي تنظرون فيها الى اللوحات ، يبدو لي انكم أجانب » . انه رجل قصير بدين تبيّن أنه أصلع بعدما خلع قبعته .

« اميركيون ؟ تشرّفنا . انا النقيب فلاديمير آرتزيباتشيف تحت أمركم » . ويبدو أنه لم يستغرب ان يكون اربعة غرباء ، بينهم امرأة ، يتجوّلون بين تحصينات جيش ينتظر الهجوم . فبدأ يتذمر من حالة روسيا :

« كل تقاليد الجيش الروسي العظيمة قد انهارت . وهذا ليس بسبب البلاشفة وحدهم . انظروا حولكم . هؤلاء تلامذة في كليات تدريب الضباط . ولكن هل هم أسياد ؟ لقد فتح كرنسكي كليات الضباط امام القواعد ، امام أي جندي يستطيع ان ينجح في امتحان . ومن الطبيعي أن نجد العديد ، العديد بينهم ممن انتقلت اليه عدوى الثورة » ...

وفجأة غيّر الموضوع : « انا بشوق بالغ الى الخروج من روسيا . صممت على الانخراط في الجيش الاميركي . من فضلكم ، هل يمكنكم الذهاب الى قنصلكم واجراء الترتيبات اللازمة ؟ سأعطيكم عنواني » . ورغم احتجاجنا كتب عنوانه على ورقة ، وبدا كأنه شعر بتحسن مفاجىء . ما زال العنوان معي ...

ثم اردف وهو يقودنا الى الغرف ويشرح لنا كل شيء : « قمنا بعرض في الصباح الباكر . قرر « فيلق النساء » البقاء الى جانب الحكومة » .

« ما تزال الجندات في القصر » ؟

« اي في الغرف الخلفية حتى لا يصيبهن مكروه اذا حدثت اضطرابات » وتنهد قائلاً : « انها لمسؤولية جسيمة » !

وقفنا لبرهة أمام النوافذ ، نتطلع الى ساحة القصر حيث اصطفت ثلاث سرايا من « الينكرز » المسلّحين ذوي المعاطف الطويلة ، يخطب فيهم ضابط طويل نشيط عرفت انه ستانكيفيتش ، المفوّض العسكري الرئيسي الملحق بالحكومة المؤقتة . وبعد بضعة دقائق ، تنكبت سريتان السلاح بجلبة ، وبعد اطلاق ثلاث صرخات حادة ، اجتازت الساحة ثم اختفت تحت « القوس الأحمر » في المدينة الساكنة .

« ذهبوا ليستولوا على مركز الهاتف » ، قال أحدهم . كان ثلاثة عسكريين برتبة صف ضابط يقفون قربنا ، فدخلنا في حديث . قالوا انهم دخلوا الى الكليات من الرتب الدنيا واعطونا أسماءهم : روبرت اوليف ، الكساي فاسيليينكو وارني شاشس من استونيا . ولكنهم لا يريدون أن يصبحوا ضباطاً الآن لأن الضباط مكروهون. ويبدو انهم لا يدرون ماذا سيفعلون ، وكان واضحاً انهم ليسوا سعداء .

ولكن سرعان ما بدأوا يتبجحون: « اذا تقدم البلاشفة ، سوف نعلّمهم القتال . انهم لا يجسرون على القتال ، انهم جبناء . ولكن اذا كانوا أقوى منا ، فكل منا يحتفظ برصاصة لنفسه » ...

وفي تلك اللحظة لعلع الرصاص في مكان ليس ببعيد . بدأ الناس يهربون من الساحة ، خارجاً ، أو ينبطحون أرضاً على وجوههم ؛ وتفرق فرسان « الازفوشيكي » ، الواقفين عند الزوايا ، في كل اتجاه . تعالى الصخب في الداخل : جنود يركضون من كل صوب ، يختطفون البنادق ، وأحزمة الرصاص ، ويصيحون : « جاءوا ! جاءوا ! » ... ولكن الأحوال هدأت بعد بضعة دقائق . عاد الفرسان ، ووقف الناس الذين كانوا على الأرض . وظهر « النبكرز » تحت « القوس الأحمر » يمشون بشيء من عدم الانتظام ، وكان أحدهم يتكىء على رفيقين له .

كان الوقت متأخراً عندما غادرنا القصر . لقد اختفى جميع حرّاس الساحة . وبدت البنايات الحكومية المنتصبة في نصف دائرة ، مهجورة . ذهبنا الى « فندق فرنسا » لتناول العشاء ، وبينما كنا نحتسي الحساء ، جاء النادل ، شاحب الوجه ، وأصرّ علينا أن ننتقل الى غرفة الطعام الرئيسية في مؤخرة الفندق ، لأنهم يريدون اطفاء الأنوار في المقهى : « سيدور قتال عنيف » .

وعندما خرجنا الى رصيف « مورسكايا » كانت الظلمة تخيّم فيا عدا قنديل واحد شحيح الضوء عند زاوية شارع « نيفسكي » . وقد وقفت تحته سيارة مصفحة ضخمة ، يهدر محركها ويتصاعد منها الدخان . أحد الصبية قد تسلق عليها وأخذ يحدّق في فوهة مدفع رشاش . الجنود والبحارة يتحلقون حولها منتظرين شيئاً ما . وعدنا الى « القوس الأحمر » حيث تحلّق جمع من الجنود ، يحدّقون بقصر الشتاء الذي يتلألأ بالأضواء ، ويتكلمون بأصوات مرتفعة .

وكان أحدهم يقول : « لا ، يا رفاق ! كيف يمكننا أن نطلق الرصاص؟ فيلق النساء في الداخل — سوف يقولون إننا أطلقنا النار على النساء الروسيات »

ولما عدنا الى شارع نيفسكي مرّت سيارة مصفحة أخرى ، وأطل رجل برأسه من قلعتها صائحاً :

« تعالوا . فلنتقدم ولنهجم » .

فاقترب سائق السيارة الأخرى وصاح لكي يسمع صوته فوق هدير المحرّك : « اللجنة تقول أن ننتظر . عندهم مدفعية وراء كومات الخشب هناك » ...

كانت السيارات العمومية قد توقفت ، والقليل من الناس يمر ، والأنوار مطفأة ؛ لكننا استطعنا أن نرى، على بعد مسافة قصيرة ، الحافلات والجموع ونوافذ المتاجر المضاءة والاشارات الكهربائية لدور السينما — الحياة تسير كالمعتاد . كانت معنا بطاقات لحضور حفلة باليه في قصر مارينسكي — فقد كانت جميع المسارح مفتوحة . الا أننا لم نذهب اليها لأن الوضع في الخارج كان أكثر إثارة ...

تعثرنا في الظلمة بكومات الحطب التي تسدّ « جسر الشرطة » ، ورأينا بضع جنود ينصبون مدافع ميدان من عيار ثلاثة بوصات قبالة قصر « ستروغانوف » . رجال يرتدون أزياء مختلفة يذرعون المكان بلا هدف ، ويتكلمون بكثرة ...

وبدا كأن المدينة كلها تتمشى في شارع نيفسكي . عند كل زاوية تتحلق جموع حول مناقشة حامية . عند كل تقاطع طرق ، تقف دوريات من عشرات الجنود ، منصوبة الحراب ، بينما يتوعدهم كهول ، ذوو خدود حمراء ،

ومعاطف فراء ثمينة ، وتقذف النساء الأنيقات الشتائم في وجوههم . وكان الجنود يناقشون بضعف ، ويبتسمون بإحراج ... السيارات المصفحة تذرع الشارع ، وقـــد سمّيت على أسماء القياصرة الأول – أوليغ ، روريك ، سفيتوسلاف – وقد كُتبت عليها بخط كبير أحمر الأحرف الأولى لعبـارة : « حزب العـمال الاشتراكي – الديمقراطي الروسي » R. S. D. R. P . ظهر رجل يتأبط رزمة صحف عند شارع ميخايلوفسكي ، وسرعان ما تدافع النـــاس المهتاجون نحوه ، يدفعون روبلاً أو خمسة أو عشرة ويتنازعون كالحيوانات . كان معه صحيفة « العامل والجندي » ، معلنة انتصار الثورة البروليتارية ، واطلاق سراح البلاشفة الذين ما زالوا في السجن ، داعية الجيش ، في الجبهة والمؤخرة ، الى تأييد الثورة ... هي وريقة محمومـــة من أربع صفحات ، مطبوعة بأحرف كبيرة ، ولا تحوي أية أخبار ...

تجمّع حوالي ألفي مواطن عند زاوية شارع « سادوفايا » ، يحدّقون بسطح بناية شاهقة حيث وميض شرارة حمراء صغيرة .

وقال فلاح طويل مشيراً اليها : « انظروا ! انه مخرّب . الآن سيطلق النار على الشعب ... » ويبدو أن أحداً لم يفكر في التحقيق بالأمر .

كانت واجهة « سمولني » العريضة تتلألأ بالأضواء لما وصلنا اليها ، تتدفق اليهـا ، من كل شارع ، موجات من الأشكال المسرعة في العتمة . السيارات والدراجات النارية تروح وتجيء ؛ وتنطلق سيارة مصفحة ، رمادية اللون ، يرفرف على قلعتها علمان أحمران ، وقد أطلقت العنان لصفّارتها . الجو بارد ، وعند البوابة الخارجية أشعل أفراد الحرس الأحمر النار . وكذلك فعلوا عند البوابة الداخلية حيث يقرأون ، على ضوئها ، اذوناتنا ويتفحصوننا من رأسنا الى أخمص قدمينا . الأغطية نزعت عن المدافع الأربعة السريعة الطلقات عند كل جانب من جوانب الباب ، وأحزمة الرصاص تتدلى منها كالحيّات . تحت

أشجار البـــاحة ، تقف مجموعة من السيارات المصفحة ، ذات لون ترابي ، ومحركاتها دائرة. الصالات الطويلة الجرداء الشحيحة النور تضجّ بجلبة الأرجل والنداء والصراخ. الجو مضطرب. وتدفق جمع على السلّم، كانوا عمالاً يرتدون قمصاناً سوداء ويعتمرون قبعات سوداء مستديرة مصنوعة من الفراء، والعديد منهم يتنكب البنـــادق ؛ وجنوداً يرتدون معاطف خشنة ترابية اللون ويعتمرون قلانس مسطحة ؛ وبضع قادة – أمثال كامنييف ولوناتشارسكي – يهرولون وسط جمع يتكلم كل أفراده في آن واحد ، بوجوه متعبة قلقـة ، ويتأبطون الحقائب اليدوية المنتفخة . كان الاجـــتماع الاستثنائي لسوفييت بتروغراد قد انتهى. فاستوقفت كامنييف ، وهو رجل صغير يتحرك بسرعة له وجه كبير طافح بالحيوية وملتصق بكتفيه . أخذ يقرأ ، بدون مقدمات، بلغة فرنسية سريعة ، نسخة عن القرار الذي تمّ اتخاذه لتوّه :

إن سوفييت مندوبي العـمال والجنود في بتروغراد ، إذ يحيي الثورة المظفرة التي قامت بها بروليتاريا بتروغراد وحاميتها ، يهمه أن يؤكد على الوحـدة والتنظيم والانضباط والتعاون التام الذي أظهرته الجماهير في هذه الانتفاضة ؛ نادراً ما سالت مثل هـذه الكمية القليلة من الدم ، ونادراً ما لاقت ثورة مثل هذا النجاح .

إن السوفييت يعبّر عن ايمانه الراسخ بأن حكومة العمال والفلاحين ، التي ستكوّنها الثورة كحكومة للسوفييت ، والـتي ستضمن للبروليتاريا الصناعية دعم كل جماهير الفلاحين الفقراء ، سوف تتقدم بحزم نحو الاشتراكية ، الطريقـة الوحيدة لتجنيب البلد بؤس الحرب وفظائعها .

إن حكومة العـــمال والفلاحين الجديدة سوف تقترح فوراً السلام الديمقراطي العادل على جميع البلدان المتحاربة .

وسوف تصادر فوراً ملكيات الأرض الكبيرة وتوزعها على الفلاحين . وسوف تحقق سيطرة العمال على انتاج وتوزيع السلع المصنوعة، وتراقب المصارف بعد أن تحوّلها الى احتكار للدولة .

إن سوفييت مندوبي العمال والجنود يدعو عمال وفلاحي روسيا الى تأييد الثورة البروليتارية بكل عزم واخلاص . والسوفييت يهمه أن يعبّر عن اقتناعه بأن عمال المدن المتحالفين مع فقراء الفلاحين سوف يحافظون على الانضباط الثوري ، الشرط الذي لا بدّ منه لانتصار الاشتراكية . والسوفييت مقتنع أيضاً بأن بروليتاريا بلدان أوروبا الغربية سوف تساعدنا على دفع قضية الاشتراكية نحو انتصارها الكامل النهائي .

« اذاً ، تظن انكم ربحتم الجولة ؟ »

ورفع كتفيه : « أمامنا عمل كثير . كثير جداً . انها البداية فقط » .
عند نهاية السلّم ، التقيت بريازانوف ، نائب رئيس اتحاد نقابات العمال ، وكان يلتفت الى الخلف ويعضّ لحيته الشائبة صائحاً : « انه جنون ! جنون ! الطبقة العاملة الأوروبية لن تتحرّك ! كل روسيا ... » . وحرّك يده بإشارة غامضة، ثم غادر المكان مسرعاً . كان ريازانوف وكامنيف قد عارضا القيام بثورة وتعرّضا للسع لسان لينين القامي ...

كان الاجتماع تاريخياً . أعلن فيه تروتسكي، باسم اللجنة العسكرية الثورية، سقوط الحكومة المؤقتة ، فقال :

« ان طبيعة الحكومات البرجوازية هي خداع الشعب . نحن ، سوفييت مندوبي العمال والجنود ، سوف نقوم بتجربة فريدة من نوعها في التاريخ : سوف ننشىء سلطة لا هدف لها غير إشباع حاجات الجنود والعمال والفلاحين » .

ثم ظهر لينين داعياً الى الثورة الاجتماعية العالمية ، فاستقبلته عاصفة من التصفيق والهتاف ... وصاح زينوفييف : « في هذا اليوم دفعنا ديننا الى البروليتاريا العالمية وسددنا ضربة قاسية للحرب،ولكمة قاتلة لجميع الاستعماريين وبشكل خاص لوليم السفاح » ...

ثم عاد تروتسكي قائلاً : ان البرقيات قد أرسلت الى الجبهة معلنة انتصار الثورة ولكن ما من جواب . وخبّر عن تقدم بعض الفرق العسكرية نحو بتروغراد ، وعن إرسال وفد ليعلمها الحقيقة .

صيحات : « إنكم تستبقون إرادة مؤتمر السوفييت العام » !

تروتسكي ، ببرودة : « إن انتفاضة عمال وجنود بتروغراد هي التي استبقت ارادة مؤتمر السوفييت العام » !

دخلنا قاعة الاجتماع الكبيرة بعد أن شققنا طريقنا وسط الجموع الصاخبة عند الباب.مندوبو عمال وجنود روسيا ينتظرون بصمت قلق تارة أو بصخب عظيم تارة أخرى أن يقرع رئيس الجلسة الجرس . وقد جلسوا على الكراسي تحت الثريات البيضاء ، أو حشروا دون حراك في الماشي وعلى الأطراف ، جالسين على حافة النوافذ أو حتى على أطراف المنصة. فيما عدا الدفء المنبعث من أجساد غير مغتسلة . لم يكن هناك تدفئة في القاعة . كانت تتصاعد من هذا الجمع غمامة زرقاء قاتمة وتستقر في الهواء الثقيل . ومن وقت لآخر ، يصعد ذو سلطة الى المنبر ويطلب من الرفاق الاقلاع عن التدخين ، فيصيح الجميع ، مدخنين أو غير مدخنين على حد سواء : « لا تدخنوا ، يا رفاق »! ثم يستمروا بالتدخين . أقعدني بتروفسكي قربه ، وهو مندوب فوضوي عن مصنع « أوبوخوف » . وكان متسخاً ، لم يحلق منذ أيام ، يتمايل مرهقاً من ثلاث ليال قضاها بدون نوم عاملاً في اللجنة العسكرية الثورية .

أعضاء « التسايكا » القديمة يجلسون على المنصة ، يديرون لآخر مرة السوفييت الصاخبة التي أداروها منذ الأيام الأولى ، والتي ثارت عليهم اليوم. تلك نهاية المرحلة الأولى من الثورة الروسية التي قادها هؤلاء الرجال بطرقهم الحذرة ... الا أن الثلاثة العظام لم يكونوا بينهم : كرنسكي هرب الى الجبهة ماراً بمدن ريفية تتهيأ للانتفاض ، شكيدزي ، النسر القديم ، تقاعد حانقاً في جبال جورجيا حيث أصيب بالسل ، وتسيريتللي ذو المعنويات العالية ، المشرف أيضاً على الموت ، والذي عاد ، رغم ذلك ، ليضع براعته في الخطابة في خدمة قضية خاسرة . أما الحاضرون ، فكانوا : غوتز ، ودان ، ولبير ، وبوغدانوف ، وبرويدو ، وفيليبوفسكي ، بوجوههم الشاحبة وعيونهم الغائرة الحاقدة . وتحتهم يغلي ويموج المؤتمر العام الثاني للسوفييت ، وفوق رؤوسهم تنتصب اللجنة العسكرية الثورية التي تعمل بشبه حمّى ، وتمسك بين أيديها الخيوط التي تحرّك الثورة ، وتضرب بحزم ... الساعة الحادية عشرة الا عشرين دقيقة مساء .

دان يقرع الجرس ، بوجهه الرائق ، وقامته الصلعاء وزيه العسكري . وساد صمت ثقيل مفاجىء ، لا يعكره الا جلبة الناس الواقفين عند الباب وشجارهم ...

« اننا نمسك السلطة بين ايدينا » ، بدأ بحزن ، ثم توقف لحظة ، واردف بصوت خافت : « ايها الرفاق ! ان مؤتمر السوفييت يعقد في ظروف غير عادية وفي مرحلة استثنائية بحيث لا يخفى عليكم لماذا تعتبر « التسايكا » ان لا جدوى من التوجه اليكم بخطبة سياسية . وهذا يتضح اكثر اذا تذكرتم اني عضو في « التسايكا » وان رفاقي الحزبيين موجودون في هذه اللحظة ، في قصر الشتاء الذي تنهال عليه القنابل ، وهم يضحون بحياتهم لينفذوا الأوامر التي صدرت اليهم من « التسايكا » » (ضجّة) .

« اني أعلن افتتاح الجلسة الأولى للمؤتمر الثـاني لسوفييت مندوبي العمال والجنود » !

وجرى انتخاب مجلس الرئاسة وسط الجلبة والحراك . فأعلن افانيسوف أن البلاشفة ، والاشتراكيين الثوريين اليساريين ، والمناشفة الاممين قد اتفقوا على اعتماد التمثيل النسبي في مجلس الرئاسة . وانتصب بعض المناشفة محتجين. فصاح بهم جندي ملتحٍ : « تذكروا ماذا فعلتم بنا ، نحن البلاشفة ، عندما كنـا اقلية » ! النتيجة – ١٤ بلشفي ، ٧ اشتراكيين ثوريين ، ٣ مناشفة ، وواحد منشفي أممي من جماعـــة غوركي . وأعلن هندلمان ، باسم جناحي الاشتراكيين الثوريين اليميني والوسط ، رفضهما الاشتراك في مجلس الرئاسة ؛ وأيّـــد قوله خينشوك ، باسم المناشفة ؛ وأعلن المناشفة الأمميون أنهم أيضاً لن يشتركوا في مجلس الرئاسة الا اذا جرى التحقيق حـــول بضعة أمور . تصفيق متقطع وزعيق ، وقال صوت : « أيهـا المرتدون ، تعتبرون أنفسكم اشتراكيين ؟! » . وطلب احـــد مندوبي اوكرانيا مقعداً ، فاعطي له . ثم انسحبت « التسايكا » القديمـــة ، وظهر في مكانها تروتسكي ، كامنييف ، لونا تشارسكي ، مدام كولانتاي ، ونوغين ... وهبت القاعة راعدة . كم حلق هؤلاء البلاشفة ! كانوا زمرة مكروهة ومضطهدة منذ أربعة أشهر ، وها هم الآن في هذا المكان الرفيـع ، يديرون دفة روسيا العظيمة في عز ثورتها !

وقرأ كامنييف جدول الأعمال : اولاً ، تنظيم السلطة ؛ ثانيـاً ، الحرب والسلم ؛ ثالثاً ، الجمعية التأسيسية . وقـام لوزوفسكي معلناً أن مكاتب جميـع الفرقاء تقترح الاستماع الى تقرير سوفييت بتروغراد ومناقشته، ثم اعطاء حق الكلام لاعضاء « التسايكا » والأحزاب المختلفة ، قبـــل الانتقال الى مواد جدول الأعمال .

وفجأة ترامى صوت جديد ، أعمق من جلبة الجمهور ، ملحاحاً ، مقلقاً :

انه دوي المدافع الأصم. ونظر الناس بقلق نحـو النوافذ المغبشة ، وامتلكهم نوع من الحمى . طلب مارتوف حـق الكلام صائحاً بصوت أبح : « الحرب الأهلية قـــد بدأت ، أيها الرفاق ! يجب أن تكون أول مسألة هي مسألة تسوية الأزمة بطريقة سلمية . يجب أن نناقش ، بسرعة ، حول وسيلة تفادي الحرب الأهلية، من زاوية مبدئية وسياسية. ان اخواننا يقتلون في الشوارع! في هذه اللحظة ، نجد أن احـد الأحزاب الثورية يحل مسألة السلطة بواسطة انقلاب عسكري ، وكل هـــذا قبل افتتاح مؤتمر السوفييت – » وعجز، خـلال برهة ، عن اسماع صوته بسبب الضجة : « يجب على جميع الأحزاب الثورية أن تواجه الحقيقة ! المسألة الأولى المعروضة أمـــام المؤتمر هي مسألة السلطة ، وهذه المسألة يجري حلـها الآن بقوة السلاح في الشوارع ... يجب أن ننشىء سلطة تعترف بها جميع القوى الديمقراطية . واذا كان المؤتمر يريد أن يعبر عن الديمقراطية الثورية ، فـلا يجوز أن يقف مكتوف الأيدي أمام نشوب الحرب الأهليـة ، الـتي ستكون نتيجتها انفجاراً خطراً للثورة المضادة ... ان امكان الوصول الى مخرج سلمي هو في تشكيل سلطة ديمقراطية موحدة ... يجب أن ننتخب وفـداً ليتفاوض مع جميع الأحزاب والمنظمات الاشتراكية الأخرى » ...

دوي المدافع الأصم مـــا زال يسمع بانتظام من خـــلال النوافذ ، والمندوبون يتصايحون . وهكذا ، كانت روسيا الجديدة تولد ، بقـــذف المدفعية ، في العتمة ، وبالخوف والحقد والاقدام الذي لا يحد .

ووافق الاشتراكيون الثوريون اليساريون والاشتراكيون – الديمقراطيون المتحدون على اقتراح مارتوف . فقبل . وأعلن أحد الجنود أن المؤتمر العـام لسوفييت الفلاحين قد رفض ارسال مندوبين عنه الى هـذا المؤتمر ، واقترح ارسال لجنة لتوجه له دعوة رسمية ، وقـال : « يوجد بعض المندوبين هنا ؛ واقترح السماح لهم بالتصويت » . فقبل الاقتراح .

النقيب خاراش يطلب الكلام بإلحاح صارخاً : « ان الدجالين السياسين الذين يسيطرون على هذا المؤتمر قالوا لنا اننا سنسوّي مسألة السلطة، وها هي تسوّى من وراء ظهورنا قبل افتتاح المؤتمر ! الضربات توجه الى قصر الشتاء، ولكنها ليست إلا المسامير التي تدقّ في نعش الحزب السياسي الذي جازف بمثل هذه المغامرة ! » جلبة . وعقبه غارا : « المعارك تدور في الشوارع ونحن هنا نناقش الاقتراحات حول السلم...ان الاشتراكيين الثوريين والمناشفة يرفضون الاشتراك بما يجري، ويدعون جميع القوى العامة الى مقاومة محاولة الاستيلاء على الحكم ... » ثم تكلم كوشين، مندوب الجيش الثاني عشر وممثل مجموعة « الترودوفيك »: « جئت الى هنا لأجمع المعلومات وأنا سأعود فوراً الى الجبهة، حيث تعتبر جميع لجان الجيش ان استلام السوفييت للحكم، قبل ثلاثة أسابيع فقط من انعقاد الجمعية التأسيسية، هو طعنة في ظهر الجيش، وجريمة بحق الشعب ! » صيحات : « كذب ! كذاب » . وعندما سُمع صوته من جديد، كان يقول: « فلننقضِ على هذه المغامرة في بتروغراد! اني أدعو جميع المندوبين الى مغادرة هذه القاعة لانقاذ البلد والثورة ! » وبينما كان يعبر المشى وسط أصوات تصمّ الآذان، انقضّ البعض عليه مهددين ... وجاء دور خينشوك، وهو ضابط ذو لحية بنية طويلة، فتكلم بطريقة سلسة مقنعة : « اني أتكلم باسم مندوبي الجبهة . الجيش ممثل تمثيلاً صحيحاً في هذا المؤتمر، ومع ذلك، فالجيش لا يعتقد أن انعقاد مؤتمر السوفييت ضروري في هذا الوقت قبل ثلاثة أسابيع فقط من موعد افتتاح الجمعية — »، صيحات ودبكات تتزايد عنفاً . « إن الجيش لا يعتقد أن مؤتمر السوفييت يملك السلطة الضرورية — »، بدأ الجنود بالوقوف في كل أنحاء القاعة، صائحين :

« باسم من تتكلم ? ماذا تمثل ? »

« اني أمثل اللجنة المركزية التنفيذية لسوفييت الجيش الخامس، وفوجاً من

الثاني ، وفوج ن . الأول ، وقناصة س . الثالثة ... »

« متى جرى انتخابك؟ انك تمثل الضباط وليس الجنود ! ما رأي الجنود فيما تقول ؟ » زعاق وصيحات استهزاء .

« نحن ، مجموعة مندوبي الجبهة ، نتنصل من مسئولية مـــا حدث وما يحدث ، ونعتبر أنه من الضروري تعبئة جميع القوى الثورية الواعية لإنقاذ الثورة ! ان مجموعة مندوبي الجبهة سوف تنسحب من المؤتمر ... ساحة القتال هي في الخارج ، في الشوارع ! »

زعقات حانقة مدوية : « انك تتكلم باسم الضباط وليس باسم الجيش ! »

« اني أتوجه الى جميع الجنود العقلاء لينسحبوا من هذا المؤتمر ! »

وانصبّ عليه وابل من الشتائم: «كورنيلوفي ! عدو الثورة ! محرّض! »
ثم أعلن خينشوك، باسم المناشفة ، ان الطريقة الوحيدة للوصول الى حل سلمي هي البدء بمفاوضات مع الحكومة المؤقتة لتشكيل وزارة جديـدة ، تحظى بتأييد جميع فئات المجتمع . ومنع من اكمال حديثه طوال عدة دقائق. ثم تلا بلاغ المناشفة بصوت مرتفع :

« يستحيل علينا البقاء في المؤتمر لأن البلاشفة قـــاموا بمؤامرة عسكرية بمساعـدة سوفييت بتروغراد دون استشارة الأجنحـة والأحزاب الأخرى ، لهذا ننسحب داعين المجموعات الأخرى الى أن تحـــذو حذونا والى الاجتماع لمناقشة الوضع » .

« خائن » ! وخلال الاستراحات بين الازعـاج شبه المتواصل ، كان يترامى صوت هندلمان محتجاً ، باسم الاشتراكيين الثوريين ، على قصف قصر الشتاء ... « اننا نعارض هذا النوع من الفوضى » ...

وما أن نزل عن المنبر ، حتى قفز اليه جندي شاب نحيل الوجه ورفع يده بحركة درامية صائحاً : « يا رفاق » ! فساد الصمت: « إسمي بيترسون، وأنا أتكلم باسم فرقة القناصة الليتوانية الثانيـة . لقد استمعتم الى ممثلين عن لجان الجيش ، ان كلامها يعني شيئاً اذا كانا يمثلان الجيش » ... تصفيق حاد « ولكنهما لا يمثلان الجنود » ! وهزّ قبضته . « ان الجيش الثاني عشر يصر منذ زمن طويل على اعادة انتخاب السوفييت الأكبر ولجنة الجيش ، ولكن لجنتنا ، شأنها شأن « التسايكا » ، رفضت أن تدعو ممثلي الجماهير الا في نهاية أيلول بحيث يتسنى للرجعيين أن ينتخبوا مندوبيهم المزيفين الى هذا المؤتمر . اني أعلمكم الآن أن جنود ليتوانيا قد قالوا المرة تلو الأخرى: كفانا قرارات ! كفانا كلام ! نريد أعمالاً – يجب أن تكون السلطة بين أيدينـا !؟ فليترك المندوبون المحتالون المؤتمر ! ان الجيش ليس معهم » .

وعصفت القاعة بالهتاف . كان المندوبون قد ترددوا في أول الاجتماع لأن سرعة الأحداث صعقتهم وأذهلهم دويّ المدافع . وخلال ساعة بأكملها كانت الضربات تنهال عليهم ، من على ذلك المنبر ، لتصهرهم في بوتقة واحـدة ، ولكن لتسحقهم أيضـاً . فأخذوا يتساءلون : هل اننا نقف وحدنا ؟ هل ستثور روسيا ضدنا ؟ أصحيح أن الجيش يزحف على بتروغراد ؟ ثم تكلم هذا الجندي ذو العينين الصافيتين: فاكتشفوا فجأة أن ما يقوله هو الحقيقة.. هذا هو صوت الجنود ، فالملايين المائجة من الفلاحين والعمال الذين يرتدون الزي العسكري هم بشر مثلهم ، وأفكارهم ومشاعرهم هي مثـل أفكارهم ومشاعرهم ..

وتكلم جنود آخرون . أعلن غجيلشاخ باسم مندوبي الجبهة ، انهم قرروا الانسحاب من المؤتمر بأغلبية ضعيفـة ، وان المندوبين البلاشفة رفضوا حتى أن يشتركوا في التصويت، لأن المندوبين انقسموا حسب انتمائهم الحزبي وليس كمجموعات ، ثم قال : « يجري انتخاب المئات من مندوبي الجبهة بدون

اشتراك الجنود ، لأن لجان الجيش لم تعد الممثلة الحقيقية للقواعد ... » وصاح لوكيانوف ان ضباطاً مثل خاراش وشينخوك لا يمكن أن يمثلوا الجيش في هذا المؤتمر وانما القيادة العليا فقط : « ان سكان الخنادق يتمنون ، من كل قلوبهم ، أن تنتقل السلطة الى أيدي السوفييت ، وهم يعقدون عليها الآمال الكبيرة » ... كان الجزر ينقلب الى مدّ .

ثم تقدم ابراموفيتش ، باسم « العصبة » لسان حال الاشتراكيين — الديمقراطيين اليهود ، وكانت عيناه تقدحان شرراً وهو يرتجف من الغضب :

« ان ما يحدث الآن في بتروغراد لهو نكبة عظيمة ! ان مجموعة « العصبة » تؤيد بلاغ المناشفة والاشتراكيين الثوريين وسوف تنسحب من المؤتمر ! » ورفع صوته ويده : « ان واجبنا تجاه البروليتاريا الروسية لا يسمح لنا بالبقاء هنا وتحمل مسئولية هذه الجرائم . ولأن قصف قصر الشتاء لم يتوقف ، فقد قرر مجلس الدوما البلدي بالاشتراك مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين واللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين ، ان يموتوا مع الحكومة الموقتة ونحن سنذهب معهم بدون سلاح ، سوف نفتح صدورنا لرشاشات الارهابيين.. اننا ندعو جميع مندوبي هذا المؤتمر » وغرقت بقية خطابه في عاصفة من العياط والتهديدات والشتائم التي تحولت الى دوي جهنمي بينما كان خمسون مندوباً يقفون ويشقون طريقهم الى الخارج ...

قرع كامنييف الجرس صارخاً : « ابقوا في محلاتكم لنتابع عملنا » . ثم وقف تروتسكي بوجهه الشاحب القاسي ، وأطلق صوته الجهوري بكل ازدراء : « هؤلاء الذين يسمون أنفسهم الاشتراكيين المساومين ، هؤلاء المناشفة الخائفون والاشتراكيون الثوريون ، وأعضاء « العصبة » ، فليذهبوا ليسوا سوى حثالة سوف ترمى في مزبلة التاريخ ! » .

وأعلن ريازانوف ، باسم البلاشفة ، ان اللجنة العسكرية الثورية قد

استجابت لطلب مجلس دوما المدينـة ، فأرسلنا وفـداً ليفاوض قصر الشتاء « بهذا نكون قد قمنا بكل مجهود لنتفادى إراقة الدماء .. » .

خرجنا مسرعين وتوقفنا لبرهة في الغرفة حيث تعمل اللجنـة العسكرية الثورية بسرعة رهيبة ، تستقبل وتبعث الرسل اللاهثين ، وتوفد المفوضين ، الذين يملكون سلطة الحيـاة والموت ، الى جميع أنحـاء البلد ، وسط رنـين أجهزة الهاتف . فتحنـا الباب ، فتدفق تيـار من الهواء الفاسد ورائحـة الدخان ، ولمحنا الرجال المرهقين منكبين على خريطة تحت نور لمبة كهربائية. وكتب الرفيق جوزيفوف – دوخفينسكي اذوناتنا ، وهو يافـع باسم تتـدلى على جبينه خصلة شعر صفراء .

الليلة قارسة البرد ، وواجهة « سمولني » تعج بالسيارات القادمة والذاهبة يرتفع فوق ضجيجها دوي المدفع البعيـد البطيء . وكانت شاحنـة كبيرة واقفة هناك ، تهـتز مع هدير محركها . وبعض الرجال يقفزون اليهـا برزم يلتقطها آخرون ، وبنادقهم قربهم .

صحت : « الى اين ؟ » .

« الى كل أنحاء المدينة ، الى كل مكان ! » أجاب عامل صغير باسم بحركة منتشية رحبة .

أبرزنا اذوناتنا ، فدعونا « تعالوا ! ولكن ربما حدث اطلاق نـار » . فتسلقنا ، وأُرخي الكابح محدثـاً صوتاً غريبـاً ، وتقدمت السيارة بهزة ، فانقلبنا فوق الذين يصعدون ، واجتزنا النار الكبيرة عند البوابة والاخرى عنـد البوابة الخارجيـة التي تصبغ بالأحمر وجـوه العمال المسلحين الجالسين القرفصاء حولها . ثم انطلقت بنـا السيارة مسرعـة في « سوفوروفسـكي » تتهادى من ميل الى ميل ... ومزق أحد الرجال غلاف احدى الرزم وبدأ

يرمي الورق ، ففعلنا مثله ، وإذا بنا نتزل الشارع المظلم وينسحب وراءنا ذيل من الأوراق البيضاء الطافية المزوبعة . وتوقف المشاة يلتقطونها ، وخرج أفراد الدوريات المتحلقين حول النيران مسرعين رافعي الأيدي ليلتقطوها . أحياناً يبرز بعض الرجال المسلحين صائحين : « قف ! » رافعين بنادقهم ، إلا ان سائقنا كان يكتفي بأن يصيح كلمات غير مفهومة ونستمر في سيرنا .

والتقطت احدى هذه النسخ وقرأتها تحت قنديل الشارع الخافت :

الى مواطني روسيا :

لقد خلعت الحكومة الموقتة . وانتقلت سلطة الدولة الى أيدي اللجنة العسكرية الثورية ، التابعة لسوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود الذي يقود بروليتاريا بتروغراد وحاميتها.

القضية التي ناضل الشعب من أجلها : اقتراح فوري لعقد سلم عادل ، إلغاء حقوق ملاك الأراضي على الأرض ، سيطرة العمال على الانتاج ، تشكيل حكومة سوفييتية — هذه القضية بين أيدٍ أمينة الآن .

عاشت ثورة العمال والجنود والفلاحين

اللجنة العسكرية الثورية

سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود

كان يجلس بقربي رجل ذو عينين لوزيتين ووجه منغولي يرتدي معطفاً من وبر الماعز ، وزعق : « انتبه ! هنا يطلق المحرّضون النار دائماً من النوافذ » ! واتجهنا صوب ساحة « زنامنسكي » المعتمة المهجورة تقريباً ، وانعطفنا حول تمثال « تروبتسكوي » الشرس ثم نحو شارع نيفسكي العريض

حيث كان ثلاثة رجال واقفين مصوبين بنادقهم نحو النوافـــذ . الشارع من وراءنا ، يعجّ بالناس المهرولين المنكفئين على أنفسهم ... لم نعد نسمع صوت المدفع ، وكلما اقتربنا من طرف المدينة حيث يوجد قصر الشتاء ، كلما بدت الشوارع هادئة وخاوية . مجلس دوما المدينة يشعشع بالأنوار . ووراءه رأينا حشداً داكناً من الناس وصفاً من البحارة يصيحون بنـا أن نقف . فأبطأت السيارة وترجلنا منها .

المشهد مذهل . عند زاوية « قناة إيكاترينا » يقف صف من البحـــارة المسلحين على عرض شارع نييفسكي يسدّون الطريق في وجه جمع منتظم في أربعة صفوف . كانوا بين الثلاثمائة والأربعمائة، من رجال يرتدون معاطف السهرة ، ونساء أنيقـــات ، وضبـاط — باختصـار : أناس من كل الأنواع والفئـات . وعرفنـــا منهم العديد من مندوبي المؤتمر من قـــادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين : أفكسانتييف رئيس سوفييت الفلاحـــين النحيل الملتحي ، ساروكين النـاطق الرسمي باسم كرنسكي ، وابراموفيتش . يقف على رأسهم شرايـدر محـــافظ بتروغراد العجوز ذو اللحيـــة البيضـاء ، وبروكوبوفيتش وزير التموين في الحكومة المؤقتـة الذي اعتقل في الصباح ثم أطلق سراحه . ولمحت مالكين، مراسل صحيفة « الأخبار الروسية اليومية » فصاح بغبطة : « اننا ذاهبون لنموت في قصر الشتاء ». كان الموكب واقفاً ، تتعالى من مقدمته جلبة جدال حاد : شرايدر ، وبروكوبوفيتش يزعقان بوجه بحار ضخم يبدو أنه القائد :

« نريد المرور ! أنظر ، هؤلاء الرفـاق قـادمون من مؤتمر السوفييت ! أنظر الى بطاقاتهم ! اننا ذاهبون الى قصر الشتاء » !

كان واضحاً أن البحار مرتبك . فأخذ يحك رأسه بيده الغليظة ، مقطباً حاجبيه ، ثم زمجر قائلاً : « معي أوامر من اللجنـة بألا أسمح لأحد أن

يذهب لقصر الشتاء . ولكني سأبعث أحد الرفاق ليخابر سمولني » ..

فصاح شرايدر العجوز بانفعال شديد : « نصرّ على المرور ! مـــا معنا سلاح ! سنتقدم شئت أم أبيت ! »

« معي أوامر — » ، ردّد الجندي بعبوس .

فتعالت صيحات من كل جهة : « أطلق الرصاص علينا ان شئت ! سوف نمرّ ! الى الأمـــام ! نحن مستعدون للموت اذا كنت تملك الشجاعة الكافية لإطلاق الرصاص على مواطنين روس رفاق ! اننا نفتح صدورنا لرصاصكم ! »

أجاب البحار بعناد : « لا . لن أسمح لكم بالمرور » .

« ماذا تفعل اذا تقدمنا ؟ تطلق الرصاص ؟ »

« لا . لن أطلق الرصاص على أناس عزّل . لن نطلق الرصـــاص على مواطنين روس عزّل ... »

« سوف نتقدم . ماذا تستطيع أن تفعل ؟ »

« سنفعل شيئاً ما » ، أجاب البحار وكان واضحاً أنه ضائع ، « سنمنعكم من المرور ! سنفعل شيئاً ما . »

« ماذا ستفعل ؟ ماذا ستفعل ؟ »

وتقدم بحـــار آخر وصاح بغيظ شديد : « سوف نضربكم على قفاكم ! واذا اضطررنا ، سوف نطلق الرصاص عليكم أيضاً . اذهبوا الى بيوتكم الآن ، واتركونا لحالنا ! »

عنـــد ذاك ، تعالت جلبة عظيمة من الغضب والاحتجاج ، وكان بروكوبوفيتش قد اعتلى صندوقاً ، وأخذ يخطب ملوّحاً بمظلته :

« أيها الرفاق، أيها المواطنون ! انهم يستعملون القوة ضدنا ! ونحن نرفض أن تلوّث دماؤنا الطاهرة أيدي هؤلاء الجهلة ! عار علينا أن نموت هنا في الشارع على يد رعاع ... فلنعد الى مجلس الدوما لنناقش أفضل الوسائل لانقاذ البلد والثورة . »

فسار الموكب بصمت جليل صاعداً شارع نيفسكي . ولما كان الحراس منصرفين عنا ، استفدنا من الفرصة لنتسلل من خلفهم وانطلقنا باتجاه قصر الشتاء .

الظلمة مخيمة في كل مكان . لا شيء يتحرك سوى دوريات الجنود والحرس الأحمر المحدّقة العابسة . وشاهدنا أمام « كاتدرائية قازان » مدفع ميدان ، عيار ثلاث بوصات ، مائلاً الى جنبه في عرض الشارع بعد أن أطلق آخر قذيفة له على السطوح . الجنود يقفون عند كل باب ويتحدثون بأصوات خافتة محدّقين « بجسر الشرطة » . وسمعت أحدهم يقول : « ربما أخطأنا ... » . الدوريات تستوقف جميع العابرين عند تقاطع الطرقات . وكان تكوينها طريفاً : على رأس كل مجموعة من الجنود النظاميين يوجد أحد أفراد الحرس الأحمر ... لقد توقف اطلاق النار ...

وما أن وصلنا رصيف موروسكايا حتى سمعنا أحداً يصيح : « أرسلَ النيكروز خبراً يقولون فيه أنهم يريدوننا أن نذهب اليهم ونخرجهم من القصر ! » فتعالت الأصوات تصدر الأوامر ، بينما أخذت كتلة داكنة من البشر تتقدم في الظلمة ، بصمت إلا من جلبة الأرجل وصليل السلاح . انضممنا الى الصفوف الأمامية .

وتدفقنا تحت « القوس الأحمر » مثل نهر أسود ، مالئين جميع الشوارع بدون أغنية ولا هتاف . وهمس الرجل الذي يمشي أمامي : « انتبهوا ، يا رفاق ! لا تثقوا بهم . سوف يطلقون الرصاص بالتأكيد ! » فأخذنا نجري

في العراء ، خافضي الرؤوس ، متكتلين حول بعضنا البعض ، حتى وجدنا أنفسنا فجأة محشورين وراء قاعدة « نصب الاسكندر » .

سألت : « كم واحد قتلوا منكم ؟ »

« لا أدري . حوالي العشرة ... »

بعد بضع دقائق من التلطي هناك ، بدأ هذا الجيش المكوّن من بضع مئات يستعيد اطمئنانه ، فانطلق الى الأمام فجأة بدون أوامر . ولكني استطعت هذه المرة أن أرى ، في الضوء المنبعث من نوافذ قصر الشتاء ، ان أول مئتين أو ثلاثمئة رجل كانوا من الحرس الأحمر مع بعض الجنود النظاميين المبعثرين بينهم هنا وهناك . وتسلقنا متراساً من الحطب ، ثم قفزنا الى الداخل مطلقين صرخة انتصار ونحن نتعثر بين كومة البنادق التي رماها « النيكرز » ... المدخل الرئيسي مشرّع الأبواب يتدفق منها النور . لا صوت في الكومة الكبيرة .

وحملتنا هذه الموجة الشغوفة من الرجال قاذفة بنا الى المدخل اليمين المؤدي الى مستودع كبير هو قبو الجناح الشرقي من القصر الذي تتفرّع منه شبكة من المماشي والسلالم . وانقضّ الجنود وأفراد الحرس الأحمر على الصناديق الكبيرة بشراسة ، وانهالوا عليها بأعقاب بنادقهم يهشمونها ويستخرجون منها السجّاد والستائر والانسجة والصحون الصينية والاوعية الزجاجية ... واحد يتجول حاملاً ساعة برونزية ، وآخر قد وجد ريش نعام فشكل بها قبعته . كان النهب قد بدأ لما صاح احدهم : « يا رفاق ، لا تلمسوا شيئاً ! لا تأخذوا شيئاً ! هذه ملكية الشعب ! » وسرعان ما كان عشرون صوتاً يصيح : « كفى ! أعيدوا كل شيء الى مكانه ! لا تأخذوا شيئاً ! ملكية الشعب ! » وامتدت عدة أيدٍ لتنزل الناهبين من على الصناديق وانتزع الدمقس والسجاد من الذين أخذوها ، وأخذ رجلان الساعة البرونزية.

ثم أعيدت الأغراض كلهــا الى الصناديق ، بسرعة ودون ترتيب ، ووقف عندها حرّاس متطوّعون . حدث كل شيء بعفوية تامة . الصياح يتلاشى في الماشي والسلالم : « الانضباط الثوري ! ملكية الشعب » ...

عدنا الى مدخل الجناح الغربي ، جهة اليسار . كل شيء قد عاد الى حالته الطبيعية هناك أيضاً . جعر أحد أفراد الحرس الاحمر ، وهو يطل برأسه من البوابة الداخلية : « اخلوا القصر ! تعالوا ، يا رفاق ، فلنثبت لهم أننا لسنا لصوصاً ولا نهابين . الجميع خارج القصر مـا عدا المفوضين الى حـين ننصب الحراس » .

وقف إثنان من أفراد الحرس الاحمر وجندي وضابط يحملون المسدسات بينا جلس أحـد الجنود خلفهم الى الطاولة وبيده ورقة وقـلم . صيحات : « الجميع الى الخارج ! الجميع الى الخارج » . صيحات تأتي من بعيد وقريب . الجيش يتدفق من الباب متدافعاً مناقشاً مجـادلاً . اللجنة الـتي عينت نفسها للقيام بهذه المهمة ، تأخذ كل رجـل على حدة ، وتفتش جيوبه وتنظر تحت معطفه ، وتصادر منه كل شيء تظن انـه ليس له ، فيسجله الجندي الجالس الى الطاولة على ورقته ، ثم يودع في غرفـة صغيرة . وهكذا صودرت اشياء منوعة غريبة جداً . تماثيل صغيرة ، زجاجات حـبر ، أغطية سرير مطرزة بالشعار الامبراطوري ، شموع ، لوحـة زيتية صغيرة ، نشّافات للمكاتب ، سيوف مذهبة القبضات ، ألواح صابون ، الثياب على مختلف أنواعها ، أغطية ، كان أحد أفراد الحرس الاحمر يحمل ثلاث بندقيات ، واحدة له والأخريان صادرهما من « النيكرز » ؛ وكان آخر يحمل اربع حقائب يـدوية منتفخة بالوثائق والمخطوطات . المتهمون يستسلمون بعبوس او يتضرّعون كالأطفال . وأعضاء اللجنة يتكلمون بصوت واحـد موضحين ان السرقة ليست جديرة بأبطال الشعب وغالباً مـــا كان الذين يقبض عليهم ينضمون الى اللجنة ويساعدون في تفتيش الرفاق الآخرين [٣] .

خرج « النيكرز » بزمر من ثلاثـــة او اربعة . فانقضّ أعضاء اللجنة عليهم باندفاع غريب ، يرفقون عملية التفتيش بعبارات من هذا النوع « آه ، يا متآمرين ! يا جماعة كورنيلوف . اعداء الثورة . يا سفاحي دماء الشعب ! » ورغم أن « النيكرز » كانوا مذعورين ، فلم يحدث أي عنف . وكانت جيوبهم هم أيضاً مليئة بالمسروقات الصغيرة ، يدوّنهـا الكاتب عنده بدقـة لتودع في الغرفــة الصغيرة .. وجرّد « النيكرز » من أسلحتهم بينما زعقت بهم أصوات مدوية تسأل : « هـل ستحملون السلاح مرّة ثانية في وجـه الشعب » ؟

« لا » ، يجيب « النيكرز » واحداً واحداً . فيطلق سراحهم ...

طلبنا أن يسمح لنا بالدخول ، فترددت اللجنة ، إلا أن أحد أفراد الحرس الأحمر الضخام الجثة أجاب مؤكداً أن الدخول ممنوع . سأل : « من انتم ، على كل حال ؟ ما يدرينا أنكم لستم من جماعة كرنسكي ؟ » (كنا خمسة بيننا امرأتان) .

« طريق ، طريق ، يا رفاق ! » وظهر جندي وحارس أحمر في الباب ، يدفعون الجمع جانباً ، وتبعهم حراس آخرون رافعي الحراب . ثم ظهر ستة مـن المدنيين : أنهم أعضاء الحكومة المؤقتة . ظهر كيشكين اولاً شاحب الوجه ، ثم روتنبرغ محدّقاً بالأرض بعبوس ، ثم جاء تريشنكو يلتفت حوله بحدّة وحدق بنـا ببرود ... مرّوا بصمت ، وتجمـع الثوريون المنتصرون ليشاهدوهم ، ولم تسمع إلا بعض التمتمات الغاضبة . ولكننا سمعنا فـيما بعد أن النــاس في الشارع أرادوا أن يشنقوهم واطلقوا الرصاص عليهم ، إلا أن البحّارة ساقوهم بأمان الى « حصن بطرس – بولس » ...

في تلك الاثناء دخلنا القصر دون أن يعترض طريقنا أحـــد . الكثير من الناس مـــا زالوا يروحون ويجيئون ، يكتشفون شققاً جديدة في هـــذا البناء

الواسع ، ويفتشون عن كتائب « نيكرز » غير موجودة . كانت قطاعات أخرى قد دخلت هذا الجناح من القصر من جهة نهر « نيفا » . اللوحات والتماثيل والسجّاد ما تزال على حالها في الشقق الحكومية الكبيرة . إلا أنه جرى تفتيش جميع المكاتب والخزائن ، وكانت الأوراق مبعثرة على الأرض. وجرّدت الأسرّة من أغطيتها ، في غرف النوم ، وشرعت أبواب جميع خزانات الثياب . كانت الثياب أثمن غنيمة يحتاجها الشعب العامل . ورأينا جنديين يمزّقان الجلد الاسباني الفاخر عن الكراسي ، في احدى الغرف التي أودع فيها الاثاث ، فأفهمونا أنهم يستعملونه لصنع الأحذية ...

يقف خدّام القصر الكهول بعصبية ، بأزيائهم الزرقاء والحمراء والذهبية ، ويرددون ، بحكم العادة : « ممنوع الدخول الى هنا ، يا سادة ! ممنوع — » . مكثنا مدة طويلة في الغرفة الذهبية والزرقاء ذات الستائر الحريرية الحمراء ، حيث كان الوزراء مجتمعين طوال ذلك اليوم ، الى أن وشى بهم حرس « الشفايتساري » الى الحرس الأحمر . الطاولة الخضراء المستطيلة ما تزال على حالها مثلما تركوها عندما اعتقلوا . يوجد محبرة وقلم وورق أمام كل مقعد فارغ . وعلى الأوراق مطالع خطط للعمل أو مسودات بلاغات وبيانات . وقد شطّب معظمها لما تبين عدم جدواها ، وغطّي باقي الورقة برسوم هندسية صادرة عن بال ساهٍ ، بينا جلس الوزراء فاقدي الأمل ، يصغون الى الوزير تلو الوزير يقترحون خططاً غير معقولة . وأخذت احدى هذه الصفحات وقد كتب عليها كونافالوف : « إن الحكومة المؤقتة تهيب بجميع الطبقات أن تؤيدها ... »

وجدير بالذكر أنه بالرغم من أن قصر الشتاء كان محاصراً، فان الحكومة كانت على اتصال دائم ، طوال ذلك الوقت ، بالجبهة وبالريف الروسي . كان البلاشفة قد استولوا على وزارة الحربية في الصباح الباكر ، إلا أنهم لم يعلموا بوجود مكتب اللاسلكي العسكري في الطابق العلوي، ولا بوجود خط

الهاتف الخاص الذي يصله بقصر الشتاء . طوال ذلك اليوم، كان أحد الضباط الشباب قابعاً في ذلك الطابق العلوي ، يذيع طائفة من البلاغات والنداءات على البلد كله ، ولما سمع أن قصر الشتاء قـد سقط بأيدي البلاشفة ، اعتمر قبعته وخرج بهدوء من البناية ...

ولما كنا جد مهتمين ، لم نلاحظ ، طوال مـدة ليست بقصيرة ، التغيّر الذي طرأ على موقف الجنود وأفراد الحرس الأحمر حولنا . كان جمع صغير يلحق بنا بينما نحن نتجول من غرفة الى غرفة كان حوالي مئة رجل قد لحقوا بنا لمـّا وصلنا صالة العرض الكبيرة حيث قضينا ساعات بعد الظهر برفقـــة « النيكرز » . ووقف جندي عملاق معترضاً طريقنا ووجهـه الأسمر محتقن بالريبة . ثم جعر : « من أنتم ؟ ماذا تفعلون هنا ؟ » وتحلق الآخرون حولنا محدّقين فينا ، ثم بدأوا يتمتمون . سمعت أحدهم يقول « أنهم محرّضون ! » ، ثم قال آخر « انهم نهابون ! » . فأبرزت الأذونات التي أعطتنا اياهـا اللجنة العسكرية الثورية . فتناولها الجندي بحذر وقلبها رأساً على عقب ونظر اليهـا دون أن يفهم . وكان واضحاً أنه لا يعرف القراءة . ثم أعادها الينا وبصق على الأرض . « أوراق ! » ، قال باحتقار . وبدأ الحشد يضيّق الطوق علينا مثل قطيع من الثيران الهائجة حول راعي بقر ... ونظرت فوق رؤوسهم، فلمحت أحد الضباط ، وقد بدا يائساً فناديته فأخذ يشق طريقـــه وسطهم متوجها الينا .

قال : « أنا المفوّض . من أنتم ؟ ما هـذا ؟ » فتراجع الآخرون منتظرين النتيجة ، بينما ناولته أوراقنا .

فسأل بسرعة بالفرنسية : « أنتم أجـانب ؟ الأمر خطير جداً ... » ثم التفت الى الجمع حاملاً أوراقنا، وصاح : « رفاق ! هؤلاء هم رفاق أجانب.. من أميركا . جاءوا الى هنا لكي ينقلوا الى مواطنيهم الأخبـــار عن شجاعة جيش البروليتاريا وانضباطه الثوري » !

فأجاب الجندي العملاق: « كيف تعرف ذلك ؟ أنا أقول انهم محرّضون ! يدّعون أنهم جاءوا هنـــا ليشاهدوا انضباط جيش البروليتـــاريا الثوري ، ولكنهم كانوا يتجولون بحرية في القصر، ومن يدري اذا لم تكن جيوبهم مليئة بالمسروقات ؟ » .

وجعر الآخرون وهم يتدافعون الى الامام : « صحيح ! » .

فتضرع اليهم الضابط والعرق ينضح على جبينه : « رفـــاق ! رفاق ! أنا مفوّض في اللجنة العسكرية الثورية . هل تثقون بي ؟ حسناً : اني أقول لكم ان التوقيعات الموجودة على هذه الاذونات هي لنفس الأشخاص الذين وقّعوا على إذني أنا ! » .

ثم قادنا خارج القصر خلال باب يفضي الى رصيف النيفـــا تقف عنده اللجنة الموكلة بتفتيش الجيوب . . وهو يردد متمتمـــاً : « نفذتم من خرم الإبرة » .

سألنا : « ماذا جرى لفيلق النساء » ؟

« آه — النساء ! » ، وضحك. « لقد حشرن في احدى الغرف الخلفية . وجدنا صعوبة بالغة في تقرير ماذا نفعل بهن — كان العديد منهن في حـــالة هستيرية ومـــا شابه . وفي النهاية ، أخذناهن الى محطـــة فينلندا ووضعناهن في القطار المتوجه الى ليفاشوفا حيث يوجد أحد معسكراتهن » ...

خرجنا والليلة متوترة قارسة البرد ، تعج بالجيوش الداكنـــة المتحركة ، وتهدر بأصوات الدوريات . وترامى الينـــا صوت أبحّ من ضفة النهر الأخرى حيث ينتصب شبح حصن بطرس — بولس ... وكان المشي مليئاً بما تساقط من إفريز القصر عندما أصابته شظيتان من مدفعية البارجـــة « أورورا » وكان هذا الضرر الوحيد الذي أحدثه القصف ..

الساعة الآن تتجاوز الثالثة صباحاً . كانت جميع الأنوار ما تزال مضيئة على طول شارع نيفسكي ، وقد اختفى المدفع ، ولم يبق من آثار الحرب سوى الحرس الأحمر والجنود الجالسين القرفصاء حول النيران . المدينة هادئة – ولعلها لم تعرف مثل هذا الهدوء طوال تاريخها . ففي تلك الليلة لم تحدث أية عملية تشليح ولا سرقة .

إلا أن بناية مجلس دوما المدينة كانت متألقة الأنوار . فصعدنا الى « قاعة الاسكندر » حيث علقت صور العائلة الامبراطورية في اطاراتها الكبيرة الحمراء المذهبة . لقد احتشد حوالي مئة رجل حول المنبر حيث يخطب سكوبيليف . فطالب بتوسيع لجنة انقاذ الوطن والثورة . وبينما نحن هناك ، جرى تشكيل لجنة الانقاذ – تلك اللجنة التي أصبحت ألدّ عدو يواجه البلاشفة والتي ظهرت بعد اسبوع تارة باسمها الحقيقي وطوراً باسم « لجنة السلامة العامة » الذي يخفي طابعها الحزبي ...

كان دان وغوتز وأفاكسانتييف هناك وبعض مندوبي السوفييت المتمردين وأعضاء اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين ، وبروكوبوفيتش العجوز وحتى أعضاء مجلس الجمهورية – ومن بينهم فينافار وغيره من أعضاء حزب الكاديت. وصاح ليبر أن مؤتمر السوفييت ليس مؤتمراً شرعياً ، وان « التسايكا » القديمة ما زالت تتمتع بكافة مسئولياتها ... وكتب نداءً موجّهاً الى البلد كله .

صحنا سيارة عمومية . « الى أين ؟ » سأل السائق ، ولما عرف اننا ذاهبون الى « سمولني » هزّ برأسه قائلاً : « لا . انهم شياطين... » ولم نتمكن من ايجاد سائق يقبل بأن يقلنا الى هناك إلا بعد مسيرة طويلة مضنية ، وأخذ ثلاثين روبلاً وأوقف سيارته على مسافة ليست بقصيرة من البناية .

نوافذ « سمولني » تتألق بالأنوار ، والسيارات تروح وتجيء ، والحراس

يلتصقون ببعضهم البعض حول النيران التي مـا تزال مشتعلة ويسألون الجميع بشغف عن آخر الأخبار . الماشي مليئة بالرجـال المهرولين الملسخين ذوي الأعين الفارغة . البعض نائم على الأرض في غرف اللجان وبنادقهم الى جانبهم . ورغم خروج المندوبين المنشقين ، فقد كانت قاعـة الاجتماعات تغص بالناس الصاخبين مثل بحر هائج . دخلنا وكامنييف يتلو لائحة بأسماء الوزراء المعتقلين . واستقبل اسم تريشنكو بعاصفة من التصفيق ، وصيحات الارتياح والضحك ؛ أما روتنبرغ فكان أقل من زميله ؛ ولما ورد اسم بالشينسكي ، تعالت عاصفة من العياط والصيحات الغاضبة والهتافات ... وأعلن أنه قـد جرى تعيين شودنوفسكي مفوضاً مسئولاً عن قصر الشتاء .

ثم جرت مقاطعة درامية . اعتلى فلاح ضخم المنبر ، ووجهـه الملتحي يتشنج بالغضب ، وأخذ يضرب بقبضة يده على طاولة مجلس الرئاسة .

« نحن الاشتراكيين الثوريين نصر" على اطلاق سراح الوزراء الاشتراكيين المعتقلين في قصر الشتاء فوراً ! رفاق ! هل تعلمون أن الرفاق الأربعة الذين جازفوا بحياتهم وحريتهم وهم يناضلون ضد طغيان القيصر قـد قُذفوا الى غياهب سجن بطرس – بولس ، مقبرة الحرية ؟ » ثم أخذ يضرب بيـده على الطاولة ويصرخ وسط العياط . واعتلى مندوب آخر المنصة الى جانبه وأشار الى أعضاء مجلس الرئاسة قائلاً :

« هل سيظل ممثلو الجماهير الثورية مكتوفي الأيدي هنـا بينا تقـوم « الأوخرانا » التابعة للبلاشفة بتعذيب قادتهم » ؟

تروتسكي يشير بيده طالباً السكوت . « لقد قبض على هؤلاء « الرفاق » المزعومين وهم يخططون لسحق السوفييت بالتعاون مع كرنسكي – هـل من داعٍ لنعاملهم بالحسنى ؟ انهم لم يرفقوا بنا بعد أيام ١٦ و١٨ تموز ! » وصاح

وصوله يصدح بتلك الرنة المظفرة : « الآن وقد ذهب المدافعون والجبناء ، تقع مهمة الدفاع عن الثورة وانقاذها على عاتقنا نحن ، لهذا فمن الضروري أن نعمل ونعمل ونعمل ! لقد قررنا الموت ولا الاستسلام » ؟

وعقبه مفوض من « تسارسكوي سيلا » وكان يلهث وثيابه يعلوها الوحل من جراء رحلته : « ان حامية تسارسكوي سيلا تحرس ابواب بتروغراد وهي على أهبة الاستعداد للدفاع عن السوفييت واللجنة العسكرية الثورية » ! هتافات صاخبة . « ان فرقة الدراجات التي أرسلت من الجبهة قد وصلت الى تسارسكوي وقد انضم جنودها الينا ؛ انهم يعترفون بسلطة السوفييت وبضرورة توزيع الأرض فوراً على الفلاحين وسيطرة العمال على الصناعة . ان فيلق الدراجات الخامس ، المعسكر في تسارسكوي ، قد انضم الينا » ..

ثم تكلم مندوب فيلق الدراجات الثالث ، فخبر ، وسط الحماس البالغ ، كيف صدرت الأوامر اليه من ثلاثة أيام للتوجه من الجبهة الجنوبية الغربية الى بتروغراد « للدفاع عنها » . إلا أن الجنود شكوا في معنى الأمر الصادر لهم ، وقد استقبلهم عند محطة بيريدولسك ممثلون عن الفيلق الخامس من تسارسكوي فعقد اجتماع مشترك تبين فيه « انه لا يوجد جندي واحد من جنود الدراجات على استعداد لإهراق دم اخوانه ، أو للدفاع عن حكومة البرجوازيين وملاك الأرض » !

اقترح كابيلينسكي، باسم المناشفة الأمميين، أن تنتخب لجنة خاصة للوصول الى حل سلمي للحرب الأهلية . فجعر الحضور : « لا يوجد حل سلمي ! النصر هو الحل الوحيد » ! وسقط الاقتراح بأغلبية ساحقة ضده ، فانسحب المناشفة الأمميون من المؤتمر وسط زوبعة من الشتائم . لم يعد هناك أي خوف أو ذعر ... فصاح كامنييف بهم وهم يخرجون: « لقد طلب المناشفة الأمميون إعطاء صفة الاستعجال لمسألة الحل السلمي ، ولكنهم كانوا يصوتون دائماً

على تعليق جدول الأعمال لصالح بيانات الأجنحة التي قررت مغادرة المؤتمر . من الواضح أن انسحاب جميع هؤلاء المرتدين قد تقرر بشكل مسبق » !

فقرر الاجتماع تجاهل انسحاب الأجنحة ، وانتقل الى مناقشة النداء الموجه الى عمال وفلاحي وجنود روسيا بأمرها :

الى العمال والجنود والفلاحين

لقد انعقد المؤتمر العام الثاني لسوفييت مندوبي العمال والجنود. وهو يمثل الغالبية الساحقة من منظمات السوفييت . وقد اشترك فيه أيضاً عدد من مندوبي الفلاحين . إن المؤتمر قد استلم الحكم ، استجابة منه لإرادة الأغلبية الساحقة من العمال والجنود والفلاحين ، ولثورة عمال وجنود بتروغراد المظفرة .

إن الحكومة المؤقتة قد سقطت . وقد تم اعتقال معظم أعضاء هذه الحكومة .

ان السلطة السوفييتية سوف تقترح على جميع الأمم تحقيق سلم ديمقراطي فوري ، وإعلان الهدنة على جميع الجبهات فوراً . وسوف تؤمن انتقال أراضي الملاك والعرش والوقف بحرية الى أيدي لجان الأرض ، وتدافع عن حقوق الجنود ، وتحول الجيش الى جيش ديمقراطي ، وتحقق سيطرة العمال على الانتاج ، وتضمن عقد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر ، وتتخذ الاجراءات اللازمة لتأمين الخبز للمدن والحاجيات الضرورية للقرى ، وتؤمن لجميع القوميات الموجودة في روسيا حقها الفعلي في العيش المستقل .

إن المؤتمر يقرر : نقل كل السلطات المحلية الى سوفييت

مندوبي العمال والجنود والفلاحين التي تقع عليها مسؤولية تأمين الانضباط الثوري .

إن المؤتمر يتوجه الى الجنود في الخنادق طالباً منهم الصمود واليقظة . وإن مؤتمر السوفييت واثق من أن الجيش الثوري يعرف كيف يحمي الثورة من هجمات الاستعمار الى حين تحقق الحكومة الجديدة السلم الديمقراطي الذي ستعرضه حالاً على جميع الأمم. وان الحكومة المؤقتة سوف تتخذ جميع الخطوات اللازمة لتأمين كل ما يحتاجه الجيش الثوري بواسطة اتباع سياسة محددة في المصادرة وفرض الضرائب على الطبقات المالكة ، كما انها ستعنى بتحسين وضع عائلات الجنود .

إن الكورنيلوفيين أمثال كرنسكي وخالدين ومن سار في ركبها ، يحضرون للزحف على بتروغراد . إن أفواجاً عديدة ضللها كرنسكي عادت وانضمت الى الشعب الثائر .

أيها الجنود! قاوموا الكورنيلوفيين وجماعة كرنسكي بضراوة! تأهبوا !

يا عمال سكك الحديد ! أوقفوا جميع القطارات التي تنقل الجنود الذين أرسلهم كرنسكي ضد بتروغراد !

أيها الجنود أيها العمال يا موظفي المكاتب ! ان مصير الثورة والسلم الديمقراطي بين أيديكم !

عاشت الثورة ! »

المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين

المندوبون عن سوفييت الفلاحين

كانت الساعة في تمـــام الخامسة وسبع عشرة دقيقة صباحاً عندما اعتلى كريلنكو المنبر وهو يتعثر من التعب وبيده برقية .

« أيهـا الرفاق ! برقية من الجبهة الشمالية . الجيش الثـــاني عشر يبعث بتحياته الى مؤتمر السوفييت ، معلناً تشكيل لجنـــة عسكرية ثورية استلمت قيادة الجبهة الشمالية ! » فوضى عامة ، رجال يبكون ويتعانقون . «الجنرال شيرميزوف قد اعترف باللجنة – أمــا فويتينسكي ، مفوض الحكومة المؤقتة فقد قدم استقالته ! »

وهكذا ، فان لينين وعمال بتروغراد قرروا القيـــام بالثورة ، وتولى سوفييت بتروغراد قلب الحكومة المؤقتة ، ووضع الانقلاب بين أيدي مؤتمر السوفييت . والآن يجب كسب روسيا الكبيرة كلها – ثم العـــالم بأسره ! هل ستلبي روسيا النداء وتثور ؟ والعالم – ماذا بشأن العـــالم ؟ هل ستلبي الشعوب النداء وتثور في موجة حمراء عارمة تشمل العالم ؟

رغم ان الساعة قد بلغت السادسة صباحاً، فان الليل كان لا يزال مخيماً، قــارس البرد . لا شيء غير شحوب غريب ينسحب فوق الشوارع الصامتة ، ويغطي وهـــج نيران الحراسة : انـه ظل فجر رمــادي رهيب يطلع على روسيا ...

هوامش

(الفصل الرابع)

١ ـ أحداث يوم السابع من تشرين الثاني

مكث كرنسكي في مقر القيادة العامة في بتروغراد من الرابعة صباحاً حتى طلوع الفجر ، وأخذ يصدر الأوامر الى القوزاق « والنيكرز » في كليات الضباط في بتروغراد وضواحيها ، إلا أنهم أجابوا جميعاً انهم عاجزون عن التحرّك .

العقيد بولكوفنيكوف، حاكم المدينة ، يهرول بين الأركان وقصر الشتاء، وكان واضحاً انه لا يحمل أية خطة . أصدر كرنسكي أمراً بفتح الجسور ؛ ومضت ثلاث ساعات دون أن يحدث أي شيء ، ثم تطوع ضابط وخمسة رجال وفتحوا جسر « نيقولاي » بعد أن فرّت دورية الحرس الأحمر التي تحرسه . إلا أن بعض الجنود عادوا فأغلقوه بعد ذهابهم مباشرة .

أمر كرنسكي باحتلال مطبعة « طريق العمال » . ووعد الضابط المكلف بالمهمة أن توضع حظيرة من الجنود تحت تصرفه ؛ وبعد ساعتين ، وعد ببعض « النيكرز » ثم نسي الأمر .

جرت محاولة لاستعادة مكتب البريد ووكالة البرق ؛ ولكن بعد أن أطلق جنود الحكومة بعض الطلقات النارية أعلنوا انهم لن يقاوموا السوفييت .

قال كرنسكي لوفد من « النيكرز » : « اني لا أعرف شيئاً بصفتي رئيس الحكومة المؤقتة وقائداً أعلى ، ولا أستطيع أن أسدي اليكم أية نصيحة ؛ ولكني ، بصفتي ثورياً قديماً ، أناشدكم ، أيها الثوريون الشباب ، أن تبقوا في مراكزكم وتدافعوا عن مكاسب الثورة » .

الأوامر التي صدرت عن كيشكين ، في ٧ تشرين الثاني :

« صدر مرسوم عن الحكومة المؤقتة ... يمنحني سلطات استثنائية لاعادة الأمن في بتروغراد، ويجعلني قائداً لجميع الهيئات المدنية والعسكرية ... »

« بناء على السلطات المعطاة إليّ من الحكومة المؤقتة ، أعلن تجريد العقيد جورج بولكوفنيكوف ، حاكم منطقة بتروغراد العسكرية ، من جميع صلاحياته ... »

* * *

نداء الى المواطنين (يحمل توقيع نائب الرئيس كونوفالوف ، في ٧ تشرين الثاني) :

« أيها المواطنون ! انقذوا الوطن الأم والجمهورية والحرية . لقد ثار المجانين ضد السلطة الحكومية الوحيدة التي انتخبها الشعب : الحكومة المؤقتة .

ان أعضاء الحكومة المؤقتة ما زالوا في مراكزهم يقومون بمهامهم عاملين لخير الوطن ولاستتباب الأمن ولانعقاد الجمعية

التأسيسية ولمستقبل روسيا السيدة وجميع الشعوب الروسية ...

أيها المواطنون ! يجب أن تؤيدوا الحكومة المؤقتة يجب أن تدعموا سلطتها . يجب أن تقاوموا هؤلاء المجانين المتحالفين مع أعداء الحرية والنظام ومع أذناب العهد القيصري لنسف الجمعية التأسيسية وتخريب مكاسب الثورة ومستقبل وطننا العزيز ...

أيها المواطنون ! التفّوا حول الحكومة المؤقتة للدفاع عن سلطتها المؤقتة باسم النظام وسعادة جميع الشعوب ... »

* * *

بلاغ صادر عن الحكومة المؤقتة

« لقد أعلن سوفييت بتروغراد ... ان الحكومة المؤقتة قد أسقطت ، وطالب بأن يستلم السلطة الحكومية مهدداً بقصف قصر الشتاء بمدافع حصن بطرس – بولس والبارجة « أورورا » الراسية في نهر النييفا .

ان الحكومة لن تتخلى عن سلطتها إلا للجمعية التأسيسية ، لهذا السبب فقد قررت أن ترفض الرضوخ وأن تطلب المساعدة من المواطنين والجيش . لقد أرسلت برقيـة الى « ستافكا » ، ويقول الرد انه قد تمّ ارسال فرقة عسكرية قوية ...

فليرفض الجيش والشعب محاولات البلاشفة الطائشة لإحداث تمرد في المؤخرة ... »

* * *

في حوالي الساعة التاسعة صباحاً ، غادر كرنسكي العاصمة الى الجبهة .

عند المساء وصل جنديان على الدرّاجات وعرّفا على نفسيهما لدى قيادة الأركان على أنهما يمثلان حامية حصن بطرس – بولس . ودخلا قاعة اجتماع الأركان حيث كان كيشكين وروتنبرغ وبالتشينسكي والجنرال باغراتوني ، والعقيد باراديلوف والكونت تولستوي ، وطلبا استسلام الأركان الفوري مهددين بقصف مقر الأركان في حال الرفض ... وانسحبت قيادة الأركان الى قصر الشتاء ، بعد اجتماعين خيّم عليهما الذعر ، فاستولى الحرس الأحمر على مقر قيادة الأركان .

عند المغيب دارت عدة سيارات مصفحة تابعة للبلاشفة حول باحة القصر ، وحاول الجنود السوفييت التفاوض مع « النيكرز» ولكن بدون جدوى...

بدأ اطلاق النار على القصر حوالي الساعة السابعة مساء ...

وعند الساعة العاشرة مساء ، بدأ قصف المدفعية من جهات ثلاث ، وكانت معظم القنابل فارغة ، ولم يُصب القصر إلا بشظايا في واجهته ...

٢ ـ هرب كرنسكي

غادر كرنسكي بتروغراد بالسيارة في صباح يوم ٧ تشرين الثاني ، الى « غاتشينا » حيث طلب قطاراً خاصاً . وكان قد وصل أوستروف ، في مقاطعة بسكوف، عند المساء . وفي الصباح عقدت جلسة استثنائية للسوفييت المحلي لمندوبي العمال والجنود واشترك فيه مندوبو القوزاق – كان ثمة ٦٠٠٠ قوزاقي في أوستروف .

خطب كرنسكي في الاجتماع طالباً مساعدته ضد البلاشفة ، وقد وجّه كلامه كلياً تقريباً للقوزاق ، فاحتج العمال .

وتعالت أصوات سائلة : « لماذا جئت الى هنا ؟ » فأجاب كرنسكي :

« لأطلب مساعدة القوزاق لسحق الثورة البلشفية ! » اذ ذاك تعالت صيحات احتجاج عنيفة أخذت تتزايد وهو يكمل حديثه : « لقد سحقت مؤامرة كورنيلوف وسوف أسحق البلاشفة ! » وتعالت الجلبة بحيث اضطر الى مغادرة المنبر ..

قرر مندوبو الجنود وقوزاق منطقة اوسوري أن يقتلوا كرنسكي ، الا أن قوزاق منطقة الدون منعوهم من ذلك وهرّبوه بالقطار ... وحاولت اللجنة العسكرية الثورية التي أنشأت خلال اليوم ذاته أن تبلغ حامية « بسكوف » النبأ ، الا ان خطوط الهاتف والبرق كانت مقطوعة ..

لم يصل كرنسكي الى « بسكوف ». كان الجنود الثوريون قد قطعوا خط سكة الحديد ليحولوا دون إرسال قوات ضد العاصمة . وفي مساء ٨ تشرين الأول ، وصل الى « لوغا » بالسيارة حيث استقبلته فيالق الموت المعسكرة هناك استقبالاً حسناً .

وفي اليوم التالي ، استقل القطار الى الجبهة الجنوبية الغربية وزار لجنة الجيش في مقرها . الا ان الجيش الخامس كان في ذروة التحمس لأخبار نجاح البلاشفة ، فلم تستطع لجنة الجيش أن تعد كرنسكي بأية مساعدة .

وذهب من هناك الى الستافكا في موغلييف ، حيث أصدر أمراً الى عشرات الأفواج في مختلف مناطق الجبهة بالزحف على بتروغراد . وكان ثمة شبه إجماع بين الجنود على الرفض ، أما الأفواج التي تحرّكت فقد أوقفت على الطريق . وفي النهاية ، تبعه حوالي خمسة آلاف قوزاقي ...

٣ – نهب قصر الشتاء

اني لا أدعي أنه لم يحصل أي نهب في قصر الشتاء . لقد جرت سرقات عديدة قبل سقوط القصر وبعده. الا أن ما قالته صحيفة «الشعب» (نارود) ، الناطقة باسم الاشتراكيين الثوريين ، وما قاله أعضاء مجلس دوما المدينة بأنه قد سرقت أشياء ثمينة قيمتها بـ ٥٠٠ مليون روبل هو مبالغة ضخمة .

كانت أهم كنوز القصر الفنية ، من لوحات وتماثيل وسجاد وأواني صينية نادرة وأسلحة ، قد نقلت الى موسكو خلال شهر أيلول ، وكانت مـا تزال في حالة جيدة في قبو القصر الامبراطوري بعد عشرة أيام من استيلاء القوات البلشفية على الكرملين . وهذا ما استطيع أن أشهد عليه شخصياً ..

الا أن بعض الأفراد من الجمهور ، الذي سمح له بالتجول بحرية في قصر الشتاء خلال عدة أيام بعد الاستيلاء عليه ، قد سرقوا بعض الأواني الفضيـة والساعات والأغطيـة والمرايا وبعض الأواني البورسلين الثمينة والأحجـار الكريمة لا تزيد قيمتها عن ١٥٠ ألف دولار .

وفوراً أنشأت الحكومة السوفييتية لجنة خاصة من الفنانين وعلماء الآثار لاستعادة الأغراض المسروقـة . وفي ١٤ تشرين الثاني ، صدر البلاغان التاليان :

« يا مواطني بتروغراد !

اننا نلحّ على المواطنين طالبين منهم بـذل كل مجهود ممكن لاستعادة مـا يمكن استعادتـه من الأشياء التي سرقت من قصر الشتاء ليلة السابع والثامن من تشرين الثاني ، وإرسالها الى حاكم قصر الشتاء .

إن الذين يستلمون الأشيـاء المسروقة ، ومحـلات الآثار ، وجميع من يتبيّن أنـه يخفي مثل هـذه الأشياء سوف يقع تحت طائلة القانون ويعاقب بقساوة .

المفوضان المسؤولان عن حماية المتاحف والمجموعات الفنية : ج ياتمانوف ، ب . ماندلبوم »

* * *

« الى لجان الأفواج والبحرية

في ليلة السابع والثـــامن من تشرين الأول ، سرقت أشياء ثمينة من قصر الشتاء ، الذي أصبح ملكاً للشعب الرومي .

إننا نناشدكم بذل كل الجهودات اللازمة فوراً لإعادة الأشياء المسروقة الى قصر الشتاء .

المفوضان المسؤولان عن حماية المتاحف والمجموعات الفنية : ج . ياتمانوف ، ب . ماندلبوم »

وجرت استعادة نصف المسروقات. وجد بعض منهـــا في حقائب بعض الأجانب وهم يغادرون روسيا .

وعقدت ندوة من الفنانين وعلماء الآثار ، بدعوة من « سمولني » انبثقت عنها لجنــة كلفت بجرد كنوز قصر الشتـــاء ، وبالاشراف على القصر كله وعلى جميع المجموعات الفنية والمتاحف الحكومية في العاصمة. في ١٦ تشرين الثاني ، منع الجمهور من دخول القصر بينما كان يتم جرد محتوياته .

وفي آخر أسبوع من تشرين الثاني ، صـــدر مرسوم عن مجلس مفوضي الشعب محولاً اسم قصر الشتـــاء الى « متحف الشعب » ووضع تحت اشراف لجنة من الفنانين وعلماء الآثار ، وأعلن منع أي نشاط حكومي في داخله..

٥

إلى الأمام

الخميس في ٨ تشرين الثاني . أطلّ الصباح على المدينة وهي في أشدّ حالات الهياج والفوضى . كانت عاصفة عنيفة تجتاح الأمة بأكملها . كل شيء هادىء ظاهرياً : مئات الآلاف من الناس ناموا باكراً ، واستيقظوا باكراً وذهبوا الى أعمالهم . السيارات العمومية تعمل في بتروغراد ، والحوانيت والمطاعم والمسارح مفتوحة ، وقد ظهرت إعلانات عن معرض للرسم ... « روتين » الحياة اليومية يسير كالمعتاد ، رتيباً حتى في أيام الحرب . لا شيء يدهش أكثر من حيوية التركيب الاجتماعي – كيف يستمر ، يغذي نفسه ، يكسي نفسه ، يسلي نفسه في وجه افظع النكبات .

الجوّ مليء بالشائعات التي تقول ان كرنسكي قد استمال الجبهة الى جانبه وانه يزحف بها على بتروغراد على رأس جيش جرّار . ونشرت له صحيفة « إرادة الشعب » نداء أصدره في « بسكوف » :

« إن الاضطرابات التي نتجت عن مؤامرة البلاشفة الرعناء قد أوصلت البلد الى شفير الهاوية . وهي تتطلب من كل واحد منّا كل ما عنده من إرادة وشجاعة وإخلاص لكي نتغلب على المحنة التي يمرّ بها وطننا ...

المطلوب من كل واحد منا أن يبقى في مركزه مؤدياً واجبه تجاه روسيا الجريحة الى حين إعلان تشكيل حكومة جديدة ، إذا تمّ تشكيل مثل هذه الحكومة . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن أي تدخل في شئون تنظيمات الجيش الحالية قد يحدث أضراراً بالغة إذ تفتح الجبهة لجيوش العدو . لذا ، فمن الضروري جداً أن نحافظ ، بأي ثمن ، على معنويات الجنود ، بالتزام النظام وتجنيب الجيش هزّات جديدة وتوثيق عرى التفاهم بين الضباط ومرؤوسيهم . باسم سلامة البلد ، آمر جميع القادة والمفوّضين بالبقاء في مراكزهم . كما أني احتفظ بمركزي كقائد أعلى ، حتى تعبّر الحكومة الجمهورية المؤقتة عن إرادتها » ...

وألصق البلاغ التالي على الجدران رداً على نداء كرنسكي :

من المؤتمر العام للسوفييت

« إن اللجنة العسكرية الثورية قد ألقت القبض على الوزراء السابقين : كونوفالوف ، كيشكين ، تريشنكو ، ماليا نتوفيتش نيكيتين وغيرهم . نأمر جميع تنظيمات الجيش بأن تتخذ جميع الاجراءات اللازمة لالقاء القبض على كرنسكي وسوقه الى بتروغراد .

يعاقب كل من يساعد كرنسكي بتهمة ارتكاب جريمة خطرة ضد الدولة » .

وأطلق العنان للجنة العسكرية الثورية ، فأصدرت الأوامر والنداءات والمراسيم بأعداد كبيرة (١) . صدر أمر بسوق كورنيلوف الى بتروغراد . أطلق سراح أعضاء « لجان الأرض » الذين سجنتهم الحكومة المؤقتة . ألغيت

عقوبة الإعدام في الجيش . صدرت أوامر الى موظفي الدولة بالاستمرار في العمل ، وهددوا بعقوبات قاسية إذا رفضوا. منعت أعمال الفوضى والمضاربة تحت طائلة عقوبة الإعدام . عين مفوضون مؤقتون في الوزارات المختلفة : اوريتسكي وتروتسكي للشؤون الخارجية ؛ ريكوف للداخلية والعدل ؛ شليابنيكوف للعمل ؛ منجينسكي للمالية ؛ مدام كولانتاي للانعاش العام ؛ ريازانوف للتجارة والمواصلات ؛ البحار كوربير للبحرية ؛ سبيرو للبريد والبرق ؛ مورافيوف للمسارح ؛ غربيتشيف للمؤسسة الحكومية للنشر ؛ الملازم نيستروف لقيادة مدينة بتروغراد ؛ بوزين للجبهة الشمالية ..

ووُجهت نداءات الى الجيش تدعوه الى تشكيل لجان عسكرية ثورية ، والى عمال سكك الحديد ليحافظوا على النظام ، وخاصة لكي لا يعيقوا نقل الغذاء الى المدن والجبهة ... ووُعدوا ، مقابل ذلك ، بتمثيلهم في وزارة المواصلات .

جاء في أحد البلاغات :

« أيها الأخوة القوزاق . إنهم يسوقونكم ضد بتروغراد . يريدون دفعكم الى معركة ضد العمال والجنود الثوريين في العاصمة . لا تصدقوا أي كلمة تصدر عن أعدائنا المشتركين ، ملاك الأرض والرأسماليين .

إن جميع المنظمات الواعية للعمال والجنود والفلاحين الروس ممثلة في مؤتمرنا . والمؤتمر يريد أن يستقبل القوزاق الكادحين في صفوفه . ان جنرالات منظمة « اليد السوداء » ، أذناب ملاك الأرض ونقولا الشرير هم أعداؤنا .

يقولون لكم إن السوفييت تريد مصادرة أراضي القوزاق .

هذا كذب إن الثورة لا تريد أن تصادر إلا أراضي ملاك الأرض القوزاق الكبار ، وذلك لتوزعها على الشعب .

نظموا سوفييت لمندوبي القوزاق ! انضموا الى سوفييت مندوبي العمال والجنود !

برهنوا لمنظمة « اليد السوداء » انكم لستم خونة للشعب ، وانكم لا تريدون روسيا الثورية كلها أن تلعنكم !..

أيها الأخوة القوزاق ، لا تنفذوا أي أمر يصدره أعداء الشعب . أرسلوا مندوبيكم الى بتروغراد لنناقش الأمر معاً ... يشرّف القوزاق في حامية بتروغراد أن يكونوا قد خيبوا أمل أعداء الشعب ...

أيها الأخوة القوزاق ! ان مؤتمر السوفييت لعموم روسيا يمد لكم يداً أخوية . عاشت أخوة القوزاق مع الجنود والعمال والفلاحين في كل أنحاء روسيا » !

وفي الجبهة المقابلة ، عاصفة من النداءات والقصاصات الموزعة في كل مكان. الصحف تزعق وتشتم وتنبىء بالشر . لقد استعرت الآن معركة المطابع بعد أن سيطر السوفييت على جميع الأسلحة الأخرى .

وكان أول هذه النداءات نداء « لجنة إنقاذ الوطن والثورة » الذي أذيع في كل انحاء روسيا وأوروبا (٢) .

« الى مواطني الجمهورية الروسية !

في ٧ تشرين الثاني ، وخلافاً لإرادة الجماهير الثورية ، ارتكب البلاشفة جريمة اعتقال قسم من أعضاء الحكومة المؤقتة ، وفرقوا

مجلس الجمهورية ، وأعلنوا قيام حكم غير شرعي . ان ارتكاب مثل هذا العنف ضد حكومة روسيا الثورية ، إبان تعاظم الخطر الخارجي ، لهو جريمة لا تغتفر بحق الوطن .

ان انتفاضة البلاشفة قد سددت ضربة قاضية لقضية الدفاع الوطني ، وأجلت لحظة تحقيق السلم الغالي على قلوبنا جميعاً الى أمد غير معلوم .

ان الحرب الأهلية ، التي أشعلها البلاشفة ، تهدد بأن ترمي الوطن في فظائع الفوضى والثورة المضادة ، وتؤدي الى فشل الجمعية التأسيسية المفروض انها ستدعم النظام الجمهوري وتمنح الشعب ، الى الأبد ، حقه الأبدي في الأرض .

ان لجنة إنقاذ الثورة ، التي هي استمرار للسلطة الحكومية الشرعية الوحيدة ، والتي تشكلت ليلة ٧ تشرين الثاني ، سوف تبادر بتشكيل حكومة مؤقتة تدعو الجمعية التأسيسية للانعقاد وتنقذ البلد من الفوضى والثورة المضادة معتمدة على القوى الديمقراطية . ان لجنة الانقاذ تهيب بكم ، أيها المواطنون ، أن ترفضوا الاعتراف بسلطة العنف . لا تطيعوا أوامرها .

هبوا للدفاع عن الوطن !

ادعموا لجنة الانقاذ !

التواقيع : مجلس الجمهورية الروسية ، مجلس بتروغراد البلدي « الدوما » (المؤتمر الاول) ، اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين؛ ومن المؤتمر نفسه : مجموعة الجبهة، أجنحة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة والاشتراكيين الشعبيين ، الاشتراكيين الديمقراطيين المتحدين ، ومجموعة « يدنيستوفا » .

ثم صدرت بلاغات الحزب الاشتراكي الثوري ، والبلاشفة المداقعين ، وسوفييت الفلاحين مرة ثانية ، واللجنة المركزية للجيش ، و « التسنتروفلوت – اللجنة المركزية للاسطول » ، كلها تصيح :

« ... ان المجاعة سوف تقضي على بتروغراد! الجيوش الالمانية سوف تدوس على حريتنا . مجازر « المئات السوداء » سوف تشمل روسيا بأسرها ، اذا لم نتحد ، نحن العمال والجنود والمواطنين الواعين ...

لا تثقوا بوعود البلاشفة ! الوعد بسلم فوري هو كذبة ! الوعد بالخبز دجل ! الوعد بالأرض خرافة !.. » .

كانت كلها على هذا النحو .

« أيها الرفاق ! لقد خدعتم بدناءة وشراسة ! قام البلاشفة باستلام الحكم بمفردهم ... وأخفوا خطتهم عن الأحزاب الاشتراكية الاخرى الممثلة في السوفييت ...

لقد وعدوكم بالأرض والحرية ، ولكن الثورة المضادة سوف تستغل الفوضى التي أحدثها البلاشفة لتحرمكم من الأرض ومن الحرية ... » .

ولم تكن الصحف أقل عنفاً من البلاغات ، كتبت صحيفة « قضية الشعب » :

« ان الواجب يدعونا الى فضح خونة الطبقة العاملة هؤلاء . ان الواجب يدعونا الى تعبئة جميع قوانا لحماية قضية الثورة » .

كذلك هددت « الازفستيا » (الأنباء) بالعواقب الوخيمة وهي تتكلم للمرة الأخيرة باسم « التسايكا » القديمة :

« أما بالنسبة لمؤتمر السوفييت ، فاننا نؤكد ان مؤتمر السوفييت لم ينعقد ! اننا نؤكد انه لم يكن سوى اجتماع خاص للجناح البلشفي ! لهذا ، فلا يحق لهم أن يلغوا صلاحيات « التسايكا » القديمة ... » .

أما صحيفة « الحياة الجديدة » فقد حملت بعنف على انسحاب الاشتراكيين الثوريين والمناشفة من المؤتمر ، مطالبة بحكومة جديدة تضم جميع الأحزاب الاشتراكية ، وقالت ان انتفاضة البلاشفة انما تؤكد أمراً واحداً وهو ان جميع الأوهام حول امكان التحالف مع البرجوازية قد أضحت باطلة من الآن فصاعداً ...

وحلت « برافدا » (الحقيقة) ، صحيفة لينين التي ألغيت في تموز ، محل صحيفة « طريق العمال » . فصدحت بنشوة :

« أيها العمال والجنود والفلاحون ! في آذار ، قضيتم على طغيان طغمة النبلاء . وبالأمس قضيتم على طغيان العصابة البرجوازية ....

ان أول مهمة الآن هي حماية بتروغراد . والثانية هي عزل العناصر المعادية للثورة في بتروغراد عزلاً تاماً . والثالثة هي تنظيم السلطة الثورية وضمان تحقيق البرنامج الشعبي .. » .

أما صحف الكاديت ، والبرجوازية بشكل عام ، فقد تبنت موقفاً بعيداً ، ساخراً من القضية كلها . فكأنها تقول للأحزاب الأخرى باحتقار : « لقد حذرناكم من أن هذا سيحصل » . وبدأ أعضاء الكاديت البارزون يحومون حول مجلس الدوما البلدي ولجنة الانقاذ . وفيما عدا ذلك، فالبرجوازية لم تبد أي حراك منتظرة أن تحين ساعتها التي لا يمكن أن تكون بعيدة . ولم

يخطر ببال أحد أن البلاشفة يستطيعون الاحتفاظ بالحكم لأكثر من ثلاثة أيام ، ربما باستثناء لينين وتروتسكي وعمال بتروغراد والجنود العاديين .

بعد الظهر ، قصدت « قاعة نيقولاي » ذات المدرّج المرتفع حيث ينعقد مجلس الدوما بلا انقطاع ، صاخباً ، جامعاً حوله جميع قوى المعارضة . كان المحافظ العجوز شرايدر ، المهيب بشعره الأبيض ولحيته ، يصف رحلته الى « سمولني » في الليلة الماضية ، ليقدم احتجاج الإدارة الذاتية البلدية . فقال لتروتسكي : « إن مجلس الدوما، بوصفه الحكومة الشرعية الوحيدة في المدينة التي جرى انتخابها بالاقتراع العام والمباشر والسري ، لن تعترف بالحكم الجديد » . فأجابه تروتسكي : « يوجد علاج دستوري لذلك . يمكن حلّ مجلس الدوما وإعادة انتخابه » ... تعالى صخب عظيم عند سماع هذا التقرير .

واستمر العجوز مخاطباً مجلس الدوما : « اذا كنا نعترف بحكومة جاءت بواسطة الحراب ، فهذه الحكومة موجودة ؛ ولكني لا أعترف بشرعية أية حكومة إلا اذا كانت أغلبية الشعب تعترف بها، ولا أعترف بحكومة قامت على اغتصاب الأقلية للحكم ! » تصفيق حاد من جميع المقاعد ما عدا مقاعد البلاشفة . ثم أعلن المحافظ ، وسط الجلبة المتجددة ، ان البلاشفة قد تعدوا على السيادة البلدية بتعيينهم المفوضين في عدة دوائر .

فصاح المتكلم باسم البلاشفة ، محاولاً إسماع صوته ، بأن قرار مؤتمر السوفييت يعني ان كل روسيا تؤيد عمل البلاشفة . ثم قال : « انتم ! لستم الممثلين الحقيقيين لشعب بتروغراد ! » زعقات : « إهانة ! إهانة ! » فذكّره المحافظ العجوز ، بجلال ، ان الدوما قد تمّ انتخابها باقتراع شعبي حرّ . فأجاب : « نعم . ولكن هذا كان من زمن بعيد جداً – شأنها شأن اللسابكا ولجنة الجيش »

فصاحوا به : « لم يعقد مؤتمر جديد للسوفييت ! »

« إن الجناح البلشفي لن يبقى في عش الثورة المضادة هذا ... (ضجيج) – ونحن نطالب بإعادة انتخاب مجلس الدوما...» عند ذاك ، غادر البلاشفة القاعة ، تلاحقهم صيحات « عملاء ألمان ! يسقط الخونة ! »

ثم اقترح شينغاريوف ، عضو حزب الكاديت ، أن يفصل ويحاكم جميع موظفي البلدية الذين قبلوا تعيينهم كمفوضين للجنة العسكرية الثورية . ووقف شرايدر ليقدم مشروع قرار يعلن احتجاج مجلس الدوما على تهديد البلاشفة بحلّه ، ورفض مغادرة موقعه ، بوصفه الممثل الشرعي للشعب .

لجنة الانقاذ تعقد جلستها في « قاعة الاسكندر » ؛ وسكوبيليف يتكلم للمرة الثانية ، قال : « لم يسبق أن تهدّد مصير الثورة بقدر ما هو مهدّد الآن ، ولم يسبق أن أثارت مسألة وجود روسيا من القلق بقدر ما تثيره الآن ، ولم يسبق أن طرح التاريخ مسألة أن تكون روسيا أو لا تكون بالقساوة والحدّة اللتين يطرحها بها الآن ! لقد أزفت ساعة إنقاذ الثورة . وعياً منا لهذا ، سوف نحافظ على الاتحاد الوثيق بين القوى الحية الديمقراطية الثورية التي عبّرت عن ارادتها الموحدة بتأسيس مركز لإنقاذ الثورة والبلد... » وعقب ذلك كلام من نفس النمط ، ثم : « اننا نفضل الموت على تسليم مواقعنا ! »

وأعلن ، وسط التصفيق المدوي ، ان اتحاد عمال سكك الحديد قد انضم الى لجنة الانقاذ . وبعد بضعة دقائق دخل مندوبو موظفي البريد والبرق الى البهو ولحق بهم بعض المناشفة الأمميين ، فاستقبلهم الحضور بالهتاف . أعلن مندوبو عمال سكك الحديد انهم لا يعترفون بالبلاشفة وانهم يسيطرون على جهاز سكك الحديد رافضين تسليمه لأية سلطة غاصبة . وأعلن مندوبو البرق ان عمال البرق يرفضون تشغيل أجهزتهم ما دام المفوض البلشفي في المكتب. كما أعلن مندوبو سعاة البريد انهم يرفضون استلام أو توزيع البريد في

« سمولني » ... كانت جميع الخطوط الهاتفية في « سمولني » قد قُطعت . وتكلم أحدهم ، وسط بهجة كبيرة ، عن ذهاب أوريلسكي الى وزارة الشئون الخارجية طالباً المعاهدات السرية ، وكيف طرده نيراشوف . كان جميع موظفي الحكومة يوقفون العمل ...

انها الحرب ، جرى التخطيط لها عن سابق تصور وتصميم ، حرب على الطريقة الروسية أي بالاضراب والتخريب. خلال وجودنا هناك ، قرأ رئيس الجلسة لائحة بالأسماء والمسؤوليات: المطلوب من فلان أن يدور على الوزارات ومن آخر ان يزور المصارف ، المطلوب من عشرة أو اثني عشر رجلاً أن يذهبوا الى الثكنات ليقنعوا الجنود بالتزام الحياد - « أيها الجنود الروس لا تسفكوا دم اخوانكم ! » - وشكلت لجنة للتشاور مع كرنسكي ، وأرسل آخرون الى المدن الريفية لتكوين فروع للجنة الانعقاد وتجميع العناصر المعادية للبلشفية وتنسيق عملها .

كانت معنويات الجمع عالية . « هؤلاء البلاشفة يحاولون فرض سلطتهم على الانتلجنسيا ؟ سوف يلاقون العجب!»..لا شيء أدعى للدهشة من المقارنة بين هذا الاجتماع وبين مؤتمر السوفييت . هناك الجماهير الواسعة من الجنود ذوي الثياب البالية والعمال المتسخين والفلاحين ، هناك الفقراء الذين ألوى أجسامهم النضال المضني من أجل البقاء تاركاً ندوبه على وجوههم ، وهنا المناشفة والاشتراكيون الثوريون - أمثال أفاكسانتييف ودان وليبر - والوزراء الاشتراكيون السابقون - أمثال سكوبيليف وتشيرنوف - يقفون جنباً الى جنب مع أعضاء حزب الكاديت أمثال شاتسكي البدين ، وفينافر الناعم ، ومع الصحفيين والطلاب والمثقفين من جميع الاتجاهات . كان هذا الجمع في مجلس الدوما متخماً ، حسن الملبس ولم أشاهد بينه أكثر من ثلاثة عمال ..

وردت أخبار جديدة . أفراد « الفيلق المتوحش » الذين يدينون بالولاء التام لكورنيلوف ذبحوا حرّاس هذا الأخير في « بيخوف » فهرب . خالدين يتجه شمالاً ... سوفييت موسكو شكّل لجنة عسكرية ثورية وبدأ يفاوض حاكم المدينة العسكري لفتح مخازن السلاح وتسليح العمال .

وكانت هذه الحقائق ممزوجة بخليط مدهش من الشائعات والتهويلات والأكاذيب . فمثلاً ، انتحى بنا أحد الأعضاء الشباب الأذكياء في حزب الكاديت جانباً وأخبرنا كل شيء عن الاستيلاء على قصر الشتاء . وكان يشغل في السابق منصب السكرتير الخاص لمليوكوف ثم لتريشنكو . فأكد لنا :

« كان الضباط الألمان والنمساويون يقودون البلاشفة » .

« هل حدث هذا حقاً ؟ كيف عرفت ذلك ؟ » ، أجبنا بلطافة !

« كان صديق لي هناك ورآهم » .

« وكيف عرفت أنهم ضباط ألمان » ؟

« آه ، لأنهم كانوا يرتدون البزّة العسكرية الألمانية » !

شاعت المئات من مثل تلك الترهات السخيفة ، ولم تنشرها الصحافة المعادية للبلشفية بكل جدّية وحسب ، وانما صدّقها أيضاً الاشتراكيون الثوريون والمناشفة المشهورون بتمسكهم العنيد بالوقائع ...

ولكن أخطر القصص كانت القصص عن عنف البلاشفة وإرهابهم . كتبت الصحف ، مثلاً ، ان الحرس الأحمر لم يكتفِ بنهب قصر الشتاء وانما ذبح « اليونكرز » بعد تجريدهم من السلاح ، وقتل بعض الوزراء عن سابق تصوّر وتصميم ؛ أما بالنسبة للمجندات فقد أغتصب القسم الأكبر منهن وانتحر العديد تخلصاً من التعذيب الوحشي الذي تعرّضن له ... وكان الجمع

المحتشد في مجلس الدوما يصدق هذه القصص . والأسوأ من ذلك ان عائلات الطلاب والجندات قرأت هـذه التفاصيل الرهيبة التي كانت ترفق ، غالباً ، بلوائح تحمل أسماء « الضحايا » . وما أن جاء المساء حتى بـدأ جمع هستيري يحاصر الدوما ...

ومن بين هـذه القصص قصة الأمير تومانوف . أعلنت صحف عديدة أن جثته قد وجدت طافية على مياه « قناة مويكا » . إلا أن عائلة الأمير كذبت هذا النبأ بعد بضع ساعات مؤكدة أن الأمير معتقل ؛ فأعلنت الصحف أن الجثة هي جثة الجنرال ديميسوف . ولكن سرعان مـا بعث الجنرال حياً ، فأخذنا نتحرى الأمر فلم نجد أي أثر لجثة وجدت في أي مكان ...

وبينما كنا نغادر بناية الدوما ، كان اثنان من أفراد الكشافة يوزعان مناشير للجمع الكبير الذي يسد شارع نيفسكي أمام البوابة ، وهو جمع يتكون برمته من رجال الأعمال وأصحاب الحوانيت وموظفي دولة وكتبة[٢]. وورد في أحدها :

« من مجلس الدوما البلدي

نظراً للأحداث التي وقعت اليوم ، فقـد قرّر مجلس الدوما البلدي ، في اجتماعـه يوم ٢٦ تشرين الاول ، ان حرمة المنازل الخاصة مصونة . وهو يدعو سكان مدينـة بتروغراد ، بواسطة لجان المنازل ، الى أن يقاوموا بعنف جميع محاولات اقتحام الشقق الخاصة ، وألا يتأخروا عـن استعمال السلاح اذا اقتضى الأمر من أجل الدفاع عن النفس » .

عند زاويـة شارع « ليتايني » ، كان خمسة او ستة من الحرس الأحمر وعدد من البحارة يحاصرون أحد باعة الصحف طالبين منه أن يسلمهم اعداد

« صحيفة العمال » المنشفية . بائـع الصحف يصرخ في وجوههم مهدداً بقبضة يده بينما أحد البحارة يمزق الصحف . وتحلق جمع غاضب أخذ يشتم الدورية، بينما كان عامـل صغير القامة يفسر للناس ولبائع الصحف بإصرار قائـلاً : « نشرت الصحيفة بلاغ كرنسكي الذي يقول اننا قتلنا المواطنين الروس . هذا سيؤدي الى مذابح » ...

كانت « سمولني » أكثر حيوية من أي وقت مضى ... الرجـال أنفسهم يهرولون في المماشي المعتمة : فرق من العمال المسلحين ، قادة يتأبطون حقائب يدوية منتفخة ويجادلون وقد تحلق حولهم الاصدقاء والمساعدون . رجال قد وصلوا حدّ الانهيار من التعب . خبراء في الأرق والشغل – رجال متسخون طليقو اللحى ، حمر العيون ، يتجهون نحو هدفهم المحدد بسرعة ولهفة وعناد. كان عليهم أن يفعلوا الكثير ، أكثر مـن الكثير ! أن يستولوا على الحكم ، أن ينظموا المدينة ؛ أن يحافظوا على ولاء الحامية ، أن يقاوموا الدوما ولجنة الانقاذ ، أن يصدوا هجوم الالمان ، أن يحضروا للمعركة ضد كرنسكي ، أن يُعلموا المناطق بمـا جرى ، أن ينشروا دعايتهم من « اركانجل » الى « فلاديفو ستوك » ... هذا كله بينما يرفض موظفو الدولة والحكومة إطاعة أوامر المفوضين ، ويمتنع موظفو البريد والبرق عـن العمل لهم ، ويتجاهل عمال سكك الحديد طلباتهم لارسال القطارات ؛ هذا كله وكرنسكي يتقدم ، والحامية ليست مأمونة الجانب كلياً والقوزاق يتحفزون للانقضاض ... لم تكن البرجوازية المنظمة ضدهم فحسب ، وانمـا جميع الأحزاب الاشتراكية الأخرى كذلك ، فـيما عدا الاشتراكيين الثوريين اليساريين وبضعة مناشفة اممين والاشتراكيين الديمقراطيين الامميين ، وحتى هؤلاء كانوا مترددين في أن يقفوا الى جانبهم او لا يقفون . صحيح أن جماهـير العمال والجنود كانت الى جانبهم وكذلك الفلاحون، ولكن بأعداد غير معروفة . ولكن ، مهما يكن الأمر ، فالبلاشفة جناح سياسي ليس غنياً بذوي الثقافة والخبرة ..

ريازانوف يصعد السلّم الامامي مفبراً بنوع من الذعر المرح انـــه لا يعرف شيئاً عن الاقتصاد مع انه قد عيّن مفوضاً للتجارة. وفي مقهى الطابق العلوي ، يجلس رجل وحيداً في إحدى الزوايا مرتدياً معطفاً من وبر الماعز وثياباً - كنت سأقول « ثياب نام فيها » ولكنه لم ينم طبعاً - وله لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام على الأقــل . وكان يدوّن ارقاماً على مغلف وسخ بينما يعض قلمه . هذا هو مينجنسكي ، وزير المالية ، وكل مؤهلاته هو أنه كان كاتباً في مصرف فرنسي . . وهؤلاء الذين يهرولون في البهو خارجين مــــن مكتب اللجنة العسكرية الثورية وهم يكتبون على قصاصات ورق - هؤلاء هم المفوضون المرسلون الى جميع أنحـــاء روسيا ليحملوا الانباء ويناقشوا ويصارعوا مستعملين أية حجج أو أسلحة يقعون عليها ...

كان مقرراً أن يعقد المؤتمر في الساعة الواحدة بعد الظهر ، ولكن القاعة الكبيرة امتلأت بالناس قبل ذلك بكثير . في الساعة السابعة لم يكن أعضاء مجلس الرئاسة قد أقبلوا. البلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون يعقدون اجتماعاً في الغرفتين المخصصتين لهما . كان لينين وتروتسكي يناضلان طوال بعد الظهر ضد المساومة . فقــد كان قسم كبير من البلاشفة على استعداد للتراجع الى حد تشكيل حكومة تضمّ جميع الاشتراكيين . صاحوا : « لا نستطيع الصمود ! يوجد كثيرون ضدنا . ليس لدينا رجال . سوف نُعزل وينهار كل شيء » . وكان بين هؤلاء كامنييف وريازانوف وغيرهما .

إلا أن لينين ، وتروتسكي الى جانبه ، ظلا صامدين كالصخر : « فليقبل المساومون ببرنامجنا لنسمح لهم بالاشتراك في الحكم ! لن نتراجع قيد شعرة . واذا كان بعض الرفـاق لا يملكون الشجاعة ولا الارادة الكافية ليقدموا على ما نقدم عليه ، فلينسحبوا مع بقية الجبناء والمساومين ! سوف نستمر على ما نحن عليه يدعمنا العمال والجنود » .

في الساعة السابعة وخمس دقائق ، جاء من يخبر ان الاشتراكيين الثوريين اليساريين قرروا البقاء في اللجنة العسكرية الثورية .

فصاح لينين : « ألم أقل لكم ؟ لقد تبعونا ! »

وبعد برهة ، وبينما كنا جالسين الى طاولة الصحافة في البهو الكبير ، اقترح عليّ أحد الفوضويين الذين يحررون في الصحافة البرجوازية أن نذهب لنستطلع مـاذا حلّ بمجلس الرئاسة . لم نجد أحداً في مكتب « التسايكا » ولا في مكتب سوفييت بتروغراد . وتجولنا من غرفة لغرفة في « سمولني » الواسعة . ولم يكن أحد يعرف أين يمكن أن نجد الهيئة التي ترأس المؤتمر . وفيما كنـا نتجول ، بدأ رفيقي يصف نشاطه الثوري السابق وفترة نفيه الطويلة والسعيدة في فرنسا ... وأسرّ لي بأن البلاشفة أناس سوقة وأفظاظ وجهلة لا يملكون أية حساسية جمالية . كان أنموذجاً حقيقياً عن الانتلجنسيا الروسية . وصلنا الى الغرفة رقم ١٧ ، مكتب اللجنة العسكرية الثورية ، ووقفنا وسط حركة ذهاب وإياب مذهلة . فتح الباب وخرج منـه رجل مربوع القامة ، مسطّح الوجه ، يرتدي بزّة عسكرية بدون أشرطة ، وبدا باسماً — ولكن سرعان ما تبين لنا انها لم تكن سوى بسمة الارهاق الشديد. انه كريلنكو . فأطلق صديقي الوسيم الحسن الهندام صيحة فرح وتقدم وهو يمدّ يده ويقول : « نيقولاي فاسيلييفيتش . ألا تذكرني يا رفيق ؟ كنا في السجن معاً . »

فقام كريلنكو بمجهود وركـّز ذهنه وبصره ، ثم أجاب وهو ينظر اليه من فوق لتحت بكثير من الودّ : « أكيد . أنت س . مرحباً ! (وتعانقا) . ماذا تفعل في هذه المعمعة ؟ » سأل وهو يشير بيده .

« آه ! أنا مجرد متفرج . يبدو انكم أحرزتم نجاحاً باهراً » .

« إي » . أجاب كريلنكو بحزم ، « الثورة البروليتارية حققت نجاحاً عظيماً » ثم قهقه قائلاً : « على كل حال ، ربما - ربما نلتقي في السجن مرة ثانية ! »

وعندما خرجنا الى المشى ، عاد صديقي الى شروحه : « أنا من أتباع كروبوتكين* . اننا نعتبر أن الثورة قد أخفقت إخفاقاً كاملاً ، لأنها لم تتمكن من إثارة وطنية الجماهير . وهذا يبرهن ، طبعاً ، على أن الشعب غير مستعد للثورة » ...

كانت الساعة تشير الى التاسعة إلا عشرين دقيقة عندما أعلنت موجة راعدة من الهتاف قدوم أعضاء مجلس الرئاسة ومعهم لينين - لينين العظيم . رجل مربوع القامة ، قصيرها، ذو رأس كبير أصلع مدوّر يغوص بين كتفيه وعينين صغيرتين وأنف دقيق وفم ممتلىء وذقن كبيرة حليقة بدأت تنمو عليها لحيته الشهيرة . كان يرتدي ثياباً رثة، وكان سرواله كبيراً عليه . ليس مهيباً ليكون معبود الجماهير ، ولكنه يحظى بحب واحترام لم يحظَ بمثلهما إلا القليل من القادة في التاريخ . إنه نوع غريب من القادة الشعبيين ، قائد بفعل قوة فكره ليس إلا . لم يكن بهيّ الطلعة ولا مرحاً ولا غريب الأطوار ، كان منكفئاً على نفسه لا يساوم،ويملك مقدرة هائلة على تفسير أعمق الأفكار بعبارات بسيطة ، وتحليل الأوضاع ؛ يجمع الشجاعة الفكرية البالغة الى حدّة الذكاء .

كان كامنييف يقرأ تقريراً عن أعمال اللجنة العسكرية الثورية : إلغاء عقوبة الإعدام في الجيش ، إعادة الحق في الدعاية الحرة ، إطلاق سراح

---

* كروبوتكين : مفكر فوضوي روسي من أصل نبيل (المترجم) .

الضباط والجنود الذين اعتقلوا بتهمة ارتكاب جرائم سياسية ، أوامر بإلقاء القبض على كرنسكي وبمصادرة إمدادات الأغذية من مخازن الغذاء الخاصة .. تصفيق حاد .

عاد ممثل « العصبة » ليقول إن موقف البلاشفة المتصلب سوف يؤدي الى سحق الثورة ، لذا ، فان مندوبي « العصبة » يرفضون البقاء في المؤتمر · صيحات من الحضور « خمّنا أنكم انسحبتم الليلة الماضية ! كم مرة تنسحبون ثم تعودون » ؟

وعقبه ممثل عن المناشفة الأمميين . صيحات : « ماذا ؟ ما زلتم هنا ؟ » فأوضح المتكلم ان قسماً فقط من المناشفة الامميين قد غادر المؤتمر ، أما القسم الآخر فقد قرر البقاء — ثم قال ، وسط المقاطعات :

« اننا نعتبر عملية انتقال السلطة الى يد السوفييت عملية خطرة وربما تكون قاضية ، ولكننا نشعر أن الواجب يدعونا للبقاء هنا والتصويت ضد هذه العملية » !

وعقبه متكلمون آخرون بدون نظام معين . دعا أحد مندوبي عمال مناجم الفحم في « حوض الدون » المؤتمر الى اتخاذ اجراءات ضد خالدين الذي قد يقطع الفحم والطعام عن العاصمة . وتتالى عدة جنود ، وصلوا لتوه من الجبهة ، على نقل تحيات أفواجهم المشجعة للمؤتمر ... ثم اعتلى لينين المنبر ، ممسكاً بأطرافه ، بينما تجول عيناه الصغيرتان الراعشتان بين هذا الجمع وهو واقف ينتظر ، متغافلاً عن عاصفة التصفيق والهتاف المدوية . ولما انتهت ، قال ببساطة : « سنبدأ الآن ببناء المجتمع الاشتراكي » فدوى ذلك الرعد البشري عن جديد .

« إن أول مهمة أمامنا هي اتخاذ اجراءات عملية لتحقيق السلم .. سوف نعرض السلم على شعوب جميع البلدان المتحاربة على أساس شروط السوفييت—

لا دمج ، لا تعويض ، حق الشعوب في تقرير المصير . وفي الوقت ذاتـــه ، سنفي بوعـدنا وننشر المعاهدات السرية البغيضة ... إن مسألة الحرب والسلم من الوضوح بحيث سأسمح لنفسي بأن أبـدأ مباشرة ، وبدون مقدمات ، بتلاوة مشروع النداء الى شعوب جميع البلدان المتحاربة » ...

فمه الممتلىء الكبير ينفتح واسعاً وهو يتكلم تعلوه شبه ابتسامة ؛ وصوته غليظ – لا يزعج وانمـا يعبر عن قساوة من تكلم خلال سنوات وسنوات – يتدفق بشيء من الرتابة موحياً بأنه يستطيع الاستمرار في الكلام على هـذا النحو الى ما لا نهاية ... وكان ينحني قليلاً عندما يريد التأكيد على نقطة ما. انه لا يقوم بأية اشارات . وأمامه آلاف الوجوه البسيطة تتطلع اليه بخشوع.

« نداء الى شعوب وحكومات جميع الأمم المتحاربة

إن حكومة العمال والفلاحين التي جاءت بهـــا ثورة السادس والسابع من تشرين الثاني والمعتمدة على سوفييت مندوبي العمال والجنـود والفلاحين ، تعرض على جميع الشعوب والحكومات المتحاربة الشروع فوراً في مفاوضات تهـــدف الى تحقيق سلم ديمقراطي عادل .

إن الحكومة تعـني بالسلم الديمقراطي العـادل ، الذي ترغب فيـــه الغالبية الساحقة من العمال والكادحين التي أنهكتها الحرب وامتصت قواها ، ذلـك السلم الذي لم يتوقف العمال والفلاحون الروس عن المطالبة بـه منذ تحطيمهم للملكية القيصرية ، السلم الفوري بـــدون دمج (أي بدون اجتياح تراب أجنبي وبدون الدمج القسري للقوميات الأخرى) وبدون تعويضات .

ان حكومة روسيا تقترح على جميع الشعوب المتحاربة تحقيق مثل هـذا السلم فوراً بأن تبدي استعدادها لاتخـاذ الخطوات اللازمة للمفاوضات الهادفة الى الوصول الى هـذا السلم مباشرة وبدون أدنى تأخير ، على أن يعود أمر التصـديق على جميع شروط هذا السلم الى الجمعيات المسؤولة تجـاه شعوب هذه البلدان والقوميات .

إن الحكومة ، استناداً الى مفهوم الحقوق الديمقراطية بشكل عام وحقوق الطبقة العاملة بشكل خاص ، تعني بالدمج وباجتياح التراب الأجنبي كل عملية يتم فيها ضم قومية صغيرة أو ضعيفة الى دولة كبيرة وقوية بدون التعبير الإرادي والواضح والمحـدد عن موافقتها ورغبتها في ذلك ، أياً كان موعد حدوث هـذا الدمج القسري، ومهما كان المستوى الحضاري للأمة التي دمجت بالقوة أو فصلت عن حدود دولة أخرى ، ولا يؤثر في ذلك اذا كانت هذه الأمة في أوروبا أو في البلدان البعيدة ما وراء البحار .

اذا أُبقيت إحدى الأمم ، بواسطة القوة ، ضمن حدود دولة أخرى ؛ واذا لم تمنح هـذه الأمـة حق التقرير بواسطة الاقتراع الحر عن الشكل الإداري والسياسي الوطني الذي تريده بدون أي عملية قسر ، وبعد الجلاء التام للقوى المسلحة التابعة للأمـة التي ضمتها أو ترغب في ضمها أو هي أقوى منها بشكل عـام ، اذا لم تمنح هذا الحق رغم رغبتها فيه ، ولا يهم اذا عبّرت هذه الرغبة عن نفسها بواسطة الصحافة أو الاجتماعات الشعبيـة أو مقررات الأحزاب السياسية أو بواسطـة الاضطرابات والأعمـال المعادية للاضطهاد الوطني ، فإن مثل هـذا التوحيد يعتبر عمليـة دمج ، أي أنه احتلال وعملية عنف .

إن الحكومة تعتبر أن الاستمرار في هـذه الحرب ، لتمكين الأمم القوية والغنية من أن تتقـاسم فيما بينها القوميات الضعيفـة والمغلوبة على أمرها ، إنما يشكل أفظع جريمة بحق الإنسانيـة ؛ وهي تعلن أن رغبتها الأكيـدة في توقيـع معاهدة سلم تضع حداً لهذه الحرب وفق الشروط المبيّنة أعلاه هي رغبة عادلة بالنسبة لجميع القوميات بدون استثناء .

لقد ألغت الحكومة الدبلوماسية السرية ، وهي تعلن أمـام البلد كله عن عزمها على القيام بجميع المفاوضات أمام الشعب وفي وضح النهار ، وسوف تعمد فوراً على نشر النصوص الكاملة لجميع المعاهدات السرية التي صادقت عليهـا أو وقعت عليها حكومة مـلاك الأرض والرأسماليين منذ آذار حتى السابع من تشرين الثاني ١٩١٧ . والحكومة ترفض رأساً وبدون مناقشة جميع بنود المعاهدات السرية الهادفة ، في أغلب الأحيـان ، الى جلب المزيد من الفوائد والامتيازات للرأسمـاليين الروس والى المحافظة على ما ضمه الاستعماريون الروس أو مضاعفته .

إن الحكومة ، وقد عرضت على جميع الحكومات والشعوب الدخول في مفاوضات علنية للسلم ، تعلن استعدادها للقيام بهذه المفاوضات بواسطة اللاسلكي أو البريد أو بواسطة محادثات تجري بـين ممثلي البلدان المختلفة ، أو في ندوة تضم هـؤلاء الممثلين . والحكومة قـد عينت ممثليها المفوضين في البلدان الحيادية للقيـام بهذه المهمة رغبة منها في تسهيل المحادثات .

تقـترح الحكومة على شعوب وحكومات جميع البلدان المتحاربة عقد هدنة فورية ، كما تقترح أن تكون مدة هذه الهدنة

ثلاثة أشهر يمكن خلالها اجراء المحادثات اللازمة بين ممثلي جميع الأمم والقوميات بدون استثناء من الذين جرّوا الى الحرب أو الذين أجبروا على خوضها ، وانعقاد مجالس النواب المفوّضة من قِبَل جميع الشعوب للتصديق نهائياً على شروط السلم .

إن الحكومة المؤقتة للعمال والفلاحين في روسيا ، إذ تتوجه بعرض السلم على حكومات وشعوب جميع البلدان المتحاربة ، تتوجه بدعوتها في الوقت ذاته وبنوع خاص الى العمال الواعين في الأمم الثلاث الأكثر إخلاصاً للانسانية التي هي في الوقت نفسه المساهمة الكبرى في الحرب الحالية — فرنسا وإنكلترا وألمانيا . لقد قدّم عمال هذه البلدان خدمات جلّى لقضية التقدم والاشتراكية . إن الأمثولات الرائعة التي قدمتها « الحركة الشارترية » في انكلترا ، وسلسلة الثورات ذات الأهمية العالمية والتاريخية التي قامت بها البروليتاريا الفرنسية — وأخيراً النضال التاريخي ضد «قوانين المنع» في ألمانيا ، هذا النضال الذي يشكل مثالاً رائعاً لعمال العالم أجمع على العمل الدؤوب العنيد ، وخلق تنظيمات العمال الألمان الجبارة — إن جميع هذه النماذج عن بطولة البروليتاريا ، هذه الصروح التاريخية ، لهي ضمان أكيد لنا بأن عمال هذه البلدان سيفهمون واجب تحرير الانسانية من أهوال الحرب وعواقبها الملقى على عاتقهم ؛ وبأن هؤلاء العمال سوف يساعدوننا ، بالعمل الحاسم والنشيط والدؤوب ، على إنجاح قضية السلم ، وعلى انجاح قضية تحرير الجماهير الكادحة المضطهدة من كل عبودية واستغلال » .

ولما تلاشت عاصفة التصفيق المدوية ، تكلم لينين مجدداً :

« نطلب من المؤتمر أن يصدق على هذا النداء . إننـا نتوجه الى الحكومات مثلما نتوجه الى الشعوب ، لأن نداء موجهـاً الى شعوب البلدان المتحاربة فقط قد يؤخر في عقـد اتفاقية السلم . وسوف تصـادق الجمعية التأسيسية على شروط السلم التي توضع خلال الهدنة . ونحن قد حددنا مهلة الهدنة بثلاثة أشهر لأننـا نرغب في اعطاء الشعوب أطول فترة راحة ممكنة من هذه المجزرة الدموية ، ووقتاً كافياً لينتخبوا ممثليهم . إن اقتراح السلم هـذا سوف يلقى معـارضة الحكومات الاستعمارية ، ونحن لا نضلل أنفسنا في هذا الصدد . ولكننا نأمل أن تندلع الثورة قريباً في جميع البلدان المتحاربة ولهذا السبب بالذات نتوجه الى عمـال فرنسا وانكلترا وألمانيا بشكل خاص ... »

ثم ختم قائلاً :

« إن ثورة السادس والسابع من تشرين الثاني قد بدأت حقبة الثورة الاجتماعية ... إن الحركة العـمالية سوف تنتصر وتحقق مصيرها باسم السلم والاشتراكية ... »

كان ثمة شيء هادىء وقوي في كل هذا ، شيء يحرّك أعماق البشر . وكان مفهوماً لماذا يصدّق الناس عندما يتكلم لينين ...

وتقرر ، بواسطة التصويت الجماعي ، السماح فقط لممثلي الفئات السياسية بالكلام حول الاقتراح ، وبأن تحدّد فترة خمس عشرة دقيقة لكل متكلم .

تكلم كاريلين أولاً باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين : « لم يمنح حزبنا فرصة تقديم التعديلات على نص النداء ؛ انه وثيقة خاصة بالبلاشفة . ولكننا سنؤيده لأننا نوافق على مضمونه ... »

وتكلم كراماروف عن الاشتراكيين – الديمقراطيين الأميين ، كراماروف الطويل المنحني الشحيح النظر الذي كان مؤهـــلاً للعب دور بارز كمهرّج المعارضة . فقـــال ان حكومة مؤلفة من جميع الأحزاب الاشتراكية هي وحدها التي تملك سلطة القيام بمثل هذا العمل. واذا تشكلت حكومة ائتلافية اشتراكية ، فان حزبه سيؤيد البرنامج كله ، وإلا فانه سيؤيد قسماً منـــه فقط . أمـــا بالنسبة للنداء نفسه ، فان الأميين يوافقون كلياً على نقاطه الرئيسية ...

ثم تتالى المتكلمون وسط حماس متزايد : الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الأوكراني ، تأييد ؛ الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الليتواني ، تأييـــد ؛ الاشتراكيون الشعبيون ، تأييد ؛ الحزب الاشتراكي – الديمقراطي البولوني ، تأييد ؛ الاشتراكيون البولونيون تأييد مع تفضيل تحالف اشتراكي ؛ الحزب الاشتراكي – الديمقراطي اللتفياني ، تأييد ... كانت شعلة تضطرم في نفوس هؤلاء الرجال . تكلم أحدهم عن « الثورة العالمية القادمة التي نحن طليعتها » ؛ وتكلم آخر عن « عصر الأخوة الجديد عندما تصبح الشعوب كلها عائلة كبيرة واحدة » ... ثم طلب أحد الحضور الكلام ، فقال : « يوجد تناقض هنا . تعرضون السلم بـدون ذمج ولا تعويضات ثم تقولون انكم مستعدون للنظر في جميع عروض السلم . الاستعداد للنظر يعني القبول » ...

وقف لينين : « نريد سلماً عادلاً ، ولكننا لا نخاف الحرب الثورية ... ربما لن تستجيب الحكومات الاستعمارية لندائنا ، ولكننا لن نوجـه إنذاراً يسهل رفضه ... واذا اتضح للطبقة العاملة الألمانية اننـا مستعدون للنظر في أي عروض للسلم ، ربما كان ذلك القشة التي تقصم ظهر البعير ، فتندلع الثورة في المانيا ...

« اننا نوافق على دراسة جميع الشروط التي تقدم لنا حول السلم ، ولكن هذا لا يعني اننا سنقبلها ... سوف ندافع عن بعض الشروط حـتى النهاية ،

ولكننا قد نجد أنـــه من المستحيل الاستمرار في الحرب دفاعاً عن البعض الآخر ... اننا نريد انهاء الحرب قبل أي شيء آخر » ..

كانت الساعة تمام العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة عندما طلب كامنيف من جميع الموافقين على النداء أن يرفعوا بطاقاتهم . فتجاسر أحـــد المندوبين على رفع يده ضد الاقتراح ، ولكنه أنزلها بسرعة عندما تعالت أصوات حـــادة حوله . فاز الاقتراح بالاجماع .

وفجأة ، وجدنا أنفسنا واقفين ، يحرّكنـــا دافع مشترك ، نهمهم معـــاً « نشيد الاممية » بصوت هادىء يرتفع تدريجياً. جندي عجوز أشيب ينتحب كطفل . والكسندرا كولانتاي تلتقط دموعها . الصوت الضخم يجتاح القاعة وينفجر خارجاً من النوافذ والأبواب منطلقاً في السماء الهـــادئة . « انتهت الحرب ! » ، صاح عامل شاب مشرق الوجه يجلس قربي . وعندمـــا انتهينا وكنا شاخصين بصمت أخرق ، صاح أحدهم من مؤخرة الغرفة : « رفاق ! فلنتذكر الذين ماتوا من أجل الحرية ! » فبدأنا نرنم « نشيد الموتى » ، ذلك النشيد الهادىء والكئيب والظافر، الشديد التأثير والوثيق الارتباط بروسيا . ومهما يكن من أمر ، « فالنشيد الاممي » نشيد أجنبي . أما « نشيد الموتى » فبدا كأنه نابع من روح الجماهير السوداء التي يجلس مندوبوها في هذه القاعة، يبنون روسيا جديدة ، من رؤاهم الغامضة ؛ وربما يبنون أكثر ...

لقد سقطتم في الصراع المميت ...
من أجل حرية الشعب ، من أجل شرف الشعب ...
ضحيتم بحياتكم وبكل غال ونفيس ،
تعذبتم في غياهب السجون ،
ونفيتم مكبلين بالسلاسل ...

وبدون كلمة، حملتم سلاسلكم لأنكم لم تتجاهلوا إخوانكم المعذّبين،
لأنكم آمنتم بأن العدالة أقوى من السيف ...

سيأتي يوم يقدّر فيه استشهادكم .

وهذا اليوم لقريب : عندما يسقط الطغيان سينتصب الشعب
عظيماً وحراً !

وداعاً ، يا إخوان ، لقد اخترتم الطريق النبيل ،

يلحق بكم جيش مستعد للموت والتضحية ...

وداعاً ، يا إخوان ، لقد اخترتم الطريق النبيل ،

إننا نقسم على قبوركم بأن نناضل ، بأن نعمل من أجل حرّية
الشعب وسعادته ... »

لهذا استشهد أبطال آذار الذين أودعوا في « مقبرة التآخي » الباردة في « حقل مارس » ؛ لهذا مـــات الآلاف وعشرات الآلاف في السجون ، في المنفى، في مناجم سيبيريا . لم تحدث الثورة كما توقعوا، ولا كما رغب المثقفون. ولكنها حدثت – عنيفة ، قوية ، حقيقية لا تحتمل الصيغ، وترفض النزعات العاطفية ...

تلا لينين « مرسوم الأرض :

١ – تلغى ملكية الأرض الفردية فوراً وبدون تعويض .

٢ – تنقل أراضي المـــلاك وجميع أراضي الأسرة المالكة والأديرة ، وأراضي الكنيسة وكل مـــا عليها من مواشٍ وبنايات

وملحقات الى لجان الأرض البلدية، والى سوفييت مندوبي الفلاحين المنطقية وتوضع تحت تصرفها الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية .

٣ – إن أي ضرر يصيب الملكية المصادرة ، وقد أصبحت الآن ملكية الشعب بأمره ، يعتبر جريمـــة خطيرة يعاقب مرتكبوها أمـــام المحاكم الثورية . إن سوفييت مندوبي الفلاحين المنطقية مطالبة بأن تتخذ كل الإجراءات اللازمة للمحـــافظة على النظـــام خلال مصادرة أراضي الملاّك ، لمسح الأرض ولتعيين الأجزاء التي تطالها المصادرة ، ولجرد محتويات الملكية المصادرة، ولتأمين الحماية الثورية الكاملة لانتقال مـــا تحتوي عليه قطعات الأرض من أدوات زراعية وبنايات وملحقات وماشية ومحصول، الى آخره ، الى أيدي الشعب .

٤ – خلال تحقيق الإصلاحات الزراعية الكبرى ، والى حين تصديق الجمعية التأسيسية على هذه الإصلاحات ، يعمل بالتعليمات الفلاحية التـــالية (ناكاز) التي استخلصها مجلس تحرير صحيفة « إزفستيا » ، لسان حـــال سوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا ، من مئتين واثنتين وأربعين مجموعة من التعليمات الفلاّحية المحلية، ونشرت في العدد ٨٨ من الصحيفة المذكورة (بتروغراد، العدد ٨٨ ، ١٩ آب ، ١٩١٧) [٣] .

لن تصـــادر أراضي الفلاحين والقوزاق الذين يخدمون في الجيش » .

ثم أوضح لينين المرسوم قـــائلا : « هذا ليس مشروع الوزير السابق تشيرنوف الذي تكلم عن «تشييد هيكل للاصلاح» وحاول تحقيق الإصلاحات من فوق . إن قضايا تقسيم الأرض سوف تحدّد من تحت وفي الأمكنة المعنية

بالأمر . وقد تختلف مساحة الأرض الممنوحة لكل فلاح حسب المنطقة الموجود فيها ...

لقد رفض مُلاك الأرض الانصياع لأوامر لجان الأرض في ظل الحكومة المؤقتة ، هذه اللجان نفسها التي اقترحها لفوف ، وأنشأها شينغاريوف وتولى كرنسكي إدارتها . »

وقبل بدء النقاش ، كان رجل يشق طريقه بعنف وسط جمع احتشد في المشى واعتلى المنبر. إنه بيانيخ ، عضو اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، وكان في ذروة الغضب :

« إن اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين في عموم روسيا تحتج على اعتقال الرفيقين الوزيرين سالازكين ومازلوف!» ثم صاح بقسوة في وجه الحضور: « إننا نطالب بإطلاق سراحهما فوراً ! إنهما الآن في حصن بطرس – بولس . نريد عملاً سريعاً . ليس لدينا وقت نضيّعه ! »

وتلاه جندي ذو لحية شعثاء وعينين لاهبتين : « إنكم تجلسون هنا وتتكلمون عن توزيع الأرض على الفلاحين، بينما تتصرفون كالطغاة والغاصبين تجاه ممثلي الفلاحين ! إني أقول لكم – (هدّد بقبضته) اذا مسستم شعرة من رؤوسهم فسوف تقوم ثورة ضدكم ! » فهاج الجميع بارتباك .

ثم اعتلى تروتسكي المنبر ، هادئاً ، سامتاً ، واعياً للسلطة التي بين يديه ، فاستقبل بالهتاف : « أمس ، قررت اللجنة العسكرية الثورية مبدئياً أن تطلق سراح الوزراء المناشفة والاشتراكيين الثوريين مازلوف ، سالازكين ، غفوزدوف وماليانتوفيتش . واذا كانوا لا يزالون في سجن بطرس – بولس فلأننا كنا مشغولين جداً... إلا أنهم سوف يوضعون في منازلهم تحت الإقامة

الجبرية حتى تحقق في تواطئهم مع أعمـــال كرنسكي الخائنة خلال مؤامرة كورنيلوف ! »

فصاح بيانيخ : « لم تحدث مثل هذه الأعمال في أية ثورة من الثورات! »

أجاب تروتسكي: « أنت مخطىء . لقد حدثت مثل هذه الأعمال حتى في ثورتنا. لقد اعتقل المئات من رفاقنا في أيام تموز... ولما أُطلق سراح الرفيقة كولانتاي من السجن بأمر الطبيب ، وضع أفاكسانتييف أمام بابهـــا عميلين من عمـــلاء شرطة القيصر السرية ! » فانسحب الفلاحون مهمهمين يلاحقهم عياط ساخر .

وتكلم ممثل الاشتراكيين الثوريين اليساريين عـــن « مرسوم الأرض » . فقـــال إن حزبه لن يصوّت على المسألة إلا بعد النقاش بالرغم من موافقته عليه ، مؤكداً ضرورة استشارة سوفييت الفلاحين ...

وحذا المناشفة الأمميون حذوه مؤكدين على ضرورة عقـد اجتماع لمندوبي حزبهم قبل التصويت .

ثم تكلم قـائد « المتطرفين » ، الجناح الفوضوي من الحركة الفلاّحية : « يجب علينا أن نمجّد الحزب السياسي الذي يضع موضع التنفيذ مثل هـذا المرسوم منذ اليوم الأول ، بدون ثرثرة حوله ! »

واعتلى أحد الفلاحين المنبر – شعر طويل ، معطف من الوبر – وأخـذ ينحني أمام زوايا القاعة الأربع : « السلام عليكم ، يا رفاق، ويا مواطنون ! بعض أعضـــاء حزب الكاديت يتجولون في الخارج . لقد اعتقلتم الفلاحين الاشتراكيين ، فلماذا لا تعتقلون هؤلاء كذلك ؟ »

وبـدأ على الأثر نقاش بين الفلاحين الهائجين ، كان شبيهاً بنقاش الجنود في الليلة الماضية . هؤلاء هم عمال الأرض الحقيقيون ...

« أعضاء لجنتنا التنفيذية ، أمثال أفاكسانتييف ، ليسوا حماة الفلاحين مثلما كنا نعتقد . إنهم كاديت أيضاً . إعتقلوهم ! إعتقلوهم ! »

وقال آخرون : « من هم بيانيخ وأفاكسانتييف وغيرهم ؟ ليسوا فلاحين على الإطلاق ! إنهم لا يفعلوا شيئاً غير تحريك أذنابهم ! »

فهبّ الجمع الى المتكلمين وقد عرف فيهم إخواناً لهم !

اقترح الاشتراكيون الثوريون اليساريون نصف ساعة استراحة . وبينما كان المندوبون يخرجون ، وقف لينين :

« يجب ألا نضيع الوقت ، يا رفاق ! يجب أن تصدر في صحف الغد أنباء تهمّ روسيا بأسرها . لا تتأخروا ! »

وتعالى صوت أحد رسل اللجنة العسكرية الثورية ، فوق النقاش والجدال الحاد وفوق جلبة الأرجل ، وأخذ يصيح : « خمسة عشر داعية مطلوبون في غرفة ١٧ حالاً ! ليذهبوا الى الجبهة ! » .

كانت قد مضت ساعتان ونصف عندما عاد المندوبون ، فاعتلى أعضاء مجلس الرئاسة المنصة ، واكملت الجلسة بقراءة البرقيات الواردة من الألوية التي تعلن انضمامها الى اللجنة العسكرية الثورية .

أخذ الاجتماع يستجمع قوته بطريقة عفوية . فتكلم مندوب الجنود الروس في مقدونيا بقساوة عن وضعهم : « اننا نعاني من صداقة « حلفائنا » أكثر مما نعاني من العدو » . قال مندوبون عن الجيش العاشر والجيش الثاني عشر ، الذين وصلوا مسرعين : « اننا نؤيدكم بكل قوانا ! » اعترض جندي فلاح على اطلاق سراح « خونة الاشتراكية مازلوف وسالازكين » ؛ أما بالنسبة للجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين ، فقد طالب باعتقال أعضائها بالجملة ! هذا كلام ثوري حقيقي ... أعلن مندوب عن الجيش الروسي في

ايران انه يحمل تفويضاً بالدعوة الى استلام السوفييت للسلطة ... وتكلم ضابط اوكراني باللهجة المحلية الاوكرانية : « لا دخل للقومية في هذه الأزمة ... عاشت دكتاتورية البروليتاريا في كل البلاد ! » تجاه مثل هذا الطوفان من الأفكار النبيلة الحادة لم يعد بامكان روسيا أن تظل صماء !

وأشار كامنييف الى أن القوات المعادية للبلشفية تحاول إثارة الاضطرابات في كل مكان ، ثم تلا نداءً من المؤتمر الى جميع منظمات السوفييت في روسيا :

« ان المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والجنود ، الذي يضم بعض المندوبين عن الفلاحين ، يطلب من جميع منظمات السوفييت المحلية أن تتخذ اجراءات حازمة لمقاومة كل نشاط معادٍ للثورة أو أعمال ضد اليهود وضد كل المجازر مهما يكن نوعها . ان شرف ثورة العمال والفلاحين والجنود لا يحتمل أية مجازر .

ان الحرس الأحمر والحامية الثورية والبحارة في بتروغراد قد حافظوا على الهدوء التام في العاصمة .

أيها العمال والجنود والفلاحون ، يجب أن تسيروا ، في كل مكان ، على خطى عمال وجنود بتروغراد .

أيها الرفاق والجنود والقوزاق ان واجب تأمين الانضباط الثوري الحقيقي يقع على عاتقنا .

ان روسيا الثورية كلها والعالم أجمع ينظر الينا ... » .

في الساعة الثانية ، جرى التصويت على « مرسوم الأرض » فعارضه صوت واحد وجنّ مندوبو الفلاحين من الفرح ... وهكذا اندفع البلاشفة الى الأمام منتصرين ، متغلبين على التردد والمعارضة . ولا عجب فهم الأناس

الوحيدون في روسيا الذين كانوا يملكون برنامج عمل محدد بينما اكتفى غيرهم باللغو طوال ثمانية أشهر .

انتصب أحد الجنود ، نحيلاً ورثّ الثياب وبليغاً ، ليحتج على بند من بنود « التعليمات » الذي يحرم الهاربين من الجيش من حصتهم في أراضي القرى الموزعة . ورغم ان الحضور زعق في وجهه وصفر له ، فان خطبته البسيطة المؤثرة ما لبثت أن فرضت الصمت : « ان الهارب من الجيش ، الذي دفع رغماً عنه الى مجزرة الخنادق التي اعترفتم بأنفسكم في مرسوم السلم بأنها فظيعة وبدون معنى ، قد استقبل الثورة آملاً أن تحقق السلم والحرية . لماذا السلم ؟ لأن حكومة كرنسكي أجبرته على الذهاب الى غاليسيا ليذبح ويُذبح ؛ ولما طالب بالسلم ضحك عليه تريشنكو ... لماذا الحرية ؟ لأنه وجد اللجان التي تمثله قد ألغيت ، في ظل كرنسكي ، وصحفه قد منعت من الصدور ، والمتكلمين باسم حزبه في السجن ... وفي قريته كان مُلاك الأراضي يتحدون لجان الأرض ويحبسون رفاقه ... أما في بتروغراد ، فكانت البرجوازية المتحالفة مع الالمان تخرب إمدادات الطعام والذخيرة المرسلة الى الجيش .. كان بدون أحذية ولا ثياب .. من أجبره على الفرار ؟ حكومة كرنسكي التي أسقطتم ! » تصفيق .

إلا ان جندياً آخر رد عليه بحدة : « ليست حكومة كرنسكي ستاراً يمكن أن نستر وراءه أعمالاً دنيئة مثل الهرب من الجيش ! الهاربون حقراء، فروا الى منازلهم وتركوا رفاقهم ليموتوا وحدهم في الخنادق ! كل هارب من الجيش هو خائن تجب معاقبته .. » صخب ، صيحات : « كفى ! سكوت » فاقترح كامنييف بسرعة أن يترك الأمر للحكومة لتتخذ قراراً حوله[٤] .

في الساعة الثانية والنصف صباحاً ساد الاجتماع صمت متوتر ، فقد كان كامنييف يقرأ « مرسوم تنظيم السلطة » .

« الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية ، تشكل حكومة مؤقتة للعمال والفلاحين يطلق عليها اسم « مجلس مفوضي الشعب »[٥] .

يوكل أمر إدارة القطاعات المختلفة من نشاط الدولة الى لجان يتم تكوينها بطريقة تضمن تنفيذ برنامج المؤتمر ، بالتعاون التام مع المنظمات الجماهيرية التابعة للعمال والعاملات والبحارة والجنود والفلاحين وموظفي المكاتب . توكل سلطة الحكومة الى مجلس يتكون من رؤساء هذه اللجان هو مجلس مفوضي الشعب .

يعود حق مراقبة نشاط مفوضي الشعب وحق استبدالهم الى المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين والجنود ، والى لجنته المركزية التنفيذية » .

وساد هدوء تام وهو يتلو أسماء المفوضين ، وتعالت عواصف من التصفيق بعد كل اسم ، وبشكل خاص بعد اسم لينين وتروتسكي :

رئيس المجلس : فلاديمير اوليانوف (لينين) .

الداخلية : ا. ي. ريكوف .

الزراعة : ف. ب. مليوتين .

العمل : ا. ج. شليابنيكوف .

الشؤون العسكرية والبحرية : لجنة مكونة من ف. ا. اوفسينكو (انطونوف) ، ن. ف. كريلنكو ، و ب. ي. ديبنكو .

التجارة والصناعة : ف. ب. نوغين .

الثقافة الشعبية : ا. ف. لوناتشارسكي .

المالية : ا. ا. سكفورتسوف (ستيبانوف) .

الشؤون الخارجية : ل. د. برونشتاين (تروتسكي)

العدلية : ج. ي. ابّوكوف (لوموف)

التموين : ي. ا. تيودوروفيتش

البريد والبرق : ن. ب. افيلوف (غليبوف)

رئيس لجنة القوميات : ي. ف. دجوغاشفيللي (ستالين)

سكك الحديد : يعيّن فيما بعد .

ولاحت حراب في أرجاء القاعة ، تطلّ برؤوسها من بين المندوبين . فقد كانت اللجنة العسكرية الثورية تسلّح الجميع ، البلاشفة يتسلحون للمعركة الحاسمة مع كرنسكي الذي تحمل الريح الجنوبية الغربية أصوات أناشيده العسكرية ... في تلك الأثناء ، لم يذهب أحد الى منزله ؛ وانما على العكس فقد دخلت المئات من الوافدين الجدد ، يملأون أرجاء القاعة الكبيرة المكتظة بالجنود ذوي الوجوه القاسية والعمال الذين يقفون طوال ساعات وساعات ويصغون بلا تعب . الجو عابق بدخان السجائر والتنفس البشري ورائحة العرق والثياب الخشنة .

تكلم أفيلوف عضو هيئة تحرير « الحياة الجديدة » باسم الاشتراكيين — الديمقراطيين الأمميين وبقايا المناشفة الأمميين ؛ أفيلوف بوجهه الشاب الذكي ، الذي لا يتناسب مع معطف السهرة الأنيق الذي يرتدي :

« يجب أن نسأل أنفسنا الى أين نحن سائرون ... لا يمكن تفسير السهولة التي تم فيها إسقاط الحكومة الائتلافية بأنها وليدة قوة الجناح اليساري من القوى الديمقراطية ، وانما فقط بعجز الحكومة عن توفير الخبز والسلم للشعب .

وان الجناح اليساري لن يستطيع الاحتفاظ بالحكم إلا اذا حل هاتين المشكلتين ...

« هل يستطيع الحكم توفير الخبز للشعب ؟ الحبوب نادرة . وأغلبية الفلاحين لن تقف معكم لأنكم عاجزون عن منحها الآليات التي تحتاج . انه من شبه المستحيل الحصول على المحروقات والحاجيات الضرورية الأخرى ...

« أما بالنسبة للسلم ، فهنا يزداد الأمر صعوبة . لقد رفض الحلفاء التفاوض مع سكوبيليف . وهم لن يقبلوا أبداً باقتراح عقد ندوة للسلم يجيء منكم . لن تعترف بكم لندن ولا باريس ولا برلين ...

« لن تستطيعوا الاعتماد على مساعدة فعلية تقدمها البروليتاريا في بلاد الحلفاء ، لأن البروليتاريا بعيدة جداً عن النضال الثوري في معظم هذه البلاد؛ تذكروا ان القوى الديمقراطية المتحالفة عجزت عن عقد ندوة ستوكهولم . أما بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين الألمان ، كنت أتحدث منذ قليل الى الرفيق غولدنبرغ ، أحد المندوبين الى ستوكهولم ؛ فقد قال له أحد ممثلي اقصى اليسار إن الثورة مستحيلة في ألمانيا خلال الحرب ... » وهنا بدأت المقاطعات سريعة وفظة ، إلا أن أفيلوف تابع حديثه :

« إن عزلة روسيا إما أن تؤدي الى هزيمة الجيش الروسي المفجعة على يد الألمان، وعقد اتفاقية سلم بين الحلف النمساوي – الالماني والحلف الفرنسي – البريطاني على حساب روسيا ، وإما الى صلح منفرد مع ألمانيا .

« لقد علمت لتوّه أن سفراء دول الحلفاء يستعدون للذهاب ، وانه يجري تكوين لجان لإنقاذ الوطن والثورة في جميع مدن روسيا ...

« لا يستطيع حزب واحد أن ينتصر بمفرده دون صعوبات عظيمة . إن

غالبية الشعب ، التي تدعم حكومة ائتلاف اشتراكية ، هي وحدهـا التي تستطيع تحقيق الثورة » ...

ثم تلا القرار المشترك الصادر عن الحزبين :

« نظراً لأن إنقاذ مكاسب الثورة لا يمكن أن يتم إلا بالعمل فوراً على تشكيل حكومة تعتمد على القوى الديمقراطية الثورية المنظمة في سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين ، ونظراً لأن هدف مثل هذه الحكومة هو تحقيق السلم بأسرع وقت ممكن ، ونقل الأراضي الى اللجنة الزراعية ، وتنظيم السيطرة على الانتاج الصناعي ، ودعوة الجمعية التأسيسية الى الانعقاد في الموعد المقرر ، فإن المؤتمر يعيّن لجنة تنفيذية لتشكل حكومة بعد الاتفاق مع المجموعات الديمقراطية التي تشارك في أعمال هذا المؤتمر » .

بالرغم من النشوة الثورية التي تملكت هذا الجمع الظافر ، فإن حجج أفيلوف الباردة والهادئة قد هزّته. فتلاشى الصياح والصفير عند نهاية خطابه، وسمع بعض التصفيق عند الختام .

وعقبه كاريلين ، وهو شاب أيضاً وشجاع لا يشك أحد بإخلاصه ، متكلماً باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، حزب ماريا سبيريدونوفا ، الحزب الذي يكاد يكون وحيداً في سيره مع البلاشفة ، والذي يمثل الفلاحين الثوريين :

« إن حزبنا قد رفض الاشتراك في مجلس مفوضي الشعب لأننا لا نريد أن ننفصل نهائياً عن ذلك القسم من الجيش الثوري الذي غادر المؤتمر ، فإذا حدث مثل هذا الانفصال يصبح من المستحيل علينا أن نلعب دور الوسيط بين البلاشفة والفئات الديمقراطية الأخرى ... وهذا نعتبره واجبنا الرئيسي

في هذا الوقت . إننا لن ندعم أية حكومة إلا إذا كانت حكومـــة تحالف اشتراكي ...

« وفيما عدا ذلك ، فإننا نحتجّ على سلوك البلاشفة الاستبدادي . لقـــد طرد المفوضون التابعون لنــا من مراكزهم . وأمس منعت « راية العمال » ، صحيفتنا الوحيدة ، من الصدور ...

« إن مجلس الدومــا المركزي يشكل لجنة قوية لإنقـــاذ الوطن والثورة ليحاربكم بها . إنكم معزولون منذ الآن ، وحكومتكم لا تحظى بتأييد مجموعة ديمقراطية واحدة » ...

لقـد اعتلى تروتسكي المنبر الآن ، واثقـــاً من نفسه ومسيطراً ، بذلك التعبير الساخر حول فمـه الذي يكاد يكون مزدرياً . فتكلم بصوت رنان ، فهبّ الجميع اليه .

« ان هذه الاعتبارات حول أخطار عزلة حزبنا ليست جديدة . لقـد شاعت تنبؤات عن هزيمتنا المحتمة عشية الثورة . كان الجميع ضدنا ؛ ولم يبق معنا في اللجنة العسكرية الثورية إلا قسم من الاشتراكيين الثوريين . لماذا استطعنا أن نسقط الحكومة بدون إراقة دم تقريباً ؟.. الواقع هو البرهان الأكيد على اننا لسنا معزولين . في الحقيقة الحكومة المؤقتة هي التي كانت معزولة، والأحزاب الديمقراطية التي تقف ضدنا كانت معزولة ، وهي معزولة الآن ، وستبقى الى الأبد معزولة عن البروليتاريا .

« انهم يتكلمون عن ضرورة التحالف . هناك تحالف واحد ممكن، وهو تحالف العمال والجنود وأفقر الفلاحين ، وإنه ليشرّف حزبنا أن يكون قـد حقق هـذا التحالف ... عن أي نوع من التحالف تحدث أفيلوف ؟ تحالف مع الذين دعموا حكومة خيانة الشعب ؟ التحالف لا يضاعف القوة في جميع

الحالات . هل كان بإمكاننا أن ننظم الانتفاضة ، مثلاً ، لو كان دان وافاكسانتييف في صفوفنا ؟ (موجة ضحك) .

« لم يوزع افاكسانتييف الا القليل من الخبز . هل يؤدي التحالف مع المدافعين الى توزيع كميات أكبر؟ بين الفلاحين وأفاكسانتييف، الذي أمر باعتقال أعضاء لجان الأرض ، اخترنا الفلاحين ! إن ثورتنا ستبقى إنموذجاً عن الثورات في التاريخ ...

« إنهم يتهموننا برفض الاتفاق مع الأحزاب الديمقراطية الأخرى. ولكن هل نحن موضع اللوم ؟ ترى يجب علينا أن نلقي اللوم على « سوء تفاهم » ، على حدّ تعبير كاريلين ؟ عندما يكون حزب في خضم ثورة ما زال يتصاعد منها دخان البارود ، ويقول : « هذه هي السلطة – خذوها ! » – وعندما ينضم الذين عرضت عليهم الثورة الى صفوف الأعداء ، فهذا لا يسمى سوء تفاهم ... إنه إعلان حرب لا ترحم . ولسنا نحن الذين أعلنّا الحرب ...

« يهددنا أفيلوف بأن مجهوداتنا للسلم سوف تفشل اذا بقينا « معزولين » . إني أكرّر : أنا لا أفهم كيف يمكن للتحالف مع سكوبيليف أو حتى مع تريشنكو أن يساعدنا على تحقيق السلم ! يحاول أفيلوف بثّ الذعر فينا بالتكلم عن سلم يتمّ على حسابنا . جوابي هو أن روسيا الثورية لا محالة هالكة اذا ظلت البرجوازية الاستعمارية تحكم أوروبا ...

« هناك احتمالان : إما أن تخلق الثورة الروسية حركة ثورية في أوروبا، وإما أن تسحق القوى الأوروبية الثورة الروسية ! »

فحيّوه بهتاف راعد لا ينتهي يزكيه الإقدام الذي أظهره في فكرة نصرة الإنسانية جمعاء . ومنذ ذلك الحين أصبح يوجد عنصر واعٍ وحاسم في جميع أعمال هذه الجماهير الثورية فلم يغادرها أبداً .

ولكن المعركة كانت تتبلور في الجهة المقابلة . أعطى كامنييف حق الكلام لمندوب عن « اتحاد عمال سكك الحديد » . وكان رجلا مربوعاً ، قاسي الوجه ، يبدو أنه يضمر عداء لا يلين . فقذف الحضور بمفاجأة مذهلة :

« باسم أقوى منظمة في روسيا أطلب حق الكلام لأقول أن «الفيكجل» قد كلفتني بأن أنقل اليكم قرار الاتحاد حول تنظيم السلطة . إن اللجنة المركزية ترفض رفضاً قاطعاً أن تؤيد البلاشفة اذا أصرّوا على عزل أنفسهم عن مجموع القوى الديمقراطية في روسيا ! » (تعالت جلبة عظيمة من جميع أرجاء القاعة) .

« في عام ١٩٠٥ ، وخلال أيام مؤامرة كورنيلوف ، كان عمال سكك الحديد أحسن المدافعين عن الثورة ، ولكنكم لم تدعونا الى مؤتمركم » — (صيحات : « التسايكا القديمة هي التي لم تدعكم ! » إلا أن الخطيب لم يأبه بها) « إننا لا نعترف بشرعية هذا المؤتمر؛ فمنذ تغيّب المناشفة والاشتراكيون الثوريون لم يعد هناك نصاب شرعي ... إن الاتحاد يؤيد التسايكا القديمة ويعلن أنه لا يحق للمؤتمر أن ينتخب لجنة جديدة ...

« يجب أن تكون السلطة سلطة اشتراكية وثورية مسئولة أمام الهيئات الشرعية التابعة لمجموع القوى الديمقراطية الثورية . وحتى تشكل مثل هذه السلطة ، فإن اتحاد عمال سكك الحديد ، الذي يرفض نقل القوات المعادية للثورة الى بتروغراد ، سوف يمتنع ، في الوقت نفسه ، عن تنفيذ أي أمر كان بدون موافقة « الفيكجل » . وإن « الفيكجل » سوف تستلم أيضاً كل إدارة سكك الحديد في روسيا . »

وضاعت نهاية خطابه وسط عاصفة من الشتائم انهالت عليه . ولكن الضربة كانت عنيفة — وكان هذا بادياً من خلال تجهّم وجوه أعضاء مجلس الرئاسة . إلا أن كامنييف اكتفى بالقول انه لا يمكن أن يكون هناك أدنى

شك في شرعية المؤتمر ، لأنـه يتعدى ويزيد حق عن النصـاب الذي وضعته « التسايكا » القديمة بالرغم من انشقاق المناشفة والاشتراكيين الثوريين ...

ثم جرى التصويت على « تنظيم السلطة » الذي منحت بموجبه الثقـة ، بأغلبية ساحقة ، لمجلس مفوضي الشعب .

لم تستغرق عملية انتخاب « التسايكا » الجديدة ، أي البرلمان الجديـد للجمهورية الجديدة ، أكثر من خمس عشرة دقيقة . فأعلن تروتسكي تشكيله على الشكل التالي ، ١٠٠ عضو بينهم ٧٠ بلشفياً ... أمـا بالنسبة للفلاحين والأجنحة المنشقة فقد احتفظ لها بمقاعد . وختم تروتسكي قائلاً : « إننـا نرحب في حكومتنا بجميع الأحزاب والمجموعات التي تتبنى برنامجنا » .

وبهذا جرى حل المؤتمر العام الثاني للسوفييت ، فترك المجال أمام أعضائه ليرجعوا بسرعة الى بيوتهم في جميع أرجـاء روسيا ويخبروا عن الأحداث العظيمة التي شاهدوها ...

كانت الساعـة تقارب السابعـة صباحاً عندما أيقظنـا سواق السيارات العمومية من نومهم ، هؤلاء السواق الذين كلفتهم « نقابة عمـال الحافلات » بالانتظار في سمولـــني لينقلوا مندوبي السوفييت الى منازلهم . فكّرت : الانبساط في هذه السيارة المزدحمة اقلّ مما كان عليه ليلة أمس . كان العديد يبدو قلقاً ، وربما كانوا يسائلون أنفسهم : « اننا السادة الآن ، كيف نستطيع فرض إرادتنا » ؟

قرب البناية التي أسكن ، استوقفتنا دورية من المواطنين المسلّحين الذين فتشونا بدقة . كان بلاغ مجلس الدوما يفعل فعله ...

سمعتنا صاحبة البيت ندخل ، فأسرعت الينا تتعثر في ثوبهـــا البنفسجي الحريري ، قالت :

« طلبت لجنة المساكن مجدداً أن تأخذوا دوركم في الحراسة مع سائر الرجال » .

– لأي سبب ؟

– لحماية المنزل والنساء والأطفال .

– ممن ؟

– من اللصوص والمجرمين .

– ولكن افترضي أن مفوضاً من اللجنة العسكرية الثورية جاء مفتشاً عن الأسلحة .

– آه ، هذا ما سيدّعيه الجميع ... وعلى كل حال ، ما الفرق ؟

فأكدتُ لها بجدية بالغة أن القنصل قد منع جميع المواطنين الاميركيين من حمل السلاح ، خاصة اذا كانوا في جوار مثقفين روس ...

هوامش

(الفصل الخامس)

١ — نداءات وبلاغات

من اللجنة العسكرية الثورية في ٨ تشرين الثاني

« الى جميع لجان الجيش، الى جميع منظمات سوفييت مندوبي الجنود .

إن حامية بتروغراد قد أسقطت حكومة كرنسكي التي وقفت ضد الثورة والشعب ... إن اللجنة العسكرية الثورية ، إذ تبلغ هذه الأنباء للجبهة والبلد ، تطلب من جميع الجنود ان يراقبوا بيقظة سلوك الضباط . إن الضباط الذين لا يعلنون تأييدهم العلني للثورة يجب أن يعتقلوا فوراً بصفتهم أعداء .

إن سوفييت بتروغراد يفسر برنامج الحكومة الجديدة على الشكل الآتي : اقتراحات فورية لعقد سلم ديمقراطي عام ، الانتقال الفوري للملكيات الكبيرة الى الفلاحين ، دعوة صادقة

للجمعية التأسيسية الى الانعقاد . لا يجوز لجيش الشعب الثوري أن يسمح بإرسال قوات مشبوهة الى بتروغراد . إعملوا بواسطة الحجج ، بواسطة الإقناع ، ولكن إذا فشلت هذه الأساليب ، أوقفوا تحركات القوات بالقوة التي لا ترحم .

يجب تلاوة هذا الأمر على مسمع جميع الوحدات العسكرية في كل قطاع من قطاعات الخدمة . إن من يخفي محتويات هذا الأمر عن جماهير الجنود ... يرتكب جريمة خطرة ضد الثورة ، يعاقبه عليها القانون الثوري .

أيها الجنود ! ناضلوا من أجل السلم والخبز والأرض والحكم الشعبي » !

* * *

الى لجان الجيش واللواء والقطعة والفرقة والسرية في الجبهة والمؤخرة ، الى كل منظمات سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين :

« أيها الجنود ، أيها الضباط الثوريون !

إن اللجنة العسكرية الثورية ، بالاتفاق مع غالبية العمال والجنود والفلاحين ، قد أصدرت قراراً بأن يجلب الجنرال كورنيلوف وجميع الذين عاونوه في مؤامرته الى بتروغراد فوراً ، ويحتجزوا في حصن بطرس – بولس لتقديمهم الى المحكمة العسكرية الثورية ...

تعتبر اللجنة أن كل من يرفض تنفيذ هذا القرار خائناً

للثورة وأي أمر قد يصدر عنه يعتبر لاغياً » .

اللجنة العسكرية الثورية
التابعة لسوفييت مندوبي العمال والجنود في بتروغراد

* * *

الى منظمات سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين في المقاطعات والأحياء :

« يطلق سراح جميع أعضاء لجان الأرض المعتقلين فوراً بأمر من المؤتمر العـــام للسوفييت . ويلقى القبض على المفوضين الذين اعتقلوهم .

إن السلطة هي بيد السوفييت من الآن فصاعداً . لقد فصل مفوضو الحكومـــة المؤقتة . والمرجو من رؤساء مختلف منظمات السوفييت المحلية الاتصال فوراً بالحكومة الثورية » .

اللجنة العسكرية الثورية

٢٠- احتجاج مجلس الدوما البلدي

إن المجلس البلدي المركزي في المدينـــة ، الذي انتخب على أساس أكثر المبادىء ديمقراطية ، قد أخذ على عاتقـه ، في فترة عمّت فيها الفوضى ، مهمة إدارة الشؤون البلدية والإعاشة . أمـا الآن ، وقبل ثلاثـة أسابيع من موعـــد الانتخابات للجمعيـة التأسيسية ورغم تهديد العدو الخارجي ، فإن الحزب البلشفي ، الذي قلب السلطة الثورية الشرعيـــة الوحيدة بواسطة القـــوة المسلحة ، يتعدى على حقوق الإدارة الذاتيـة البلدية واستقلالهـا طالباً منها الخضوع لإرادة مفوضيه ولسلطته غير الشرعية .

في هذه الفترة المفجعة والرهيبة ، يتوجه مجلس بتروغراد البلدي الى ناخبيه والى روسيا بأسرها، ليعلن على رؤوس الأشهاد أنه لن يرضخ لأي مساس بحقوقه واستقلاله ، وإنه سيبقى في مركز المسؤولية الذي عينته له إرادة سكان العاصمة .

إن مجلس الدوما المركزي في بتروغراد يتوجه الى جميع مجالس الدوما والزيمستوفا في الجمهورية الروسية طالباً منها أن تتأهب للدفاع عن استقلال وحرمة الإدارة الذاتية الشعبية ، أحد أعظم مكاسب الثورة الروسية . »

٣ - مرسوم الأرض - تعليمات الفلاحين (الناكاز)

إن الجمعية التأسيسية العامة هي وحدها المخوّلة بوضع حل نهائي لمسألة الأرض .

إن أعدل حلّ لقضية الأرض يجب أن يكون على الشكل التالي :

١ – يلغى حق ملكية الفرد الى الأبد ؛ لا يسمح ببيع أو تأجير أو رهن أو انتزاع ملكية الأرض بأي شكل كان . إن جميع أراضي الوقف ، وأراضي النبلاء ، وأراضي الأمبراطور ، وأراضي الأديرة والكنائس ... والملكيات الخاصة ، والأراضي الجماعية ، وملكيات الفلاحين ، أو غيرها ، تصادر بدون تعويض وتصبح ملكية وطنية من الآن فصاعداً ، وتوضع تحت تصرف العمال الذين يفلحونها .

يحق للذين يتضررون من جراء هذا التحول الاجتماعي في حقوق الملكية الاستفادة من المساعدة العامة التي تقدّم لهم خلال الوقت اللازم لتكييف أنفسهم مع ظروف معيشتهم الجديدة .

٢ – جميع الثروات تحت الأرض، من معادن وزيوت وفحم وأملاح وما شـــابه ، وجميع الأحراج وتجمعات الماء ذات الأهمية الوطنية تصبح ملكاً للدولة . توضع جميع الجداول والبحيرات والأحراج الثـــانوية الأهمية تحت تصرف التجمعات المعنية بالأمر على شرط أن تديرها هيئات الحكم المحلية .

٣ – لا ينطبق مشروع تقسيم الأرض على جميع الرقع المزروعـــة على الطريقة العلمية – حدائق ، مشاتل ... وغيرها – وإنما يجري تحويلهـا الى مزارع أنموذجية وتنتقل ملكيتها الى يد الدولة أو التجمع المعني بالأمر حسب حجمها وأهميتها .

تبقى البنايات والأراضي والقرى الجماعية مع حدائقها الخاصة بهـــا بين أيدي ملاّكها الحـــاليين ؛ ويحدد القانون حجم هـــذه الرقع والضرائب المفروضة عليها .

٤ – تصادر جميع الاسطبلات ومؤسسات تربيـــة الماشية أو الطيور وغيرها ، حكومية كانت أم خاصة ، وتصبح ملكية وطنية وتوضع بين أيدي الدولة أو التجمع المعني بالأمر حسب حجمها وأهميتها .

يعود أمر البتّ في التعويض عما سبق الى الجمعية التأسيسية .

٥ – تصادر جميع الملكيات الزراعية التابعة للأراضي المصادرة ، من آليـات ومواشٍ ، وتؤول ملكيتها بدون تعويض ، الى الدولة أو التجمع المعني بالأمر حسب كميتها أو أهميتها .

لا تنطبق عملية مصادرة مثل هـــذه الآليات والمواشي على ملكيات الفلاحين الصغيرة .

٦ – يمنح حـــق استعمال الأرض ، بدون تمييز بـين رجل وامرأة ، الى جميع المواطنين الراغبين في العمل على الأرض بمساعدة عوائلهم أو بالشراكة ما داموا مؤهلين للعمل . العمل المأجور ممنوع .

في حال عجز أحد أعضاء المجتمع عن العمل لمدة سنتين ، يجب على المجتمع أن يساعده خلال هذه المدة بالعمل المشترك على قطعة أرض .

عندما يفقد أحد المزارعين القدرة على العمل بنفسه في أرض ، بسبب الشيخوخة أو المرض، يطلب منه إعادة هذه الأراضي الى الحكومة ويتقاضى راتباً في المقابل .

٧ – يجب تحقيق المساواة في استثمار الأرض ، أي انه يجب تقسيم الأرض على العمال حسب الظروف المحلية ، ووحدات العمل وحاجات الأفراد .

ويمكن تحديد طريقة استثمار الأرض فردياً كمزارع أو جماعيات أو شراكات حسب ما تقرره القرى أو مراكز الاستيطان .

٨ – تضم كل قطعة أرض مصادرة الى « المكتب الشعبي للأرض » . ويتم توزيعها على العمال بواسطة أجهزة الإدارة المحلية والمركزية ، ابتداء من الهيئات الديمقراطية في القرى الى المؤسسات المركزية في المقاطعات ، باستثناء الجمعيات التعاونية في المدن والريف .

يحق لمكتب الأرض أن يعيد توزيع الأرض دورياً وفق زيادة عدد السكان وتطور الإنتاجية والاقتصاد الريفي .

في حال حدوث تعديلات في حدود الأرض يجب أن يبقى المركز الرئيسي للرقعة على حاله .

تعود أراضي الذين ينفصلون عن المجتمع الى مكتب الأرض ، على شرط أن يكون لأقرباء هؤلاء أو لأصدقائهم ، في حال ذكر ذلك ، الأولوية في إعادة توزيع هذه الأراضي .

عندما تعود الأراضي الى مكتب الأرض قبل استنفاذ الأموال التي خصصت للسماد أو لتحسين الأرض ، يحق المطالبة بهذه الأموال .

اذا لم تكن أراضي مكتب الأرض في بعض الأمكنة كافية لسد حاجات السكان المحليين ، يجب على الفائض من السكان أن يهاجر .

وتتعهد الدولة بتنظيم الهجرة ودفع تكاليفها وتأمين الآليات والمواشي الضرورية للمهاجرين .

تتم الهجرة على الشكل الآتي : أولاً ، هجرة الفلاّحين الذين لا يملكون أرضاً ، والذين يعبّرون عن رغبتهم في الهجرة ؛ ثم الهاربون من الجيش والأشخاص غير المرغوب بهم في مجتمعاتهم ، وما شابه ؛ وأخيراً الذين تقع عليهم القرعة حسب الاتفاق .

إن كل ما تحتويه هذه التعليمات ، التي تعبّر عن إرادة الغالبية الساحقة من فلاحي روسيا الواعين ، يتخذ صفة القانون المرحلي . ويصبح ساري المفعول حالاً بقدر الإمكان ، ويطبق تدريجياً في بعض الحالات ، حسب ما تقرّره منظمات سوفييت مندوبي الفلاحين المنطقية ، الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية .

٤ – الأرض والهاربون من الجيش

لم تضطر الحكومة الى اتخاذ أي قرار يتعلق بحق الهاربين من الجيش في الأرض ، لأن انتهاء الحرب ورفع حالة التعبئة عن الجيش أزالا مشكلة الهاربين من الجيش أوتوماتيكياً ...

٥ – مجلس مفوضي الشعب

كان مجلس مفوّضي الشعب مكوناً في البدء من البلاشفة فقط . الا أن اللوم في ذلك لا يقع على البلاشفة وحدهم . ففي ٨ تشرين الثاني ، عرضوا بعض المقاعد على الاشتراكيين الثوريين اليساريين فرفضوها .

٦

لجنة الإنقاذ

الجمعة ، التاسع من تشرين الثاني ...

« نوفوتشير كاساك ، في ٨ تشرين الثاني .

نظراً لثورة البلاشفة ، ومحاولتهم خلع الحكومة المؤقتة واستلام السلطة في بتروغراد ... تعلن حكومة القوزاق أنها تعتبر هذه الأعمال إجرامية وغير مقبولة اطلاقاً . وبناء عليه فان القوزاق سيوجهون كل تأييدهم للحكومة المؤقتة التي هي حكومة تحالف . ونظراً لهذه الضرورة ، والى أن تعود الحكومة المؤقتة للحكم ويعود الأمن والنظام الى روسيا ، فإني سأستلم السلطة فيما يختص بإقليم الدون ابتداء من السابع من تشرين الثاني.

التوقيع : أتامان خالدين

رئيس حكومة الجنود القوزاق »

البلاغ الصادر في « غاتشينا » عن رئيس الوزراء كرنسكي :

« أنا ، رئيس وزراء الحكومة المؤقتة والقائد الأعلى لجميع

القوات المسلحة للجمهورية الروسية ، أعلن بأني على رأس فرق من الجبهة مخلصة للوطن .

آمــــر جميع الجنود في منطقة بتروغراد العسكرية ، الذين استجابوا خطأ أو عن تسرّع لنداء الذين خانوا الوطن والثورة ، بالعودة الى واجبهم دون تأخير .

يقرأ هذا الأمر في جميع الفرق والألوية والسرايا .

التوقيـع : أ. ف. كرنسكي
رئيس وزراء الحكومة المؤقتـة
والقائد الأعلى للقوات المسلحة »

برقية من كرنسكي الى الجنرال الذي يقود الجبهة الشمالية :

« لقد استولت الفرق الموالية على غاتشينا دون سفك دماء . سلّمت قطعات من بحـــارة كرونستاد ومن فرق سيميونوفسكي واسميلوفسكي أسلحتها دون مقاومـــة وانضمت الى الجنود الحكوميين .

آمر جميع الفرق المعنية بالأمر أن تتقدّم بأسرع ما يمكن . لقد أمرت اللجنة العسكرية الثورية جنودها بالتراجع » ...

سقطت « غاتشينا » ليلا ، وهي تقع حوالي ثلاثين كيلومتراً الى الجنوب الغربي من بتروغراد. كانت قطعات من الفرقتين المذكورتين – وليس البحارة – تتجول بدون قيادة في المنطقة ، فحاصرها القوزاق فعلاً فاضطرت الى تسليم أسلحتها ؛ ولكنه ليس صحيحاً انها انضمت الى جنود الحكومة . وفي هذه اللحظة بالذات كانت جموع منها في « سمولني » مضطربة خجولة تحاول تبرير صل : لم يعلموا بـــأن القوزاق كانوا بهذا القرب ... لقد حاولوا أن زاق ...

يظهر ان الفوضى تعمّ الجبهة الثورية . فحاميات كل المدن الصغيرة جنوباً قد انقسمت نهائيـاً وتصنف نفسها الى قسمين او ثلاثة : القيادات العليا مع كرنسكي ، وأكثرية الجنود والرتب الصغرى مـع السوفييت ، والبقية تتردّد بتعاسة بين الاثنين .

عجلت اللجنة العسكرية الثورية بتعيين ضابط طموح من الجيش النظامي لقيادة الدفاع عن بتروغراد ، النقيب مورافيوف ، نفس الشخص الذي نظم « فيالق الموت » في الصيف ، والذي سمع ذات مرة ينصح الحكومة لأنهـا « متهاونة كثيراً مع البلاشفة ، يجب سحقهم » . رجل ذو عقل عسكري ، معجب بالقوة والجرأة ، ربما باخلاص ...

عندما نزلت في الصباح كان قد ألصق أمران جديدان صادران عن اللجنة العسكرية الثورية يطلبان من جميع الحوانيت والمخـازن أن تفتح كالمعتاد ، وأن توضع كل الغرف والشقق الخالية تحت تصرّف اللجنة ...

مرت حتى الآن ست وثلاثون ساعة على عزلة البلاشفة عـن مقاطعات روسيا والعـالم الخارجي . رجال السكك الحديدية وموظفو البرق يرفضون إرسال رسائلهم ، وسعاة البريـد لا يستون بريدهم . راديو الحكومة في « تسارسكويي‌سيلا » هو الوحيد الذي يذيع الأخبـار والبيانات كل نصف ساعة لأطراف العالم الأربعة ، ومفوضو « سمولني » يسابقون مفوضي الدوما على قطارات مسرعة عبر نصف العالم ، وقـد طارت طائرتان محملتان بالدعاية نحو الجبهة ...

ولكن دوامات الثورة تنتشر في روسيا بسرعة تفوق أي ملكة بشرية . اتخذ سوفييت « هلسنغفورس » مقررات تأييد ، واحتلّ بلاشفة « كييف » مخزن الأسلحة ومحطة الإرسال ، ولكن ما لبثت وفود مؤتمر للقوزاق صادف عقده حينذاك أن طردتهم منها . وفي « قـازان » اعتقلت اللجنة العسكرية

الثورية قيادة الحامية المحلية ومفوّض الحكومة المؤقتة ؛ من كراسنويارسك البعيدة جاءت الأخبار بـأن السوفييت مسيطر على المؤسسات البلدية ؛ وفي موسكو ، حيث الوضع مهدد باضراب ضخم يقوم بـه عمال الجلود من جهة وباغلاق عام من جهة أخرى ، صوّت السوفييت بأغلبية ساحقة تأييداً لعمل البلاشفة في بتروغراد ... وبدأت لجنة عسكرية ثورية في العمل فعلاً هناك..

حصل نفس الشيء في كل مكان . الجنود العاديون والعمال الصناعيون ساندوا السوفييت بأغلبية ضخمة ، والضباط وملاك الأرض والطبقة الوسطى بصورة عامة كانوا الى جانب الحكومة مثل الكاديت البرجوازيين والأحزاب الاشتراكية « المعتدلة » .. في كل هـذه المدن تألفت لجان لانقاذ الثورة والوطن، وأخذت تتسلّح للحرب الأهلية ...

كانت روسيا الواسعة في حالة تحلّل . بدأت هذه العملية منذ ١٩٠٥ ، ولم يكن مفعول ثورة آذار إلا تعجيلاً لها ، وفيما ولّدت هذه الثورة رؤيـة لنظام جديد فقد انتهت بالحفاظ على البنية الفارغة للنظام القديم . أمـا الآن فقد حطم البلاشفة ، بليلة واحدة ، هـذه البنية مثلما ينفخ المرء مبدداً الدخان . روسيا القديمـة انتهت ، والمجتمع الانساني يتدفق ذائباً في الحرارة الأوّلية ، ومن بحر اللهيب المتلاطم ينبثق الصراع الطبقي صاعقاً وبدون رحمة ، ومعه القشرة الرقيقة لكواكب جديدة تبرد ببطء .

كانت ست عشرة وزارة مضربة في بتروغراد بقيادة وزارتي العمـل والتموين ، الوزارتان الوحيدتان اللتان أحدثتهما حكومة آب المؤقتة .

« حفنة من البلاشفة » تقف وحيدة في ذلـك الصباح القارس تحت العواصف المتطاولة مثلما لم يكن أحد وحيداً من قبل [١] . اللجنة العسكرية الثورية المهددة بالموت تحارب دفاعاً عن حياتها : « الإقدام ، مزيداً مـن الإقدام ، والإقدام دائماً » .

في الساعة الخامسة صباحاً، دخل الحرس الأحمر مكتب مطابع الحكومة البلدية وصادر آلافاً من منشورات « الاحتجاج والنداء » من مجلس الدوما ، كما منع جريدة السلطة المحلية من الصدور (نشرة الحكم الذاتي البلدي) . وانتزعت جميع الصحف البرجوازية من مطابعها ، حتى جريدة « صوت الجندي » – لسان حال « التسايكا » – ولكن هذه حولت اسمها وظهرت بطبعة من مئة ألف تهدر غضباً وتحدياً :

« الرجال الذين بدأوا ضربة الخيانة في الليل ، الذين منعوا الصحف، لن يستطيعوا أن يواصلوا إخفاء الحقيقة عن البلد لوقت طويل . سيعرف البلد الحقيقة ! وسوف يقدركم أيها السادة البلاشفة ! سوف نرى ! » ...

حينما نزلنا في شارع نيفسكي بعد الظهر بقليل ، كان الشارع مزدحماً بالناس أمام الدوما. الحرس الأحمر والبحارة يقفون هنا وهناك ببنادق ثبتت عليها الحراب . كل واحد منهم محاط بمئة رجل وامرأة – كتبة ، طلاب ، أصحاب حوانيت – ملوّحين بقبعاتهم ، صارخين شتائمهم وتهديداتهم . على الدرج وقف الكشافة وبعض الضباط يوزّعون أعداد « صوت الجندي » . ووقف عامل ذو شريط أحمر حول ذراعه مسدّس في يده ، يرتجف من الغضب والتوجّس وسط حشد معادٍ قرب قاعدة الدرج ، مطالباً تسليمه الصحف ... لم يحصل شيء من هذا مطلقاً في التاريخ على ما أظن . من جهة حفنة من العمال والجنود والمسلحين يمثلون ثورة مظفرة وهم تعساء رغم ذلك ، ومن جهة أخرى حشد غاضب مكون من نوع الناس الذي يملأ الشارع الخامس (في نيويورك) وقت الظهر ، ساخرين ، شاتمين ، زاعقين : « خونة ! مخربون ! همج » !

الأبواب يحرسها الطلاب والضباط بشرائط بيض حول أذرعهم مكتوب

عليها بالأحمر « ميليشيا لجنة السلامة العامة » ، ونصف دزينة من الكشافة تروح وتجيء. الحل فوق مليء بالحركة . النقيب غومبرغ ينزل الدرج ويقول : « يريدون حل الدوما . المفوّض البلشفي يقابل الرئيس الآن » . ولما وصلنا نهاية الدرج خرج ريازانوف مسرعاً . كان هناك يطالب أن تعترف الدوما بمجلس مفوضي الشعب وكان رفض الرئيس قاطعاً .

في المكاتب حشد لاغط ، مسرع ، متحرك ، صائح — موظفين حكوميين ، مثقفين ، صحفيين ، مراسلين أجانب ، ضباط انكليز وفرنسيين ... مهندس المدينة يشير إليهم بانتصار ، مفسراً : « السفارات تعترف بالدوما بوصفها السلطة الوحيدة الآن. المسألة مسألة ساعات بالنسبة للبلاشفة القتلة ، السراق ، كل روسيا تتجمع الى جانبنا » ...

لجنة الانقاذ تعقد اجتماعاً هائلاً في قاعة الكساندر . فيليبوفسكي يرأس الاجتماع وسكوبيليف على المنبر مرة أخرى ، يقدم تقريراً ، وسط التصفيق العاصف ، عن الانضمامات الجديدة الى اللجنة : اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين ، « التسايكا » القديمة ، اللجنة المركزية للجيش ، اللجنة المركزية للأسطول ، المندوبون المناشفة والاشتراكيون الثوريون ، « جماعة الجبهة » في مؤتمر السوفييت ، اللجان المركزية للأحزاب المنشفية والاشتراكية الثورية والاشتراكية الشعبية ، مجموعة « يدينستوفا »، اتحاد الفلاحين ، التعاونيات ، الزيمستوفا ، الحكومة المحلية ، نقابات البريد والبرق ، « الفيكجل » ، مجلس الجمهورية الروسية ، اتحاد الاتحادات ، اتحاد التجار والصناعيين ..

« ... سلطة السوفييت ليست سلطة ديمقراطية ، إنها دكتاتورية — وهي ليست دكتاتورية العمال بل دكتاتورية ضد العمال . على جميع الذين يشعرون بالحماس الثوري أو المؤهلين للشعور بمثل هذا الحماس أن يلتحموا للدفاع عن الثورة ...

المشكلة المطروحة الآن ليست مجرد نوع أذى جماعة من الغوغائيين اللامسؤولين ، وإنما أيضاً القتال ضد الثورة المضادة .. إذا كانت الشائعات صحيحة بأن جماعة من الجنرالات في المناطق تستغل الظروف للزحف على بتروغراد ، فإن ذلك برهان آخر على وجوب إنشاء قاعدة صلبة للحكم الديمقراطي . وإلا فإن المشاكل من اليمين سوف تتبع المشاكل من اليسار ...

لا يمكن لحامية بتروغراد أن تسكت عندما يتعرض المواطنون الذين يشترون « صوت الجندي » والصبيان الذين يبيعون « صوت العمال » للاعتقال في الشوارع . لقد فات وقت المقررات ... لينسحب الذين لم يعد عندهم إيمان بالثورة .. لكي ننشىء قوة موحدة علينا استعادة كرامة الثورة ...

لنقسم على أن ننقذ الثورة أو نموت » !..

ووقف المجتمعون هاتفين بأعين متأججة . ولم يكن هناك عامل واحد في المكان ...

ثم جاء دور واينشتاين :

« يجب أن نحافظ على هدوئنا ، وألا نعمل الى أن يتجمع الرأي العام بصلابة حول لجنة الإنقاذ — عند ذلك تستطيع أن تنتقل من الدفاع الى العمل » !

أعلن ممثل نقابة عمال سكك الحديد أن منظمته قد أخذت المبادرة في تشكيل الحكومة الجديدة ، وإن ممثليها الآن يتباحثون في القضية مع « سمولني » ... ويتبع ذلك نقاش حاد : هل يسمح بقبول البلاشفة في الحكومة الجديدة ؟ مارتوف ينادي بقبولهم ؛ ويقول : على أية حال فهم

ـرباً سياسياً مهماً . الآراء جد منقسمة حول هذا ، فالجناح اليميني من ـاشفة والاشتراكيين الثوريين ، والاشتراكيين الشعبيين ، والتعاونيات ، والعناصر البرجوازية كلها مضادة لذلك .

يقول أحــد المتكلمين : « لقد خــانوا الثورة . أشعلوا الحرب الأهلية وفتحوا الجبهة للألمان . يجب سحق البلاشفة دون رحمة » ...

وفضل سكوبيلين استبعاد البلاشفة والكاديت معاً .

تكلمنا مع اشتراكي ثوري شاب قــد انسحب من الندوة الديمقراطية مع البلاشفة ليــلة فرض تسيريتللي و « المساومون » التحــالف على الديمقراطية الروسية .

سألته : « أنت هنا » ؟

والتهبت عيناه وأجاب صارخــاً : « نعم ! تركت المؤتمر مع حزبي ليلة الأربعاء . لم أخاطر بحياتي طيلة عشرين عاماً وأكثر لأخضع الآن لطغيان « سواد النــاس » . إن طرقهم لا تحتمل . ولكنهم لم يحسبوا حساب الفلاحين ... عندما يتحرك الفلاحون سيتقرر مصيرهم في دقائق » ...

— « ولكن الفلاحين — هل سيتحركون ؟ ألا يرضيهم مرسوم الأرض ؟ ماذا يريد الفلاحون أكثر من ذلك ؟ »

— « آه ، مرسوم الأرض ! » قال بغضب « نعم ، هل تعلم مــا هذا المرسوم ؟ إنه مرسومنا نحن — إنــه برنامج الحزب الاشتراكي الثوري جملة وتفصيلاً ! لقد قرر حزبي هذه السياسة بعد أن بحث بعناية وتدقيق مطالب الفلاحين أنفسهم . إنها لفضيحة ... »

— « ولكن اذا كانت هذه سياستكم فلماذا تعترضون ؟ اذا كانت هــذه رغبة الفلاحين ، لماذا سيعارضونها ؟ »

– « أنت لا تفهم ! ألا ترى أن الفلاحين سيفهمون أنها خدعة – هؤلاء الغاصبون قد سرقوا البرنامج الاشتراكي الثوري ؟ »

سألته عن صحة خبر زحف خالدين شمالاً .

هزّ رأسه موافقاً ، وفرك يديه برضى مرير : « نعم . ألا ترى ما فعله هؤلاء البلاشفة – لقد أيقظوا الثورة المضادة ضدنا . ضاعت الثورة . ضاعت الثورة . »

– « ولكن ألن تدافعوا عن الثورة ؟ »

– « طبعاً سندافع عنها ، الى آخر نقطة من دمائنا . ولكننا لن نتعاون مع البلاشفة بأي شكل من الأشكال ... »

– « ولكن اذا جاء خالدين الى بتروغراد ودافع البلاشفة عن المدينة ، ألن تنضموا اليهم ؟ »

– « لا ، طبعاً . سندافع عن المدينة أيضاً ، ولكننا لن نؤيد البلاشفة . خالدين عدو للثورة ، ولكن البلاشفة أيضاً أعداء للثورة . »

– « أيهما تفضل خالدين أم البلاشفة ؟ »

– « ليس هذا بسؤال صالح للبحث ... أقول لك : الثورة ضاعت . والذنب ذنب البلاشفة – ولكن اسمع : لماذا نتكلم عن أشياء مثل هذه ؟ سيأتي كرنسكي وبعد غد سنتحول الى الهجوم ... لقد أرسلوا من سمولني يدعوننا الى تأليف حكومة جديدة – إنها بدون قوة تماماً ... إننا لن نتعاون ... »

سمعنا صوت طلقة من الخارج ، فركضنا الى النوافذ . لقد نفذ صبر الحرس الأحمر أخيراً من إهانات الجمع فأطلق النار ، جارحاً فتاة في الذراع . ورأيناها محمولة الى عربة يحيط بها جمع منفعل وصلت ضجته إلينا. وبينا كنا

ننظر ، ظهرت فجأة سيارة مصفحة من جهة شـــارع ميخايلوفسكي مصوّبة رشاشاتها هنـا وهناك . رأساً ، بدأ الجمع يركض ، كما تفعل جموع بتروغراد عادة ، ملقية بنفسها على الأرض في الشارع ، محتشدة في الحارات ، مكوّمة خلف أعمدة التلفون . تحركت السيارة الى سلّم الدوما، وأطل رجل برأسه من فتحتها طالبـاً تسليم جريدة « صوت الجندي » . صرخ الكشافة هازئين وركضوا الى داخل البناية . وبعد لحظة ، استدارت السيارة بتردد وذهبت باتجاه شارع « نيفسكي » بينما نهض مئـات النساء والرجال وبدأوا ينفضون ملابسهم من التراب .

في الداخل كانت هنالك ركضة عامة ، ناس يحملون أكداساً من « صوت الجندي » يبحثون عن مخبأ لها ...

جاء صحفي الى الغرفة ركضاً ملوّحاً بورقة ، صارخاً : « هـذا بيان من كراسنوف ! » فتجمع الكل حوله : « ليطبع ، ليطبع حـالاً ، ثم الى الثكنات ! »

« لقد عُينت ، بأمر من القـائد الأعلى ، قائداً للقطعات العسكرية المجتمعة في بتروغراد .

أيها المواطنون ! أيها الجنود ! أيها القوزاق الشجعان في الدون ، من كوبان ، من ترانسبيكال ، من الأمور ، من الينيسّاي أناديكم جميعـاً ، يا من بقيتم مخلصين لِقَسَمِكم ، إليكم ، يا من صممتم على الحفاظ على قسم القوزاق – أدعوكم لإنقاذ بتروغراد من الفوضى ، من المجـاعة ، من الطغيان ؛ ولإنقاذ روسيا من العار الذي لا يمحى ، الذي يحاول حفنة من الجهّال ، الذين اشتراهم ذهب ولهلم ، إلحاقه بها .

إن الحكومة المؤقتة ، التي أقسم على الإخلاص لها، لم تسقط، ولكنها أخرجت بالعنف من الأبنية التي تعقد اجتماعاتها بها . ولكن الحكومة ، بمعونة جيوش الجبهة المخلصة لواجباتها ، وبمعونة مؤتمر القوزاق الذي وحّد تحت قيادته كل القوزاق ، المؤتمر القوي بالروح المعنوية التي تعيش في صفوفه والعامل وفق رغبة الشعب الروسي ، قد أقسم على أن يخدم الوطن كما خدمه أجداده حينما خلّص قوزاق الدون موسكو التي يهددها السويديون والبولونيون والليتوانيون في زمن ترويلوس عام ١٦١٢ . حكومتكم لا تزال موجودة ...

إن الجيش العامل ينظر الى هؤلاء المجرمين باستبشاع واحتقار. إن أعمال التخريب والنهب التي يقومون بها، وجرائمهم والعقلية الألمانية التي ينظرون بها الى روسيا – المهزومة والتي لم تسلّم بعد – كل ذلك قد عزلهم عن الشعب بأسره .

أيها المواطنون، أيها الجنود، أيها القوزاق الشجعان في حامية بتروغراد : أرسلوا لي مندوبيكم حتى أعلم من هم الذين خانوا وطنهم ومن هم الذين بقوا على العهد ، لكي لا تراق دماء بريئة . »

في نفس اللحظة انتشر من جماعة لأخرى بأن الحرس الأحمر قد حاصر البناية . ودخل أحد الضباط ، بشريط أحمر حول ذراعه طالباً مقابلة رئيس الحكومة الذاتية . وخرج بعد بضعة دقائق ، وظهر شرايدر العجوز من مكتبه محمرّ الوجه ممتقعه في آن واحد . وصرخ : « اجتماع خاص للدوما ! الآن ! »

توقفت كل الأعمال في القاعة الكبيرة . « كل أعضاء الدوما ، الى الاجتماع الخاص ! »

– « ما الخبر ؟ »

– « لا أعلم – سوف يعتقلوننا ، سوف يحلّون الدوما ، إنهم يعتقلون الأعضاء على المدخل » – هكذا كانت التعليقات المضطربة .

لا يوجد موضع لقدم في « قاعة نيقولاي » . أعلن رئيس مجلس الدوما البلدي ان جنوداً قد وُضعوا عند كل مدخل ومخرج ، وان أحد المفوضين قد هدّد بتفريق مجلس الدوما واعتقال أعضائه . وانهال سيل من الخطب الحماسية من الأعضاء ، وحتى من شرفة المتفرجين . لا يمكن لأية قوة أن تحلّ حكومة المدينة التي جاء بها انتخاب حرّ . لا يمكن لأحد المساس بشخص رئيس الدوما البلدي ، أو بأي من الأعضاء . يجب عدم الاعتراف بهؤلاء الطغاة ، هؤلاء المشاغبين ، عملاء الألمان . أما عن التهديدات بحلّ مجلس الدوما ، فليحاولوا ؛ لن يحتلوا هذه القاعة إلا على جثثنا . سننتظرهم هنا بجلال كما انتظر أعضاء مجلس الشيوخ الروماني مقدم الغوط ...

قرار بإبلاغ مجالس الدوما والزيمستوفا في كل روسيا بطريق البرق . قرار : يستحيل على رئيس البلدية أو المحافظ إقامة أية علاقة مع ممثلي اللجنة العسكرية الثورية أو ما يسمّى مجلس مفوّضي الشعب . قرار : توجيه نداء ثانٍ الى سكان بتروغراد للدفاع عن حكومة مدينتهم المنتخبة . قرار : البقاء في حالة اجتماع دائم ...

في هذه الأثناء دخل أحد الأعضاء يحمل أخباراً جديدة . لقد خابر « سمولني » ، وقالت اللجنة العسكرية الثورية انها لم تصدر أي قرار بحلّ الدوما ، وأنها سوف تسحب الجنود ...

عندما نزلنا ، كان ريازانوف يدخل مسرعاً ، بالغ الانفعال .

سألناه : « هل ستحلّون الدوما ؟ »

— « يا إلهي — لا ! هذه كلها غلطة . أخبرت الحافظ هـذا الصباح أننا لن نتعرّض للدوما ... »

صفّـان طويلان من راكبي الدراجـات يخرجان في شارع نيفسكي متنكّبي السلاح والليل يتقـدم . ولمـا توقفوا تجمهر الجمع حولهم يمطرهم بالأسئلة

سأل رجل عجوز بدين يدخن سيجاراً : « من أنتم ؟ من أين جئتم ؟ »

— « من الجيش الثـاني عشر من الجبهة . جئنا لنساعد السوفييت ضـد البرجوازية اللعينة ! »

صرخ بحنق : « آه .. جندرمة البلاشفة . قوزاق البلاشفة ! »

ضابط صغير يرتدي سترة جلدية ينزل السلّم مسرعاً . وهمس في أذني : « الحامية تنقلب ! إنهـا بداية النهاية بالنسبة للبلاشفة . هل تريد أن تشاهد انحسار المدّ ؟ تعال ! »

وصعد شارع ميخايلوفسكي مهرولاً ، فتبعناه .

« أي فرقة هذه ؟ »

« **البرونوفيكي ...** » الورطة عويصـة إذن ، فالبرونوفيكي هم جنـود المدرّعات ، مفتاح الوضع ، والذي يسيطر عليهم يسيطر على المدينة . « كان مفوّضو لجنة الإنقاذ والدوما يكلمونهم. هناك اجتماع ليقرروا ... »

« ليقرروا ماذا ؟ الى أي جانب يقفون ؟ »

— « أوه . لا . ليست هذه طريقتنا . إنهم لن يحاربوا ضـد البلاشفة سيصوتون على التزام الحياد . ثم يأتي دور « النيكرز » والقوزاق » ...

باب مدرسة ميخايلوفسكي العظيمة لركب الخيل يتثاءب أسود . حاول

حارسان منعنا من الدخول ، ولكننا دلفنـا بسرعة غير مبالين لاحتجاجهم واستيائهم .

في الداخل يوجد ضوء واحد شحيح ، عالياً قرب سقف القاعة الضخمـة التي غرقت نوافذها وزخارفها المرتفعة بالظلام . أشكال داكنـــة لسيارات مصفحة تجثم حولنا في الظلمة. تقف واحدة منها في وسط المكان تحت الضوء، وقد تجمع حولها مـا يقارب ألفا جندي قاتم اللون ، يكادون يضيعون في ضخامة البناية الامبراطورية . دزينة من الرجال يجلسون على سطح السيارة — ضباط ، رؤساء لجان الجنود ، وخطباء . أحـد الجنود يتكلم من فوق برج السيارة الرئيسي . إنه خانجونوف ، الرئيس السابق لمؤتمر البرنوفيكي لعموم روسيا خلال الصيف المـاضي . شاب وسيم ، ضعيف الحركة ، يرتدي سترة جلدية عليها شارات ملازم وكان يدعو الى التزام الحيـاد في خطاب بليغ ، قال :

« إنـه لشيء مخيف أن يقتل الروس إخوانهم الروس . يجب أن لا تقع حرب أهلية بين جنود وقفوا جنبـاً الى جنب ضد القيصر ، وانتصروا على العدو الأجنبي في معارك سيسجلها التاريخ ! مـا شأننـا ، نحن الجنود ، في خلافات الأحزاب السياسية ؟ لن أقول إن الحكومة المؤقتة كانت حكومة ديمقراطيـة ، كلا . لكن يجب أن تكون لنـا حكومة تمثل اتحـاد القوى الديمقراطية وإلا تضيع روسيا. مع مجيء مثل هذه الحكومة ، تنتفي الحاجة الى حرب أهلية ، ولن يقتتل الإخوان ! ... »

كلام معقول ، فدوت القاعة العظيمة بالتصفيق والأصوات .

تسلق جندي ذو وجه شاحب متعب ، وصرخ : « يا رفاق ! جئت من الجبهة الرومانية لأقول لكم : يجب أن يحلّ السلم . السلم حالاً . سنتبع الذين يعطونا السلم سواء أكانوا البلاشفة أو الحكومة الجديدة . السلم ! نحن في الجبهة

لا نستطيع الاستمرار في القتال . لا نستطيع أن نقاتل الألمان ولا الروس».
ثم قفز الى الأرض ، بينما تصاعد من الجمع المتدافع نوع من التساؤل المضطرب المعذّب انفجر بما يشبه الغضب عندما حاول الخطيب التالي — أحد« المدافعين » المناشفة — أن يقول بأن الحرب يجب أن تستمر الى أن ينتصر الحلفاء .

صرخ صوت خشن : « أنت تتكلم مثل كرنسكي ! »

أحد مندوبي الدوما يطالب بالحياد . فاستمعوا إليه ، مغمغمين فيما بينهم بعد ارتياح ، شاعرين أنه ليس واحداً منهم. لم أرَ في حياتي رجالاً يحاولون أن يفهموا ، أن يقرروا بجدية وجهد مثل هؤلاء . لم يتحركوا مطلقاً . بل وقفوا يحدقون بشخوص مخيف في الخطيب . جباههم مقطبة من جهد التفكير والعرق يلمع عليها — رجال جبابرة ، عيونهم كعيون الأطفال براءة وصفاءً ، وجوههم كوجوه أبطال الأساطير ...

الآن وقف أحد البلاشفة خطيباً ، واحد منهم ، عنيفاً ، مليئاً بالحقد . لم يفضلوه على الخطيب السابق . فهذا لم يكن شعورهم . في تلك اللحظة كانوا قد ارتفعوا فوق تيار التفكير الاعتيادي ، كانوا يفكرون بروسيا ، بالاشتراكية ، بالعالم ، كأنما تعتمد حياة الثورة أو موتها عليهم ...

تتابع الخطباء ، يتحاورون في السكون المتوتر . ضجة تأييد أو غضب : هل ننحاز أو نبقى على الحياد ؟ رجع خانجونوف معقولاً لطيفاً . لكنه يبقى من الضباط ، من « المدافعين » مهما تحدث عن السلم . ثم جاء دور عامل من « فاسيلي اوستروف — فواجهه بالسؤال : « وهل ستعطينا السلم أيها العامل ؟ » قربنا يقف بعض الرجال ، بعضهم الكثير من الضباط ، وقد شكلوا نوعاً من مجموعة تهتف لأنصار الحياد . واستمروا يصرخون : « خانجونوف ! خانجونوف ! » ويهينون المتكلمين البلاشفة بالصفير .

فجأة بدأ أعضاء اللجان والضباط ، على سطح السيارة المصفحة ، يبحثون شيئاً ما فيما بينهم بطريقة عنيفة ملوحين بأذرعهم ، فصرخ الجمع مطالباً بمعرفة المشكلة . واضطرب الجمع وماج . وتخلص أحد الجنود من ضابط يحاول إمساكه ، فرفع يده وصرخ :

« أيها الرفاق ! الرفيق كريلنكو هنا ، وهو يريد التحدث الينا » . انفجار من هتاف التأييد والصفير وصرخات : « ليتقدم ! ليتقدم ! » أو « ليسقط ! » ويتقدم مفوض الشعب للشؤون العسكرية ويتسلق جانب السيارة مرفوعاً بأذرع كثيرة من الوراء ، ومجذوباً بأخرى من أعلى السيارة. يقف على السيارة للحظة ، ثم يسير نحو مقدمتها . يضع يديه على خاصرته ، وينظر حوله مبتسماً ، قصير القامة مليئها ، بأرجل قصيرة ، حاسر الرأس وبدون شارات على زيه العسكري .

« المجموعة » الى جانبي تصرخ بعنف : « خانجونوف ! نريد خانجونوف ! يسقط ! إخرس ! يسقط الخائن ! » المكان يغلي بالزئير والهتاف . ثم بدأت حركة كأنها تيار يتدفق نحونا – رجال عمالقة يشقون طريقهم ، صرخوا : « من يخرب اجتماعنا ؟ من يصفر هنا ؟ » تفرقت « المجموعة » وهرب أعضاؤها في كل اتجاه ، ولم تتكون مرة اخرى ...

بدأ كريلنكو قائلاً بصوت خشنه التعب : « أيها الرفاق الجنود ! لا أستطيع أن أتكلم جيداً اليكم ، أنا آسف ، ولكني لم أنم منذ أربع ليالٍ ..

« لا حاجة لأن أقول لكم أني جندي . لا حاجة لأن أقول لكم أني أريد السلم . ما يجب أن أقوله هو أن الحزب البلشفي الذي نجح في القيام بثورة العمال والجنود بمساعدتكم وبمساعدة جميع الرفاق الشجعان الذين أسقطوا الى غير رجعة سلطة البرجوازيين ، مصاصي الدماء ، هذا الحزب قد وعد بتقديم السلم الى جميع الشعوب ، وإن هذا قد حصل – اليوم ! (تصفيق حاد) .

« يطلبون منكم أن تبقوا على الحياد – أن تبقوا على الحياد في حين يقوم « النيكرز » و « فيالق الموت » ، الذين هم ليسوا على الحياد مطلقاً ، بقتلنا في الشوارع ليعيدوا كرنسكي الى بتروغراد ، أو ربما ليعيدوا آخرين من زمرته . خالدين يزحف من الدون . كرنسكي يتقدم من الجبهة . كورنيلوف يجمع « الفرق المتوحشة » ليعيد ما حاوله في شهر آب . كل هؤلاء المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين يدعونكم الآن لمنع الحرب الأهلية المستمرة منذ تموز الماضي ، والتي وقفوا فيها الى جانب البرجوازية دائماً كما يفعلون الآن ، ألم يبقوا في الحكم بواسطة الحرب الأهلية .

« كيف لي أن أقنعكم إذا كنتم قد قررتم ؟ المشكلة واضحة : في جانب يوجد كرنسكي وخالدين وكورنيلوف والمناشفة والاشتراكيون الثوريون والكاديت والدوما والضباط ... وهم يقولون لنا أن أهدافهم صالحة . وفي الجانب الآخر يوجد العمال والجنود والبحارة وأفقر الفلاحين . الحكومة في أيديكم . أنتم السادة . روسيا العظيمة لكم – هل ستسلّمونها » ؟

أبقى نفسه واقفاً ، وهو يتكلم ، بفعل إرادي ظاهر ، وعندما واصل الكلام برز شعوره العميق الصادق من خلال صوته المتعب . وعندما انتهى تعثر وكاد أن يسقط ، فامتدت مئة يد من الأسفل نحوه تساعده على النزول ، بينما أرجعت الجدران الشامخة صدى الأصوات التي قصدته .

حاول فانجونوف الكلام مرّة أخرى ، ولكنهم هتفوا « تصويت ! تصويت ! » ، فاضطر أخيراً الى التسليم ، وقرأ مشروع القرار : أن تسحب فرق المدرعات ممثليها من اللجنة العسكرية الثورية ، وأن تعلن حيادها في الحرب الأهلية . وطلب من المؤيدين أن يتجمعوا الى اليمين ، ومن المعارضين أن يتجمعوا الى اليسار . ومرت لحظة تردد ، لحظة توقع ساكنة ، ثم بدأ الجمع يتدفق أسرع فأسرع متعثراً بعضه ببعض ، الى اليسار ، مئات من

الجنود في كتلة ضخمة تسرع عبر الارضية الترابية في الضوء الخافت ... وبقي قربنا حوالي خمسين شخصاً معزولين ، يصرون على تأييد القرار . وعندما اهتز سقف القاعة العالي بالهتاف المنتصر ، استدار هؤلاء وخرجوا من البناية مسرعين ، وكان هذا للبعض منهم بمثابة الخروج من الثورة .

تخيلْ هذا الصراع وقد تكرر في كل ثكنات المدينة ، في الأحياء ، في الجبهة كلها ، في روسيا كلها . تخيل أقران كريلنكو المحرومين من النوم ، يراقبون الفرق ، يسرعون من مكان لآخر ، يناقشون ، يهددون ، يلحون . ثم تخيل الشيء ذاته في مقر كل نقابة عمالية ، في المصانع ، في القرى ، على بوارج الأسطول الروسي البعيدة ، فكّر في مئات الالوف من الروس ، يحدقون الى أعلى – الى الخطباء في البلد الواسع بأسره : عمالاً وفلاحين وجنوداً وبحارة يحاولون بجهد ، أن يفهموا وأن يختاروا ؛ يفكرون بتركيز شديد ، ثم يقررون في النهاية بإجماع كهذا – هكذا كانت الثورة الروسية .

لم يكن مجلس مفوضي الشعب يتكامل في « سمولني » . فالبيان الأول كان على المطابع ليوزع فيما بعد بالآلاف على شوارع المدينة تلك الليلة ، ويشحن بالأكداس على كل قطار متوجه نحو الجنوب أو الشرق .

« باسم حكومة الجمهورية الروسية التي اختارها المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والجنود بمشاركة مندوبين عن الفلاحين ، يقرّر مجلس مفوّضي الشعب ما يلي :

١ – تجري انتخابات الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر ، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني .

٢ – على جميع اللجان الانتخابية ، وأجهزة الحكم المحلي ، وسوفييت العمال والجنود والفلاحين ، وتنظيمات الجنود في الجبهة ،

على كل هؤلاء أن يبذلوا جهدهم لضمان انتخابات حرّة ونظامية في اليوم المقرّر .

باسم حكومة الجمهورية الروسية
رئيس مجلس مفوضي الشعب
فلاديمير اوليانوف – لينين

في بناية البلدية تقوم الدوما بعمل دائب. كان أحد أعضاء مجلس الجمهورية يتكلم لما دخلنا . قال إن المجلس لا يعتبر نفسه منحلاً أبداً ، وإن استمراره بعمله مرهون بإيجاد مكان اجتماع جديد له وحسب . في هذه الأثناء ، قررت لجنة الأعيان الانضمام جماعياً الى لجنة الانقاذ.. ولا بـدّ من أن نلاحظ ، بشكل عابر ، أن هذه كانت آخر مرة يذكر فيها التاريخ اسم « مجلس الجمهورية الروسية » .

وتبع ذلك السلسلة المعهودة من المندوبين ، من الوزارات ، من نقابات السكك الحديدية ، من نقابة البريد والبرق مكررين ، للمرة المائة ، عزمهم على عدم خدمة البلاشفة الغاصبين .

أحد « النيكرز » ، من الذين كانوا في قصر الشتاء ، يروي قصة مضخمة عن بطولته وبطولة رفاقه ، وعن تصرفات الحرس الأحمر المشينة ، وكل ذلك يصدّق بحرارة . وقرأ أحدهم في جريدة الاشتراكيين الثوريين « الشعب » خبراً يقول ان قيمة الخسائر المتأتية من تخريب قصر الشتاء بلغت ٥٠٠ مليون روبل ، وتصف بكثير من التفصيل الخراب والنهب اللذين حدثا فيه .

السعاة يجيئون بالأخبار الهاتفية من وقت لآخر . أطلق سراح الوزراء الاشتراكيين الأربعة . ذهب كريلنكو الى حصن بطرس -- بولس ليخبر الاميرال فيرديرفسكي بأن وزارة البحرية مهجورة ، وليترجاه ، باسم مصلحة

روسيا كلها ، أن يستلم الوضع هنـاك تحت إشراف مجلس مفوضي الشعب ؛ فوافق البحار العجوز ... كرنسكي يتقـــدم شمالاً من « غاتشينا » . بينما تتراجع الحاميات البلشفية أمامه . أصدرت « سمولني » بلاغـــاً آخر يوسع صلاحيات مجلس دوما المدينة ليشمل قضية تموين المدن بالغذاء .

أثار هذا العمل الوقح الأخير عاصفة من الغضب . لينين هذا ، المغتصب ، الطاغية الذي استولى مفوضوه على مرآب البـلدية ودخلوا مستودعاتهـــا ، وتدخلوا في أعمال لجان التموين وفي توزيع الغذاء – لينين هذا نفسه يتجاسر بأن يفرض الحدود على سلطة الحكومة البلدية – تلك الحكومة الحرة المستقلة الحاكمة نفسها بنفسها ! اقترح أحد الأعضاء ، وهو يلوّح بقبضته ، أن يقطع الغذاء عن المدينة إذا تجاسر البلاشفة على التدخل في أعمال لجان التموين ... وأفاد آخر ، وهو مندوب عن « لجنة التموين الخاصة » ، بأن قضية الغذاء أضحت خطرة ، وطالب بأن ترسل السلطة المحلية رسلها لتعجيل قطارات المواد الغذائية .

أعلن دييدونينكو أن الحامية مترددة ، وأن فرقـة « سيميوفونسكي » قررت الخضوع لأوامر الحزب الاشتراكي الثـوري ، وأن بحـــارة زوارق الطوربيد على النييفا لم يقرروا ولاءهم بعد فعين للحال سبعة أعضاء لمواصلة الدعاية ...

ثم خطا الى المنصة المحافظ العجوز : « أيهـا الرفاق والمواطنون ! لقـد سمعت الآن أن سجناء حصن بطرس – بولس في خطر . أربعة وعشرون من « نيكرز » مدرسة « بافلوفسك » قد عروا وعذبوا من قبل الحرس البلشفي. وقد أصيب أحـدهم بالجنون . إنهم يهددون بقتـــل الوزراء ! إعصـار من الاستنكار والاستبشاع تزايد عندما طلبت حق الكلام امرأة قصيرة ممتلئة ترتدي ثوبـاً رمادياً ، ورفعت صوتهـا المعدني القاسي . كانت هـــذه فيرا سلوتسكايا ، الثورية القديمة والعضوة البلشفية في الدوما :

« إن هذا كذب واستفزاز»، قالت غير آبهة بوابل الشتائم المنهال عليها، « إن حكومة العمال والفلاحين التي ألغت عقوبة الإعدام لا تسمح بأعمال كهذه . نطالب التحقيق في القضية ، وإذا ثبتت صحة الرواية ستتخذ الحكومة إجراءات حازمة ! » .

عينت في الحال لجنة من ممثلي جميع الأحزاب وذهبت مع المحافظ الى حصن بطرس – بولس للتحقيق في الأمر . وعندما خرجنا وتبعناهم ، كان مجلس الدوما يعين لجنة أخرى لمقابلة كرنسكي لتجنب سفك الدماء عندما يدخل العاصمة ...

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما تجاوزنا الحراس على بوابة الحصن ، وتقدمنا تحت الأضواء القليلة بمحاذاة الكنيسة حيث قبور القياصرة تحت القبة الذهبية الرشيقة والأجراس التي بقيت تدق « ليحفظ الله القيصر » كل يوم ظهراً طيلة أشهر ... المكان مهجور ، ومعظم النوافذ معتمة . أحياناً كنا نصطدم بشخص في الظلام ، وكان الجميع يجيب على سؤالنا بالعبارة المعهودة : « لا أعرف » .

الى اليسار تشمخ قلعة تروتبسكوي المظلمة ، تلك المقبرة الحية حيث فقد الكثير من شهداء الحرية حياتهم أو عقلهم في أيام القيصر ، وحيث سجنت الحكومة المؤقتة بدورها وزراء القيصر ، وحيث يسجن البلاشفة الآن وزراء الحكومة المؤقتة .

قادنا بحار ودود الى مكتب القائد ، في بيت صغير قرب مركز صك النقد . نصف دزينة من الحرس الأحمر والبحارة والجنود يجلسون في غرفة دافئة يغلي فيها « السماور» بمرح . فرحبوا بنا بود كثير وعرضوا علينا الشاي. لم يكن القائد هناك . ذهب ليرافق لجنة من « المخربين » من دوما المدينة يصرون بأن « اليونكرز » يُقتلون في السجن. ويبدو أن ذلك كان يضحكهم.

في جانب من الغرفة يجلس رجل أصلع مرهق ، صغير الحجم ، يرتدي سترة صباحية ومعطفاً من الفرو الثمين ، يعض على شاربه ويحملق بالذين حـــوله كفأر محاصر . لقد اعتقل لتوه . وقال أحدهم ، ناظراً اليه بلامبالاة ، إنه كان وزيراً أو شيئاً من هذا القبيل ... والظاهر ان الرجل الصغير لم يسمعه فقد كان رعبه واضحاً مع ان الموجودين لم يظهروا نحوه أي عداء ...

عبرت الغرفـة وتحدثت اليــه بالفرنسية : « أنا الكونت تولستوي » ، أجابني باغفاءة ، « لا أعرف لماذا اعتقلت . كنت أعـبر جسر تروبتسكي في طريقي الى البيت عندما أوقفني اثنــان من هؤلاء الأشخاص . كنت مفوضاً في الحكومة المؤقتـة ملحقاً بالأركان العامــة ، ولكني لم أكــن وزيراً في الحكومة ... » .

قال أحد البحارة « ليذهب . إنه بدون خطر » .

أجاب الجندي الذي اعتقله : « لا .. يجب أن نسأل القائد » .

وعلق البحار بسخرية : « أوه ، القائد ! لماذا عملت ثورة ؟ لكي تستمر في إطاعة الضباط ؟ » .

أخبرنا أحد الملازمين من فرقـة بافلوفسكي كيف ابتدأت الانتفـاضة : « كانت نوبة الفرقة في الأركان العامة ليلة السادس من الشهر . وكنت أتولى الحراسة مع بعض الرفاق . واختفى ايفـان بافلوفيتش مع شخص لا أذكر اسمه خلف ستائر النافذة في الغرفة الذي كان ينعقد فيهـا اجتماع الأركان ، وسمعا أشياء كثيرة . مثلاً ، سمعا أوامر بجلب « النيكرز » من غاتشينا الى بتروغراد ليلاً ، وأمراً بإعداد القوزاق للتحرك عند الصباح .. كانوا يريدون احتلال النقاط الرئيسية فيالمدينة قبلالفجر.ثم كانت قضية فتحالجسور.ولكن عندما بدأوا بالكلام عن محاصرة سمولني ، لم يستطع إيفان بافلوفيتش أن يتحمّل أكثر . في تلك اللحظة كان ثمة ازدحـام في الغرفـة ، واستطاع أن

يتسلل من مخبئه وأن يأتي الى غرفـة الحرس تاركاً للرفيق الآخر أمل التقاط ما يستطيع من الكلام .

« كنت أشك قبل ذلك بأن شيئاً يحضّر ، فقد استمرت سيارات محملة بالضباط بالقدوم ، كما كان جميع الوزراء هناك . أخبرني إيفان بافلوفيتش بما سمعه . كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً . كان أمين سر لجنة الفرقة هناك ، فأخبرناه وسألناه ماذا يقترح أن نفعل ؟

« أجاب : اعتقلوا كل واحد يجيء أو يذهب . وهكذا بدأنا . وبعد ساعة كان عندنا بعض الضباط ووزيران ، أرسلناهم رأساً الى سمولني . ولكن اللجنة العسكرية الثورية لم تكن مستعدة . لم يعرفوا ما عليهم أن يعملوا ، وبعد قليل رجع الأمر إلينا بأن نطلق سراح الموقوفين وأن لا نعتقل أحداً بعد الآن . حسناً، ركضنا الى سمولني وتكلمنا لمدة ساعة عرفوا بعدها أن القضية قضية حرب . وكانت الساعة الخامسة عندما رجعنا الى الأركان ، وقد ذهب أكثرهم ، ولكننا قبضنا على البعض وكانت الحامية كلها تتحرك » ...

ووصف حارس أحمر من « فاسيللي أوستروف » بكثير من التفصيل ، ما حدث يوم الثورة العظيم في منطقته . قال ضاحكاً : « لم يكن عندنا مدافع رشاشة وقتها . ولم نستطع الحصول على شيء من « سمولني » . ولكن الرفيق زالكند ، عضو اللجنة المركزية لمجلس دوما المنطقة ، تذكر فجأة أن ثمة مدفعاً رشاشاً أخذ من الألمان ، وهو موجود في مقر اللجنة . فذهبنا أنا وهو ورفيق ثالث الى هناك. كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يعقدون اجتماعاً. فتحنا الباب ودخلنا رأساً عليهم ، جالسين حول الطاولة ، إثنا عشر أو خمسة عشر شخصاً ، وكنا ثلاثة. توقفوا عن الكلام لما رأونا وأخذوا يحدقون فقط . عبرنا القاعة ، ففككنا المدفع الرشاش ، فحمل الرفيق زالكند جزءاً منه ، وحملت أنا الجزء الآخر ، ووضعنا الجزئين على أكتافنا ومشينا

خارجين – ولم ينبس أحدهم بكلمة » !

وسأل رجل ثالث ، وهو بحار : « هل تعرفون كيف أخـــذنا قصر الشتاء»؟حوالي الساعة الحادية عشرة علمنا أنه لا يوجد أحد من « النيكرز » على ضفة النيفا حيث القصر . خلعنـــا الأبواب وتسللنـــا صعودا على السلالم المختلفـة ، أفراداً أو زمراً صغيرة . وعندمـــا وصلنا الى الأعلى ، أوقفنـــا « النيكرز » وجرّدونا من أسلحتنا . ولكن جماعتنا ظلوا يصعدون ، قليلاً قليلاً،حتى أصبحنا الأكثرية.ثم استدرنا وجرّدنا« النيكرز »من أسلحتهم »..

في تلك اللحظة دخل القـائد . ضابط صف شاب ، مرح المظهر ، حول عينيه حلقات التعب العميقة ، وذراعه مربوطة بعلاقة الى عنقـــه ، فوقعت عيناه أولاً على السجين الذي بدأ في الحال يشرح وضعه .

قاطعه ضـابط الصف « آه . نعم ! أنت من اللجنـة التي رفضت تسليم الأركان ظهر يوم الأربعاء . على أي حال ، نحن لا نريدك ، أيهـا المواطن ، أقبل اعتذارنا – وفتح الباب مشيراً الى الكونت تولستوي بأن يغادر . غمغم البعض ، وبالأخص الحرس الأحمر متمتمين ولكن البحـــار قال بانتصـار : « هه ! ألم أقل لكم ؟! » .

ثم جذب جنديان انتباه القائد . كانا قد انتخبا كلجنة للاحتجاج من قبل حامية الحصن . قالا إن المساجين يستلمون نفس الطعام الذي يستلمه الحرس ، في حين أن الكمية لا تكفي لسد الجوع:« لماذا كل هذه المعاملة الحسنة لأعداء الثورة » ؟

أجاب القائد : « نحن ثوريون أيهـا الرفاق . ولسنا قطاع طرق » . ثم استدار نحونا ، فقلنا له بأن هنالك شائعـات تقول أن « النيكرز » يعذبون وأن حياة الوزراء في خطر : « هل بإمكاننا أن نرى المساجين لنستطيع أن نبرهن للعالم ... ؟ »

أجابنا الجندي الشاب بانزعاج « لا، لن أقلق راحة المساجين مرة أخرى. لقد اضطررت الآن لإيقاظهم ... كانوا متأكدين بأننا سوف نفتك بهم ... أطلق سراح أكثر « النيكرز » ، وسوف يخرج الباقون غداً » . قال ذلك واستدار بسرعة .

« هل نستطيع أن نتحدث الى لجنة الدوما إذاً » ؟

أشار القائد برأسه موافقاً وهو يصب لنفسه كوباً من الشاي ، وقال بلامبالاة : « إنهم لا يزالون في القاعة » .

كانوا فعلاً هناك ، خارج الغرفة في ضوء مصباح زيتي ضئيل ، متحلقين حول المحافظ .

قلت : « سيدي المحافظ ، نحن مراسلون أميركان . هل لك أن تخبرنا رسمياً بنتيجة تحقيقاتكم » .

استدار نحونا بوجهه المسنّ الوقور ، وقال ببطء : « ليس للتقارير أي نصيب من الصحة . عدا بعض الحوادث التي حصلت عندما كان الوزراء يساقون الى هنا ، فإنهم يعاملون بكل دراية. أما عن « النيكرز » فلم يصب واحد منهم بأذى » ...

الى أعلى شارع نييفسكي في الظلام الفارغ بعد منتصف الليل ، كان خط لا ينتهي من الجنود يخطو في الظلام لمقاتلة كرنسكي . السيارات تروح وتجيء في الشوارع الخلفية المظلمة ، بدون أضواء ، وكان هناك الكثير من الحركة في رقم ٦ من شارع فونتانكا ، مقر سوفييت الفلاحين ، وفي شقة معينة في بناية على النييفسكي ، وفي كلية المهندسين ؛ وكان مقر الدوما مضيئاً .

وفي « سمولني » كانت اللجنة العسكرية الثورية تبصق لهيباً خفيفاً ، وتنبض مثل بطارية مشحونة فوق طاقتها ...

هوامش

(الفصل السادس)

١ – نداءات وهجمات

نـــداء الى جميع المواطنين والى المنظمات العسكرية التابعة للحزب الاشتراكي الثوري .

« إن محاولة البلاشفة الخرقاء سوف تبوء بالفشل . الحامية لا تستجيب . الوزارات تعمل ببطء والخبز مفقود . إن جميع الأجنحة قد غادرت مؤتمر السوفييت فيما عدا حفنة من البلاشفة . البلاشفة معزولون ! الاهانات على أنواعها ، وأعمـــال النهب والسرقـة ، وقصف قصر الشتاء ، والاعتقالات الكيفية – كل هذه الجرائم التي ارتكبها البلاشفة قـــد أثارت استنكار غالبية الجنـود والبحارة . « التسنتروفلوت » ترفض الانصياع لأوامر البلاشفة ...

إننا نناشد جميع العناصر العاقـلة أن تلتف حول لجنة إنقاذ الوطن والثورة ؛ وأن تقوم بالاستعدادات اللازمة لكي تناضل ،

عند أول نـداء توجهه لجنة الحزب المركزية ، ضد أعداء الثورة الذين لا بدّ سيحاولون الاستفادة من هــذه الاضطرابات التي أحدثتها المغامرة البلشفية ، وأن تراقب بحذر العدو الخارجي ، الذي سيحاول ، هو ايضاً ، استغلال الفرصة الملائمــة عندما تضعف الجبهة » ...

القطاع العسكري للجنة المركزية
للحزب الاشتراكي الثوري

كتبت صحيفة « برافدا » :

« من هو كرنسكي ؟

غاصب يجب أن يوضع في سجن بطرس – بولس الى جانب كورنيلوف وكيشكين ،

مجرم قد خان العمال والجنود والفلاحين الذين محضوه ثقتهم .

كرنسكي ؟ الرجل الذي ذبح الجنود !

كرنسكي ؟ السفّاح الذي قتل الفلاحين !

كرنسكي ؟ الرجل الذي خنق العمّال !

هذه هي صفات كورنيلوف الجديد الذي يريد الآن أن يغتال الحرية » !

٧

الجبهة الثوريّة

السبت في العاشر من تشرين الثاني ..

« أيها المواطنون !

تعلن اللجنة العسكرية الثورية أنها لن تتسامح مع أي خرق للانضباط الثوري ...

سوف تعاقب بقسوة أعمال السرقة والنهب والاعتداء ومحاولات اقامة المذابح ...

اقتداء « بعامية باريس » ، سوف تسحق اللجنة ، بلا رحمة ، أي ناهب أو داع للفوضى » ...

المدينة تستلقي هادئة . لم تحصل حادثة سلب أو سرقة واحدة ، لم يحصل شجار حتى بين السكارى . تجولت الدوريات المسلحة في الشوارع ليلاً ؛ وعلى الزوايا تجمع الجنود والحرس الأحمر حول نيران صغيرة ، ضاحكين مغنين . أثناء النهار ، تتجمع جموع ضخمة في الطرقات الفرعية تستمع للنقاش الحاد بين الجنود والطلاب ، بين أرباب العمل والعمال .

« هل سيأتي القوزاق » ؟

« لا ... »

« ما هي آخر الأخبار » ؟

« لا أدري . أين كرنسكي » ؟

« يقال أنه على بعد ثمانية فراسخ من بتروغراد ... صحيح أن البلاشفة ، هربوا الى البارجة « أفرورا » ؟

« هكذا يقولون » ...

كانت الجدران وحدها تصيح ومعها بعض الجرائد : تجريم ، استصراخ ، مرسوم ... حمل اعلان ضخم البيان الهستيري للجنـة التنفيـذية لسوفييت الفلاحين :

« إنهم (البلاشفة) قـد تجرأوا على القول بأن سوفييت مندوبي الفلاحين يؤيدهم، وأنهم يتكلمون باسم مندوبي الفلاحين..

لتعلم كل الطبقة العاملة الروسية بأن هـذا كذب وبأن كل الفلاحين الكادحين ، الذين تمثلهم اللجنـة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا ، يرفضون باستنكار اشتراك الفلاحين المنظمين في هذا التجاوز الاجرامي على إرادة الطبقات الكادحة » ...

من قطاع الجنود التابع للحزب الاشتراكي الثوري :

« المحـاولة البلشفية المجنونة في عشية انهيارها . الحامية منقسمة ... الوزارات مضربة ، والخبز يندر شيئاً فشيأ ... كل الجماعات ، فيما عدا بعض البلاشفة القليلين ، قـد انسحبت من المؤتمر . البلاشفة وحدهم ...

ندعو جميع العناصر العاقلة الى الالتفاف حول لجنة انقاذ الوطن والثورة، والى الاستعداد لأول دعوة من اللجنة التنفيذية » .

وأعاد مجلس الجمهورية ، في منشور وزّع باليد ، تعداد المظالم التي ألحقت به :

« لقد اضطر مجلس الجمهورية لأن يتفرّق ، وأن يوقف أعماله مؤقتاً خضوعاً لقوّة الحراب .

المغتصبون الذين يتغنّون بكلمتي « الحرية والاشتراكية » أقاموا حكماً من الإرهاب الكيفي . لقد اعتقلوا أعضاء الحكومة المؤقتة ، وأغلقوا الصحف ، واستولوا على المطابع .. هذه السلطة يجب اعتبارها عدوة للشعب وللثورة ؛ ويجب أن تخاض المعركة ضدها وأن تُسقط ...

الى أن يعود مجلس الجمهورية الى ممارسة صلاحياته ، فإنه يدعو جميع مواطني الجمهورية الروسية الى الالتفاف حول اللجان المحلية لانقاذ الثورة والوطن ، التي تنظم عملية اسقاط البلاشفة وقيادة البلد نحو جمعية تأسيسية » .

قالت صحيفة « قضية الشعب » :

« إن الثورة هي انتفاضة الشعب كلّه ... ولكن ماذا عندنا هنا ؟ لا شيء سوى حفنة من الحمقى المساكين يضللهم لينين وتروتسكي ... ان قراراتهم ونداءاتهم سوف تضاف الى متحف الطرائف التاريخية » ...

وقالت صحيفة « كلمة الشعب » (لسان حال الاشتراكيين الشعبيين) :

« حكومة عمال وفلاحين ؟ هذا مجرد حلم ، فلن يعترف أحد في روسيا أو في بلدان حلفائنا أو حتى بلدان أعدائنا بهذه الحكومة » ...

كانت الصحف البرجوازية قد احتجبت مؤقتاً ...

احتوت « البرافدا » على وصف لأول اجتماع « للتسايكا » الجديدة ، برلمان الجمهورية الروسية السوفييتية . لاحظ مليوتين ، مفوّض الزراعة ، ان اللجنة التنفيذية للفلاحين دعت الى اجتماع المؤتمر العام للفلاحين في الثالث عشر من كانون الأول .

قال : « ولكننا لا نستطيع الانتظار . يجب أن نحصل على مساندة الفلاحين . اقترح أن ندعو الى مؤتمر للفلاحين ، وأن نفعل ذلك في الحال » . وقد وافق الاشتراكيون الثوريون اليساريون على ذلك . وللحال وجّه نداء الى فلاحي روسيا وانتخبت لجنة خماسية للاشراف على المشروع .

وأجّل البحث في قضيتي الخطط المفصلة لتوزيع الأراضي وسيطرة العمال على الصناعة الى أن يضع الخبراء الذين يشتغلون عليها تقريرهم . قرئت ثلاثة مراسيم وتمت الموافقة عليها : أولاً « القواعد العامة للصحافة » من لينين [1] التي تقضي بايقاف كل صحيفة تدعو الى مقاومة الحكومة الجديدة أو عصيان أوامرها ، أو التي تحرّض على ارتكاب الأعمال الاجرامية ، أو تزيّف الأخبار عمداً ؛ وثانياً مرسوم « تأجيل اجور المساكن » ومرسوم « تكوين الميليشيا العمالية » . [2] ثم صدر أمران : واحد يمنح الدوما البلدية سلطة مصادرة الشقق والبيوت الفارغة ، وآخر يوجّه عملية تفريغ عربات النقل في محطات السكك الحديد ، للتعجيل في توزيع المواد الضرورية وتحرير عربات النقل التي كانت الحاجة اليها ماسّة ...

وبعـــد ذلك بساعتين، كانت اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين تذيع البرقية التالية على كل روسيا :

إن التنظيم البلشفي الكيفي المسمى (مكتب تنظيم مؤتمـــر الفلاحين الأهــلي) يقوم بدعوة جميع سوفييت الفلاحين لإرسال مندوبين الى المؤتمر في بتروغراد ...

إن اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين تعلن أنها تعتبر ، مثلما كانت دائماً ، أنـــه من الخطر ابعاد العناصر الضرورية لتحضير انتخابات الجمعية التأسيسية عـن المقاطعات . فالجمعية التأسيسية هي طريق الخـلاص الوحيد للطبقة العاملة وللبــلاد . اننا نؤكد موعد مؤتمر الفلاحين : الثالث عشر من كانون الأول » .

كان كل شيء مثيراً في الدوما . الضباط يروحون ويجيئون ، المحـافظ يتحادث مع قادة لجنة الانقاذ .. دخل أحد المندوبين ركضاً ، حامـلاً بيان كرنسكي الذي ألقت طائرة المئات منه فوق شارع نيفسكي . البيان يهـــدد بانتقام مخيف من الذين يرفضون التسليم ، ويأمر الجنود بالقاء السلاح والتجمع في « ساحة مارس » .

وقيل لنا إن رئيس الوزراء قد احتلّ تسارسكويي سيلا ، وأنه على بعد بضعة أميال من بتروغراد . سيدخل المدينة غداً ، أي بعد ساعات قليلة . القطعات السوفييتية التي التحمت مع القوزاق أخذت تنحاز الى الحكومـــة المؤقتة . وكان تشيرنوف في مكان ما في الوسط ، يحـاول أن ينظم قطعات عسكرية من « المحايدين » في قوة تعمل لوقف الحرب الأهلية .

وقيل إن أفواج الحامية تتخلى عن البلاشفة في المدينة . وسمولني مهجور منذ الآن . توقفت كل أجهزة الحكم عن العمل . رفض موظفو مصرف الدولة

العمل تحت أمرة مفوضي سمولني ورفضوا تسليمهم الأموال . كل المصارف الخاصة مقفلة . كل الوزارات مضربة. تدور لجنة من الدوما على بيوت العمال لتجمع منهم النقود لدعم الاضراب ، لدفع أجور المضربين[٣] .

ذهب تروتسكي الى وزارة الخارجية وأمر الكتّاب بترجمة « مرسوم السلم » الى اللغات الأجنبية ، فرمى ستمائة موظف استقالاتهم في وجهه ... أمر شليابنيكوف ، مفوض العمل ، جميع مستخدميه بالعودة الى أعمالهم خلال أربع وعشرين ساعة وإلا أسقط عنهم حق التقاعد ، فلم يستجب له إلا الحجّاب ... فضلت بعض فروع « اللجنة الخاصة لتموين الغذاء » أن توقف أعمالها على الخضوع للبلاشفة ... عمال الهاتف ما زالوا مصرين على قطع خطوط مقر السوفييت بالرغم من الوعود السخية بأجور أعلى وشروط عمل أفضل ...

صوّت الحزب الاشتراكي الثوري على طرد جميع الأعضاء الذين بقوا في مؤتمر السوفييت ، وكل الذين شاركوا في الانتفاضة ...

أخبار من المقاطعات : أعلنت « موغلييف » رأيها ضد البلاشفة ، في « كييف » أسقط القوزاق السوفييت واعتقلوا كل قادة الثورة . سوفييت وحامية « لوغا » (ثلاثون ألف جندي) أكدا ولاءهما للحكومة المؤقتة ودعيا كل روسيا للالتفاف حولها. حل خالدين كل سوفييت ونقابة في حوض الدون وتقدمت قواته شمالاً .

قال ممثل عن سكك الحديد : « أمس أرسلنا برقية لكل أنحاء روسيا نطالب فيها بوقف الحرب حالاً بين الأحزاب السياسية ، وبتكوين حكومة تحالف اشتراكية ، وإلا سندعو الى الاضراب ليلة غد ... هناك اجتماع في الصباح بين جميع الأطراف لبحث الموضوع . يظهر أن البلاشفة متلهفون للوصول الى اتفاق » ...

مهندس المدينة رجل ضخم محتقن الوجه ، يقول ضاحكاً : « إذا بقوا حتى ذلك الحين » ..

عندما ذهبنا الى « سمولني » لم نجدها مهجورة ، بل كانت مزدحمة أكثر من أي وقت مضى ، جماعات من العمال والجنود تركض داخلة وخارجة ، الحرس مضاعف في كل مكان لقينا مخبري الصحف البرجوازية والاشتراكية « المعتدلة » .

صرخ أحدهم وهو من جريدة « إرادة الشعب » : طردونا ! جاء بوبش - برويبفيتش الى مكتب الصحافة وأمرنا بالخروج ! قال إننا جواسيس ! » وأخذ الجميع يتكلم دفعة واحدة : « إهانة ! فضيحة ! حرية الصحافة » !

في الباحة طاولات ضخمة تراكمت عليها أكداس من النداءات والأوامر والمراسيم من اللجنة العسكرية الثورية . الجنود والعمال يترنحون تحت ثقلها وهم ينقلونها الى السيارات المنتظرة .

يقول أحد هذه المناشير :

« الى الخازوق !

في هذه اللحظة الحاسمة التي تعيشها الجماهير الروسية يقوم المناشفة والاشتراكيون الثوريون اليمينيون بخيانة الطبقة العاملة . لقد انضموا الى جانب كورنيلوف وكرنسكي وسافينكوف ..

إنهم يطيعون أوامر كرنسكي ويشيعون الذعر في المدينة بنشر الشائعات المضحكة عن انتصارات وهمية يحرزها هذا المرتد ..

أيها المواطنون ! لا تصدّقوا هذه الشائعات الكاذبة . لا

توجد قوة تستطيع دحر ثورة الشعب... رئيس الوزراء كرنسكي وأتباعه ينتظرون العقاب العاجل الذي يستحقون ...

سنعلقهم على الخازوق . إننا نتركهم لعداء كل العمال والجنود والبحارة والفلاحين ، إننا نتركهم لهـــذه الجماهير التي يحاولون تكبيلها بالسلاسل القديمة نفسها . إنهم لن يستطيعوا أبـــداً أن يغسلوا عن أجسامهم لطخة احتقار الجماهير وكرهها .
العار واللعنة على الذين خانوا الشعب » ! ..

انتقلت اللجنة العسكرية الثورية الى محل أوسع : الغرفـة رقم ١٧ في الطابق الأعلى . الحرس الأحمر على الباب . وفي الداخل ، كان المحـل الضيق أمام الحاجز مكتظاً بأناس مهذبـين يتظاهرون بالاحترام ويكتمون حنقهم القاتل - إنهم البرجوازيون الذين يريدون رخصـاً لسياراتهم أو تصريحـات لمغادرة المدينة، وبينهم الكثير من الأجانب.. كانت نوبة العمل على بيل شاتوف وبيترز . فأوقفا كل أعمالها وقرءا لنا آخر نشرات الأنباء .

فرقة الاحتياط ١٧٩ تقدم تأييدها بالاجماع. خمسة آلاف من عمال الشحن البحريين في أرصفة بيوتيلوف يحيون الحكومة الجديدة . من اللجنة المركزية لاتحاد النقابات ــ تأييد حماسي . حامية وقطعات « ريفال » تنتخب لجنـة عسكرية ثورية لتتولى التنسيق وشحن الجنود . لجان عسكرية ثورية تسيطر على « باسكوف » و « مينسك » . تحيـات من سوفييت « زاريتسـين » و « روفنسكي - على الدون » و « تشيرنوغورسك » و « سيباستوبول » .. الفرقة الفنلندية واللجان الجديدة للجيش الخامس والثاني عشر تعلن ولاءها ..

الأخبار غير واضحـة عن موسكو . قطعات اللجنة العسكرية الثوريـة تسيطر على النقاط الستراتيجية للمدينة وقـد انضمت الى السوفييت كتيبتان من حرس الكرملين ، ولكن مخازن السلاح ما تزال في يد العقيد ريابستيف

و « النيكرز » . طالبت اللجنة العسكرية الثورية بالسلاح للعمال فماطل المقيد حتى هذا الصباح عندما فاجأ اللجنة بإنذار يأمر فيه جنود السوفييت بالتسليم واللجنة بأن تحل نفسها فبدأ القتال .

في بتروغراد ، رضخت الأركان لمفوضي « سمولني » رأساً . وعندما رفضت لجنة الاسطول الرضوخ للأوامر ، هاجمها ديبنكو بكتيبة من بحارة كرونستاد فانشأت لجنة جديدة تؤيدها بوارج بحر البلطيق والبحر الأسود .

ولكن كان ثمة توجس بارد وشعور بالاضطراب تحت هذه الطمأنينة الهوائية . قوزاق كرنسكي يتقدمون بسرعة ، ومعهم مدافع . وقد أكد لي سكريبنيك ، سكرتير لجان المصنع والمتجر ذو الوجه الأصفر المتعب ، بأن القوزاق يؤلفون جيشاً بأكمله ، وأضاف بعنف : « لن يأخذونا أحياء ! » بتروفسكي يضحك متعباً : « ربما نستطيع أن ننام غداً – نوماً طويلاً ... » قال لوزوفسكي بوجهه المعروق ولحيته الحمراء : « كيف يمكن أن ننتصر إننا وحدنا ... مجرد جماهير ضد جنود مدربين ! » .

في الجنوب والجنوب الغربي تتراجع السوفييت أمام كرنسكي . حاميات « غاتشينا » و « بافلوفسك » و « تسارسكويي سيلا » منقسمة على نفسها ، صوّت نصفها للوقوف على الحياد ، بينما تراجع الباقون ، دون ضباط ولا نظام ، نحو العاصمة ..

كانوا يعلقون نشرات الأنباء في القاعات :

« من كراسنويي سيلا – في ١٠ تشرين الثاني – الساعة الثامنة قبل الظهر .

الى رؤساء الأركان والقيادات العامة والقيادات في كل مكان، الى الجميع ، الجميع ، الجميع ...

أرسل الوزير السابق كرنسكي برقية مزورة عمداً الى الجميع في كل مكان مؤداها ان جنود بتروغراد الثورية قد سلّموا أسلحتهم طوعاً وانضموا الى جيوش الحكومة السابقة ، حكومة الخيانة ، وان اللجنة العسكرية الثورية قد أمرت جنودها بالتراجع . ان الجنود أناس أحرار ولهذا فهم لا يتراجعون ولا يستسلمون .

لقد غادر جنودنا « غاتشينا » لتجنب سفك الدماء بينهم وبين اخوانهم المضلَّلين من القوزاق ، ولأجل اتخاذ مواقع أصلح. وهذه المواقع قويّة الآن الى درجة أن لا خوف عليها حتى لو زاد كرنسكي ورفاقه في السلاح قواتهم عشرة أضعاف . الروح المعنوية لجنودنا ممتازة .

كل شيء هادىء في بتروغراد .

قائد دفاع بتروغراد ومنطقتها العسكرية

المقدم موراڤيوف »

وبينا كنا نهم بمغادرة اللجنة العسكرية الثورية ، دخل انطونوف بيده ورقة ، بادياً كجثة . قال : « أرسلوا هذه »

« الى جميع سوفييت مندوبي العمال المنطقية ، الى لجان المصنع والمتجر .

امر

عصابات كرنسكي من الكورنيلوفيين تهدد مداخل العاصمة . أعطيت جميع الأوامر الضرورية لسحق مؤامرة الثورة المضادة .

المعادية للشعب ولمكاسبه .

جيش الثورة وحرسها الأحمر بحاجة الى تأييد العمال الفوري .

نأمر جميع السوفييت ولجان المصنع والمتجر في المنطقة بما يلي :

١ – أن ترسل أكبر عدد ممكن من العمال لحفر الخنادق وإقامة المتاريس وتقوية حواجز الاسلاك الشائكة .

٢ – إذا كان هذا يعني إيقاف العمل في بعض المصانع، فليحصل ذلك في الحال .

٣ – يجب أن تجمع كل الكميات المتوفرة من الأسلاك الاعتيادية والأسلاك الشائكة ، بالإضافة الى أدوات حفر الخنادق وإقامة المتاريس .

٤ – يجب مصادرة كل الأسلحة المتوفرة .

٥ – يجب المحافظة على الانضباط الشديد ، فليستعد كل واحد منا لمساعدة الثورة بجميع الوسائل .

رئيس سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود :
مفوّض الشعب ليون تروتسكي
رئيس اللجنة العسكرية الثورية :
القائد العام بودفويسكي »

عندما خرجنا الى النهار المظلم القاتم ، كانت صفّارات المصانع تصرخ في الآفاق الرمادية حولنا بصوت أبحّ مليء بالتوجس . تدفق العمال الى الخارج بعشرات الالوف ، نساءً ورجالاً – عشرات الآلاف من الجموع المعذبة

الداكنة تلفظها احياؤها الفقيرة . بتروغراد الحمراء في خطر ! القوزاق ! وتدفقوا الى الجنوب والجنوب الغربي نحو بوابة « موكونسكي » ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ببنادق ومعاول ورفوش وحزم الاسلاك ، وأحزمة الرصاص فوق ألبسة العمل ... لم يشاهد أبداً مثل هذا الطوفان العفوي الهائل في مدينة كهذه ! انهم يتدفقون مثل تيار هادر جارفين معهم كتائب من الجنود ، ومدافع ، وسيارات نقل ، وعربات – الطبقة العاملة الثورية تدافع بصدرها عن عاصمة جمهورية العمال والفلاحين !

أمام بوابة سمولني تقف سيارة . رجل صغير الحجم ذو نظارة تكبّر عيونه الملتهبة يتكلم بصعوبة مؤلمة قد وقف مستنداً الى الرفراف واضعاً يديه في جيوب ردائه القديم . وبقربه بحّار ضخم ملتحٍ عيونه لها صفاء عيون الاطفال ، يعبث شارداً بمسدس كبير من الفولاذ الأزرق ، ويتململ بعصبية . انهما انطونوف وديبنكو .

حاول بعض الجنود ربط دراجتين عسكريتين الى جوانب السيارة ، اعترض السائق بعنف قائلاً إن هذا يخدش الدهان . صحيح أنه بلشفي ، وان السيارة صودرت من برجوازي ، وصحيح ان الدراجتين كانتا لاستعمال المراسلين . ولكن كرامة المهنة كانت قد أثيرت ... وهكذا تركت الدراجتان .

كان مفوّضا الشعب للحرب والبحرية في طريقهما لتفتيش الجبهة الثورية ، اينما كانت . هل نستطيع مرافقتهم ؟ لا بالتأكيد . لا تستطيع السيارة أن تحمل أكثر من خمسة ، هناك المفوّضان ومراسلان وسائق . إلا أن أحد معارفي من الروس ، سأدعوه تروسيشكا ، دخل السيارة بهدوء ولم يستطع أي نقاش اخراجه منها ...

لست أرى مبرراً للشك في رواية تروسيشكا عن الرحلة . عندما مرّوا

في شارع سوفوروفسكي ذكر أحدهم الطعام . فالرحلة قـد تأخذ ثلاثة أو أربعة أيام في مناطق قـد لا يستطيعون تجهيز أنفسهم منها . النقود ؟ بحث مفوّض الحرب في جيبه ، فلم يلقَ كوبيكاً واحداً . مفوض البحرية مفلس. والسائق كذلك . اشترى تروسيشكا الطعام ...

عندما انعطفوا الى شارع نييفسكي انفجر إطار ...

تساءل أنطونوف : « ماذا نعمل ؟ »

لوّح ديبنكو بمسدسه واقترح : « نصادر سيارة أخرى ! »

وقف أنطونوف في منتصف الشارع ولوّح لسيارة عابرة يقودها جندي . قال : « أريد هذه السيارة » .

الجندي : « لن تحصل عليها » .

« هل تعرف من أنا ؟ » وأخرج أنطونوف ورقة من جيبه كتب عليها أنه قد عيّن قائداً عاماً لجميع جيوش الجمهورية الروسية ، وأن على الجميع أن يطيعوه بدون أسئلة .

الجندي بحدّة : « لا يهمني إذا كنت إبليس ذاته . هـذه السيارة تخص فرقة الرشاشات الأولى ، ونحن ننقل الذخيرة فيها ، ولن تحصل عليها » ..

وانحلت المشكلة بظهور سيارة تاكسي قديمـة ترفع العلم الإيطالي . (في أيام المشاكل كانت السيارات الخاصة تسجل باسم القنصليات الأجنبيـة لتسلم من المصادرة) فأخرج من داخلها مواطن بدين يلبس فروا غالياً . وواصلت المجموعة طريقها .

وعندما وصلوا الى « نارفسكايا زاستافا » ، على بعد حوالي العشرة أميال، ذهب أنطونوف لزيارة قائد الحرس الأحمر . أخذوه الى طرف المدينـة حيث حفر بضع مئات من العمال خنادق لهم منتظرين قدوم القوزاق .

سأل أنطونوف : « كل شيء على ما يرام ، يا رفاق ؟ »

أجاب القائد : « كل شيء كامل ، يا رفيق ، معنويات الجنود ممتازة ... ولكن يوجد أمر واحد فقط ... ما عندنا ذخيرة » ..

فأخبره أنطونوف « في سمولني عندنا بليونا طلقة . سأعطيك أمراً . معكم ورقة ؟ » وأخذ يبحث في جيوبه .

ولم يكن ديبنكو ولا المراسلون يحملون أوراق . فاضطر تروسيشكا الى تقديم دفتر الملاحظات الخاص به ..

ثم صرخ أنطونوف : « بحق الشيطان ! ما معي قلم . من معه قلم ؟ » وغنيّ عن القول أن تروسيشكا كان الوحيد بين الجمع الذي يحمل قلماً ...

نحن الذين بقينا ، توجهنا الى محطة تساركويي سيلا . الحرس الأحمر يذرع شارع نيفسكي ، الجميع مسلحون ، قسم قد ثبت الحراب وقسم ظل بدونها . الغروب الشتوي المبكر يطبق على المدينة . إنهم يطأون الطين البارد ، شامخي الأنوف ، أربعة أربعة في صفوف غير منتظمة ، بدون موسيقى ولا طبول . وفوقهم ترفرف راية حمراء كتب عليها بحروف ذهبية غير متقنة : « السلم ! الأرض ! » وترتسم على وجوههم تعابير رجال يذهبون الى الموت ... المتجمهرون على الأرصفة يراقبونهم بصمت حقود ، باحتقار وخوف ..

في محطة القطار ، لم يكن أحد يعرف أين كرنسكي بالضبط ، أو أين تقع الجبهة . على كل حال ، القطارات لا تذهب الى أبعد من شارسكويي ..

عربتنا مليئة بالركاب وبالريفيين العائدين الى مساكنهم محملين بالحزم وجرائد المساء . الكلام كله يدور حول الثورة البلشفية . وفيما عدا ذلك لم يكن المرء يلاحظ أن حرباً أهلية تشطر روسيا الجبارة الى شطرين ، وأن

القطار يتوجه نحو ساحة المعركة . وميزنا من خلال النوافذ، في الظلام الذي يتكاثف بسرعة ، مجموعات من الجنود تتناقش ملوّحة بأذرعها وهي تسير على الطريق الطيني نحو المدينة ... على سكة جانبيـــة وقف قطار شحن مليء بالجنود ، مضاء بنيران كثيرة . هذا كل ما هنالك . خلفنـــا يتضاءل بريق أضواء المدينة في الأفق الواطيء . سيارة عمومية تزحف في البعيد نحو احدى الضواحي القصية ..

محطة شارسكويي سيلا يسودها الهدوء . وقد وقفت جماعات من الجنود هنا وهناك ، تتحدث بأصوات منخفضـة ، وتنظر بقلق الى الخط الحديدي الفارغ باتجاه « فاتشينا » . سألت بعضاً منهم الى أي جانب يقفون . فقـال أحدهم : « لا نعرف بالضبط أي جانب على حق .. لا نشك بأن كرنسكي يقوم بعمل استفزازي ، ولكننا لا نوافق على أن يقتتل الروس فيما بينهم ».

في مكتب رئيس المحطة وجدنا جندياً ملتحياً ، ضخماً ومرحـاً ، حول ذراعه الشريط الأحمر للجنة الفرقـة . التصريحات المعطاة لنـــا من سمولني فرضت الاحترام الفوري . كان واضحاً أنه يؤيد السوفييت ولكنـه كان مرتبكاً ...

« الحرس الأحمر هنا منذ ساعتين ، ولكنهم ذهبوا مرة أخرى . جـاء أحد المفوضين صباحاً ثم عاد عندما وصل القوزاق .

« القوزاق هنا إذاً ؟ »

هزّ رأسه بحزن : « حصلت معركة . أسروا مئتين أو ثلاثة من رجالنا، وقتلوا حوالي الخمسة والعشرين » .

« أين القوزاق ؟ »

« لم يصلوا الى هنا بعد . لست أعلم بالضبط أين هم . في هذا الاتجاه ». وأشار بيده الى الغرب إشارة غامضة .

تناولنا عشاء في مطعم المحطة أحسن وأرخص مما في بتروغراد ، جلس ضابط فرنسي قربنا وقد جاء لتوّه مشياً من « غاتشينا » . قال إن كل شيء هادىء هناك . احتل كرنسكي المدينة . « آه ، هؤلاء الروس ! إنهم شعب فريد من نوعه ! يا لها من حرب أهلية ! فيها من كل شيء ما عدا القتال » !

خرجنا الى المدينة. وقف جنديان على باب المحطة وقد ثبّتا على بندقيتيهما الحراب . يحيط بهما نحواً من مئة من رجال الأعمال والموظفين والطلاب يمطرونهم وابلاً من الحجج والأوصاف العنيفة . كان الجنديان قلقين متألمين ، مثل أطفال عوقبوا بلا مبرّر . وكان شاب طويل يرتدي بذلة طالب يقود الهجوم وعلى وجهه تعابير الغطرسة .

قال بوقاحة : « تعلمون ، على ما أعتقد، بأنكم حين ترفعون السلاح بوجه إخوتكم تصبحون أدوات بيد القتلة والخونة ؟ »

أجاب الجندي بجدية : « إسمع ، يا أخي . أنت لا تريد أن تفهم . ألا ترى أن هناك طبقتين : الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية . إننا » ...

قاطعه الطالب بخشونة : « أوه ! أعرف هذا الكلام السخيف . حفنة من الفلاحين الجهلاء مثلكم يسمعون شخصاً يطلق بعض الشعارات . أنتم لا تفهمون معانيها . ترددونها مثل الببّغاوات . « الجمهور يضحك » . أنا طالب ماركسي ، وأنا أقول لكم أنكم لا تحاربون في سبيل الاشتراكية . بل في سبيل خلق فوضى لا تخدم إلا الألمان » !

أجاب الجندي والعرق يتصبّب على جبينه « نعم ، أنا أعرف أنك رجل مثقف ، هذا واضح ، وأنا رجل بسيط . ولكن يتهيأ لي ... »

واعترض الآخر باحتقار « أتصور أنك تؤمن بأن لينين صديق حقيقي للطبقة العاملة ؟ »

« إي نعم » أجاب الجندي ، متحملاً بصبر .

« حسناً ، يا صديقي . هل تعلم أن لينين قد أرسل عبر ألمانيا في عربة قطار مقفلة ؟ هل تعلم أنه أخذ نقوداً من الألمان ؟ »

أجاب الجندي بعناد : لا أعلم الكثير عن ذلك . ولكن يخيّل لي أن ما يقوله هو ما أحبّ سماعه ، أنا وكل البسطاء أمثالي . هناك طبقتان : البرجوازية والعمال . »

« أنت أحمق ! إسمع يا صاحبي : قضيتُ سنتين في سجن سلوسلبرج بسبب نشاطي الثوري ، في الوقت الذي كنتم تطلقون فيه النار على الثوريين وتنشدون « ليحفظ الله القيصر ! » إسمي فاسيلي كيبرغوفيتش بانين . ألم تسمع بي من قبل ؟ »

قال الجندي بتواضع : « لا ، مع الاسف . لأني لست بالرجل المثقف . ربما تكون بطلاً عظيماً . »

قال الطالب باقتناع : « أنا كذلك ! وأنا معارض البلاشفة الذين يخرّبون بلدنا روسيا وثورتنا الحرّة . والآن ، كيف تفسّر ذلك ؟ »

حك الجندي رأسه ، وقال : « لا أقدر أن أفسّر ذلك مطلقاً ! » ثم تابع وقد عبس من صعوبة التفكير : « القضية تبدو لي واضحة جداً — ولكن ثقافتي ليست جيدة ، طبعاً . يبدو لي أن هنالك طبقتين : العمال والبرجوازية . »

صرخ الطالب « ها أنت تعود الى تعمياتك السخيفة مرّة أخرى ! »

واستمرّ الجندي بعناد « طبقتان فقط . والذي ليس مع واحدة منهما يكون مع الأخرى ... »

تجوّلنا الى أعلى الشارع حيث الاضواء قليلة ومتباعدة ، وحيث لا يمرّ الكثير من الناس . يخيّم على المكان صمت ينطق بالتهديد – فكأنه المطهر بين الجحيم والجنة – إنها منطقة حرام سياسية . دكاكين الحلاقة وحدها مضاءة بتوهج ، بينما تكوّن صف انتظار أمام الحمامات العامة ، فالليلة ليلة السبت، عندما تستحمّ روسيا بأمرها وتعطّر نفسها . لا يساورني أدنى شك في أن جنود السوفييت والقوزاق قد اختلطوا في المحلات التي تجري فيها هذه الطقوس .

كلما اقترب المرء من « الحدائق الامبراطورية » ، كلما كانت الشوارع مهجورة أكثر . دلّنا قسّيس خائف على مقرّ السوفييت ثم ذهب مهرولاً . المقر في جناح من قصر لدوق قبالة الحديقة . النوافذ مظلمة والباب مقفل .

نظر إلينا جندي كان يتسكع هناك بريبة كئيبة قال « انتقل السوفييت منذ يومين » . « الى أين ؟ » هزّ كتفيه : « لا أدري . »

الى الأمام بناية ضخمة مضاءة ، ينبعث من داخلها صوت طرق . أثناء ترددنا أمامها جاء نحونا جندي وبحار يتمشيان يداً بيد. أظهرت لهم تصريحي من سمولني وسألت : « هل تؤيدان السوفييت ؟ » لم يجيبا بل تبادلا النظر بخوف .

سأل البحار : « ماذا يجري هناك ؟ » وأشار الى البناية .

« لا أعلم . »

مدّ الجندي يده بحذر وفتح الباب قليلاً. في الداخل صالة ضخمة مزدانة بالستائر والنبات الدائم الخضرة ، صفوف من الكراسي ، ومسرح في طريق البناء . تقدّمت نحونا امرأة ضخمة بيدها مطرقة وفمها مليء بالمسامير ، وسألتنا : « ماذا تريدون ؟ »

قال البحار مرتبكاً : « هل هناك عرض الليلة ؟ »

أجابت بحدّة : « هناك عرض مسرحي خاص ليلة الأحد . اخرجوا من هنا . »

حاولنا استدراج البحار والجندي الى الحديث ، ولكنهما كانا في حالة واضحة من الخوف والتعاسة فانسحبا الى الظلام .

تمشينا نحو القصور الامبراطورية على جانب الحدائق الشاسعة المظلمة ، بمقصوراتها ذات الأشكال الغريبة ، وجسورها المزينة ، وأصوات المياه الناعمة تترقرق من النوافير . وفي مكان معيّن ، حيث أوزة مضحكة تبصق الماء باستمرار في مغارة اصطناعية ، أحسسنا فجأة بأننا مراقبون . نظرنا الى أعلى فواجهتنا نظرات الريبة من نصف دزينة من الجنود الضخام يحدقون بنا بضيق من على سطحية تغطيها الحشائش . تسلقت نحوهم وسألتهم : « من أنتم ؟ »

أجاب أحدهم : « نحن الحرس » . بدوا جميعاً تعساء ، والأغلب انهم كذلك ، بعد أسابيع من النقاش والبحث طوال الليل والنهار .

« انتم من جنود كرنسكي أم السوفييت ؟ »

ساد لحظة صمت، تبادلوا خلالها نظرات قلقة . ثم أجاب الشخص نفسه: « نحن محايدون . »

دخلنا من قوس قصر ايكاترينا الضخم الى باحة القصر نفسها نسأل عن المقرّ العام .

قال أحد الحرس الواقفين خارج باب في جناح أبيض دائري من القصر بأن القائد في الداخل .

في غرفة بيضاء أنيقة على الطراز الجيورجي ، تقسمها الى قسمين غير

متساويين مدفــأة ذات وجهين ، وقفت مجموعة من الضباط تتكلم باهتمام . كانوا شاحبي الوجوه ، مشتتي الأذهان ، من الواضح انهم لم ينـــاموا منذ مدة . قدّمنا تصاريحنا البلشفية الى أحدهم قيل لنا انه العقيد ، وهو رجل كبير السن نوعاً ما ، ذو لحية بيضاء ، ازدانت بذلته بعدد من الأوسمة .

بدا متعجباً . سألنا بأدب : « كيف وصلتم الى هنــا دون أن تُقتلوا ؟ الوضع خطر في الشوارع . العواطف السياسية متأججة الآن في تسارسكوي سيلا . حصلت معركة هذا الصباح وستحصل أخرى غداً . سيدخل كرنسكي المدينة الساعة الثامنة . »

« أين القوزاق ؟ »

« على بعد حوالي الميل في هذا الاتجاه » . وأشار بيده .

« هل ستدافعون عن المدينة ضدهم ؟ »

أجاب باسماً : « أوه ، كلا ! اننا نحتل المدينة لكرنسكي » . وهنـــا امتلكنا الذعر لأن تصاريحنا تذكر اننا ثوريون حتى العظم . تنحنح العقيد : « بالنسبة للتصـــاريح التي تحملون ... ستكون حياتكم في خطر اذا قُبض عليكم ... اذا أردتم مشاهدة المعركة سأعطيكم أوامر للحصول على غرف في فندق الضباط ، واذا جئتم في السابعة صباحاً أعطيتكم تصاريح جديدة » .

« انتم مع كرنسكي اذاً ؟ »

تردد العقيد ثم قال: « لسنا بالضبط مع كرنسكي . أكثر جنود الحامية من البلاشفة وقد ذهبوا اليوم ، بعـــد المعركة ، في اتجاه بتروغراد آخذين معهم المدفعية . يمكن أن تقول انه ليس هناك جنود مع كرنسكي ، لكن بعضهم لا يريد القتال على الاطلاق . ذهب جميع الضباط تقريباً لينضموا الى كرنسكي . كما ترى نحن — احم — في وضع حرج ... »

لم نعتقد بأن المعركة ستحصل في الصباح ... تلطف العقيد بإرسال مساعده ليرافقنا الى المحطة . كان جنوبياً ، من أبوين فرنسيين في بيسّارابيا وكان يكرّر : « آه . لست أبالي بالخطر ولا بالصعاب ولكن ببقائي طوال هذه المدة ، ثلاث سنوات ، بعيداً عن أمي ... »

ناظراً من نافذتي في القطار المسرع في الظلمة الباردة نحو بتروغراد ، استطعت أن أرى مجموعات من الجنود ملوّحة بأيديها في وهج النيران ، وكوكبات السيارات المصفحة على مفترق الطرق ، يطل سوّاقها من أبراجها ويتصايحون فيما بينهم ...

قطعات من الجنود والحرس الأحمر دون قيادة تتجول قلقة متصادمة طيلة تلك الليلة المضطربة على السهل القاحل البارد بينما يسرع مفوضو اللجنة العسكرية من مجموعة لأخرى يحاولون تنظيم الدفاع ...

في المدينة ، الموجات البشرية تتدفق في شارع نيفسكي . هنالك شيء ما في الجو . أصوات المدافع البعيدة تسمع من محطة وارسو . حركة محمومة في كليات « النيكرز » . أعضاء الدوما يتنقلون من ثكنة لأخرى يناقشون ويتضرعون ، راوين قصصاً مخيفة عن العنف البلشفي — مذبحة « النيكرز » في قصر الشتاء ، اغتصاب المجندات ، إطلاق النار على الفتاة أمام الدوما ، قتل الأمير تومانوف ... في « قاعة الكسندر » في بناية الدوما كانت لجنة الانقاذ تعقد اجتماعاً استثنائياً ... المفوضون يجيئون ويروحون ركضاً ... وكل الصحفيين المطرودين من « سمولني » هناك بمعنويات عالية . لم يصدقوا تقريرنا عن تسارسكوي . الجميع « يعلم » أن تسارسكوي في يد كرنسكي ، وان القوزاق في بولكوفا الآن . كانوا ينتخبون لجنة لاستقبال كرنسكي في محطة القطار غداً ...

أسرّ لي أحدهم أن الثورة المضادة سوف تبدأ عند منتصف الليل .

وأراني مرسومين ، وقّع أحدهمـــا غوتز ولوبلكوفنيكوف ، يأمر كليات « النيكرز » والجنود الذين في طور النقاهة في المستشفيات وفرسان القديس جورج بأن يتجمعوا استعداداً للحرب ، وان ينتظروا أوامر لجنة الانقـاذ نفسها . أما المرسوم الثاني فهو بتوقيع لجنة الانقاذ نفسها – وهذا نصّه :

« الى سكان بتروغراد !

أيها الرفاق ، أيها العمال ، أيها الجنود ، أيهـا المواطنون في بتروغراد الثورية !

في الوقت الذي يدعو فيـــه البلاشفة الى السلم في الجبهة ، يعملون على إثارة الحرب الأهلية في المؤخرة .

لا تستمعوا لنداءاتهم الاستفزازية !

لا تحفروا الخنادق !

لتسقط متاريس الخيانة !

ألقوا بسلاحكم !

أيها الجنود ، عودوا الى ثكناتكم !

الحرب في بتروغراد تعني نهاية الثورة .

باسم الحرية ، والأرض ، والسلم اتحدوا حول لجنة إنقـــاذ الوطن والثورة ! »

عندمـــا غادرنا الدوما كانت كتيبة من الحرس الأحمر – عابسة الوجوه ويائسة ، تتقدم في الطريق المظلم المهجور ومعها دزينة من الأسرى – أعضاء الفرع المحلي لمجلس القوزاق الذين قبض عليهم متلبّسين بجرم التآمر ضـــد الثورة في مقرّهم ...

أحد الجنود ، ومعه صبي صغير يحمل سطلاً من الصمغ ، يلصق اعلانات ضخمة فاقعة اللون :

« نظراً للظروف الحالية ، تُعلن حـــالة الحصار في مدينة بتروغراد وضواحيهـا . تُمنع كل الاجتماعات في الشوارع أو في الهواء الطلق بصورة عامة الى حين صدور أوامر جديدة .

ن . بودفويسكي
رئيس اللجنة العسكرية الثورية»

توجهنـــا الى مساكننا والجو مليء بأصوات مختلطة – أبواق سيارات ، صيحات ، طلقات بعيدة . المدينة يقظى تختلج بقلق .

في ساعات الصباح الباكرة تقدمت كتيبة من «النيكرز» متنكرة كجنود من فوج سيميونوفسكي الى مركز الهـاتف قبل وقت تغيير الحرس بقليل . كانت كلمة السر البلشفية معهم ، فاستلموا حراسة المكان دون إثارة أية شبهة . بعد دقائق جـــاء انطونوف في جولة تفتيشية . فألقوا القبض عليه وحبسوه في غرفة صغيرة . ولما جاءت كتيبة الحرس الحقيقية لاستلام نوبتها ووُجهت بنيران البنادق وسقط منها عدّة قتلى ...

وبدأت الثورة المضادة ...

هوامش

(الفصل السابع)

١ — حول الصحافة

في اللحظة الجدية الحاسمة التي تمر بها ثورتنا وفي الأيام التي تتبعها رأساً تضطر اللجنة الثورية المؤقتة على اتخاذ إجراءات ضد صحافة الثورة المضادة بكل ألوانها .

في الحال ترتفع الصيحة من جميع الأطراف بأن السلطة الاشتراكية الجديدة تتجاوز بهذا على المبادىء الجوهرية في برنامجها عندما تعمل ضد حرية الصحافة .

إن حكومة العمال والفلاحين تلفت انتباه السكان الى أن هذا الدرع الليبرالي يخبىء خلفه فرصة للطبقات الغنية لاقتناص حصة الأسد من الصحافة كلها وتسميم العقلية الشعبية بهذه الواسطة، واحلال الفوضى في وعي الجماهير .

الكل يعلم أن الصحافة البرجوازية هي من أقوى أسلحة البرجوازيين . وفي هذه اللحظة الحاسمة بالذات ، التي لا تزال فيها السلطة الجديدة للعمال

والفلاحين في طور التدعيم ، فإنه من المستحيل ترك هـذا السلاح الذي لا تقل خطورته عن القنابل والرشاشات بيد العدو . لهذا اتخذت إجراءات وقتية غير اعتيادية من أجل إيقاف سيل القذارة والافتراء التي يحلو للصحافة الصفراء والخضراء إغراق الانتصار الشعبي الفتيّ به .

عند يتثبت النظام الجديد سوف توقف كل الاجراءات الإدارية ضد الصحافة ، وتعطى الحرية كاملة ضمن نطاق المسؤولية أمام القانون وحسب أسمح القواعد وأكثرها تقدمية ...

إن مجلس مفوضي الشعب – علماً منه بأن أي تقييد لحرية الصحافة ، حتى في اللحظات الحرجة ، يقبل ضمن نطاق الضرورة فقط – يقرر ما يلي :

١ – تتعرض الأنواع التالية من الصحف للاغلاق :

أ – تلك التي تحرّض على المقاومة المكشوفة لحكومة العمال والفلاحين ، أو على عصيان تلك الحكومة .

ب – تلك التي تخلق الفوضى عن طريق تحريف الأخبار عمداً .

ج – تلك التي تحرّض على أعمال ذات طابع إجرامي يقع تحت طائلة القانون .

٢ – لا يتم الإغلاق المؤقت أو الدائم لأي صحيفة إلا بقرار من مجلس مفوضي الشعب .

٣ – إن هذه المقررات ذات طبيعة مؤقتة ، وسوف تلغى بمرسوم خاص عندما تعود الأوضاع العامة الى حالتها الطبيعية .

رئيس مجلس مفوضي الشعب
فلاديمير أوليانوف (لينين)

٢ – حول الميليشيا العمالية

١ – على كل سوفييت لمندوبي العمال والجنود تكوين ميليشيا عمالية .

٢ – تكون الميليشيا هذه تحت السيطرة التامة لسوفييت مندوبي العمال والجنود .

٣ – على السلطات العسكرية والمدنية أن تقدم كل ما تستطيعه من مساعدات في تسليح العمال وتجهيزهم تقنياً ، حتى الى حد مصادرة أسلحة تعود الى مديرية الحرب الحكومية .

٤ – يذاع هذا المرسوم برقياً .

بتروغراد – العاشر من تشرين الثاني – ١٩١٧

أ. أ. ريكوف

مفوّض الشعب للشؤون الداخلية

٣ – صندوق الاضراب

شاركت المصارف والبيوت التجارية في بتروغراد والمدن الأخرى والشركات الأجنبية العاملة في روسيا في صندوق الإضراب لتأييد موظفي الحكومة وكتيبة المصارف المضربين . دفعت أجور كاملة لجميع الذين وافقوا على الإضراب ضد البلاشفة ، وفي بعض الحالات زيدت معاشاتهم . تحطم الإضراب عندما تأكد المساهمون في صندوق الإضراب من سيطرة البلاشفة على السلطة ، ورفضهم دفع المزيد من التعويضات للمضربين .

٨

الثورة المضادّة

صبيحة اليوم التالي : الأحد في الحادي عشر منه دخل القوزاق تسارسكوي سيلا وعلى رأسهم كرنسكي نفسه راكباً جواداً أبيض . أجراس الكنائس كلها تدق. من على تل صغير خارج البلدة يمكن رؤية الابراج الذهبية للكنائس ، والقباب المتعددة الألوان ، والمساحة الرمادية المترامية للعاصمة المفروشة على السهل الموحش وخلفها خليج فنلندا الفولاذي اللون .

لم تقع معركة . ولكن كرنسكي ارتكب غلطة مميتة . ففي الساعة السابعة صباحاً أرسل أمراً الى فرقة بنادق تسارسكوي سيلا الثانية بأن تلقي السلاح . أجاب الجنود أنهم سيلزمون الحياد ولكنهم لن يتخلوا عن أسلحتهم . فأمهلهم كرنسكي مدة عشر دقائق لتنفيذ الأمر . أثار هذا غضب الجنود ، فهم الذين تعوّدوا على حكم أنفسهم بواسطة اللجان طيلة الثمانية أشهر الماضية ، اشتمّوا منه رائحة العهد المباد ... بعد دقائق قليلة فتحت مدفعية القوزاق نيرانها على الثكنة قاتلة ثمانية من الجنود . ومنذ تلك اللحظة لم يبقَ جنود « محايدون » في تسارسكوي ...

استيقظت بتروغراد على لعلعة الرصاص وعلى رعد الخطوات العسكرية . تحت السماء العالية المظلمة أشاعت ريح باردة رائحة الثلج . عند الفجر كانت

قوات كبيرة من « النيكرز » قــد احتلت « الفندق العسكري » ووكالة البرق ، واستعيد الموقعان منهم بعـد معارك دامية . حاصر البحارة مركز الهاتف ، وقـد انبطح هؤلاء وراء متاريس من البراميل والصناديق وصفائح التنك في وسط « مورسكايا » ، أو احتموا في ركن شارع « غوروكوفيليا » وساحة القديس اسحق ، مطلقين النـار على أي شيء يتحرّك ... سيارات ترفع علم الصليب الأحمر تدخل وتخرج أحياناً ، فقد سمح لها البحارة بذلك .

كان البرت رايس وليامز * في مركز الهاتف ، وخرج في سيارة للصليب الأحمر مليئة ظاهرياً بالجرحى . وبعد أن تجولت السيارة في المدينة ، ذهبت بطرق ملتوية الى « مدرسة ميخايلوفسكي للنيكرز » ، مقرّ الثورة المضادة ، حيث ظهر أن ضابطاً فرنسياً في الباحة كان مستلماً قيادة العمليات ... بهذه الواسطة كانت الذخـيرة والتجهيزات تنقل الى مركز الهاتف . وكان العديد من سيارات الاسعاف المزيّفة هذه تعمل كواسطة اتصال وعربات نقل ذخيرة « للنيكرز . »

وكانت بـــين أيديهم خمس أو ست مصفحات تابعة لفرقة المصفحات البريطانية المنحلّة . عندما كانت لويز براينت * تسير في ساحـــة القديس اسحق ، مرّت مصفحة من مقرّ الاميرالية قاصدة مركز الهاتف . في ركن « شارع غوغوليا » ، أمـام لويز براينت تماماً ، تعطل محركها . فبدأ بعض البحارة الكامنين وراء أكوام الخشب يطلقون النـار . فاستدار الرشاش من برج السيارة وأخذ يطلق النـار بدون تميز على أكوام الخشب وعلى الجمهور . عند القوس الذي احتمت تحته الآنسة براينت سقط العديد من القتـلى بينهم طفلان . فجأة وثب البحارة صارخين واقتحموا الفسحة المشتعلة مطبقين على المصفحة وأقحموا حرابهم في فتحات المراقبة المرّة تـلو الأخرى ... تظاهر

* البرت رايس وليامز ولويز براينت من الحركة العمالية الاميركية .

السائق بأنه قد جرح فأطلقوا سراحه – ليركض الى الدوما ويضيف الى قصص فظائع البلاشفة قصة جديدة .. بين القتلى أحد الضبّاط البريطانيين ..

وكتبت الصحف ، فيما بعد ، عن ضابط فرنسي آخر قبض عليه في مصفحة للنيكرز وأرسل الى حصن بطرس – بولس . فكذبت السفارة الفرنسية ذلك للحال ، ولكن أحد أعضاء المجلس البلدي أخبرني أنه توسط شخصياً لإطلاق سراحه ...

مهما كان الموقف الرسمي لسفارات الحلفاء فإن ضباطاً فرنسيين وانكليز كانوا فعّالين في تلك الأيام ، الى حد إسداء النصح في اجتماعات تنفيذية لجنة الانقاذ .

اصطدامات طيلة النهار بين الحرس الأحمر « والنيكرز » ، معارك بين السيارات المصفحة في كل حيّ من أحياء المدينة .. زخات رصاص ، طلقات منفردة ، ولعلعة الرشاشات تسمع من بعيد وقريب . الأعمال ما تزال تسير كالمعتاد خلف الأبواب الحديدية للحوانيت. حتى دور السينما تغصّ بالمتفرجين، مع أن الأضواء الخارجية كانت مطفأة . الحافلات تسير . أجهزة الهاتف ما تزال تعمل ، وعندما تطلب البدّالة المركزية تستطيع أن تسمع إطلاق النار بوضوح ... « سمولني » معزولة ، إلا أن الإتصال كان مستمراً بين الدوما ولجنة الانقاذ وكليات النيكرز وكرنسكي في تسارسكوي .

في الساعة السابعة صباحاً ، توجّهت دورية من الجنود والبحّارة والحرس الأحمر الى كلّية فلاديمير للنيكرز وأمهلتهم عشرين دقيقة لالقاء السلاح . فرفضوا الانذار . وبعد ساعة تأهب « النيكرز » للمسير ولكنهم اضطروا للتراجع أمام نيران غزيرة في ركن شارع غريبيتسكايا وجادة بولشوي . حاصرت قطعات السوفييت البناية وفتحت عليها النار ، بينما احتلتها مصفحتان

تتجولان جيئة وذهابا بنيران حامية . فطلب « النيكرز » مساعدة بواسطة الهاتف . فأجاب القوزاق بأنهم لا يجرأون على القدوم لأن مجموعة ضخمة من البحّارة معها مدفعان قد تمركزت قبالة ثكنتهم . كلية بافلوف محاصرة . وأكثر « النيكرز » التابعين لكلية ميخايلوفسكي يقاتلون في الشوارع ...

في الحادية عشرة والنصف وصلت ثلاث قطع من مدفعية الميدان. وقوبل طلب تسليم آخر بإطلاق النار من قبل « النيكرز » وإصابة اثنين من مندوبي الجانب السوفييتي يرفعان العلم الأبيض . الآن بدأ القصف الحقيقي . فتحت ثغرات واسعة في جدران الكلية . دافع « النيكرز » عن أنفسهم يائسين ، بينا تساقطت موجات صارخة من الحرس الأحمر المهاجين تحت النيران القاتلة ... اتصل كرنسكي هاتفياً من تسارسكوبي آمراً برفض التفاوض مع اللجنة العسكرية الثورية ...

الحرس الأحمر ، المهتاج من جراء الخسارة وأكوام القتلى ، يصب على البناية المتداعية اعصاراً من النار والحديد . لم يستطع حتى ضباطهم إيقاف القصف المخيف . وعندما حاول مفوّض من سمولني يدعى كيريلوف إيقافه ، هددوه بالشنق فوراً . لقد فار دم الحرس الأحمر .

في الساعة الثانية والنصف ، رفع « النيكرز » علماً أبيض . أعلنوا أنهم سوف يستسلمون إذا أمنت لهم الحماية . تدفق الآلاف من الجنود والحرس الأحمر من خلال الأبواب والنوافذ وثغرات الجدران هاتفين ، وقبل أن يستطيع أحد أن يتدخل ، قتل خمسة من « النيكرز » ضرباً وطعناً . وأخذت البقية ، حوالي المئتين ، الى حصن بطرس – بولس تحت الحراسة ، بمجموعات صغيرة تجنباً المشاكل . وفي الطريق هاجم جمع إحدى هذه المجموعات قاتلا ثمانية من « النيكرز » .. كان أكثر من مئة قد سقطوا من الحرس الأحمر . .

بعد ساعتين استلم الدوما مكالمة هاتفية تقول إن المنتصرين يتقدمون نحو كلية الهندسة . دزينة من الأعضاء ذهبوا في الحال ليوزّعوا على المشاة آخر مراسيم لجنة الإنقاذ – لم يتمكن عدد منهم من الرجوع . سلمت كل المدارس الأخرى وأُرسل « النيكرز » سالمين الى حصن بطرس – بولس والى كرونستاد ...

ظل مركز الهاتف يقاوم الى ما بعد الظهر ، الى أن ظهرت مصفحة بلشفية واقتحم البحّارة المكان . تراكضت عاملات الهاتف المرتعبات هنا وهناك وهن يصرخن ، بينما مزّق « النيكرز » عن أرديتهم الإشارات المميّزة ، وحاول أحدهم أن يستعير معطف وليامز لقاء أي شيء يريد للتنكر ، كانوا يصرخون : « سوف يذبحوننا ! سوف يذبحوننا ! » وذلك أن الكثير منهم كان قد تعهّد في « قصر الشتاء » بأنه لن يحمل السلاح في وجه الشعب . عرض وليامز أن يتوسط على شرط أن يطلق سراح أنطونوف . تم ذلك في الحال ، وخطب وليامز وأنطونوف في البحّارة الغاضبين من جراء خسائرهم الفادحة ، وهكذا سلم « النيكرز » مرّة أخرى ... عدا القليل منهم من الذين حاولوا ، لفزعهم ، الهرب عن طريق السطوح او الاختباء في الأدوار العليا – وجد هؤلاء وألقي بهم الى الشارع .

تدفّق العمال والجنود الى غرفة توزيع المكالمات ، ظافرين ومرهقين وملطخين بالدماء . ففوجئوا هناك بذلك العدد من البنات الجميلات فتراجعوا بخجل لا يعرفون ماذا يفعلون . لم تُهن أو تؤذى أي فتاة من الفتيات . تجمعن خائفات في الزوايا ، ثم رحن يعبّرن عن حقدهن عندما وجدن أنفسهن سالمات « أف ! الناس القذرون الجهلاء ! الحمقى ! » شعر الجنود والحراس الحمر بخجل . صرخت الفتيات: « خنازير ! وحوش ! » وبدأن ، ساخطات ، يلبسن قبعاتهن ومعاطفهن . كانت تجربتهن رومنطيقية وهن يمررن أحزمة الرصاص ويضمدن جراح حماتهن من « النيكرز » الشجعان

الذين ينتمي العديد منهم الى العائلات النبيلة ويقاتلون من اجل إرجـــاع قيصرهم الحبيب ! أمـا هؤلاء فقد كانوا عمالاً اعتياديين وفلاحين من « سواد الناس » لا أكثر ...

حاول فيشنياك الصغير، مفوّض اللجنة العسكرية الثورية اقناعهن بالبقاء. كان يفيض تأدباً . قال : « لقد تحملتن معاملة رديئة . مجلس الدوما البلدي يسيطر على مصلحة الهاتف . يدفعون لكن ستين روبـلاً في الشهر ، وتعملن عشر ساعات يوميـاً أو أزيد ... سوف يتغير ذلك من الآن فصاعداً . الحكومة تعتزم وضع مصلحة الهاتف تحت اشراف وزارة البريـد والبرق . سوف ترفع معاشاتكن حالاً الى مائة وخمسين روبلاً وتخفض ساعات عملكن. يجب أن يسعدكن الانتماء الى الطبقة العاملة ... »

الانتماء الى الطبقة العاملة ، يا عين ! هل تجرأ على القول أن هناك شيئـاً مشتركاً بين هؤلاء – هؤلاء الحيوانات ، وبيننا نحن ؟ تبغي ؟ ! لا . حتى لو عرضتم الف روبل ! وغادرن البناية بغطرسة وكراهية ظاهرتين ...

بقي مستخدمو البناية ، رجال الخطوط والعمال . ولكن يجب تشغيل لوحات توزيع المكالمات ، فالهاتف ضروري . لم يبقَ إلا نصف دزينـة من العاملات المدرّبات . طلب متطوعون ، فاستجاب مـائة بحار وجندي وعامل . الفتيات الست تركض ذهابـاً وإياباً ، تعلّم ، تساعد ، تلوم ... وهكذا عادت الخطوط الى العمل ببطء ، كسيحة متوقفة، ولكنها تعمل... أول مهمة هي إيصال « سمولني » بالثكنات والمصانع ، الثانية عزل الدومـا وكليات « النيكرز » ... انتشر الخبر في المدينة في المساء المتأخر ، واتصل مئات من البرجوازيين بالبدّالة صارخين: « حمقى ! شياطين ! الى متى تظنون أنكم ستبقون ؟ انتظروا حتى يجيء القوزاق ! »

بدأ الغروب يخيّم . أمام كاتدرائية قازان على النيفسكي شبه المهجور

الذي تلعب فيه ريح قارسة البرد ، تجمّع جمهور يناقش الى مـــا لا نهاية ، قليل من العـــمال وبعض الجنود والبقية من أصحـــاب الدكاكين والكتبة وما شابه .

صاح أحدهم: « ولكن لينين لن يستطيع أن يجعل ألمانيا تقبل بالسلم ! »

أجـابه جندي شاب عنيف : « ومن المسؤول عن ذلك ؟ كرنسكي الملعون ، البرجوازي القذر ! جهنم تأخذ كرنسكي ! لا نريده ! نريـــد لينين ! ... »

خارج الدوما ، ضابط يلبس شريطاً أبيض حول ذراعه ينزع الاعلانات عن الحائط وهو يشتم بصوت عال . وهذا نصّ أحدها :

« الى سكان بتروغراد !

في هذه الساعة الحاسمة عندما يدعو الدوما واجبها الى تهدئة السكان والى تأمين الخبز والحاجيات الضرورية الأخرى لهـــم ، يتنـــاسى الاشتراكيون الثوريون اليمينيون وحزب الكاديت واجبهم، ويحوّلون الدوما الى تجمع مضاد للثورة ، يحوّلون جزءاً من السكان ضـــد البقية وذلك لتسهيل انتصار كورنيلوف – كرنسكي . بدل أن يقوموا بواجبهم ، حوّل الاشتراكيون الثوريون اليمينيون وحزب الكاديت الدومـــا الى حلبة للهجوم السياسي على سوفييت مندوبي العمال والفلاحين والجنود ، ضـــد الحكومة الثورية ، حكومة السلم والخبز والحرية .

يا مواطني بتروغراد ، نحن الأعضـــاء البلاشفة في المجلس البلدي، الذين انتخبنا من قبلكم،نريدكم أن تعلموا ان الاشتراكيين الثوريين اليمينيين وحزب الكاديت يشتركون في الثورة المضادة ،

وانهم قد تناسوا واجباتهم ، وانهم يقودون السكان الى المجاعة والحرب الأهليــة . نحن المنتخبين من قبل ٠٠٠و١٨٣ شخص ، نعتقد أن الواجب يدعونا الى اطلاع ناخبينا على مـــا يجري في الدوما ، ونعلن أننـا نتنصل من تحمّل مسؤوليـة النتائج المخيفة المتوقعة ... »

من بعيد تأتي أصوات طلقات متقطعة ، لكن المدينة استلقت هـــادئة باردة ، كأنما التشنجات التي اجتاحتها استنفذت كل قواها .

اجتماع الدوما يشارف نهايته في قاعة نيقولاي . حتى الدوما العنيف بدا وكأنه مذهول تماماً . ألقى المفوضون تقاريرهم الواحــد تلو الآخر . سقوط مركز الهاتف ، قتال الشوارع ، سقوط كلية فلاديمير ... قال تروب : « إن الدوما تقف بجانب الديمقراطية في صراعها ضـد العنف الكيفي ، ولكن ، على أية حــال ومهما يكن الغــالب ، فـإن الدومـا ستقف دومـاً ضد القتل والتعذيب ... »

كونوفسكي ، في حزب الكاديت ، رجل طويل ، كهل ، ذو وجه قاس . « عندما يصل جنود الحكومة الشرعية سيطلقون النار على هؤلاء العصـاة ، ولن يكون هذا قتلاً كيفياً ! » احتجاجات من كل أنحاء القـاعة ، حتى من أعضاء حزبه .

الشك والكآبة يسودان المكان . كانت الثورة المضادة في طريق الإخماد . صوتت اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري بنزع الثقة عن ضباطهـا ، سيطر الجنــاح اليساري ، واستقال أفاكسانتييف . جـاء مراسل ليقول إن اللجنة التي أُرسلت لاستقبال كرنسكي قد اعتقلت . في الشوارع يمكن سماع الدوي المخنوق لمدفعية بعيدة ، الى الجنوب والجنوب الغربي . إلا أن كرنسكي لم يأت .

صدرت ثلاث صحف فقط : « برافدا » ، « ديلو ناورودا » (قضية الشعب) و « نوفاياجيزن » (الحياة الجديدة) . وخصصت كل منها مجالاً واسعاً لأخبار الحكومة الائتلافية الجديدة . طالبت جريدة الاشتراكيين الثوريين بوزارة دون بلاشفة أو كاديت . غوركي متفائل ؛ قدمت « سمولني » بعض التنازلات . حكومة اشتراكية بحتة في طور التكوين — كل العناصر عدا البرجوازية . أما برافدا ، فقد علقت بسخرية :

« إننا نسخر من هذه الائتلافات مع أحزاب سياسية أهم أعضائها من الصحفيين الصغار ذوي السمعة المشبوهة . إن « ائتلافنا »هو تحالف الطبقة العاملة والجيش الثوري مع الفلاحين الفقراء ... »

على الجدران إعلان متباه « للفيكجل » يهدد بالإضراب إذا لم يتوصل الجانبان الى تسوية .

« إن الذين سينتصرون على أعمال الشغب هذه ، الذين سينقذون بلادنا من الخراب لن يكونوا من البلاشفة أو من لجنة الانقاذ أو من جنود كرنسكي — ولكن نحن ، اتحاد سكك الحديد ...

رجال الحرس الأحمر غير قادرين على إدارة عملية صعبة مثل السكك ، إن الحكومة المؤقتة قد كشفت عن عجزها عن البقاء في الحكم ...

إننا نرفض تقديم خدماتنا لأي حزب لا يستمد سلطته من حكومة تمنحها كل القوى الديمقراطية ثقتها ... »

« سمولني » تعج بالناس الذين يعملون بحيوية لا تحدّ ...

في مقر اتحاد النقابات قدمني لوزوفسكي الى مندوب عمـــال سكك خط نيقولاي. قال هذا إن العمال يعقدون اجتماعات عامة ضخمة يحتجون فيها على عمل قياداتهم .

صرخ وهو يضرب الطاولة بيـده : « كل القوة للسوفييت ! المدافعون في اللجنة المركزية يؤيدون كرنسكي بموقفهم . لقد حاولوا إرسال وفـد ستافكا ولكننا اعتقلناه عند منسك ... طالب فرعنا بعقـد مؤتمر لعموم روسيا ، ولكنهم يرفضون دعوته ... »

نفس الوضع موجود في السوفييت ولجان الجيش . التنظيمات الديمقراطيـة في كل روسيا تنهار الواحدة تلو الأخرى وتتغير . الصراعات الداخلية تمزّق التعاونيات ؛ انفضت اجتماعات اللجنة التنفيذية للفلاحين بعد خلافات عاصفة، الخلافات تمتدّ الى القوزاق أنفسهم ...

اللجنة العسكرية الثورية ، في الطابق الأعلى ، تعمل بـأقصى جهدهـا ، تضرب ولا تكلّ . الرجال يدخلون ، نشطين أقوياء ، يقذفون بأنفسهم في هذه الآلة الرهيبة ليلاً نهاراً ، ثم يخرجون منها خائري القوى وقد أعمـاهم الإرهـــاق ، مبحوحي الأصوات تغطيهم الأوساخ ، فيسقطون على الأرض وينامون .. حلّت لجنة الإنقاذ . أكداس هائلة من البلاغات الجديدة تغطي الأرض[1] .

« ... إن المتآمرين ، الذين لا يؤيدهم أحد من الحاميـة أو من الطبقة العاملة، قد اعتمدوا ، بالدرجة الأولى ، على المفاجأة . وقـد اكتشف الملازم بلاغونرانوف خططهم في الوقت المناسب ، بسبب يقظة حارس أحمر سوف يعلن عن اسمه . كانت لجنـــة الإنقاذ هي مـدبرة المؤامرة . والعقيـــد بولكوفنيكوف يقود قواتهـم ، وقـد وقّع غوتز الأوامر ، ذلـك العضو السابق في

الحكومة المؤقتة الذي أطلق سراحه بعد أخذ وعد شرف منه .

إن اللجنة العسكرية الثورية ، إذ تلفت انتباه سكان بتروغراد الى هذه الحقائق ، تأمر باعتقال جميع الذين لهم علاقة بهذه المؤامرة تمهيداً لإحالتهم الى المحكمة الثورية ... »

جاء الخبر من موسكو بأن القوزاق و « النيكرز » حاصروا الكرملين وأمروا القوات السوفييتية بإلقاء السلاح . فوافقت ، وبينما كانت تغادر الكرملين هوجمت وأطلق عليها النار . وطردت قوات صغيرة من البلاشفة من مراكز البرق والهاتف ، ويسيطر « النيكرز » الآن على مركز المدينة .. لكن القوات السوفييتية كانت تتجمع حولهم . قتال الشوارع يتعاظم شيئاً فشيئاً . وقد فشلت جميع المحاولات للوصول الى حل وسط . بجانب السوفييت عشرة آلاف جندي من الحامية وقليل من الحرس الأحمر ، وبجانب الحكومة ستة آلاف من « النيكرز » وألفان وخمسمائة قوزاقي وألفان من الحرس الأبيض .

سوفييت بتروغراد يعقد اجتماعاته ، وبجواره تعمل « التسايكا » الجديدة وفق المراسيم والأوامر التي تصلها ، في تيار لا ينقطع ، من مجلس مفوّضي الشعب الذي يجتمع في الطابق الأعلى حول « نظام إقرار القوانين ونشرها » ، إقرار « يوم عمل من ثماني ساعات » ، ومشروع لوناتشارسكي عن « أسس لنظام تعليم شعبي » . مئات قليلة من الناس تحضر الاجتماعين ، أكثرهم مسلّح . « سمولني » تكاد تكون مهجورة ، عدا الحراس المشغولين بتثبيت الرشاشات على النوافذ لحماية جوانب البناية [٢] .

في اجتماع « التسايكا » يتكلم مندوب عن نقابات السكك الحديدية :

« نحن نرفض نقل جنود الطرفين ... أرسلنا وفداً الى

كرنسكي لنخبره أننـا سنقطع خطوط الاتصال التي يعتمدها إذا واصل زحفه على بتروغراد .. »

ثم قـدّم الطلب المعهود بعقد مؤتمـر لجميع الأحزاب الاشتراكية لتأليف حكومة جديدة .

أجابه كامنيف باعتدال . يسرّ البلاشفة أن يحضروا مؤتمراً كهذا . إن النقطة الأساسية ليست في تكوين مثل هذه الحكومة، وإنما في قبولها لبرنامج السوفييت . بحثت « التسايكا » تصريحات الاشتراكيين الثوريين اليساريين والاشتراكيين الديمقراطيين الأمميـين ، وقبلت بمبـدأ « التمثيل النسبي » في المؤتمر ، وقـد ذهبت الى حدّ الموافقة على إشراك ممثلين عن لجان الجيش وسوفييت الفلاّحين ...

في القاعة الضخمة يروي تروتسكي حوادث اليوم .

قال : « أعطينا « نيكرز » كلية فلاديمير فرصة للاستسلام . أردنا أن نتدبر الأمر بدون سفك دماء . ولكن الآن وقد سالت الدماء ، فليس هناك طريق غير مواصلة الصراع بـلا هوادة . من الحمق أن نظن أن هناك وسيلة أخرى للانتظار ... اللحظة حاسمة . يجب أن يتعاون الجميع مـع اللجنة العسكرية الثورية ، وأن يبلغوها عن مخـازن الاسلاك الشائكة والبنزين والأسلحة ... لقد استولينا على السلطة ، الآن يجب أن نحتفظ بها ! »

حاول يوف المنشفي قراءة بيان حزبـه ، لكن تروتسكي منع « النقاش حول القضايا المبدئية . »

« إن نقاشنا يـدور اليوم في الشوارع . لقـد خطونا الخطوة الحاسمة ، ونحن جميعاً ، وأنا شخصياً ، نتحمل مسؤولية ما يحدث ... »

جنود من الجبهة ومن « غاتشينا » يروون قصصهم . واحد من « فيلق الموت » ١٨١ – مدفعية – يقول : « عندما يسمعون هذا في الخنادق سيقولون هذه هي حكومتنا ! »

قال أحد « النيكرز » من بيترهوف أنه ، واثنان من زملائه ، رفض القتال ضد البلاشفة ، ولما عاد رفاقه من الدفاع عن « قصر الشتاء » ، عينوه مفوضاً لهم ليذهب الى « سمولني » ويعرض خدماتهم على الثورة الحقيقية ...

وعاد تروتسكي ملتهباً ، لا يكلّ ، يصدر الأوامر ويجيب على الأسئلة :

قال مرّة : « إن البرجوازية الصغيرة مستعدة للاتفاق مع الشيطان نفسه لكي تهزم العمال والجنود والفلاحين ! » لوحظت حالات سكر كثيرة خلال اليومين الماضيين : « لا تشربوا ، يا رفاق ! يجب أن لا يكون أحد في الشارع بعد الساعة الثامنة فيما عدا الحرس النظامي . يجب أن نفتش على المحلات التي يشتبه أنها تخزن الخمور ، وإتلافها . لا رحمة لبائعي الخمور ... »(٣)

أرسلت اللجنة العسكرية الثورية تطلب وفد حي فيبورغ ، ثم ممثلي بوتيلوف . فخرج هؤلاء مسرعين .

قال تروتسكي : « مقابل كل ثوري يقتل ، سنقتل خمسة من أعداء الثورة ! »

عدنا الى المدينة . الدوما مشعشعة بالأضواء وجموع غفيرة تتدفق الى الداخل . في القاعة السفلى عويل ونحيب ، الجمع يتدافع حول اللوحة الاخبارية حيث علقت قائمة بأسماء « النيكرز » الذين قتلوا في معارك اليوم ؛ أو الذين يظن أنهم قتلوا لأن كثيراً منهم رجع سليماً معافى بعد فترة ... في قاعة الكسندر ، فوق ، تعقد لجنة الانقاذ اجتماعها . شارات الضباط الحمراء والذهبية تملأ المكان ، والوجوه المألوفة لمثقفي المناشفة والاشتراكيين الثوريين ،

وأصحاب المصـــارف والدبلوماسيين بعيونهم القاسية وفخامتهم المنفوخة ، رسميو العهد المباد ، ونساء أنيقات ...

فتيات الهاتف يدلين بشهاداتهن . تقدمت الواحدة بعـــد الأخرى الى المنصة – متبرّجات ، مقلّدات للموضة ، بوجوه خائفة وأحـذية مثقوبة . الفتـــاة تلو الأخرى تحمرّ امتناناً لتصفيق تاس بتروغراد « المحترمين » ، تصفيق الضباط و لأغنياء والأسماء الشهيرة في دنيا السياسة ، تروي ما عانته على أيدي الطبقة العاملة ، وتعلن ولاءها لكل ما هو قديم وثابت وقوي ...

الدومـــا تجتمع مرة أخرى في قاعة نيقولاي . المحافظ متفائل . يقول بأن فرق بتروغراد قـــد خجلت من أعمالها ، وأن الدعاية بدأت تعطي ثمارها...المبعوثون يروحون ويجيئون،مخبرين عن الفظائع التي يرتكبها البلاشفة، متدخلين لإنقاذ « النيكرز » ، مشغولين بالتحقيقات ...

قال تروب: « سننتصر على البلاشفة بقوّة الأخلاق، وليس بالحراب... »

في تلك الأثناء ، لم تكن الأحوال على ما يرام في الجبهة الثورية . جـاء العدو بقطارات مصفحة مسلحة بالمدافع . وكانت قوات السوفييت المكوّنة من الحرس الأحمر عديمة الخبرة، بدون ضباط وبدون خطط واضحة. لم ينضم اليها سوى خمسة آلاف جندي من الحامية . كان الباقون مشغولين بإخمـــاد ثورة « النيكرز » في المدينة ، أو في أعمال حماية المدينة ، أو أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون . في العاشرة ليلاً خطب لينين في اجتماع مندوبي فرق المدينـة الذين صوتوا على القتـــال بأغلبية ساحقة . انتخبت لجنـة من خمسة جنود لتقدم أعمـال الأركان العامة ؛ وفي ساعات الصباح الأولى ، تركت الفرق ثكناتها وهي بكامل استعدادها للقتـــال ... عند ذهابي الى البيت رأيتهم يمرون ، خلال الشوارع المقفرة ، بخطى المحاربين المجرّبين وحرابهم في خط كامل الانتظام ...

في الوقت ذاته ، كان ينعقـــد مؤتمر كل الأحزاب الاشتراكية لتكوين حكومة جديـــدة ، وذلك في مقر نقـابات سكك الحديـــد في شارع « سادوفايا » . قال ابراموفيتش ، متكلماً باسم المناشفة الوسطيين ، إنــه يجب أن لا يكون هناك غالب أو مغلوب ، وإن ما مضى مضى .. فوافقت على قوله جميع الأحزاب اليسارية . عرض دان على البلاشفـة ، متكلماً باسم المناشفة اليمينيين ، الشروط التالية لعقد الهدنة : نزع سلاح الحرس الأحمر ، وضع حامية بتروغراد تحت سلطة الدوما ، جنود كرنسكي لا يطلقون النار ولا يقتلون أحداً ، وزارة من جميع الاشتراكيين ما عـدا البلاشفة . أعلن ريازانوف وكامنييف ، باسم « سمولني » ، قبول الوزارة الائتلافيــة واحتجا على مقترحات دان في نفس الوقت . الاشتراكيون الثوريون منقسمون ، بينما رفضت اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين والاشتراكيون الشعبيون قبـول إشراك البلاشفة ... وبعد صراع مرير ، انتخبت لجنة لوضع خطـة صالحة للعمل ...

ظلت اللجنة تتشاحن فيما بينها طيلة الليلة واليوم الذي تلاهـا والليلة التي تلته . في المرة الماضيــة ، يوم ٩ تشرين الثاني ، جرت محاولة مماثـلة قادهـا مارتوف وغوركي ، ولكن اليمين المنشفي والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبيين انسحبوا فجأة بسبب تقدم كرنسكي ونشاط لجنـة الانقاذ . أمـا الآن فانهم لم ينسحبوا لأن سحق عصيان « النيكرز » قد أفزعهم ...

كان يوم الاثنين في ١٢ منه مليئاً بالترقب . أنظار روسيا كلها تتجه الى السهل الرمادي عبر بوابات بتروغراد حيث تواجه قوات العهـد المباد القوة المبعثرة للعهد الجديد المجهول . اعلنت الهدنة في موسكو . وأخذ الطرفـان بانتظـار ما سيجري في العاصمة . مندوبو مؤتمر السوفييت يستعجلون في عودتهم الى مواطنهم في كل أنحاء روسيا ، بقطارات مسرعة ، حاملين صليبهم المشتعل . انتشرت أنباء المعجزة بحلقات تتوسع بسرعة على وجـه الأرض ،

فتستيقظ مدن وقرى بعيدة على الهيـاج والانشقاق : السوفييت واللجان العسكرية الثورية ضد الدوما والزيمستوفا ومفوضي الحكومة، الحرس الأحمر ضد الحرس الأبيض ، القتال في الشوارع والخطب العاصفة... النتائج تتوقف على أخبار العاصمة ...

« سمولني » فارغ تقريباً ، بينما مقر الدومـا مزدحم ضاج . المحـافظ العجوز يحتج بطريقته المتزنة على النداء الذي أصـدره الأعضاء البلاشفة في الدوما ، قـال بحرارة : « الدومـا ليس وكراً للثورة المضادة . الدومـا لا يشارك في الصراع الحالي بين الأحزاب . ولكن في الوقت الذي لا توجد فيه سلطة شرعية في البلد ، فالحكومة الذاتية البلدية هي مركز النظام الوحيد . هذا ما يعترف به السكان المسالمون ؛ كما أن السفارات الأجنبية لا تعترف إلا بالوثائق التي يوقّعها محافظ المدينة . إن عقل الأوروبي لا يعترف بوضعيـة غير هذه ، فالحكومة البلدية هي الهيئـة الوحيـدة التي تستطيع حمـاية مصالح المواطنين. إنه لمن واجب المدينة أن تعرض حسن ضيافتها على كل من يحتاجه، ولذا فلا يمكن للدوما أن يمنع توزيع أية صحيفة داخل بنايته . إن نطاق عملنا يتوسع ، ويجب أن نمنح الحرية الكاملة في العمل ، وأن يحترم الجانبـان حقوقنا ..

« نحن محايدون تماماً . فعندما احتل « النيكرز » مركز الهـاتف أمر العقيد بولكوفنيكوف بقطع خطوط « سمولني » ، ولكني أعلنت احتجاجي على ذلك فأعيد وصل الخطوط ... »

هنا تعالت ضحكات ساخرة من البلاشفة ، وتعليقات مضادة من اليمين . تابع شرايدر : « ومع هذا ، فإنهم ينظرون إلينا كأعداء للثورة ، ويخبرون السكان عنا. أنهم يحرموننا من وسائل المواصلات بالاستيلاء على آخر سياراتنا إذا حصلت مجاعـة في المدينة ، فلن يكون الذنب ذنبنـا . لا فائدة من الاحتجاج ... »

أبـدى كوبوزيف – العضو البلشفي في مجلس البلدية – شكّه في أن تكون اللجنة العسكرية الثورية قد صادرت سيارات الحكومة البلدية . وحتى لو كان ذلك صحيحاً ، فإنه حتماً عمل افراد قاموا بـــه بدون تفويض من اللجنة حتمته الظروف القاهرة .

قال : « المحافظ يحثنا على أن لا نحوّل الدوما الى ندوة سياسية ، ولكن المناشفة والاشتراكيين الثوريين لا يتكلمون هنا بشيء غير الدعاية الحزبيـة . وهم يوزّعون على البـاب صحفهم المنوعـة : « الشرارات » و « صوت الجندي » و « جريدة العمال » ، وكلها تحرّض على العصيان . ماذا لو وزّعنا نحن البلاشفة ، صحفنا هنا ؟ ولكننا لن نفعل ذلك لأننا نحترم الدوما . إننا نهاجم الحكومة الذاتية البلدية ولن نهاجمها . ولكنكم وجهتم نداء الى السكان، ونحن أيضاً لنا الحق في أن نفعل ذلك ... »

وتبعه سينغاروف ، من الكاديت ، فقال بأنه لا يوجد أرض مشتركة مع الذين يُحتمل أن يدينهم المدعي العام غداً ، والذين يجب أن يحاكموا بتهمـة الخيانة ... واقترح للمرة الثانية طرد جميع الاعضاء البلاشفة من الدومـا . فلم ينجح الاقتراح لعدم وجود تهم شخصية ضد الأعضاء ولفعاليتهم في الإدارة البلدية .

ثم قام اثنان من المناشفة الأمميين وأعلنوا أن نداء الأعضـاء البلاشفة في الدوما هو تحريض صريح على إقامة المذابح . قـال بينكيفيتش : « إذا كان من يعارض البلاشفة هو عدو للثورة فأنا لم أعد أستطيع أن أميّز بين الثورة والفوضى ... إن البلاشفة يعتمدون على عواطف الجماهير غير الملجومة ، أما نحن فلا نملك إلا القوة المعنوية . سوف نحتج على المذابح والعنف عند الجانبين لأن مهمتنا هي إيجاد حلّ سلمي » .

قال تازاريف : « إن الإعلان المعلق في الشوارع بعنوان « الى الحازوق»

والذي يدعو الشعب الى القضاء على المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، مـا هو إلا جريمة لن تستطيعوا محوها ، أيهـا البلاشفة . ليست فظائع الأمس سوى مقدمة لما تحضّرون له في بيانات مثل هذه ... لقد حاولت دائمـاً أن أوفق بينكم وبين الأحزاب الأخرى ، أما الآن ، فإني لا أشعر تجاهكم إلا بالاحتقار !»

فانتصب الأعضاء البلاشفة وهم يصرخون بغضب ، تحيط بهـم الأصوات الخشنة المعادية والقبضات الملوّحة من كل جهة ...

لقيت مهندس المدينـة خارج القاعة ، غونبرغ المنشفي ، ومعه ثلاثة أو أربعة صحفيين . وكانوا جميعاً متفائلين :

« هـل رأيت ؟ الجبناء يخافوننا . أنهـم لا يجرأون على اعتقال أعضاء الدوما ! لجنتهم العسكرية الثورية لا تجرؤ على إرسال مفوّض الى هذه البناية. رأيت اليوم في شارع سادوفايا حارساً أحمر يحاول منع صبي من بيـع « صوت الجندي » ... الصبي يضحك عليه ، بينما حاول جمع من الناس قتل المجرم . القضية أصبحت الآن قضية ساعـات لا أكثر . ليس عندهم رجـال لتسيير الحكم حتى لو لم يـأت كرنسكي . مهزلة ! علمت أنهم يتقاتلون فيما بينهم في سمولني ! »

وجرّني صديق اشتراكي ثوري جانباً وقال : « أعرف أين تختبىء لجنـة الإنقاذ . هل تريد أن تذهب للتحدث إليهم ؟ »

المساء قد هبط على المدينة التي بدأت تعود الى حياتها العـادية . أبواب الحوانيت مفتوحة ، الأضواء تتلألأ ، وفي الشوارع جماهير غفيرة تروح وتجيء وهي منهمكة بالنقاش .

في رقم ٨٦ بشارع نيفسكي دلفنا من ممر الى ساحـة تحيط بهـا بنايات سكنية عاليـة . طرق صديقي بطريقـة خاصـة باب الشقـة رقم ٢٢٩ .

سمعت حركة في الداخل ، وصوت باب داخلي يفتح ثم يغلق ، الى أن شُق الباب الخارجي وظهر وجه امرأة . وبعد ان تفحّصنا طيلة دقيقة ، سمحت لنا بالدخول - إنها امرأة في أواسط العمر هادئة المظهر ، صاحت رأساً : « كل شيء على ما يرام يا كبريل ! » في غرفة الطعام حيث يغلي « سماور » على مائدة عليها صحون مليئة بالخبز والسمك النيء ، خرج رجل ببذلة عسكرية من وراء ستار النافذة ، وظهر آخر من الخزانة وهو يرتدي ثياب عامل . كانا مغتبطين بلقاء مراسل أميركي . أخبراني بحماسة أنهما سيعدمان حتماً اذا أمسك بهما البلاشفة . رفضا إعطاء أسميهما واكتفيا بالقول أنهما من الحزب الاشتراكي الثوري ...

سألت : « لماذا تنشر صحفكم أخباراً كاذبة ؟ »

أجاب الضابط دون أن يعتبر هذا السؤال إهانة : « بلى . أعرف . ولكن ما العمل ؟ » وهزّ كتفيه « عليك أن تعترف بأنه من الضروري أن نخلق رأياً عاماً خاصاً في أذهان الجماهير . »

قاطعه الرجل الآخر « هذه مجرّد مغامرة قام بها البلاشفة . ليس عندهم مثقفين . لن تقبل الوزارات أن تعمل ... روسيا ليست مدينة ، إنها بلد بأكمله ... بناءً على معرفتنا بأنهم سيستمرّون لأيام قليلة فقط ، قررنا أن نساعد أكبر قوة معارضة لهم - كرنسكي - فنكون بذلك قد ساهمنا في إعادة الاستقرار . »

قلت : « لندع هذا جانباً . لماذا تتحالفون مع الكاديت ؟ . »

ابتسم العامل المزيّف بصراحة وقال : « الحق يقال أن أوسع الجماهير تتبع البلاشفة الآن . إننا لا نستطيع أن نجمع حفنة من الجنود . ليس عندنا أسلحة . البلاشفة على حقّ الى حدٍّ ما عندما يقولون إن هناك قوتين فقط في هذه اللحظة في روسيا . البلاشفة والرجعيون الذين يختفون كلهم وراء

قناع الكاديت. يمتقد الكاديت أنهم يستعملوننا ، ولكننا نحن الذين نستعملهم في الواقع . بعد أن نحطّم البلاشفة ، سننقلب على الكاديت ... »

« هل سيُقبل البلاشفة في الحكومة الجديدة ؟ »

حكّ رأسه واعترف : « هـــذه مشكلة . اذا لم يقبلوا فإنهم بالطبع سيعيدون فعلتهم . على كل حال ، ستكون لهم فرصة السيطرة على توازن القوى في الجمعية التأسيسية ، هذا اذا انعقدت هذه الجمعية فعلاً . »

قال الضابط : « ثم أن هذا يطرح مسألة إدخـال الكاديت الى الحكومة الجديدة – للأسباب نفسها . أنت تعلم أن الكاديت ، في الحقيقة ، لا يريدون جمعية تأسيسية – ليس اذا كان بالإمكان سحق البلاشفة الآن . » هزّ رأسه وتابع حديثـــه : « السياسة ليست سهلة بالنسبة لنـا ، نحن الروس . أنتم الأميركيون تولدون سياسيين ، عندكم حياة سياسية طوال حياتكم ، أما نحن فإننا لم نعرفها إلا منذ سنة فقط ! »

سألته : « ما رأيك بكرنسكي ؟ »

أجاب الرجل الآخر : « كرنسكي مسؤول عن أخطاء الحكومة المؤقتة . إن كرنسكي هو الذي أجـــبرنا على القبول بالتحالف مع البرجوازية . لو أنه نفّذ تهـديده واستقال ، لعنى ذلك أزمـة وزارية قبل انتخابات الجمعيـــة التأسيسية بستة عشر أسبوعاً فقط . وأردنا أن نتجنّب ذلك . »

« ولكن ألم يحصل ما هو شبيه بذلك على كل حال ؟ »

« نعم . ولكن كيف كان لنا أن نعرف به مسبقاً ؟ لقد خدعونا – أقران كرنسكي وأفاكسانتيف . غوتز أكثر ثورية بقليل . أنا مع تشيرنوف ، إنــه ثوري حقيقي ... لينين نفسه أرسل يقول إنه لن يمـــانع في اشتراك تشيرنوف في الحكومة .

« نحن كذلك أردنا أن نتخلص من كرنسكي ، ولكننا فضلنا أن ننتظر الجمعية التأسيسية ... في بداية الأمر كنت مع البلاشفة ، لكن اللجنة المركزية لحزبي صوّتت بالإجماع ضدها - ماذا أعمل ؟ كانت القضيّة قضيّة انضباط حزبي ...

« ستنهار حكومة البلاشفة خلال أسبوع اذا استطاع الاشتراكيون الثوريون الوقوف جانباً والانتظار ، فيسقط الحكم في أيديهم . ولكن اذا انتظرنا أسبوعاً ثانياً فإن الفوضى ستعمّ البلد الى حدّ يؤدي الى انتصار الاستعماريين الألمان . لهذا بدأنا ثورتنا بفرقتين من الجنود فقط ، وعدونا بالمساعدة ولكنهم انقلبوا ضدنا .. لم يتركوا لنا إلا القوزاق ... »

« وماذا عن القوزاق ؟ »

تنهّد الضابط قائلاً : « لم يتحرّكوا . قالوا أولاً إنهم سيخرجون اذا ساندهم المشاة . ثم أضافوا أن رجالهم مع كرنسكي وأنهم يعملون ما عليهم . وقالوا كذلك أنهم متهمون بأنهم أعداء للديمقراطية بالوراثة ... وفي النهاية قالوا : « لقد وعد البلاشفة بعدم مصادرة أراضينا . ليس علينا خطر . سنلتزم الحياد . »

أناس يدخلون ويخرجون بصورة دائمة طوال المحادثة ، أكثرهم من الضبّاط الذين نزعوا شاراتهم . كنا نراهم في القاعة ، ونسمع أصواتهم الخافتة الحادة . وأحياناً ، كنا نستطيع أن نرى من خلال باب الحمام المفتوح ، رجلاً ضخماً ببزة عقيد ، جالساً على المرحاض يكتب على دفتر وضعه في حضنه . علمنا أنه العقيد بولكوفنيكوف ، قائد حامية بتروغراد السابق الذي خصّصت اللجنة العسكرية الثورية ثروة ضخمة لمن يلقي القبض عليه ...

قال الضابط : « برنامجنا ؟ هذا هو : تسليم الأراضي للجان الأرض . يمثّل العمال تمثيلاً كاملاً في السيطرة على الصناعة . برنامج حيوي لإحلال

السلم ، وليس كالإنذار الذي وجّهه البلاشفة للعالم . لا يستطيع البلاشفة أن يحافظوا على الوعود التي قطعوها للجماهير، ولا للبلد نفسه... لن نسمح لهم... لقد سرقوا برنامجنا الزراعي ليكسبوا تأييد الفلاحين. هذا عمل غير شريف. لو انهم انتظروا الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية . »

قال العامل المزيّف مقاطعاً : « الجمعية التأسيسية لا تهمّنا . اذا أراد البلاشفة بناء دولة اشتراكية فنحن لا نستطيع العمل معهم بأي حال ! لقد ارتكب كرنسكي غلطة كبرى . عرّف البلاشفة بنواياه عندما أعلن أمام مجلس الجمهورية بأنه سيلقي القبض عليهم ... »

قلت : « ولكن ما تنوون أن تعملوا ؟ »

تبادل الرجلان النظرات . « سوف ترى بعد أيام قليلة . اذا حصلنا على تأييد عدد كافٍ من جنود الجبهة ، فلن نساوم مع البلاشفة . واذا لم نحصل على ذلك اضطررنا للمساومة ... »

عدنا الى شارع نييفسكي . وقفزنا الى حافلة مليئة بالناس... تتقدم ببطء أليم نحو سمولني البعيد .

كان ميشكوفسكي نازلاً الى القاعة ، أنه رجل أنيق ضامر صغير الحجم ، تبدو عليه مظاهر القلق . أخبرنا بأن اضراب الوزارات بدأ يعطي مفعوله. مثلاً بعد أن كان مجلس مفوضي الشعب قد وعد الشعب بأنه سينشر المعاهدات السرّية اختفى نيراتوف ، الموظف المسؤول ، حاملاً معه الوثائق . ويقال أنه أخفاها في السفارة البريطانية ...

إلا أن أسوأ ما في الأمر كانت نتائج اضراب المصارف. قال ميتشينسكي: « نحن عاجزون بدون نقود . يجب أن ندفع أجور عمال السكك الحديدية ، ومستخدمي البريد والبرق... المصارف مقفلة . ومصرف الدولة ، مفتاح

الوضع كله ، مقفل أيضاً . لقد رشوا كل كتبة المصارف في روسيا لإيقاف العمل ...

ولكن لينين أصدر أمراً بفتح خزائن مصرف الدولة بواسطة الديناميت. وهناك مرسوم صدر الآن يأمر المصارف الخاصة بفتح أبوابهـا غـداً وإلا فتحناها بأنفسنا .

سوفييت بتروغراد في اجتماع حافل ، يعجّ بالرجال المسلحين . تروتسكي يقدّم تقريره :

« القوزاق يتراجعون من كراسنوي سيلا » (هتاف حاد مبتهج) ، ولكن هذه مجرّد بداية المعركة . القتال العنيف ما زال مستمراً في بولكوفا . يجب إرسال كل القوات المتوفّرة بسرعة الى هناك ...

« أخبار سيئـة من موسكو . الكرملين بيد « النيكرز » وليس عنـد العمال إلا أسلحة قليلة . النتيجة هناك متوقفة على ما يجري في بتروغراد ...

« مراسيم السلم والأرض تثـير حماساً عظيماً في الجبهة . هـذا بينما يغرق كرنسكي الخنـادق بسيل من القصص عن بتروغراد المشتعـلة الدامية ، وعن ضحايا المذابح البلشفية من النساء والأطفال . ولكن لا يصدّقه أحد ...

« البارجات الحربية « أوليغ » و « أفرورا » و « ريسبوبليكا » على نهر النيفا ، ومدافعها مصوّبة نحو مداخل المدينة ... »

صاح صوت خشن : « لماذا لستَ هناك مع الحرس الأحمر ؟ »

أجاب تروتسكي : « أنا ذاهب الآن ! » ونزل عن المنصة يعلو وجهـه شحوب أكثر بقليل من المعتـاد ، محاطاً بالأصدقاء المتحمسين ، وأسرع نحو السيارة التي تنتظره .

الآن يتكلم كامنيف ، واصفاً ما دار في مؤتمر المصالحة . قال إن شروط

الهدنة التي وضعها البلاشفة قد رفضت باحتقار . حتى فروع نقابة سكك الحديد صوّتت ضدها ...

« الآن وقد استولينا على السلطة وبدأنا نجتاح روسيا بأمرها ، يطلبون منا ثلاثة أشياء بسيطة : ١ – أن نسلّم السلطة ، ٢ – أن نجبر الجنود على مواصلة الحرب ، ٣ – أن نجبر الفلاحين على نسيان الماضي ... »

ظهر لينين لفترة قصيرة ليجيب على اتهامات الاشتراكيين الثوريين :

« يتهموننا بأننا سرقنا برنامجهم الزراعي ... اذا كان ذلك صحيحاً فنحن ننحني لهم . إنه يناسبنا تماماً ... »

وهكذا استمرّ هدير الاجتماع القيادي تلو القيادي يشرح ويحثّ ويناقش ، والجندي تلو الجندي ، والعامل تلو العامل يقف ليعبّر عما في قلبه وعقله ...

المتفرّجون يتغيّرون دائماً . بين الحين والآخر يدخل رجال يصيحون إن على رجال القطعة الفلانية الالتحاق بالجبهة ؛ ويجيء آخرون بعد انتهاء نوبتهم ، أو لأنهم جرحى ، أو لأنهم قادمون الى « سمولني » طلباً للأسلحة والمعدّات ، فيتدفقون جميعاً الى القاعة ...

كانت الساعة الثالثة صباحاً عندما تركنا القاعة وقابلنا هولتزمان ، من اللجنة العسكرية الثورية ، راكضاً متألق الوجه .

صرخ وهو يصافحني: « كل شيء على ما يرام ! برقية من الجبهة . تحطّم كرنسكي ؟ أنظر لهذه ! »

قدّم لي ورقة مكتوب عليها بالقلم الرصاص بخطّ غير واضح ؛ ثم قرأها بصوت عال عندما عجزنا عن قراءتها :

« بولكوفا.الأركان. الساعة الثانية وعشر دقائق قبل الظهر.

إن التاريخ سوف يخلّد ليلة ٣٠ – ٣١ من أكتوبر (التاريخ الرومي القديم) . لقد صدّت ، بطريقة حاسمة، محاولة كرنسكي في تحريك القطعات المضادة للثورة الى العاصمة. كرنسكي يتراجع ، ونحن نتقدّم. لقد برهن جنود وبحّارة وعمال بتروغراد المسلحون على أنهم قادرون على فرض إرادة الديمقراطية وسلطتها. حاولت البرجوازية عزل الجيش الثوري . وحاول كرنسكي تحطيمة بقوّة القوزاق . وقد انتهت الخطتان بفشل ذريع .

إن فكرة سيطرة ديمقراطية العمال والفلاحين قـد وحّدت صفوف الجيش وقوّت عزيمته . سيقتنع البلد بأمره ، من الآن فصاعداً ، بأن سلطة السوفييت ليست بالشيء العابر ، وإنما هي الحقيقة التي لا تقهر ... إن هزيمة كرنسكي هي هزيمة ملاك الأرض والبرجوازيين والكورنيلوفيين بشكل عام . إن هزيمة كرنسكي هي تأكيد لحق الشعب في حياة مسالمة حرّة ، ولحقه في الأرض والخبز والسلطة . إن فرقة بولكوفا قـد دعّمت قضية ثورة العمال والفلاحين بضربتها الجريئـة . لا عودة للماضي . أمامنـا كفاح ومصاعب وتضحيات ، لكن الطريق مفتوح والنصر أكيد .

إن روسيا الثورية والسلطة السوفييتية فخورتان بفرقـة بولكوفا العـاملة تحت قيـادة العقيد والدن . الخلود للذين استشهدوا ! المجد لمحاربي الثورة من الجنود والضبـاط المخلصين للشعب !

تعيش روسيا الاشتراكية الشعبية الثورية .

عن المجلس

ل . تروتسكي ، مفوّض الشعب »

في طريق عودتنا الى البيت ، عبر ساحة زناميلسكي ، رأينا تجمّعاً غير عادي أمام محطة قطار نيقولاي . بضعة ألوف من البحارة متجمعين حاملين البنادق . وكان أحد أعضاء « الفيكجل » يخاطبهم :

« أيها الرفاق ، لا نستطيع نقلكم الى موسكو . نحن على الحياد . إننا لا ننقل جنود الجانبين . لا نستطيع أخذكم الى موسكو حيث تدور الآن حرب أهلية رهيبة ... »

كل الساحة تزأر حقدها في وجهه ، وبدأ البحارة بالتقدّم . وفجأة فتح باب على مصراعيه وظهر منه اثنان أو ثلاثة من عمال القطارات.

صرخ أحدهم : « من هنا ، يا رفاق ! سنأخذكم الى موسكو أو الى فلاديفوستوك إن شئتم ! تعيش الثورة ! »

هوامش

(الفصل الثامن)

١ - بيانات اللجنة العسكرية الثورية

« الى سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين .

« إن مؤتمر سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين لعموم روسيا يكلف منظمات السوفييت المحلية بأن تتخذ أنشط الإجراءات للوقوف بوجه الشغب المعادي للثورة الذي يتخذ شكل حملات لاسامية ومذابح على أنواعها. إن شرف ثورة العمال والجنود والفلاحين لا يستطيع أن يتسامح مع أية فوضى ...

« لقد حافظ الحرس الأحمر والحامية الثورية والبحارة على النظام في العاصمة بطريقة كاملة .

« أيها العمال والجنود والفلاحون في كل مكان اقتدوا بعمال وجنود بتروغراد .

« أيها الرفاق الجنود والقوزاق ، إن واجب المحافظة على النظام الثوري الحقيقي يقع على عاتقنا .

« أنظار روسيا كلها ، وأنظار العالم أجمع موجّهة إليكم ... ».

* * *

« إن مؤتمر السوفييت لعموم روسيا يأمر بما يلي :

« إلغاء حكم الاعدام في الجبهة ، هذا الحكم الذي أعاده كرنسكي .

« إعادة حرّية الدعاية في البلاد . يطلق سراح كل الجنود والضباط الثوريين الذين اعتقلوا بسبب ما يسمّى بـ « جرائم » سياسية .

* * *

« إن كرنسكي رئيس الوزراء السابق الذي خلعه الشعب ، يرفض الخضوع لمؤتمر السوفييت ويحاول مقاومة الحكومة الشرعية –مجلس مفوّضي الشعب– التي انتخبها المؤتمر العام . لقد رفضت الجبهة أن تساعد كرنسكي . والتفّت موسكو حول الحكومة الجديدة . السلطة بين أيدي السوفييت في مدن كثيرة (منسك ، موغيليف ، خاركوف) . ليس هناك قطعة مشاة واحدة توافق على التحرّك ضد حكومة العمال والفلاحين ، الحكومة التي بدأت محادثات السلام وأعطت الأرض للفلاحين تمشياً مع إرادة الجيش والشعب ...

« إننا نحذّر القوزاق علناً بأنهم اذا لم يوقفوا كرنسكي الذي خدعهم والذي يقودهم ضدّ بتروغراد ، فإن القوى الثورية ستهبّ ، بكل ما لديها من قوّة ، للدفاع عن المكسبين الثوريين الثمينين : السلم والأرض .

« يا مواطني بتروغراد ! لقد هرب كرنسكي من بتروغراد تاركاً السلطة لكيشكين الذي أراد تسليم العاصمة للألمان ؛ وروتنبرغ ، عضو العصبة

السوداء ، الذي نسف أجهزة التموين البلدية ؛ وبالتشينسكي الذي تكرهه جميع القوى الديمقراطية . لقد هرب كرنسكي تاركاً إياكم للألمـــان والجاعة والمذابح الدموية . اعتقـــل الشعب الثائر وزراء كرنسكي ، ولقد شاهدتم كيف تحسّن النظام والتموين في بتروغراد رأساً . كرنسكي يزحف ضدكم بناء على طلب الملاك الأرستقراطيين والرأسماليين والمضاربين ، وغايته إرجاع الأرض للملاك ومواصلة الحرب البغيضة المخرّبة .

« يا مواطني بتروغراد ! إننا نعلم أن غالبيتكم العظمى تؤيد سلطة الشعب الثورية ضد الكلورنيلوفيين بقيـــادة كرنسكي . لا تخدعنكن التصريحات الكاذبة من المتآمرين البرجوازيين الفاشلين الذين سيسحقون بلا رحمة .

« أيهـا العمال والجنود والفلاحون . إننا ندعوكم الى التفـاني والانضباط الثوريين .

« ملايين الفلاحين والجنود معنا .

« انتصار ثورة الشعب مضمون ! »

٢ — القوانين الصادرة عن مجلس مفوّضي الشعب

المساكن

١ — يحق للحكومات الذاتية البلدية أن تصادر جميع المساكن غير المأهولة.

٢ — يحق للبلديات أن تسكِن في المساكن المتوفّرة المواطنين الذين بدون مسكن أو الذين يعيشون في مساكن مزدحمـة أو غير صحيّة ، وذلك وفق قوانينها وترتيباتها الخاصة .

٣ — يحق للبـلديات أن تنشيء جهازاً مكلفاً بتفتيش المساكن ، وأن تنظمه وتحدّد صلاحياته .

٤ – يحق للبلديات أن تصدر الأوامر حول تكوين « لجان المساكن »، وأن تنظّمها وتحدد صلاحياتها وتمنحها سلطات قانونية .

٥ – يحق للبلديات تكوين « محاكم للمساكن » وأن تحدد صلاحياتها وسلطاتها .

٦ – يبلّغ هذا القرار برقياً .

مفوّض الشعب للشؤون الداخلية
ا.ي. ريكوف

حول الضمان الاجتماعي

لقد رفعت البروليتاريا الروسية شعار الضمان الاجتماعي الكامل للعمال المأجورين ولفقراء المدن والقرى . إن حكومة القيصر، والملاك والرأسماليين، وحكومة التحالف والمساومة قد عجزت جميعاً عن تحقيق رغبات العمال فيما يتعلق بالضمان الاجتماعي .

إن حكومة العمال والفلاحين، المعتمدة على دعم سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين، تعلن الى الطبقة العاملة الروسية والى فقراء المدن والقرى أنها ستعدّ فوراً المراسيم المتعلقة بالضمان الاجتماعي المبنيّة على الاقتراحات التي قدمتها المنظمات العمالية :

١ – ضمان لجميع العمال المأجورين بدون استثناء بالإضافة الى فقراء المدن والريف .

٢ – ضمان يشمل كل مستويات فقدان القابلية على العمل، كالمرض، والعجز، والشيخوخة، والحبل، والترمّل، واليتم، والبطالة .

٣ – يتحمّل أرباب العمل جميع تكاليف الضمان .

٤ – في حالة فقدان القابلية على العمل والبطالة يكون التعويض موازياً للأجور كاملة على الأقل .

٥ – التسيير الذاتي العمالي الكامل لجميع مؤسسات الضمان .

مفوّض الشعب للعمل
الكسندر شليابينكوف

* * *

حول التعليم الشعبي

يا مواطني روسيا !

مع ثورة السابع من تشرين الثاني ، سيطرت الجماهير الكادحة لأول مرّة على السلطة الحقيقية .

إن المؤتمر العام للسوفييت قد وضع هذه السلطة ، مؤقتاً ، بيد لجنته التنفيذية ومجلس مفوّضي الشعب .

باسم الشعب الثائر جرى تعييني مفوّضاً للشعب للتعليم .

إن ما تبقّى للحكومة المركزية من سلطة في الإشراف العام على التعليم الشعبي قد وضع بين أيدي مفوّضية التعليم الشعبي التي يرأسها وينفّذ مقرراتها مفوّض الشعب ، وذلك الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية .

على أية اقتراحات أساسية ستعتمد هذه اللجنة الحكومية ؟ كيف يجري تحديد مجال عملها ؟

الخط العام للنشاط التعليمي

في بلد تسوده الأمية والجهل ، يجب على كل سلطة ديمقراطية حقيقيـــة أن تضع على رأس أهدافها النضال ضد هذا الظلام . يجب أن تصل الى وضع يكون فيه كل الشعب متعلماً ، بأقرب فرصة ممكنـــة ، وذلك بتنظيم شبكة من المدارس على أساس متطلبات التربية الحديثـــة ، ويجب أن تحقق التعليم العام الالزامي والمجاني للجميـع ، وأن تؤسس في الوقت ذاتـه سلسلة من دور المعلمين بحيث تجهّز ، بوقت قصير ، جيشاً قوياً من المعلمين الشعبيين ، فروسيا الشاسعة بحاجة ماسة إليهم .

اللامركزية

إن مفوضية الدولة للتعليم الشعبي ليست ، بأي حال من الأحوال ، سلطة مركزية تسيطر على المؤسسات التعليمية والثقافيـة . بل على العكس ، يجب نقل العمل المدرسي برمته الى أجهزة الحكم الذاتي المحلية . إن المبادرة المستقلة التي يقوم بهـا العمال والجنود والفلاحون لتأسيس مؤسسات تعليميـة وثقافيـة يجب أن تعطى استقلالاً كاملاً من قبل الحكومة المركزية والحكومـات البلدية على حد سواء .

إن عمل مفوضية الدولة يتلخص في التنسيق والمساعدة على تنظيم مصادر التجهيزات والدعم المعنوي للمؤسسات البلدية والخـاصة ، وبشكل خـــاص للمؤسسات ذات الطابع الطبقي التي يكوّنها العمال .

اللجنة الحكومية للتعليم الشعبي

إن اللجنة الحكومية للتعليم الشعبي قـد قدّمت سلسلة كاملة من مشاريـع القوانين الهامة منذ بداية الثورة ، وهي هيئة ديمقراطية الى حد كبير غنيـة بالخبراء . إن مفوضية الدولة ترغب بإخلاص أن تتعاون مع هذه اللجنة .

ولقد توجهت الى مكتب هذه اللجنة طالبة منه أن يعقد في الحال جلسة استثنائية للجنة لتنفيذ البرنامج التالي :

١ — مراجعة قواعد التمثيل في اللجنة باتجاه المزيد من الديمقراطية .

٢ — مراجعة حقوق اللجنة باتجاه زيادتها ، وتحويل اللجنة الى مؤسسة حكومية رئيسية تعمل على تحضير مشاريع قوانين تهدف الى إعادة تنظيم التعليم والثقافة في روسيا على أسس ديمقراطية .

٣ — إن تراجع ، بالتعاون مع مفوضية الدولة ، القوانين التي سبق أن صدرت عن اللجنة . إن هذه المراجعة يفرضها اضطرار اللجنة أن تأخذ بعين الاعتبار الروح البرجوازية السائدة في الوزارات السابقة،وهي تحضر قوانينها، هذه الروح التي حدَّت من عملها حتى في شكلها الضيّق الراهن .

بعد مراجعة هذه القوانين تبدأ عملية تنفيذها في جوّ من الانضباط الثوري بعيداً عن التعقيد البرقراطي .

خبراء التربية

إن مفوّضية الدولة ترحب بجميع خبراء التربية ليشاركوا في عمل تعليم الشعب العظيم والمشرّف ، هذا الشعب الذي هو سيد البلد .

يجب أن لا يتخذ أي قرار ، في مجال التعليم الشعبي ، من قبل أية سلطة إلا بعد دراسة وافية له يقوم بها ممثلو خبراء التربية .

ولكن ، من جهة أخرى ، لا يجوز الوصول الى قرار من خلال تعاون الاخصائيين وحدهم ، وهذا يتعلق كذلك بإصلاح مؤسسات التعليم العام .

تعاون خبراء التربية مع القوى الاجتماعية — هذا هو الأساس الذي تعتمد عليه المفوضية في تنظيم نفسها ، وفي اللجنة الحكومية ، وفي سائر نشاطاتها.

تعتبر المفوّضية أن أولى مهماتها هي تحسين وضع المعلمين ، وبشكل خاص معلمي المدارس الابتدائيـــة ، هؤلاء المدقعي الفقر رغم أنهم أهم المساهمين في العمل الثقافي . يجب تحقيق مطالبهم العـادلة فوراً وبأي ثمن ، إن بروليتاريا المدارس قد طالبت ، ولكن عبثاً ، بزيادة أجورها الى مئة روبل في الشهر. إنه لمن العار أن يظل معلمو الغالبية الساحقـة من الشعب الرومي في حـــالة الفقر بعد الآن .

إلا أن الديمقراطية الحقيقية لا يسعهـا أن تتوقف عند محو الأمية وعنـد تعميم التعليم الابتدائي . عليها أن تعمل باتجاه تكوين مدرسة علمانية موحدة ذات عدة مستويات . إن المثال الذي نطمح إليه هو إتاحـــة الفرصة لجميع المواطنين أن يحصلوا تعليمهم العالي إذا أمكن . وما دامت هـذه الفكرة لم تتحقق بعد بالنسبة للجميـع ، فإن الانتقال بين جميع المستويات المدرسية الى المرحلة العليا ، أي المرحلة الجامعية ، يجب أن يعتمد كلياً على كفاءة التلميـذ وليس على مدخول عائلته .

إن مشكلة التنظيم الديمقراطي الحقيقي للتعليم لهي مشكلة عويصة في بلد أفقرته حرب استعمارية إجراميـة طويلة ، إلا أن العمال الذين استلموا السلطة يجب أن يتذكروا أن التعليم سيكون أنجع سلاح بين أيديهم لتحسين أحوالهم ولتطورهم النفسي. إن حصة التعليم من الموازنة يجب أن تكون حصة كبيرة ، هذا رغم ضرورة تخفيض تكاليف مواد أخرى من موازنـة الشعب . إن موازنة تعليمية كبيرة هي فخر للأمة ومجد لهـا . إن شعوب روسيا الحرّة أو التي في طريق التحرّر لن تنسى ذلك .

إن النضال ضد الأمية والجهل لا يمكن أن ينحصر بتوفير التعليم المدرسي للأطفال والشباب . إن الكبار أيضـاً متلهفون لإنقـــاذ أنفسهم من الوضع المنحط لرجل لا يعرف القراءة ولا الكتـــابة . لذا يجب أن تحتل مدارس الكبار مجالاً واسعاً في الخطة العامة للتعليم الشعبي .

التعليم والتثقيف

من الضرورة تمييز الفرق بين التعليم والتثقيف .

التعليم هو عملية نقل المعرفة الجاهزة من المعلم الى التلميذ . أمـا التثقيف فعملية خلاقة . إن شخصية الفرد « تثقف » طوال حياتـه ، تتبلور ، تغنى من جهة المضمون ، تصبح أقوى وأكمل .

إن الجماهير الكادحة ، من عمال وفلاحين وجنود، متعطشة للتعليم الابتدائي والعالي . ولكنها متعطشة أيضاً الى الثقافة . لا الحكومة ولا المثقفون ولا أية فئـــة أخرى خارجهم تستطيع أن تقدم لهم هذه الثقافـة . المدرسة ، الكتاب ، المسرح ، المتحف ، وما شابه ليست إلا عوامل مساعـدة . إنهم يملكون أفكارهم الخاصة ، التي كوّنها وضعهم الاجتماعي ، والتي تختلف كليـاً عن وضع الطبقـات المـــالكة والمثقفين الذين خلقوا الثقافة الى الآن . إنهم يملكون أفكارهم الخاصة ، مشاعرهم الخاصـة ، طرقهم الخاصة في معالجـــة مشاكل الفرد والمجتمع . العامل في المدينة سيعمل بطريقته ، والعامل الزراعي سيعمل بطريقته لبنـــاء نظرته الشاملة الى العـــالم التي تخترقها نظرة العمال الطبقية . لا أروع ولا أبهى من الظاهرة التي يكون فيهـا أبناؤها الشهود والمشاركين في بناء الشخصية الفنية الحرة الشاملة بواسطة العمل الجماعي .

إن التعليم سيكون عاملاً هاماً ، ولكنه ليس عاملاً حاسمـاً . والأهم في هذا المجال هو النقد ، الطاقة الخلاقة عند الجماهير نفسها ؛ فالعلوم والفنون لها أهمية إنسانية عامة في بعض أجزائها فقط . إنها تتغير جذرياً مع كل ثورة طبقية بعيدة المدى .

إن حركة ثقافية تعليمية قد انبثقت في كل روسيا ، بين عمـال المدن خاصة ولكن بين الفلاحين أيضاً . ومنظمات العمال والجنود التي تقوم على هذا الأساس تتضاعف بسرعة . إن أول مهمة يجب أن تقوم بهـا حكومة شعبية

ثورية في مجال التعليم الديمقراطي هي أن تلتقي بها وأن تدعمها وأن تمهّد الطريق أمامها .

الجمعية التأسيسية ستبدأ عملها عمّا قريب . وهي وحدها القادرة على تأسيس نظام دائم للحياة الوطنية والاجتماعية في وطننا ، وتحدّد ، في الوقت نفسه ، الخطوط العامة لتنظيم التعليم الشعبي .

أما الآن ، ومع انتقال السلطة للسوفييت ، فإن الطابع الديمقراطي الحقيقي للجمعية التأسيسية أصبح مضموناً . إن الخط الذي ستسير عليه مفوّضية الدولة ، بالاعتماد على اللجنة الحكومية، لن يُعدّل تحت تأثير الجمعية التأسيسية . إن حكومة الشعب ، دون أن تحدّد هذا الخط بشكل مسبق ، ترى أنه من حقها أن تتخذ ، في هذا المجال ، سلسلة من الاجراءات ترمي الى إغناء وتنوير حياة البلد الروحية بأسرع وقت ممكن ...

إن الدعوة الى سلامة الوطن تكمن في تعاون جميع قواه الحية والديمقراطية الحقيقية .

إننا نؤمن أن جهد الجماهير الكادحة والمثقفين المتنورين الشرفاء هو الذي سيخرج البلد من محنته القاسية ، مروراً بالديمقراطية الكاملة الى الاشتراكية وتآخي الامم .

مفوض الشعب للتعليم
ا. ف. لوناتشارسكي

٣ – قضية الخمور

امر صادر عن اللجنة العسكرية الثورية

١ – يمنع انتاج الكحول والمشروبات الكحولية الى إشعار آخر .

٢ – على جميع منتجي الكحول والمشروبات الكحولية أن يبلّغوا عن

مكان مخازنهم قبل السابع والعشرين من هذا الشهر .

٣ - يقدّم الى المحكمة العسكرية الثورية جميع الذين يخالفون هذا الأمر .

اللجنة العسكرية الثورية

* * *

« الأمر رقم ٢

من لجنة فوج احتياط الحرس الفنلندي الى جميع لجان المساكن والى مواطني فاسيللي اوستروف .

لقد اختارت البرجوازية طريقة قذرة لمحاربة البروليتاريا ؛ فأنشأت ، في أجزاء مختلفة من البلد ، مستودعات خمر كبيرة وأخذت توزّع الخمور على الجنود محاولة زرع بذور التفرقة في صفوف الجيش الثوري .

إننا نأمر جميع لجان المساكن بأن تتقدم في الساعة الثالثة ، موعد نشر هذا الأمر ، وتخبر رئيس لجنة فوج الحرس الفنلندي سراً عن كميات الخمر الموجودة في البنايات التابعة لها .

إن الذين يخالفون هذا الأمر سيعتقلون ويقدمون الى محاكم لا ترحم وتصادر ملكيتهم والمخزون من الخمر الذي يوجد سوف

ينسف بالديناميت

بعد مضي ساعتين على هذا الانذار

لأن التجربة قد أثبتت إن الاجراءات المتسامحة لا تأتي بالنتائج المرجوّة.

تذكروا أننا لن ننذركم مرّة ثانية قبل النسف

لجنة فوج الحرس الفنلندي »

٩

النصر

« الأمر رقم ١

الى جنود فرقة بولكوفا

في ١٣ تشرين الثاني ، ١٩١٧ ، الساعة ٩ و ٣٨ دقيقة قبل الظهر .

تمكنت فرقة بولكوفا من طرد القوات المعادية للثورة بعد قتال ضار ، فانسحبت هذه من مواقعها في حالة فوضى ، واحتمت بـ «تسارسكوي‌سيلا» لتتقهقر الى « بافلوفسك ٢ » و « غاتشينا * » .

احتلت وحداتنا الجهة الشمالية الشرقية من « تساركوي‌سيلا » و « محطة ألكسندروفسكايا». وكانت فرقة كولبينو الى يسارنا وفرقة كراسنوبي سيلا الى يميننا .

أصدرتُ أمراً الى القوات في بولكوفا باحتلال «تسارسكوبي سيلا»،وتقوية مواقعها وخاصة جهة«غاتشينا» كما أمرت هذه القوات باحتلال«بافلوسكوبي»، وتحصين جهتها الجنوبية ، والسيطرة على خط سكة الحديد الى « دنو » .

* غاتشينا ضاحية بتروغراد الجنوبية التي انتهى عندها زحف كرنسكي على العاصمة .

يجب على القوات أن تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتحصين مواقعها بواسطة حفر الخنادق وسائر الأعمال الدفاعية الأخرى .

وعليها أيضاً أن تبقى على اتصال وثيق بفرق كولبينو وكراسنويي‌سيلا ، بمقرّ القائد العام للدفاع عن بتروغراد .

الامضاء : العقيد مورافيوف ، القائد العام للقوات العاملة ضد جيش كرنسكي المعادي للثورة »

صباح الثلثاء . ولكن كيف جرى الذي جرى ؟ منذ يومين فقط ، كانت بتروغراد تعجّ بالعصابات التي لا قادة لها تتسكع في شوارعها بدون طعام ولا مدفعية ولا خطط . ما الذي صهر هذه الكتلة الهلامية من الحرّاس الحمر غير النظاميين ، والجنود بدون ضباط في جيش يطيع قيادته العليا المنتخبة ، مؤهل لمواجهة هجوم خيالة القوزاق ومدفعيتها ودحرهم ؟

يملك الشعب الثائر طريقة خاصة لتحدّي السوابق العسكرية. إن جيوش الثورة الفرنسية لم تغب بعد عن الأذهان – معركة « فالمي » وخطوط « فيسنبورغ » . « النيكرز » والقوزاق وملاك الأرض والنبلاء ، أفراد منظمة « المئات السوداء » ، « الأوخرانا » ، العصابات السيبيرية ، كلها اتحدت ضدّ قوات السوفييت بالإضافة الى خطر الألمان الرهيب الشامل ...

مساء الأحد : مفوّضو اللجنة العسكرية الثورية يعودون من المعركة بشيء من خيبة الأمل ، وحامية بتروغراد قد انتخبت لجنة من خمسة ، ثلاثة جنود وضابطان ، للتشرف على المعركة ، وكانوا جميعهم خالين من أية نزعة معادية للثورة . وتولّى العقيد مورافيوف القيادة ، وهو وطني سابق ورجل نشيط ، ولكن يجب مراقبته بحذر . تشكّلت في كلبينو وأوبوخوفا

وبولخوفا وكراسنوبي سلوفا وحدات مؤقتـــة أخذت تكبر مع انضمام بقايا الفرق الأخرى اليها فأضحت مكوّنة من جنود وبحارة وحرس أحمر وأجزاء من الأفواج والمدفعية والخيالة والمشاة جميعها معاً بالإضافة الى بضعة سيارات مصفحة .

طلع الصباح واشتبكت هذه القوات مع وحـــدات من القوزاق التابعة لكرنسكي . طلقـات نارية مبعثرة ، دعوات الى الاستسلام . وامتدّ صوت المعركـة في الهواء البارد الهادىء فوق المرج الفسيح ، متراميا الى آذان عصابات متجوّلة وقد تحلّقت حول نيرانهـا الصغيرة تنتظر ... إذاً ، لقد بدأت ! فاتجهت نحو ساحـــة المعركة بينما تتدفق جموع العـمال مهرولة في الطرقات المستقيمة . وهكذا انصبّت فجأة جحافل بشرية غاضبة على جميع نقاط الهجوم ، يستبقها المفوّضون ويعيّنون لها مراكزها وأعمالها . هـذه المعركة معركتهم ، من أجل عالمهم هم ، والضبـــاط الذين يقودون هم الذين انتخبوهم . فتحوّلت هذه الإرادة الهلامية المتعددة الى إرادة واحدة ...

الذين اشتركوا في القتال وصفوا لي كيف قاتل البحارة حـــتى نفذت ذخيرتهم فهجموا ؛ وكيف انقضّ العمال غـــير المدربين على القوزاق الهاجمين واسقطوهم عن أحصنتهم ؛ وكيف تجمعت جحافل الشعب المجهولة في الظلمة حول المعركة وارتفعت كموجة لتفرق العدو ... وقبل أن يحين منتصف ليلة يوم الاثنين ، كان القوزاق قـــد هزموا وأخذوا يهربون تاركين مدفعيتهم وراءهم ، فتقدّم جيش البروليتاريا على طول جبهة غـــير منتظمة واقتحم « تسارسكوبي سيلا » قبل أن تسنح الفرصة للعدو أن يحطّم محطة اللاسلكي الحكومية الكبيرة التي أخـــذ يذيع منها مفوضو « سمولني » معلنين للعالم بشائر النصر ...

« الى جميع مندوبي العمّال والجنود

في الثاني عشر من تشرين الثاني ، وبعـــد قتال دموي قرب تسارسكوي سيلا ، هـــزم الجيش الثوري قوات كرنسكي وكورنيلوف المعادية للثورة . باسم الحكومة الثورية ، آمر جميع الافواج بالهجوم على أعداء الديمقراطية الثورية ، وباتخـــاذ جميع الاجراءات اللازمة للقبض على كرنسكي ، وأيضاً بـأن تقاوم أية مغامرة من شأنها أن تهدّد مكاسب الثورة وانتصار البروليتاريا .

عاش الجيش الثوري .

موراڤيوف »

انباء المناطق ...

كان السوفييت المحلي ، قـــد استلم الحكم في « سيباستوبول » ؛ وأقام بحارة البوارج في الميناء اجتماعاً ضخماً أجبروا فيه ضبّاطهم على أن يقفوا في الصف ويؤدوا قسم الولاء للحكومة الجديدة . سيطر السوفييت في « نيجني نوفغورود » . ووردت أنباء من « قازان » عن معركة تدور في الشوارع بين « النيكرز » وفصيلة من المدفعية من جهة وبـــين الحامية البلشفية من جهة أخرى .

واندلع قتـال عنيف في موسكو مجدداً . اعتصم « النيكرز » والحرس الأبيض في الكرملين وفي وسط المدينـة بينما قوات اللجنة العسكرية الثورية تكيل لهم الضربات من كل جانب . وتمركزت مدفعية السوفييت في ساحـة سكوبيليف وأخـذت تقصف بناية مجلس الدوما ، ومفوضية الأمن وفندق متروبول . وانتزعت حجـــارة شارعي تغيرسكايا ونيكيتسكايا للخنادق والمتاريس . وانهـال وابل من طلقات المدافع الرشاشة على مناطق المصارف

والشركات التجارية . لم يكن هنـاك ضوء ولا هاتف ، والسكان البرجوازيون يعتصمون في الأقبية ... وورد في آخر بلاغ للجنة العسكرية الثورية إنذار الى لجنة السلامة العامة طالبة فيـه استسلام الكرملين الفوري والا اضطرت الى قصفه .

وصاح المواطن العادي « قصف الكرملين ؟ لن يجرأوا على ذلك ! »

واندلعت الحرب الأهليـــة من « فولوغدا » الى « شيتا » في أقاصي سيبيريا ، مـن « بسكوف » الى « سيباستوبول » على البحر الأسود ، وفي المدن الكبيرة والقرى الصغيرة على حـــد سواء . وانهالت التحيات على بتروغراد ، موجهة الى حكومة الشعب ، مـــن آلاف المصانع والمجموعات الفلاحية والافواج والجيوش والبواخر في عرض البحار .

أبرقت حكومة القوزاق في « نوفوشيركاسك » الى كرنسكي تقول : « إن **حكومة قوات القوزاق تـــدعو أعضاء الحكومة المؤقتة ومجلس الجمهورية للمجيء الى « نوفوشيركاسك » ، اذا كان ذلك ممكناً ، لكي ننظم معاً المعركة ضد البلاشفة » .**

الوضع مضطرب في فنلندا كذلك . أعلن السوفييت في « هلسنفورس » بالاشتراك مـع « التسنتروبالت » (اللجنة المركزية لأسطول البلطيق) حالة الحصار ؛ وأعلنا أنهما سوف يقمعان بقساوة أيـــة محاولة للتدخل في شؤون القوات البلشفية أو أيـــة مقاومة مسلّحة لأوامراها . وفي الوقت نفسه ، دعت نقابة عمال سكك الحديد الفنلندية الى اضراب عام يشمل البلد بأسره لتنفيذ القوانين الـــتي أصدرها مجلس الدييت الاشتراكي في حزيران ١٩١٧ والذي حلّه كرنسكي ...

قصدتُ « سمولني » في الصباح الباكر . وبينما كنت أعبر المشى الخشبي من جهة البوابة الخارجية ، رأيت أول نتف الثلج الهزيلة تتساقط بتردد من

السماء الرمادية الهادئة . « الثلج ! » ، صاح الجندي على الباب « مفيد للصحة ! » وبدت القاعات والغرف القائمة مهجورة في الداخل . لا أحد يتحرك في هذه البناية الضخمة . وترامى الى أذني صوت غريب ، فتلفت ورأيت رجالاً يفترشون الارض بمحاذاة الجدران . رجال خشنون، متسخون عمال وجنود ملطخون ومجبولون بالوحل ، مستلقين فرادى وجماعات في استلقاءة الموت اللامبالية . البعض عليه ضمادات وسخة يرشح منها الدم . البنادق وأحزمة الرصاص مبعثرة في كل مكان .. هذا هو جيش البروليتاريا المنتصر !

وكانوا مكوّمين فوق بعضهم البعض في مطعم الطابق اعلى بحيث يتعذّر السير بينهم . الهواء منتن . والنور الشاحب يتسلل من النوافذ المغبشة . على الطاولة « سماور » مهشم وبارد ، وعدة أكواب فيها بقايا شاي . وقربها نسخة من آخر بلاغ أصدرته اللجنة العسكرية الثورية ، مقلوباً ، مخربشاً عليه بخط رديء . إنها مرثاة كتبها أحد الجنود لرفاقه الذين سقطوا في المعركة ضد كرنسكي تماماً كا تركها قبل أن يقع على الأرض ويخلد للنوم . وكانت الكتابة ممحية بما يبدو أنه دموع ...

« ألكسي فينوغرادوف .

د. ماسكفين .

س. ستولبينوف .

أ. فوسكرنسكي .

د. ليونسكي .

د. بريوبراجلسكي .

ف. لايدانسكي .

م. بيرشيكوف .

لقد انضم هؤلاء الرجال الى الجيش في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٦ . ولم يبق منهم إلا ثلاثة :

ميخائيل بيرشيلوف .

ألكسي فوسكرنسكي .

ديمتري ليونسكي .

* * *

« ناموا ، أيها النسور المقاتلون ، ناموا مرتاحي البال .

إنكم تستحقون ، أيا أعزاءنا ، السعادة والراحة الأبديتين .

لقد ضممتم صفوفكم في القبر .

ناموا ، يا رفاق ! »

اللجنة العسكرية الثورية هي وحدها التي ما تزال ساهرة تعمل . وقال سكريبنيك وهو خارج من الغرفة الداخلية إن غوتز قد اعتقل ، ولكنه كان قد رفض أن يوقّع على بلاغ لجنة الإنقاذ مثلما فعل أفاكسانتييف ، وأن لجنة الإنقاذ قد رفضت النداء الموجّه الى الحامية . ما يزال هناك بعض التذمّر في أوساط أفواج المدن ، وقد رفض فوج « فولهينسكي » القتال ضد كرنسكي .

كانت عدة وحدات « حيادية » برئاسة تشيرنوف ، قد توجهت الى « غاتشينا » محاولة إقناع كرنسكي بوقف هجومه على بتروغراد .

وضحك سكريبنيك قائلاً : « لا يمكن أن يوجد « حياديون » بعد الآن . لقد انتصرنا ! » وأضاء وجهه الملتحي الدقيق حبور يكاد يكون مقدساً : « لقد جاء أكثر من ستين وفد من الجبهة ، يحملون تأكيدات أن

جميع الجيوش تؤيدنا ما عدا قوات الجبهة الرومانية التي لم يسمع منها شيء . لقد أوقفت لجان الجيش جميع الأخبـــار الواردة من بتروغراد ، ولكن في متناول أيدينا الآن جهاز دائم من الرُسل ... »

كامينيف قد دخل لتوّه القاعـــة الأمامية منهكاً بسبب ندوة تشكيل حكومة جديدة التي استمرّت طوال الليل ، ولكنه سعيـــد . وقال لي : الاشتراكيون الثوريون يميلون الى إشراكنا في الحكومة الجديدة . المجموعات اليمينية خائفـة من المحاكم الثورية ، وقد طالبت ، بشيء من الذعر ، بأن نحلّها قبل المضيّ الى أبعـد ما نحن عليه ... قبلنا باقتراح الفيكجل الداعي الى تكوين حكومة اشتراكية منسجمة ، وهـــذا ما هم في معرض مناقشته الآن . أترى ، هذا كله ناتج عن انتصارنا . عندما كنّا ضعفاء لم يكن أحد يريدنا بأي ثمن ، أما الآن ، فالجميع يؤيد نوعاً من الاتفاق مع السوفييت ... إن ما نحتاج اليه فعلاً هو انتصار حاسم . كرنسكي يريد عقد هدنة ، ولكن عليه أن يستسلم أولاً ... »

هكذا كان طبع القادة البلاشفـــة . لمّا سأل أحد المراسلين الأجانب تروتسكي ماذا لديه ليصرّح الى العالم ، أجاب تروتسكي : « التصريح الوحيد الممكن ، في الوقت الحاضر ، هو الذي تطلقه فوهات مدافعنا ! »

إلا أن المسألة المالية كانت تحدث قلقاً حقيقياً في أوج النصر . فقد اجتمع اتحاد موظفي المصارف وأعلن اضراباً رسمياً ، عوضاً عن أن يفتح المصارف كما أمرت اللجنة العسكرية الثورية . طلبت « سمولني » خمسة وثلاثـين مليون روبل من مصرف الدولة كسلاح سيامي . مثلاً عندما طلبت الفيكجل مالاً لدفع معاشات موظفي سكك حديد الدولة ، قيل لهـا أن تطلب ذلك من « سمولني » .

قصدت مصرف الدولة لأقـابل المفوّض الجـديد ، وهو بلشفي أوكراني

أحمر الشعر يدعى بتروفيلش . وكان يحاول تنظيم الفوضى في الأوضاع التي خلّفها اضراب الموظفين . جميع المكاتب في هذا المكان الشاسع مليئة بالمتطوعين من العمال والجنود والبحارة ، يعرقون ويلهثون من كثرة الشغل ، وهم منكبُّون على دفاتر الحساب الكبيرة بذهول ...

بناية مجلس الدوما تعجّ بالناس . لا يخلو الأمر من حالات أفرادية من تحدّي الحكومة الجديدة ، إلا أنها قد أصبحت نادرة . ناشدت اللجنة المركزية للأرض الفلاحين بألا يعترفوا بمرسوم الأرض الذي أصدره مؤتمر السوفييت ، لأنه لن يؤدي إلا الى الفوضى والحرب الأهلية . وأعلن المحافظ شرايدر أنه يجب تأجيل انتخابات الجمعية التأسيسية الى ما لا نهاية بسبب ثورة البلاشفة .

وبدا أن ثمة مسألتين تشغلان أذهان الجميع بعد أن صعقتهم شراسة الحرب الأهلية : أولاً ، هدنة لحقن الدماء ، وثانياً ، تشكيل حكومة جديدة . لم يعد يسمع حديث عن « سحق البلاشفة » ، ولم يعد يسمع إلا القليل عن إقصائهم عن الحكومة إلا من طرف الاشتراكيين الشعبيين وسوفييت الفلاحين. حتى اللجنة المركزية للجيش في « ستافكا » ، ألدّ أعداء « سمولني » ، خابرت الى « موغلييف » لتقول : « اذا كان من الضروري لتشكيل الوزارة الجديدة أن نتوصل الى اتفاق مع البلاشفة ، فإننا نوافق على اشتراكهم في الوزارة كأقلية . »

ولفتت «البرافدا» الأنظار بسخرية الى « عواطف كرنسكي الإنسانية» فنشرت رسالته الى لجنة الانقاذ :

لقد أوقفت جميع العمليات العسكرية ضد المتمردين ، وذلك وفقاً لاقتراحات لجنة الانقاذ وجميع المنظمات الديمقراطية الملتفة

حولها . لقد أرسل مندوب عن اللجنة للتفاوض . خذوا جميع الاجراءات اللازمة لمنع إراقة الدماء بدون طائل .

وأرسلت « الفيكجل » البرقية التالية الى جميع أنحاء روسيا :

إن ندوة اتحاد عمال سكك الحديد مع ممثلي الطرفين المتحاربين الذين يعترفون بضرورة الوصول الى اتفاق ، تحتج بعنف على استعمال الإرهاب السياسي في الحرب الأهلية ، خاصة عندما يستعمل بين الأجنحة المختلفة للديمقراطية الثورية ، وهي تعلن أن الإرهاب السياسي، بمختلف أشكاله ، يتناقض كلياً مع فكرة تكوين حكومة جديدة ...

وأرسلت وفود من الجبهة الى « غاتشينا » . وبدا كأن الأمور قد وصلت الى نقطة الانفراج في الندوة ذاتها . فقد تقرّر انتخاب « مجلس الشعب » المؤقت المكوّن من حوالي أربعمئة عضو – خمسة وسبعون عن سمولني ، وخمسة وسبعون عن « التسايكا » القديمة ، وتتقاسم الباقي البلديات والنقابات ولجان الأرض والأحزاب السياسية . واقترح اسم تشيرنوف ليتولى رئاسة الوزراء ، وأشيع أن لينين وتروتسكي سيبعدان عنها ...

حوالي الظهر كنتُ أمام « سمولني » مجدداً ، أتحدث الى سائق سيارة إسعاف ذاهبة الى الجبهة . هل يسمح لي بالذهاب معه ؟ أكيد ! كان طالب جامعة وقد تطوّع لخدمة الثورة ؛ وبينما كنا ننزل الشارع التفت الي وقال شيئاً بلغة ألمانية مكسّرة فهمت منه أننا سنتناول الغذاء في إحدى الثكنات.

وفي شارع « كيروشنايا » ، انعطفنا الى باحة كبيرة تحيط بها عمارات عسكرية ، وصعدنا درجاً معتماً الى غرفة منخفضة يدخلها النور من نافذة واحدة. عشرون جندي يجلسون الى طاولة خشبية يتناولون بالملاعق الخشبية

حساء الملفوف من وعاء كبير ، ويتحدثون بصوت مرتفع ويقهقهون بكثرة .

« اهــلاً بك في لجنة الفوج التابعة للسرية السادسة لفوج مهندسي الاحتياط! » ، صاح زميلي وقدّمني الى الجنود كأحد الاشتراكيين الأميركيين عند ذاك ، وقف الجميع لمصافحتي ، وعانقني أحد الجنود وقبلني قبلة كبيرة. وأعطيت ملعقة خشبية ثم أخذت مكاني الى الطاولة . وجيء بوعــاء آخر مليء « بالكاشا » ، وبرغيف خبز أسود كبير ، وطبعاً بأباريق الشاي التي لا بدّ منها . رأساً بدأ الجميع يوجّه لي أسئلة عن أميركا : صحيح أن الشعب في بلدكم الحر يبيع أصواته لقاء المال ؟ واذا كان الأمر كذلك ، هل يحصل على ما يريد ؟ ماذا بشأن « تاماني » هــذا ؟ صحيح أن مجموعة صغيرة من الناس تستطيع أن تسيطر على مدينة بأكملها ، في بــلد حر ، وتستغلها لمصالحها الشخصية ؟ كيف يطيق الشعب ذلــك ؟ حتى في أيام القيصر لم تحدث مثل هذه الأشياء في روسيا ؛ صحيح انــه كان هناك سرقة ، أمّــا بيع وشراء مدينة بأسرها مليئة بالبشر ، فهذا غير معقول ! وفي بلد حر بالذات ! أليس عند الشعب أي حسّ ثوري ؟ فحاولتُ أن أشرح أن الشعب في بلدي يحاول تغيير الأوضاع بواسطة القانون .

« طبعاً » ، أجــاب رقيب شاب يــدعى باكلانوف ويتكلم الفرنسية ، « ولكن عندكم طبقة رأسمالية متطورة جداً.إذاً ، لا بد وأن تكون الطبقة الرأسمالية هي المسيطرة على القوانين والحــاكم . فكيف يتمكن الشعب من تغيير الأوضاع ؟ أنا مستعد للاقتناع لأني لا أعرف بلدكم ، ولكن هذا صعب التصديق في اعتقادي .... »

قلت إني في طريقي الى « تسارسكويي سيلا » . وفجأة قال باكلانوف : « وأنا كذلك » . « وأنا ، وأنا ، ... » ، للحــال قرر الموجودون كلهم الذهاب الى « تسارسكويي سيلا » .

إذ ذاك قرع الباب . ففتح ، وبرز عقيد . لم يقف أحد ، وإنما حيّاه الجميع . سأل العقيد: « هل أقدر أن أدخل ؟ » . فأجابوه بودّ : « تفضل ! تفضل ! » . فدخل . إنه شاب طويل باسم ووسيم يرتدي معطفاً من وبر الماعز موشّى بالذهب . قال : « أظن أني سمعتكم تقولون أنكم ذاهبون الى تسارسكويي سيلا ، يا رفاق . هل أقدر أن آتي معكم ؟ »

فكر باكلانوف . ثم أجاب : « لا أظن أن علينا ما نفعله هنا اليوم . أي ، يا رفيق ، يسرنا جداً أن تكون معنا . » فشكره العقيد وجلس ثم سكب الشاي في كوبه .

وفسّر لي باكلانوف الأمر بصوت خافت خشية أن يجرح كرامة العقيد : « الأمر هو التالي : أنا رئيس اللجنة . ونحن نسيطر على الفوج سيطرة كاملة، إلا فيما يختص بالعمليات التي توكل العقيد بأمر قيادتها . خلال العمليات يجب إطاعة أوامره، إلا أنه مسؤول تجاهنا مسؤولية كاملة . يجب عليه أن يطلب إذناً منا قبل القيام بأي عمل في الثكنة . يمكن أن تعتبره ضابطاً تنفيذياً .. »

وزعت علينا الأسلحة ، بنادق ومسدسات — « ربما التقينا ببعض القوزاق » — وحشرنا جميعاً في سيارة إسعاف الى جانب ثلاث رزم كبيرة من الصحف للجبهة . نزلنا شارع « ليتايني » وسرنا في شارع « زاغورودني » يجلس قربي ملازم شاب يبدو أنه يجيد التكلم في معظم اللغات الأوروبية . وهو عضو في لجنة الفوج .

وأكد لي : « لست بلشفياً . إني أنتمي الى عائلة عريقة ونبيلة . أما أنا فيمكنك اعتباري نصيراً للكاديت ... »

وسألت مذهولاً : « ولكن كيف ؟ »

« آه ، طبعاً ، أنا عضو في اللجنة . إني لا أخفي آرائي السياسية ،

ولكن الآخرين لا يبالون لأنهم يعرفون أني لا أؤمن بمعارضة إرادة الأغلبية . لقد رفضت القيام بأي عمل خلال الحرب الأهلية الحاليـة ذلك أني لا أؤمن بحمل السلاح ضد إخواني الروس ... »

« متآمر ! كورنيلوفي ! » صاح بـــه الآخرون بفرح وهم يربتون على كتفه ... »

عبرنا تحت القنطرة الحجرية الضخمة ذات اللون الرمـــادي عند بوّابة « موسكفوسكي » المغطاة بالخط الهيروغليفي المذهّب والنسور الامبراطورية الجليلة وأسمـــاء القياصرة ؛ ثم أسرعنا خارجين الى الطريق الواسع المستقيم ذي اللون الرمادي من جراء سقوط الثلجـة الأولى . الطريق يغصّ بأفراد الحرس الأحمر ، يصيحون ويغنـّون ، وهم متوجهون الى الجبهة الثورية مشياً على الأقدام ؛ بينما يعود منها آخرون بأوجه شاحبة ملطخة بالوحل . وكان معظمهم من الصبية . ورأينا نساء الأحياء الفقـــيرة ، منحنيات وقد براهن الشغل ، البعض يحمل الرفوش ، والبعض الآخر البنادق وأحزمة الرصاص ، أو شارات الصليب الأحمر على القمصان . مفرزات من الجنود تسير بدون انتظام ، تحيي الحرس الأحمر بصيحات مليئة بالحب ؛ بحـارة قساة الوجوه ؛ أطفال يحملون رزم الأكل الى آبائهم وأمهاتهم؛ جميع هؤلاء يروحون ويجيئون على الطريق المغطّى بالثلج والوحل . ومررنا بمدافع وعربات الذخـيرة تتجه جنوباً محدثة جلبة مرتفعة : وشاحنات تسير في كلا الاتجاهين مليئة بالرجال المسلحين ؛ وبسيارات اسعاف عائدة من الجبهـــة تغصّ بالجرحى . ومررنا أيضاً بعربة فلاح ، تسير مقرقعة ، جلس عليهـــا صبي شاحب الوجه وقد انكفأ على بطنه المبقورة صارخاً بصوت رتيب . وعلى طرفي الطريق، الرجال والنساء يحفرون الخنادق في الحقول ويمدون الأسلاك الشائكة .

الغيوم تسافر بحزن الى جبهة الشمال ، والشمس الشاحبـــة قد أشرقت .

وبتروغراد تتلألأ وسط المرج المنبسط المغمور بالماء . الى يميننا سطوح وقباب بيضاء أو ذهبية أو متعددة الألوان ؛ والى يسارنا مداخن طويلة تنفث بعضها دخاناً أسودَ ؛ وراء هذا كله سماء فنلندا . على كلا الجانبين تنتصب الكنائس والأديرة ... وأحياناً يظهر ناسك يتفرّج بصمت على نبض جيش البروليتاريا على الطريق .

الطريق تتفرّع عند « بولكوفا » . هناك توقفت وسط جمع كبير ، تصبّ فيه سيول بشرية قادمة من ثلاث نواح ؛ الأصدقاء يتقابلون ، ويتبادلون التهاني بتأثر ويصفون المعركة لبعضهم البعض . قبالة تقاطع الطرق صف من المنازل التي تحمل آثار الرصاص ، والأرض مغطّاة بالوحل على مسافة نصف ميل . كان القتال عنيفاً هنا ... بالقرب منا تدور أحصنة قوزاقية بدون خيّالتها ، جائعة لأن عشب الحقل قد يبس من زمان . وقبالتنا يحاول أحد الحرس الحمر ركوب أحدها ، ولكن عبثاً يحاول ساقطاً المرة تلو الأخرى وسط حوالي ألف رجل خشن يلهو كجمع من الأطفال .

الطريق الى اليسار ، الذي انسحبت منه فلول القوزاق ، يؤدي الى قرية على تلة صغيرة تطلّ على مشهد رائع للمرج الشاسع ، رمادياً كبحر بلا رياح ، تحوم حوله غيوم سوداء ، ثم المدينة الجليلة التي تلفظ الآلاف من سكانها على جميع الطرقــــات . والى يسار ذلك تقع احدى تلال « كراسنويي سيلا » الصغيرة ، وساحة العرض التابعة للمعسكر الصيفي للحرس الامبراطوري ، ومصنع الألبان الامبراطوري . وفي الوسط امتداد لا تعكـّر رتابته إلا بعض الأديرة والمصانع المبعثرة وبضعة بنايات كبيرة كانت مصحات أو دور أيتام.

قال السائق ونحن نصعد التـلة الجرداء : « هنا ماتت فيرا سلوتسكايا . نعم ، العضو البلشفي في مجلس الدوما . حدث ذلك باكراً هـــذا الصباح . كانت في سيارة مع زاكيند وشخص آخر . وقد استفادوا من فترة الهـدنة

ليذهبوا الى الخنادق الأمامية . وكانوا يتكلمون ويضحكون عندما مرّ القطار المسلّح الذي يقل كرنسكي ، وفجأة شاهد أحد ركابه السيارة فأطلق النار عليها . فأصابت الشظية فيرا سلوتسكايا وقتلتها ... »

ثم دخلنا « تسارسكوبي سيلا » وهي تعجّ بأبطال الجيش البروليتاري . القصر الذي يجتمع فيه السوفييت يغصّ بالناس . أفراد الحرس الأحمر والبحارة يملأون الباحة ، الحرس يقف على الأبواب ، وسيل من الرسل والمفوّضين يروح ويجيء . وفي غرفة السوفييت « سماور » التفّ حوله حوالي خمسين عامل وجندي وبحار يشربون الشاي ويتحادثون بصوت مرتفع . في إحدى الزوايا يحاول عاملان تشغيل آلة طباعة ، ولكن دون جدوى . والى إحدى الطاولات ، في الوسط ، يقبع ديبنكو الجبار منكباً على خريطة يحدّد عليها مواقع الجنود بقلم أحمر وآخر أزرق . وكان ، كعادته ، يحمل في يده الأخرى مسدسه الضخم الأزرق . ثم جلس وراء آلة كاتبة وأخذ يضرب عليها بإصبع واحد ؛ ويتوقف بين لحظة وأخرى ، ويحمل مسدسه ثم يدور الغرفة بحبور .

على حافة الجدار مقعد تمدّد عليه عامل شاب . وقد انحنى عليه اثنان من الحرس بينما لا يعيره الآخرون أي اهتمام . كان ثمة ثقب في صدره ، والدم يرشح من ثيابه مع كل نبضة قلب . عيناه مغمضتان ، ووجهه الفتي الملتحي قد انقلب شاحباً وأخضر . ما زال يتنفس ولكن ببطء وبصوت خافت ، ويتنهّد مع كل نفَس . « السلم قريب ! السلم قريب ! »

وتطلع ديبنكو لما دخلنا ، ثم قال لباكلانوف : « أه . رفيق ، هل لك أن تصعد الى مقرّ الحاكم وتتولى منصبه ؟ إنتظر ؛ سأكتب لك أوراق الاعتماد .» ذهب الى الآلة الكاتبة وأخذ ينتقي الأحرف ببطء .

وذهبت وحاكم « تسارسكوبي سيلا » الجديد الى « قصر ايكاترينا » .

كان باكلانوف متحمساً وشاعراً بأهميته . وفي نفس الغرفة البيضاء المزينة كان بعض أفراد الحرس الأحمر يتجوّلون بجشرية بينما وقف العقيد ، صديقي القديم ، قرب النافذة يعضّ على شاربه . استقبلني كأني الابن الضال . قرب الباب يجلس الفرنسي من «بيسارابيا» وراء طاولة . كان البلاشفة قد أمروه بالبقاء ومتابعة عمله .

تمتم قائلاً : « ماذا عساي أفعل ؟ إن أمثالي لا يستطيعون القتال مع أي من الطرفين في مثل هذه الحرب ، بالرغم من أني أكره دكتاتورية الجماهير بالفطرة ... أنا حزين لأني بعيد جداً عن أمي في « بيسارابيا » .

كان باكلانوف يحل محل الحاكم رسمياً . فقال العقيد بعصبية : « هاك . هذه مفاتيح المكتب . »

وقاطعها أحد أفراد الحرس الأحمر ، قائلاً بوقاحة : « أين المال ؟ » قدهش العقيد « المال ؟ المال ؟ آه ، تعني الصندوق . ها هو . ما زال على حاله ، مثلما وجدته منذ ثلاثة أيام . مفاتيح ؟ ما معي مفاتيح . » قالها وهو يهزّ كتفيه .

وضحك الحارس الأحمر ضحكة العارف : « ملائم جداً » .

قال باكلانوف : « فلنفتح الصندوق . هاتوا فأساً . هذا رفيق أميركي . فليفتح الصندوق وليسجل ما يجد فيه » .

كسرتُ الصندوق بالفأس . ولكنه كان فارغاً .

قال الحارس الأحمر مسموماً : « فلنعتقله . إنه من جماعة كرنسكي . سرق المال وأعطاه لكرنسكي . »

فرفض باكلانوف : « لا . لا . جاء الكورنيلوفيون قبله . هو ليس مسؤولاً عما حدث . »

فصاح الحــارس الأحمر : « يا للقرد ! أقول لك أنه من جماعة كرنسكي . إذا لم تعتقله أنت ، فنحن سنفعل ذلك ، ونأخــذه الى بتروغراد ونضعــه حيث يستحق أن يكون : في سجن بطرس – بولس ! » ووافقــه الحراس الحمر الآخرون . وساقوا العقيد خارجاً وهو يرمقنا بنظرة استعطاف . .

في باحة قصر السوفييت كانت إحدى الشاحنـات تتأهب للذهــاب الى الجبهة . وصعد إليها نصف دزينــة حراس حمر وبضع بحارة وجنود بقيــادة عامل ضخم ، ونادوني لأذهب معهم . الحراس الحمر يخرجون من مقر القيادة العامة وهم ينوءون تحت ثقل رزمات حديدية يحملونها ، مليئة « بالغروبيت » الذي يقال عنه أنه أقوى من الديناميت بعشرة أضعاف وأكثر حساسية منه بخمسة أضعاف . حشونا مدفعاً من عيار ثلاث بوصــات ثم ربطناه بالشاحنــة بالحبال والأسلاك .

وانطلقنا بصيحة ، وطبعاً بسرعة فائقة ، والشاحنة تتمايل يمنة ويساراً . المدفع يقفز من دولاب لآخر ، وقنابل « الغروبيت » تتدحرج فوق أقدامنا وترتطم بجوانب الشاحنة .

وأخذ الحــــارس الأحمر الضخم ، واسمه فلاديمير نيقولايفيتش ، يمطرني بوابل من الأسئلة حول أميركا : « لماذا دخلت أميركا الحرب ؟ هــــل العمال الأميركيون مستعدون لإسقاط الرأسماليين ؟ ما هو وضع قضية موناي الآن ؟ هل سيسلمون بيركمان الى سلطات سان فرانسيسكو ؟ » والكثير غيرهــــا ، وكلها يصعب الإجابة عليها ، يصيح بها فوق جلبة الشاحنة بينما نمسك ببعضنا البعض ونتراقص وسط القنابل المتدحرجة .

أحياناً تستوقفنا إحدى الدوريات . فيركض جنــود الى عرض الطريق رافعين أسلحتهم ، صارخين : « قف ! »

فلا نأبه بهم . ويصيح الحراس الحمر : « جهنم تأخذكم ! إننـــا لا نقف لأحد ! نحن حراس حمر ! » ثم ننطلق بجلال،بينما يصيح فلاديمير نيقولايفيتش شيئاً عن تدويل قناة بناما ، أو ما شابه ...

وبعد مسيرة خمسة أميال ، رأينا مفرزة من الجنود تسير بعكس اتجاهنا. فأبطأنا .

« أين الجبهة ، يا إخوان ؟ »

توقف البحار الذي في المقدمة ، وحك رأسه ، ثم قال : « هـذا الصباح كانت على بعد نصف كيلومتر . ولكن هذه اللعينة قد اختفت الآن.مشينا ، مشينا ، ومشينا ولكننا لم نجدها ! »

تسلقوا الى الشاحنة وانطلقنــــا . وبعـد حوالي الميل ، أنصت فلاديمير نيقولايفيتش السمع ثم صاح آمراً السائق بالتوقف :

« صوت رصاص ! هل تسمعونه ؟ » وساد صمت عميق لبرهة ، ثم سمعنا ثلاث طلقات متتابعات أمامنا ، جهة اليسار . كانت تلك الجهة من الطريق مليئة بالغابات الكثيفة . خفضنا رؤوسنا وأخـذنا نتكلم همساً ولكن بحماس شديد الى أن وصلت الشاحنة قبالة المكان الذي انطلقت منه النار تقريبـاً . فنزلنا وانتشرنا وتسللنا الى الغابة ، يحمل كل منا بندقيته .

وفي الوقت نفسه ، فك اثنان من الرفـاق المدفع وأداروه بحيث أصبح مصوباً الى ظهورنا تقريباً .

الغابة هادئة . لقد سقطت الأوراق ، وللجـــذوع لون شاحب باهت في شمس الخريف الواطئة الشحيحة . لا شيء يتحرك إلا ارتجاف قطع الجليـــد الطافية على سطح برك الماء الصغيرة ونحن ندوسها . هل كان كميناً ؟

وتقدمنا بلا اكتراث حتى أصبحت الشجرات نحيلة ، فتوقفنا . أمامنا ، يجلس ثلاثة جنود حول النار ، وسط فسحة صغيرة ، لا يبالون بشيء .

وتقدم فلاديمير نيقولايفيتش وحيّا : « مرحباً ، رفاق ! » ، ووراءه مدفع ، وعشرون بندقيــة وشاحنة مليئة بقنــابل « الغروبيت » . فهبّ الجنود واقفين .

« ما سبب إطلاق النار هنا ؟ » .

وأجاب أحدهم ، وقد بدت علامات الارتياح على وجهه : « كنا نصطاد الأرانب ، يا رفيق ... »

واتجهت الشاحنة نحو « رومانوف » طوال النهار المشرق الفـارغ . عند أول ملتقى للطرق ، ركض جنديان أمامنا ، ملوحين ببندقيتيهما . فأبطأنا ثم توقفنا .

« أذوناتكم يا رفاق ! »

وهب الحراس الحمر بجلبة عظيمة : « نحن من الحرس الأحمر . لا نحتـاج الى أذونات ... إمشِ ... لا عليك منهم ! »

إلا أن أحد البحارة عارض : « هذا خطأ ، يا رفـاق . يجب أن نتحلى بالانضباط الثوري . افترضوا أن بعض أعداء الثورة جاءوا في شاحنة وقالوا « إننا لا نحتاج الى أذونات » ؟ الرفاق لا يعرفونكم . »

وبدأ نقاش . إلا أن البحارة والجنود أخذوا ينضمون واحداً واحداً الى الأول . ثم أخذ كل فرد من أفراد الحرس الأحمر يـبرز ورقته المتسخة وهو يتذمّر . كانت جميع الأوراق متشابهة مـــا عدا ورقتي الصادرة عن القيادة الثورية في « سمولني » . فأعلن الحرّاس أنــه عليّ أن أذهب معهم . اعترض الحراس الحمر بالحاح ، إلا أن البحّار الذي تكلم في البدء قال مؤكداً : « إننا

نعلم أن هذا الرفيق رفيق عن حق وحقيق . ولكن يوجد أوامر من اللجنة، ويجب إطاعة هذه الأوامر . هكذا يكون الانضباط الثوري ... »

تفادياً للمشاكل ، ترجلتُ من الشاحنة ، وأخـــذت أراقبها وهي تبتعد متمايلة ، وجميع من فيها يلوّح لي مودّعاً . وتشاورا بصوت خافت لبرهة ، ثم ساقاني نحو جدار فأوقفاني على حافته . وخطر ببالي فجأة أنهما سيطلقان النار عليّ !

ولم يكن هناك كائن بشري واحد في الجهات الثلاث . كانت إشارة الحياة الوحيدة هي الدخان المتصاعد من مدخنة كوخ خشبي على بعد ربع ميل على الطريق الفرعي . كان الجنديان يسيران على الطريق. فركضت وراءهما يائساً .

« ولكن ، رفاق ! انظروا ! هذا ختم اللجنة العسكرية الثورية ! »

فحدّقا في إذني ببلاهة ، ثم حدّقا ببعضهما البعض وقال أحدهما ببرود :

« أنه مختلف عن الآخرين . إننا نجهل القراءة ، يا أخ . »

أخذت بذراعه وقلت : « تعال . لنذهب الى هذا البيت . لا بـــد أن نجد فيـــه أحداً يعرف القراءة . » فتردّدا ، وقال أحدهما : « لا . » بينما أخـذ الآخر يتفحصني من رأسي الى أخمص قدميّ ، متمتماً : « لِمَ لا ؟ على كل حال ، قتل رجل بريء جريمة كبرى . »

سرنا الى باب البيت الأمامي وطرقناه . ففتحته امرأة قصيرة ، مربوعة القامة ، تراجعت مذعورة لمـا رأتنـا متمتمة : « لا أعرف شيئاً عنهم ! لا أعرف شيئاً عنهم ! » فمدّ لها أحدهما الأذن . فصرخت . « إقرإيه فقط ، يا رفيقة » . فأخذت الورقة بتردد ، وقرأت بسرعة وبصوت مرتفع :

« إن جون ريد ، حامل هـذا الإذن ، هو ممثل الحركة الاشتراكية — الديمقراطية الاميركية ، وهو أممي ... »

ولما عدنا الى الطريق ، تشاور الجنديان مجدداً . ثم قالا : « يجب أن نأخذك الى لجنة الفوج . » وفي دغشة الغروب ، أخذنا نسير في الطريق الموحل . كنا نلقى أحياناً مفرزات من الجنود فيتوقفون ويحيطون بنا متوعدين ، فيدور إذني عليهم وهم يتجادلون بعنف حول ما اذا كان يجب قتلي أم لا ...

كان الظلام قد خيم لما وصلنا الى ثكنات فرقة القناصة الثانية في « تسارسكوي سيلا » ، وهي مجموعة بنايات منتشرة على طول الطريق . الجنود الواقفون عند المدخل يسألون بلهفة : « جاسوس ؟ متآمر ؟ » صعدنا سلماً لولبياً يفضي الى غرفة شاسعة جرداء تقبع في وسطها مدفأة كبيرة ، وحولها صفوف من الأسرّة الصغيرة عليها حوالي ألف جندي يلعبون الورق يتحادثون ، يغنون ، أو يغطون في النوم . في السقف ثقب كبير أحدثته شظية أطلقتها قوات كرنسكي ...

وقفت عند الباب ، فران صمت مفاجىء على المجموعات التي بدأت تتلفت وتحدق بي . فجأة بدأ الجنود يتحركون ببطء أولاً ثم هجموا راعدين ووجوههم مليئة بالحقد . فصاح أحد الحراس : « رفاق ! رفاق ! لجنة ! لجنة ! » فتوقفوا وتحلقوا حولي مهمهمين . وخرج من بينهم شاب نحيل يرتدي على ذراعه شارة حمراء . سأل بجفاء :

« من هذا ؟ » فشرح له الحارسان الأمر .

« أعطني أوراقك ! » فقرأها بتمعن وهو يحدق بي بعينين شغوفتين ثم ابتسم وأعاد الإذن الي : « رفاق . هذا رفيق اميركي . أنا رئيس اللجنة . أهلاً بك في الفوج ... » وتحولت الهمهمة العامة الى عاصفة من الترحيب ، وتدافع الجنود لمصافحتي .

« لم تتناول العشاء بعد ؟ نحن قد تناولنا عشاءنا . سنأخذك الى نادي الضباط حيث البعض يعرف لغتك ... »

وقادني عبر الممشى الى باب بناية أخرى . ودخل شاب ارستقراطي المنظر يرتدي شارات ملازم . فقدمني اليه رئيس اللجنة ثم صافحني وعاد .

قال الملازم بلغة فرنسية ممتازة : « أنا الملازم ستيفان جورجيوفيتش موروفسكي ، تحت أمرك . » دخلنا بهواً مزيناً ثم صعدنا سلماً فاخراً تضيئه ثريات مشعشعة . في الطابق الثاني غرف « بليار » ، غرف للعب الورق ، ومكتبة يدخل اليها من البهو . دخلنا غرفة الطعام : في وسطها طاولة كبيرة يجلس إليها حوالي عشرين ضابطاً بزيهم الكامل ، وسيوفهم ذات القبضات الفضية والذهبية ، وشرائط وصلبان الأوسمة الامبراطورية . وقف الجميع بأدب عندما دخلت وأفسحوا لي مكاناً قرب العقيد ، وهو رجل ضخم مهيب ذو لحية شعثاء . بعض الجنود يقدّمون العشاء بطريقة خرقاء . الجو هو جوّ أية غرفة طعام للضباط في أوروبا . أين الثورة ؟

سألت موروفسكي : « لست بلشفياً ؟ »

وابتسم الجميع ، وألفيت بعضهم يلتفت بحذر جهة الجنود . وأجاب : « لا يوجد إلا ضابطاً بلشفياً واحداً في هذا الفوج . وهو في بتروغراد الآن . العقيد منشفي . والنقيب خيرلوف كاديت. وأنا من الجناح اليميني للاشتراكيين الثوريين ... في الواقع معظم ضباط الجيش ليسوا بلاشفة ، ولكنهم يؤمنون مثلي بالديمقراطية ؛ ويؤمنون بأن عليهم أن ينصاعوا لإرادة جماهير الجنود.»

ولما انتهينا من تناول العشاء،جيء بالخرائط ، فبسطها العقيد على الطاولة، بينما تجمّع الباقون حوله .

قال العقيد وهو يشير الى علامات مكتوبة بقلم الرصاص : « هنـا كانت مواقعنا هذا الصباح . فلاديمير كيريلوفيتش أين هي سريّتك ؟ »

وأشا النقيب خيرلوف : « قمنـا باحتلال الموقع الذي على الطريق حسب الأوامر . حلّ محلي كارسافين في الساعة الخامسة . »

إذ ذاك فتح الباب ودخل رئيس لجنة الفوج ومعه جنـدي آخر . وانضما الى المجموعة الواقفة وراء العقيد تحدّق بالخريطة . قال العقيد :

« حسناً . لقد تراجع القوزاق عشرة أميال عن قطاعنا . لا أظن أنه من الضروري أن نحتلّ المواقع المتقدمة . لهذه الليلة حافظوا على الخط الحـالي ، يا سادة ، ودعّموا مراكزكم بواسطة — »

وقاطعه رئيس لجنة الفوج : « عن إذنك . الأوامر تقول بأن نتقـدم بسرعة ونحضر للدخول في اشتباك مع القوزاق هذا الصباح شمـال غاتشينا . يجب أن نهزمهم . الرجاء أن تتخذوا الإجراءات اللازمة . »

وساد صمت . ثم عاد العقيد الى الخريطة، وقال بصوت آخر : « حسناً ، ستيفان جورجيفيتش ، رجـاء ... وأخـذ يرسم خطوطاً بقلم أزرق ، ويصدر الأوامر التي يسجلها أحد النقباء . ثم انسحب النقيب ، وبعـد عشر دقائق عاد ومعه نسختين مطبوعتين عن الأوامر . فأخـذ رئيس لجنة الفوج يدرس الخريطة وأمامه الأوامر .

« حسناً . » قال وهو يقف . ثم طوى نسخة عن الأوامر ووضعهـا في جيبه . ووقّع على النسخة الثانية ومهرها بختم مدوّر أخرجـه من جيبـه ، وقدّمها للعقيد ...

هنا كانت الثورة !

عدت الى قصر السوفييت في تسارسكوي سيلا في سيارة قيادة الفوج . ما زالت جموع العمال والجنود والبحارة تتدفق إليها ومنها ، وما زال حشد الشاحنات والسيارات المصفحة الخانق ؛ أمام الباب ينتصب مدفع ، ومن كل مكان يتعالى الصياح وضحك الإنتصار غير المألوف . بضعة أفراد من الحرس الأحمر يشقون طريقهم وبينهم كاهن . وقيل إنه الأب إيفان الذي بارك القوزاق عندما دخلوا المدينة . وسمعت فيما بعد أنه قتل ...

كان ديبنكو خارجاً يصدر أوامر سريعة يمنة ويساراً . ويحمل بيده المسدس الكبير . وكانت إحدى السيارات بانتظاره دائرة المحرّك . فصعد الى مقعدها الخلفي وحده ، وانطلق الى غاتشينا ليقهر كرنسكي .

مع مجيء الليل ، كان قد وصل الى مشارف المدينة ، فترجل من السيارة ومشى إليها . لا أعرف هل يدري ما الذي قاله ديبنكو للقوزاق إلا أن الذي أعرفه هو أن الجنرال كراسنوف وقيادته استسلموا ومعهم عدة آلاف من القوزاق ، ونصحوا كرنسكي بأن يحذو حذوهم[٢] .

أما بالنسبة لكرنسكي ، فهذا ما يخبرنا عنه الجنرال كراسنوف في شهادته يوم ١٤ تشرين الثاني :

« غاتشينا في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٧ ، حوالي الساعة الثالثة صباحاً. استدعاني القائد الأعلى « كرنسكي » وكان هائجاً وعصبياً جداً ..

وقال لي : « يا جنرال . لقد خنتني . أعلن القوزاق الذين بقيادتك أنهم سيقبضون عليّ ويسلموني للبحارة ».

أجبت : « نعم ؛ جرى حديث من هذا النوع . وأنا أعرف أن ما من أحد يعطف عليك هنا . »

– « ولكن الضباط يقولون عين الشيء . »

– « بلى ، الضباط يتذمرون منك أكثر من غيرهم . »

– « ولكن ما عساي أفعل ؟ يجب أن أنتحر ! »

– « لو كنت رجلاً شريفاً ، لذهبت الى بتروغراد حالاً رافعاً علماً أبيض ، وسلّمت نفسك للجنة العسكرية الثورية ، ودخلت في مفاوضات معها بصفتك رئيساً للحكومة المؤقتة . »

– « حسناً . سأفعل ذلك ، يا سيدي الجنرال » .

– « سأرسل معك مفرزة حرس وأطلب من أحد البحارة أن يرافقك . »

– « لا . لا . لا أريد بحارة . أتعلم إذا كان صحيحاً ما يشاع من أن ديبنكو هنا ؟ »

– « لا أعرف من هو ديبنكو . »

– « إنه عدوي . »

– « لا علاقة لهذا بالموضوع . إذا كنت تطمح الى الكثير ، عليك أن تتعلم المجازفة . »

– « حسناً . سأذهب هذه الليلة ! »

– لماذا ؟ سيكون ذلك هرباً . إذهب بهدوء وعلى مرأى من الجميع ، فيرى الجميع أنك لا تهرب . »

– « حسناً . ولكن يجب أن تعطيني حراساً أستطيع الاعتماد عليهم . »

– « اتفقنا . »

وذهبت وناديت القوزاقي روسكوف ، من الفوج العاشر في الدون ، وأمرته بأن يختار عشرة قوزاق لمرافقة القائد الأعلى . وبعد نصف ساعة ، عاد القوزاق وأبلغوني أن كرنسكي ليس في مقرّه ، وأنه هرب .

وأعلنت حالة الطوارىء ، وأمرت بالبحث عنه مفترضاً أنه لن يتمكن من مغادرة غاتشينا ؛ إلا أننا لم نجده ... »

هكذا هرب كرنسكي وحده ، « متنكراً بزي بحّار » ، وخسر بذلك ما تبقى من شعبية له عند الجماهير الروسية ...

عدت الى بتروغراد راكباً في المقعد الأمامي لشاحنة تحمل أفراداً من الحرس الأحمر ويقودها أحد العمال . لم يكن معنا وقود ، فلم نشعل الأنوار . كان الطريق مليئاً بالجيش البروليتاري العائد الى بيوته ، وبقوات الاحتياط الذاهبة لتحل محله. شاحنات ضخمة مثل شاحنتنا ، صفوف من قوات المدفعية تخترق الليل بدون أنوار مثلنا . كنا نتهادى من جهة لأخرى لنتحاشى الاصطدامات التي بدت محتمة ، فتتعالى أصوات الدواليب الحادة تعقبها شتائم المشاة .

عند الأفق تنتشر أنوار العاصمة المتألقة ، وقد بدت أبهى بكثير في الليل مما هي في النهار، فكأنها عناقيد من الألماس تكوّمت فوق المرج الأجرد .

العامل العجوز الذي يقود السيارة أمسك عجلة القيادة بيد ، وأشار بالأخرى الى العاصمة البعيدة المتألقة بحركة منتشية وهو يصيح ووجهه وضّاح :

« أنت لي ! كلّك لي الآن ، يا بتروغراد ! »

هوامش

(الفصل التاسع)

١ – أحداث يوم ١٣ تشرين الثاني في بتروغراد

رفضت ثلاثة أفواج في حامية بتروغراد الاشتراك في المعركة ضد كرنسكي وفي صباح الثالث عشر من تشرين الثاني ، دعت ستين مندوباً من الجبهة الى ندوة مشتركة لايجاد طريقة لوقف الحرب الأهلية . وعيّنت هذه الندوة لجنة لتذهب الى قوات كرنسكي وتقنعها بوقف القتال . واقترحت أن توجّه الى جنود الحكومة الأسئلة التالية : ١) هل يعترف الجنود والقوزاق التابعون لكرنسكي « بالتسايكا » كقاعدة لسلطة الحكومة تكون مسؤولة أمام مؤتمر السوفييت ؟ ٢) هل يقبل الجنود والقوزاق بالقرارات الصادرة عن المؤتمر الثاني للسوفييت ؟ ٣) هل يقبلون مراسيم الأرض والسلم ؟ ٤) هل يقبلون بوقف الأعمال العدوانية والعودة الى وحداتهم ؟ ٥) هل يوافقون على اعتقال كرنسكي وكرامنوف وسافينكوف ؟

قال زينوفييف في اجتماع سوفييت بتروغراد : « من البلاهة الظن بأن اللجنة تستطيع حلّ المشكلة . لا يمكن قهر العدو إلا بواسطة العنف . إلا

أننا نكون مجرمين إن لم نخرّب جميع الوسائل السلمية لنستميل القوزاق الى جانبنا ... إن ما نحتاجه هو نصر عسكري ... أخبار الهدنة غير ناضجة. إن قيادتنا سوف توقع على اتفاقية هدنة عندما لا يعود بمقدور العدو أن يحدث أي أذى ...

« إن تأثير انتصارنا يخلق ظروفاً سياسية جديدة في الوقت الحاضر ... الآن ، أصبح الاشتراكيون الثوريون على استعداد لاشتراك البلاشفة في الحكومة الجديدة ... لا بد من انتصار حاسم يقضي على تردّد المترددين .. »

في مجلس الدوما ، كان كل الاهتمام منصباً على تشكيل الحكومة الجديدة. كانت المحاكم الثورية قد بدأت بالعمل في العديد من المصانع والثكنات ، والبلاشفة يهددون بانشاء المزيد منها ومحاكمة غوتز وافاكسانتييف أمامها . فاقترح دان بتوجيه إنذار يطلب إلغاء هذه المحاكم الثورية وإلا اضطر أعضاء الندوة الى وقف جميع المحادثات الجارية مع البلاشفة .

وأعلن شينغاريوف ، عضو حزب الكاديت ، بأنه لا يجوز للبلدية أن تشترك في حكومة يكون البلاشفة ممثلين فيها .. « إن أي اتفاق مع هؤلاء المعتوهين مستحيل ما داموا لم يلقوا سلاحهم ولم يعترفوا بسلطة المحاكم المستقلة ... »

وأعلن يارتسيف ، باسم مجموعة « يدينستون » ، إن أي اتفاق مع البلاشفة معناه انتصار البلاشفة ..

وقال المحافظ شرايدر ، باسم الاشتراكيين الثوريين ، إنه يعارض أي اتفاق مع البلاشفة ... « أما بالنسبة للحكومة ، فيجب أن تنبثق من الارادة الشعبية ، وبما أن هذه قد عبرت عن نفسها في الانتخابات البلدية ، فالارادة الشعبية القادرة على تشكيل حكومة موجودة حالياً في مجلس الدوما » .

وبعد أن توالى عدة متكلمين ، كان ممثل المناشفة الأممين هو الوحيد بينهم الذي أيّد إشراك البلاشفة في الحكومة الجديدة ، اقرّ مجلس الدوما بقـــاء ممثليه في ندوة « الفيكجل » مع الاصرار على إعادة تشكيل الحكومة المؤقتة كمهمة أولى ، وعلى إقصاء البلاشفة عن الحكومة الجديدة ...

٢ — نداء الحكومة السوفييتية

« ان الوحدات المعسكرة في غاتشينا، والتي ضلّلها كرنسكي قد ألقت أسلحتها وقررت اعتقال كرنسكي . لقد هرب رئيس الحمـلة المضادة للثورة . أعلن الجيش ، بغالبيته الساحقة ، تأييده للمؤتمر العـــام الثاني للسوفييت وللحكومة التي انبثقت عنه . عشرات الوفود أسرعت من الجبهة الى بتروغراد لتؤكد للحكومة السوفييتية ولاء الجيش لهـــا . إن تشويه الحقائق والتهجّم على العمال والجنود والفلاحين الثوريين لم يفلح في قهر الشعب . لقـد انتصرت ثورة العمال والجنود ...

ان « التسايكا » تتوجـه الى الجنود الذين يسيرون تحت لواء الثورة المضادة وتناشدهم القاء أسلحتهم ، والامتناع عن إراقة دم إخوتهم لمصلحة حفنة من مـلاك الأرض والرأسماليين . ان ثورة العـمال والجنود والفلاحين تلعن جميع الذين يبقون ، ولو للحظة واحدة ، تحت لواء أعداء الشعب ...

أيها القوزاق ! انضموا الى صفوف الشعب المنتصر . يا عمال سكك الحديد ، يا مستخدمي البرق والبريد ، هبوا جميعاً لتأييد حكومة الشعب ! »

١٠

موسكو

تابعت « اللجنة العسكرية الثورية » إنتصارها بجدّة شرسة :

« في ١٤ تشرين الثاني »

الى جميع لجان الجيوش والوحدات والقطاعات والفرق ، الى جميع سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين ، الى الجميع ، الجميع ، الجميع .

وفقاً للاتفاقات بين القوزاق ، و « النيكرز » ، والجنود ، والبحارة ، والعمال ، تقرر تقديم ألكسندر فيودورفيتش كرنسكي الى إحدى محاكم الشعب . نطلب اعتقال كرنسكي ، وأمره ، باسم المنظمات المذكورة أدناه ، بالتوجّه فوراً الى بتروغراد لتقديم نفسه للمحكمة .

الامضاء :

قوزاق الوحدة الأولى لخيالة «أوسوري» لجنة «النيكرز» التابعة لقنّاصة بتروغراد ؛ مندوب عن الجيش الخامس

مفوّض الشعب ديبنكو »

« لجنة الإنقــاذ » ، ومجلس الدوما ، واللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري – التي تفاخر لكون كرنسكي عضواً فيها – أعلنت باندفــاع أنه لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا أمام الجمعية التأسيسية .

ليــلة ١٦ تشرين الثاني . شاهدتُ عرضاً لألفي حارس أحمر في « شارع زاغورودني » يسيرون خلف جوقة عسكرية تعزف نشيد « المارسلييز » – كم كان وقعها ملائماً ! – حاملين أعلاماً حمراء بلون الدم ترفرف فوق صفوف العمال ذات الألوان القاتمة ، ليستقبلوا إخوانهم الذين دافعوا عن « بتروغراد الحمراء » . وكانوا يسيرون عند الغروب القارس ، رجالاً ونساء ، وحرابهم الطويلة تتماوج ، مخترقين شوارع ذات أنوار خافتــة يغطيها وحل لزج ، بين جموع صامتة من البرجوازيين الحاقدين والخائفين ...

الجميع ضدهم – رجال الأعمال ، المضاربون ، المستثمرون، ملاك الأرض، ضباط الجيش ، السياسيون ، المعلمون ، الطلبــــة ، أصحاب المهن الحرّة ، أصحاب الحوانيت ، الموظفون والعملاء . والأحزاب الاشتراكيــــة الأخرى تضمر للبلاشفة حقداً أعمى . ولكن يقف الى جانب السوفييت قاعدة العمال والبحارة والجنود الذين لم تتحطم معنوياتهم ، والفلاحون الذين لا يملكون الارض ، وعدد قليل – قليل جداً – من المثقفين ...

من أقاصي روسيا الواسعة ، التي تغمرها موجة من قتال الشوارع الضاري، أعادت أخبار هزيمة كرنسكي صدى الهدير العظيم لانتصار البروليتـــاريا . قازان ، ساراتوف ، نوفغورود ، فينيتزا – حيث كان الدم يجري في الشوارع؛ موسكو ، حيث وجّه البلاشـــفة مدفعيتهم ضد آخر معقل للبرجوازية – قصر الكرملين .

« إنهم يقصفون الكرملين ! » وتناقلت الشفاه الخبر في شوارع بتروغراد بما يشبه الرعب . وخبّر المسافرون القادمون من موسكو « الأم الصغــــيرة

البيضاء البرّاقــة » قصصاً مفزعة . آلاف القتلى ؛ أبنيــة « تفيرسكايا » و « كوزنتزكي » تحـترق ؛ كنيسة « فاسيللي بلاجيني » خربة محترقة ؛ كاتدرائية «أوسبينسكي» تنهار ؛ بوّابة « سباسكايا » في الكرملين تتداعى ؛ بناية الدوما خربة يتصاعد منها الدخان .

لم يكن أي شيء قام به البلاشفــة ليقاس بهذا الفكر الشنيع في قلب « روسيا المقدسة » . وترامت الى آذان الأتقياء أصوات المدافع وهي تبصق لهيبهـا في وجه « الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة » ، وتدكّ محراب الأمـة الروسية .

في ١٥ تشرين الثاني ، انفجر مفوّض الثقــافة لونا تشارسكي باكياً في اجتماع لمجلس مفوّضي الشعب ، وخرج من الغرفة صائحاً : « لا أقدر أن أتحمل ! لا أطيق التخريب البشع للجمال والتقاليد ... »

وفي بعد ظهر اليوم نفسه نشرت الصحف استقالته :

« علمت لتوّه ، من بعض القادمين من موسكو ، عما جرى هناك : « كاتدرائية القديس باسيليوس المبارك » ، و « كاتدرائية الصعود » تتعرّضان للقصف . نيران المدفعية تقصف الكرملين ، حيث تتجمع أثمن كنوز بتروغراد وموسكو الفنية . يوجـد آلاف الضحايا .

الصراع البشع هناك وصل الى ذروة الوحشية البهيمية .

ماذا تبقى ؟ ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما حدث ؟

أنا لا أستطيع أن أتحمل ذلك . لقد بلغ السيل الزبا .

لست أستطيع مقاساة هـذه الفظائع . يستحيل عليَّ العمل تحت ضغط أفكار تدفع بي الى حدّ الجنون !

لهذا السبب سأترك مجلس مفوّضي الشعب .

إني على علم تام بخطورة هذا القرار . ولكني لم أعد أستطيع التحمل بعد الآن ... »

وفي اليوم ذاته ، استسلم الحرس الأبيض و « النيكرز » في الكرملين ، وسمح لهم أن يخرجوا منه بدون أذى . وعقب ذلك توقيع اتفاقية الصلح التاليـة :

« ١ — تحلّ « لجنة السلامة العامة » .

٢ — الحرس الأبيض يسلّم أسلحتـه ويحلّ نفسه . يحتفظ الضباط بسيوفهم ومسدساتهم . ويحتفظ في الكليات العسكرية بالأسلحة الضرورية للتعليم ؛ على « النيكرز » أن يسلموا جميع الأسلحة الأخرى . تتعهد اللجنـة العسكرية الثورية بحماية حرية وسلامة الاشخاص .

٣ — تعين لجنة خاصة من ممثلي جميع المنظمات التي اشتركت في مفـاوضات الصلح لحلّ موضوع نزع السلاح المنصوص عليـه في الفقرة ٢ .

٤ — ابتداءً من موعد اتفاقية الصلح ، يدعو كلا الفريقين الى وقف إطلاق النار ووقف جميع العمليات العسكرية فوراً ، ويتخذان الاجراءات اللازمة لتأمين الطاعة الكاملة للأوامر .

٥ — ابتداء من موعد توقيع الاتفاقيـة ، سيطلق الطرفان جميع الأسرى ... »

البلاشفة يسيطرون على المدينة منذ يومين . المواطنون المذعورون يتسللون من أقبيتهـم بحثاً عن موتاهم ؛ او يعملون على إزالة المتاريس من الشوارع .

إلا أن القصص عن خراب موسكو ازدادت عوضاً عن أن تقلّ . وكان ان قرّرنا الذهاب الى هناك تحت تأثير هذه الاخباريات المخيفة .

مهما يكن من أمر ، فإن بتروغراد تبقى مدينـة اصطناعية بالرغم من كونها مقرّ الحكومة منذ قرن . إن موسكو هي روسيا الحقيقيـة ، روسيا كما كانت وسوف تكون ، وفي موسكو سوف يتسنى لنا أن نعرف الشعور الحقيقي للشعب الروسي حول الثورة . فالحياة أكثر زخماً هناك .

طوال الأسبوع المنصرم ، كانت اللجنـة العسكرية الثورية في بتروغراد قد استولت على خط سكك حديد نيقولاي ، بمساعدة عمال سكك الحديد ، وأخذت ترسل الشحنة تلو الشحنة من البحـارة والحرس الأحمر الى الجنوب الغربي ... وتزوّدنا بأذونات من « سمولني » التي لا يمكن الخروج من العاصمة بدونها ...

وعندما دخـل القطار المحطة ، هجم جمع من الجنود ذوي الثياب الرثـة الى الأبواب ، وحطموا النوافـذ ، وتدفقوا الى جميع المقصورات فغصّت المماشي بهم الى درجة أن البعض أخذ يصعد الى السطح . واستطاع ثلاثة منا أن يشقوا طريقهم الى احدى المقصورات ، ولكن ما إن دخلناها حتى لحق بنا حوالي العشرين جندياً ... ولم يكن ثمة مكان إلا لأربعة أشخاص ، وعبثاً حاولنـا أن نناقش ونقنع ، وانضم المفتش الينا ، ولكن الجنود اكتفوا بالابتسام . لماذا يهتمون براحة رتل من البرجوازيين ! ولكن مـا أن أبرزنا أذوناتنا من « سمولني » حتى تعدّل موقف الجنود فجأة .

فصاح أحدهم : « تعالوا ، يا رفاق . هؤلاء رفاق أميركيون . لقد قطعوا آلاف الأميال ليشاهدوا ثورتنا ، ولا بدّ أنهم متعبون ... »

ويبدأ الجنود بالانسحاب متمتمين عبارات اعتذار مهذبة وودودة . وبعد

برهة سمعناهم يقتحمون مقصورة يشغلها روسيان قويا البنية ، يرتديان ثياباً فاخرة كانا قد رشيا المفتش وأغلقا الباب عليهما ...

في حوالي السابعة مساءً خرج القطار من المحطة ، كان قطاراً ضخماً طويلاً تجـرّه قاطرة ضعيفة تسير على احتراق الحطب ، تتهادى ببطء متعثرة في سيرها ، وتتوقف كثيراً . الجنود على السطح يقرعون بأعقاب أحذيتهم ويغنون أغاني فلاحية حزينة ؛ وفي الممشى ، المكتظ بالناس الى درجة يستحيل السير فيه ، تدور المناقشات السياسية الحادة طوال الليل . ومن وقت لآخر يبرز المفتش ، بحكم العادة ، طالباً تذاكر السفر . فلا يجد منها إلا العدد القليل، بما فيه تذاكرنا ، وبعد نصف ساعة من الجدال غير المجدي، يرفع ذراعيه يائساً وينسحب . الجو خانق، مليء بالدخان والروائح الكريهة ؛ ولو لم تكن النوافذ محطمة فما من شك أننا كنا اختنقنا خلال الليل .

وفي الصباح ، بعد تأخير ساعات ، اشرفنا على عالم من الثلج . البرد قارس . وحوالي الظهر صعدت فلاحة تحمل سلة مليئة بكسرات الخبز ووعاء كبيراً من القهوة الاصطناعية الفاترة . ومنذ ذلك الحين حتى العشية ، لم يكن هناك غير القطار المكتظ ، يتمايل ويتوقف ؛ وعند بعض المحطات يجتاح جمع كاسر المطعم وينظفه مما فيه من طعام قليل ... وعند إحدى هذه الوقفات رأيت نوغين وريكوف ، مفوّضي الشعب المنشقين ، عائدين الى موسكو لتقديم شكواهما أمام السوفييت الذي ينتميان اليه ؛ وفيما بعد ، رأيت بوخارين ، وهو رجل قصير القامة ، أحمر اللحية ، له عينا رجل متزمّت ، ويقال أنه « أكثر يسارية من لينين » ...

ثم قرعت دقات الجرس الثلاث ، فأسرعنا عائدين الى القطار ، شاقين طريقنا بصعوبة وسط الممشى المكتظ المليء بالضجيج ... جمعٌ طيّب القلب يقاسي الإزعاج بصبر مرح ، يناقش الى ما لا نهاية عن كل شيء من الوضع في

بتروغراد الى التنظيم النقابي البريطاني ، ويجادل بصوت مرتفع القـلة من البرجوازيين الموجودة على القطار . وقبل أن نصل موسكو ، كانت كل عربة قد شكلت لجنة لتأمين الغذاء وتوزيعه ، وسرعان ما انقسمت هـذه اللجان الى أجنحة سياسية تتجادل فيما بينها حول المبادىء الرئيسية ...

محطة موسكو مهجورة . دخلنا مكتب المفوّض لكي نؤمن تذاكر العودة . كان يافعاً عليه ملامح الحزن ، على كتفيه شارات ملازم ؛ وعندما أبرزنا له أوراقنا من « سمولني » فقد اعصابه واعلن انه ليس بلشفياً ، وانه يمثل « لجنة السلامة العامة » ... في الغليان العـام الذي رافق الاستيلاء على المدينة ، نسي المنتصرون السيطرة على محطة سكك الحديد الرئيسية ...

لا يوجد سيارة عمومية . إلا أننا التقينا بسائق زلاّجة ، يرتدي ثياباً سميكة ، وينام واقفاً على صندوق زلاجته الصغيرة ، فأيقظناه قائلين : « كم تريد لتقلنا الى مركز المدينة ؟ »

حك رأسه وقال: « لن يستطيع السادة العثور على غرفة في أي فندق . ولكني سآخذكم لقـاء مائة روبل ... » كانت التعرفـة روبلين اثنين قبل الثورة . فاعترضنا ، إلا أنه اكتفى بهزّ كتفيه ، ثم أردف قائلاً : « يحتـاج المرء الى الكثير من الشجاعة ليقود زلاجة في هذه الأيام ... » ولم نستطع أن نقنعه بأن يأخذ أقل من ثلاثين روبل ... وبينما كنـا نصرع في الطرقات الهادئة المغطاة بالثلج ، الشحيحة الأنوار ، أخذ يقصّ علينـا مغامراته خلال الأيام الستة عندما كان القتال دائراً في المدينة : « بينما كنت أسوق أو أنتظر طلبـاً ، تنفجر قنبلة مدفع هنـا فجأة ، بوم ! وأخرى هناك ، بوم ! رات – رات – رات ، رشاش ... فأسرع والشياطين يطلقون النار من كل الجهات . وأصل الى طريق هادىء لذيذ ، فأتوقف وأنام ، ثم « بوم » قنبلة أخرى ، رات – رات رات ... شياطين ! شياطين ! شياطين ! بررور ! »

في مركز المدينة، كانت الطرق المغطاة بالثلج هادئة يغمرها ذلك السكون الذي يرافق فترة النقاهة. كانت بعض الأنوار مضيئة ، وبعض المشاة يهرولون على الأرصفة . الريح الجليدية تهب من السهل الكبير وتخترق العظام . ولما وصلنا أول فندق ، دخلنا مكتباً تضيئه شمعتان :

« نعم ، عندنا غرف مريحة جداً ولكن جميع النوافذ محطمة . إذا كان السادة لا ينزعجون من بعض الهواء المنعش ... »

كانت واجهات المتاجر محطمة في شارع « تفيرسكايا » ، المليء بالحجارة المقلوبة والحفر التي أحدثتها القذائف . وتجولنا من فندق الى فندق وكانت كلها مليئة ، أو كان أصحابها الذين ما زالوا مذعورين يقولون : « لا . لا . ما عندنا غرف ! ما عندنا غرف ! » كانت المدفعية البلشفية قد أحدثت أضراراً بالغة في الشوارع الرئيسية حيث المصارف والمتاجر الكبيرة . وقال لي أحد موظفي السوفييت : « لمّا كنا لا نستطيع أن نحدّد بالضبط أين يوجد « اليونكرز » والحرس الأبيض كنا نقصف المكان كله ... »

وأخيراً وجدنا غرفاً في « الفندق الوطني » الكبير ، ذلك أننا أجانب ، واللجنة العسكرية الثورية كانت قد وعدت بحماية مساكن الأجانب ... وفي الطابق العلوي ، دلّنا مدير الفندق على النوافذ التي هدمتها القذائف : قال وهو يهزّ قبضته في وجه بلاشفة وهميين : « الحيوانات ! ولكن تمهّلوا ! سوف يأتي دورهم ، بعد بضعة أيام ستنهار حكومتهم السخيفة وسوف نعذبهم بدورنا ! »

تناولنا الطعام في مطعم للنباتيين فقط له اسم طريف : « أنا لا آكل أحداً » ، تعلو جدرانه صورة لتولستوي . ثم خرجنا الى الطرقات .

كان سوفييت موسكو قد اتخذ قصر الحاكم العام مقراً له ، وهو بناية

بيضاء مهيبة تطل على « ساحة سكوبيليف » . أفراد الحرس الأحمر يحرسون الباب . ولما وصلنا الى رأس السلّم الواسع البهيّ المليئة جدرانه بإعلانات عن اجتماعات اللجان وبيانات الأحزاب السياسية ، عبرنا سلسلة من الغرف علقت فيها صور ذات أطر حمراء مذهبة ، الى القاعة الرسمية الرائعة ، بثرياتها الكريستال الفخمة وإفريزها المذهّب . وكانت همهمة حديث خافت وجلبة أصوات آلات الخياطة تملأ المكان . بالات من القماش الأحمر والأسود تملأ الأرض وتغطي الطاولات التي تجلس عليها حوالي الخمسين امرأة ، تقص وتخيّط الاعلام لدفن شهداء الثورة . نساء تركت مصاعب الحياة على وجوههن ندوبها القاسية ، يعملن بدأب ، وقد احمرّت عيون العديد منهن من كثرة البكاء ... فقد تكبد الجيش الأحمر خسائر فادحة .

وفي إحدى الزوايا ، جلس روغوف وراء مكتب . إنه رجل ذكي ملتح ذو نظارات ، يرتدي قميص العمال الأسود . فدعانا الى السير مع اللجنة المركزية التنفيذية في الجنازة في اليوم التالي . ثم قال : « من المستحيل تعليم المناشفة والاشتراكيين الثوريين أي شيء . إنهم يساومون بحكم العادة . تصوروا ! لقد اقترحوا علينا أن نقيم جنازة مشتركة نحن والنيكرز ! »

في الطرف الثاني من القاعة ، رأيت رجلا يرتدي معطفاً عسكرياً رثاً ، ولم يكن وجهه غريباً عني . وسرعان ما تذكرته : إنه ملنيشانسكي الذي عرفته عندما كان يسمّى الساعاتي جورج ملشير في « بايون » ، ولاية نيوجيرزي ، خلال اضراب عمال « ستاندارد اويل » الكبير . وأخبرني أنه قد أصبح الآن سكرتير اتحاد عمال المعادن في موسكو وأحد مفوّضي اللجنة العسكرية الثورية خلال القتال .

فصاح وهو يريني ثيابه الرثة : « تصوّر ! كنت مع الشباب في الكرملين عندما جاء « النيكرز » أول مرّة . فحبسوني في أحد الأقبية وأخذوا

معطفي ومالي وساعتي وحتى الخاتم الذي في إصبعي . هذا كل ما تبقى لي لأرتدي ! »

وعلمت منه الكثير عن المعركة الدامية التي استمرت خلال ستة أيام والتي قسمت موسكو الى معسكرين . ففي موسكو ، وعلى عكس ما جرى في بتروغراد ، استلم مجلس الدوما قيادة « النيكرز » والحرس الأبيض ، وقاد عمليات « لجنة السلامة العامة » والقوات المسلحة . وكان حاكم المدينة ، ريابتسيف ، وهو رجل ذو حس ديمقراطي ، قد تردّد في الوقوف بوجه اللجنة العسكرية الثورية ؛ إلا أن مجلس الدوما أجبره على ذلك . وكان المحافظ هو صاحب مشروع احتلال الكرملين معلناً : « إنهم لن يجرأوا على إطلاق النار عليكم هناك ... »

وجرى أن اتصل الطرفان بأحد أفواج الحامية الذي كان قد تحطمت كل معنوياته بسبب عدم القيام بأي نشاط . فاجتمع الفوج ليقرر أي موقف يتخذ . فكانت النتيجة إصراره على البقاء على الحياد والاستمرار في نشاطاته السابقة التي تتلخص في بيع الحمايات وحبوب زهرة « دوّار الشمس » !

قال ملنيشانسكي : « ولكن أسوأ ما في الأمر اضطرارنا الى تنظيم أنفسنا ونحن نقاتل. كان الطرف الآخر يعرف ماذا يريد على وجه التحديد ؛ ولكن عندنا ، كان للجنود سوفييتهم وللعمال سوفييتهم ... وجرى صراع عنيف حول من سيكون القائد العام ؛ بعض الأفواج ظلت تناقش الأمر طوال أيام قبل أن تقرر ما ستفعل ؛ وعندما هجرنا الضباط فجأة وجدنا أنفسنا بدون قيادة للمعركة تصدر الأوامر ... »

وقد رسم لي صوراً حيّة عما جرى . في ذات يوم غائم وبارد كان واقفاً عند زاوية شارع « نيكيتسكايا » الذي تلعلع فيه نيران المدافع الرشاشة . وكان جمع من الصبيان مجتمعاً هناك ، جمع من أولاد الأزقة الذين كانوا في

السابق بائمي صحف . وكانوا ينتظرون بحماس وفرح ، كأنهم يلعبون لعبة جديدة ، حتى يخفّ تبادل اطلاق النار فيحاولون عبور الشارع راكضين... قتل منهم العديد ، إلا أن الباقين ظلوا يعبرون ويرجعون ضاحكين متحدّين بعضهم البعض .

ذهبت في المساء المتأخر الى « نادي النبلاء » حيث كان مقرراً أن يجتمع البلاشفة ليستمعوا الى تقرير نوغين وريكوف وغيرهما من الذين استقالوا من مجلس مفوّضي الشعب .

قاعة الاجتماع عبارة عن مسرح كانت فرقة الهواة ، أيام العهد البائد ، تقدّم عليه أحدث المسرحيات الهزلية الفرنسية أمام جمهور من الضباط ومن النساء المتبرّجات .

في البدء ، كانت القاعة مليئة بالمثقفين الذين يسكنون قرب مركزالمدينة. ولما تكلم نوغين كان واضحاً أن معظم المستمعين على اتفاق معه . وتأخر العمال في الوصول ، فقد كانت الأحياء العمالية في أطراف المدينة والسيارات العمومية متوقفة . وحوالي منتصف الليل ، بدأوا يتوافدون بمجموعات من عشرة او عشرين من الرجال الضخام الأشداء الذين يرتدون ثياباً خشنة ، قادمين حديثاً من المعركة حيث قاتلوا كالشياطين طوال أسبوع بكامله وشاهدوا رفاقهم يتساقطون حولهم .

وما إن بدأ الاجتماع حتى انهال على نوغين وابل من الزعيق والصيحات الغاضبة . كان قد انسحب من مجلس مفوّضي الشعب ، أي أنه تخلى عن مركزه خلال المعركة . أما بالنسبة للصحافة البرجوازية فلم يعد يوجد صحافة برجوازية هنا في موسكو ، حتى مجلس الدوما قد حُلّ . ووقف بوخارين ، متوحشاً وورومنطقياً، بصوت يغوص ويصيب، يغوص ويصيب... فاستمعوا

اليه بأعين برّاقة . وفاز اقتراح بتأييد أعمال مجلس مفوّضي الشعب بأغلبية ساحقة . هكذا تكلمت موسكو ...

عقيب أواخر الليل عبرنا الطرقات الخاوية الى الساحة الحمراء قبالة الكرملين مروراً « بالبوابة الإيبيرية » . وكانت كنيسة « فاسيلي بلاجيني » تنتصب رائعة بظلال قبابها المشرئبة ذات الألوان البرّاقة . لا يوجد أي أثر للأضرار ... وعند جهات الساحة ، ترتفع قلاع الكرملين وجدرانه . وفوق الجدران العالية ، يشعّ ضوء نيران مخفية ؛ وترامت الينا عبر المكان الواسع أصوات وجلبة معاول ورفوش . فعبرنا اليها .

كانت تلال من التراب والحجارة مكوّمة عالياً قرب حافة الجدار . وتسلقناها وأشرفنا على حفرتين كبيرتين يبلغ عمق الواحدة منهما عشرة الى خمسة عشر قدماً ويبلغ طولها خمسين ذراعاً ، وكان مئات الجنود والعمال يحفرون تحت ضوء نيران ضخمة .

وتحدث إلينا طالب شاب بالألمانية مفسراً : « إنها « مقبرة الأخوّة » . غداً سوف ندفن فيها خمسمئة بروليتاري استشهدوا من أجل الثورة ! »

ثم أنزلنا الى الحفرة . المعاول والرفوش تعمل بسرعة مذهلة وتلال التراب تتعالى . لا أحد يتكلم . السماء مليئة بالنجوم وجدار الكرملين الامبراطوري العتيق يشمخ فوقنا .

وقال الطالب : « هنا ، في هذا المكان المقدّس، أقدس مكان في روسيا ، سوف ندفن أقدس الناس بالنسبة لنا . هنا حيث مدافن القياصرة ، سيرقد قيصرنا : الشعب . .» وكانت يده في علاّقة من جراء جرح أصيب به في المعركة . نظر الى يده وقال : « أنتم الأجانب تزدروننا ، نحن الروس ، لأننا احتملنا نظاماً ملكياً من أنظمة القرون الوسطى خلال مدة طويلة .

ولكننا اكتشفنا أن القيصر لم يكن الطاغية الوحيد في العـــالم ؛ الرأسمالية أسوأ منـــه ، والرأسماليـــة هي امبراطور جميع بلدان العالم ... الخطط التكتيكية الثورية الروسية هي أفضل الخطط ... »

وبينا كنا نغادر المكان،بدأ العمال يتركون الحفر ، منهكين يعلو أجسادهم العرق رغم البرد القارس . ورأينا جمعاً داكناً من الرجال يهرول عابراً الساحة الحمراء . وتدافعوا الى الحفر وأخذوا يحفرون ، يحفرون ، بدون أية كلمة ..

وهكذا كان المتطوعون من أبناء الشعب يتنـــاوبون طوال الليل محافظين على السرعة الفائقة في العمل . وما إن أطل نور الفجر البارد وعرى الساحة الكبرى المغطاة بالثلج حتى بان شدق الحفرتين البُنيّتين لمقبرة الأخوة وقـــد أصبحت جاهزة .

استيقظنا قبل طلوع الشمس وهرولنا الى « ساحـة سكوبيليف » خلال الطرقات المظلمة . لم نشاهد رجلاً واحداً في هذه المدينة الكبيرة ، إلا أن صوت جلبة خافتة ترامى إلينا ، بعيداً وقريباً في آن واحـد ، مثل هبوب ريح قوية . جمع من الرجـال والنساء يحتشد أمـــام مقر السوفييت في النور الشاحب ، حاملاً عدداً من الرايات الحمراء التي كتب عليها بأحرف ذهبيـــة : اللجنـــة المركزية التنفيذية لمنظمات السوفييت في موسكو . وطلع الضوء . الصوت الغامض القادم من البعيد قد ازداد عمقاً وارتفاعاً .. المدينة تستيقظ . فنزلنا « شارع تفيرسكايا »،ترفرف فوقنا الأعلام.الكنائس الصغيرة على طريقنا مقفلة مظلمة ، وبينها كنيسة العذراء الايبيرية التي كان يزورها القياصرة قبل التوجـه الى الكرملين ليتوّجوا أنفسهم ، والتي كانت مفتوحـة ليلاً نهـــاراً ومزدحمة بالناس ، ينعكس فيهـا ضوء شموع المؤمنين على الأيقونات الذهبيـة والفضية والمرصعة بالجواهر . ويقال إن هـذه هي المرّة الأولى التي تطفأ فيها الشموع منذ أن كان نابليون في موسكو .

كانت الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة قد سحبت بركتها عن موسكو بعد أن أصبحت عشاً للثعابين الكفرة الذين قصفوا الكرملين . الكنائس مظلمة وصامتة ، والكهنة قد اختفوا . لم يحضر الجنازة الحمراء أي رجل دين . لم تمنح بركة الميرون للموتى ولم ترتل الصلوات على قبور المجدفين . وبعد ذلك بقليل ، أعلن تيخون ، متروبوليت موسكو ، تحريم السوفييت .

الحوانيت مقفلة أيضاً ، والطبقات المالكة لازمت مساكنها — ولكن لأسباب أخرى . فهذا يوم الشعب ، وكانت الشائعة التي أعلنت مجيئه كالموجة العاتية .

بدأ نهر من البشر يتوقف تحت « البوابة الايبيرية » ؛ والساحة الحمراء أضحت مرقطة بالبشر ، ألوف البشر . ولاحظت أن الجمع لم يأبه بالكنيسة الايبيرية ،هذه الكنيسة التي كان الجميع يرسمون إشارة الصليب عندما يمرون بها .

وشققنا طريقنا وسط الجمع المحتشد عند جدار الكرملين ، واعتلينا أحد تلال التراب . وكان العديد هناك ، بينهم مورانوف ، الجندي الطويل ، البسيط الشكل ذو الوجه الملتحي الوسيم ، الذي انتخب حاكماً لموسكو .

وتدفق البشر كالسيل الجارف بالآلاف المؤلفة من كل الطرقات المؤدية الى الساحة الحمراء ، وجميعهم من الفقراء والكادحين . ثم جاءت جوقة عسكرية تعزف النشيد الأممي ، وبشكل عفوي أخذ اللحن يستحوذ على الناس ويتسع بهدوء وجلال مثل اتساع التموجات التي تحدثها الريح على سطح الماء . وتدلت من أسطح الكرملين بيارق حمراء ضخمة كتب عليها بالأبيض ولون الذهب : « شهداء بداية الثورة الاجتماعية العالمية » و « عاشت أخوة عمال العالم . »

ريح قارسة تجتاح الساحة محركة الأعلام . الآن بدأ عمال المصانع المختلفة يتوافدون من الأحياء البعيدة حاملين موتاهم . وهـا هم يجتازون البوابة

بأعلامهم المرفرفة والنعوش الحمراء القانية كالدم التي يحملون . كانت صناديق مصنوعة من الخشب غير المصقول ومطلية بالأحمر ومرفوعة عالياً على أكتاف رجـال أشداء يمشون والدموع تنحدر على وجوههم ، تلحق بهم نساء تنوح وتصرخ ، أو تمشي بجمود بأوجه شاحبة فقدت كل أثر للحيـاة . كانت بعض النعوش مفتوحة ، وأغطيتها محمولة وراءها ، والأخرى مغطاة بالقماش الذهبي أو الفضي ، أو قد سمّرت عليها قبعة جندي . ثمة أكاليل عديدة من الأزهار الاصطناعية القبيحة ...

المسيرة تتقدم نحونا ببطء وسط طريق متعرجة تنفتح وتنغلق . الآن يتدفق من البوابة جـــدول لا ينتهي من الأعلام ذات اللون الأحمر بمختلف ظلاله ، والأحرف الفضية أو المذهبة ، والعقد المتدلية من رؤوسها ، وبعض أعـلام الفوضويين السوداء المخطوط عليهـا بأحرف بيضاء . الجوقـة تعزف « نشيد الموتى الثوري »، وتتعالى أصوات أعضاء المسيرة الحاسري الرؤوس ، تغني بخشونة وتغص بالدموع ، رغم غناء الجمهرة المرتفع ...

وبين عمـال المصانع ، جاءت سرايا من الجنود حـاملة النعوش ، وفرق الخيالة مؤدية التحية ، وفرق المدفعية وقد غطت مدافعها الى الأبـد بالألوان الحمراء والسوداء . وقد كتب على أعلامها : « عاشت الأممية الثالثـة ! » أو « نريد سلماً ديمقراطياً شاملاً صادقاً » .

وتقدمت المسيرة ببطء بنعوشها الى مـــدخل المقبرة ، وتسلق حـاملو النعوش تلال التراب ونزلوا الى الحفرة . وكان بينهم العديد من النساء ، نساء عاملات قويات مربوعات القامة . ثم تقدم مزيـد من النساء وراء النعوش ، صبايا بلغن حد الانهيار ، أو عجائز يصحن مثـل حيوانات جريحة ويحاولن اللحـــاق بأبنائهن أو أزواجهن الى « مقبرة الأخوة » ، وتزعق عندما تمتد الأيدي لتمنعهم . الفقراء يحبون بعضهم البعض كما لا يحب أحد !

ظلت الجنازة تتوافد طوال النهـــار ، قادمة من « البوابة الايبيرية » ، ومغادرة الساحة عن طريق شارع « نيكولسكايا » ، نهراً من الأعلام الحمراء التي تحمل عبارات الأمل والأخوة والنبوءات المذهلة ، يتدفق أمام حشد من حوالي خمسين ألف رجل وتحت أعين عمال العالم وأحفادهم الى الأبد ..

وأنزل خمسمائة نعش الى الحفرتين الواحـد تلو الآخر . وكان الغسق ، والأعلام ما تزال تتوالى منكسة أو مرفرفة ، والجوقـة تعزف نشيد الموتى والجمهرة العظيمة تنشد . والأكاليل معلقة على أغصـان الأشجار العـارية من الورق ، مثل أزهار غريبة متعددة الألوان . وبدأ حوالي مئتي رجل يردمون الحفرتين ، فتساقط التراب فوق النعوش محــدثاً أصواتاً بكماء تسمع رغم الغناء .

انطفأت الأنوار. ومرّت الأعلام الأخيرة وآخر النساء النائحات ، اللواتي يلتفتن الى الوراء بشغف مريع . وأخذت الموجـة البروليتارية تنحسر ببطء من الساحة الكبيرة .

وأيقنت فجـأة أن الشعب الروسي المؤمن لم يعــد بحاجـة الى الكهنة ليعبّدوا طريقــه الى السماء بالصلوات . إنه يبني على الأرض ملكوتاً أكثر إشراقاً من أي ملكوت تستطيـع أن تَعِد السماء به ، ملكوت يبلغ المجـد من يموت في سبيله ..

هوامش

(الفصل العاشر)

١ – الأضرار التي أصابت الكرملين

لقد تحققتُ بنفسي من الضرر الذي أصاب الكرملين عندما زرته بعد القصف مباشرة . « قصر نيقولاي الصغير » بناية ليس لها أهمية خاصة كانت تقيم فيها الدولة الكبيرة أحياناً حفلات الاستقبال ، وقد أصبح ثكنة « للنيكرز » . هذا القصر لم يقصف وحسب ولكنه نهب كذلك . ولكنه لم يكن يحتوي على أي شيء ذي قيمة تاريخية لحسن الحظّ .

اخترقت قذيفة إحدى قباب « كاتدرائية أوسبينسكي » ، وفيما عدا سقوط بضع قطع من الفسيفساء من السقف لم تصب بأي أذى . وقد أحدثت قذيفة عطباً بالغاً في جدرانيات بوابة « كاتدرائية بلاغوفيتشينسكي » . كما أصابت قذيفة أخرى طرف « كاتدرائية ايفان فيليكي » . وقصف « دير تشولوفسكي » أكثر من ثلاثين مرّة ، إلا أن قذيفة واحدة دخلته من النافذة ، بينما هدّمت القذائف الأخرى حافة النوافذ وإفريز السقف .

تحطمت الساعة فوق « بوابة سباسكايا » . وتهدمت « بوابة ترويتسكي » ولكن يمكن ترميمها بسهولة . هذا بالاضافة الى أن إحدى القلاع الدنيا فقدت قمّتها القرميد .

أما كنيسة « القديس باسيل » و « القصر الامبراطوري الكبير » ، الذي يحتوي قبوه على جميع كنوز بتروغراد وموسكو كما تحتوي خزينته على الجوهرات الملكية ، فلم يصابا بأي أذى .

٢ – تصريح لوناتشارسكي

« أيها الرفاق ! أنتم سادة هذا البلد الشباب، وبالرغم أن بين أيديكم ما تفكرون فيه وتعملونه، يجب أن تتعلموا كيف تدافعون عن كنوزكم الفنية والعلمية .

أيها الرفاق ! إن ما حدث في موسكو لهو نكبة مروعة لا يمكن تصليحها ... إن الشعب، في نضاله من أجل استلام الحكم ، قد شوّه وجه عاصمتنا الجيدة .

إن تحمّل مسئولية مفوّضية الثقافة العامة في أيام الصراع العنيف والحرب المخربة هـذه لهو أمر مروّع . إن الأمل في انتصار الاشتراكية التي هي منبع ثقافة جديدة متفوّقة ، هو وحده الذي يجلب لي العزاء . إن مسئولية حماية ثروة الشعب الفنية ترزح على كاهلي ... ولكوني لا أستطيع البقاء في مركزي ، حيث لم يكن لي أي سلطة ، قدّمت استقالتي . إلا أن رفاقي ، المفوضين الآخرين ، رفضوا الاستقالة . لذا ، سوف أبقى في مركزي ... وبالاضافة الى ذلك ، فقد تبيّن لي أن الضرر الذي أصاب الكرملين ليس بالخطورة التي صورتها بعض التقارير ...

ولكني أتوسّل اليكم ، أيها الرفاق ، أن تساعدوني ... حافظوا على جمال بلدكم من أجلكم ومن أجل أبنائكم ؛ كونوا حرّاس ملكية الشعب .

قريباً ، قريباً جداً ، سوف يتسنّى لأجهل الناس ، للذين

ابقي عليهم في الجهل مدة طويلة جداً ، أن يستيقظوا ويفهموا الى أي مدى يمكن للفن أن يكون مصدر غبطة وقوة وحكمة ... »

٣ – قسيمة للبرجوازيين

الحي : الرقم : العنوان:	الاسم : الشهرة : المهنة :	رقم لجنة المساكن :

الجنس	العمر	الموجودات			
		النسيج	الكمية	الالبسة الجاهزة	القطع
المعدّل الشهري		للملبوسات الداخلية		معاطف :	
الدخل	المصروف			شتاء	
		للبذلات		صيف	
				خريف	
		للمعاطف			
الايجار الشهري					
الشقة	الغرفة			بذلات وفساطين	
				ثياب داخلية	
				أحذية	
		أنواع أخرى		جزمات	

أنا الموقع أدناه أعلن أن الأرقام المبينة في الصفحة السابقة صحيحة وأني لم أستلم هذه البطاقة من مكان آخر .

التوقيع :

(توقيع المستأجر)

موسكو في ١٩١

(ختم لجنة المنازل)

١١

الاستيلاء على السلطة

« بيان حقوق شعوب روسيا [٢]

في شهر حزيران من هذا العام ، أعلن المؤتمر الأول للسوفييت حق شعوب روسيا في تقرير المصير .

وفي شهر تشرين الثاني المنصرم ، أكد المؤتمر الثاني للسوفييت هذا الحق الأبدي لشعوب روسيا نهائياً وبجزم أكثر .

ان مجلس مفوّضي الشعب، تنفيذاً منه لإرادة هذين المؤتمرين، قد اعتمد المبادىء التالية كأساس لنشاطه في مسألة القوميات :

١ – سيادة شعوب روسيا ومساواتها .

٢ – حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها بحرّية ، حتى الى درجة السماح لها بالانفصال وتكوين دولة مستقلة .

٣ – الغاء جميع الامتيازات والتقييدات القومية والقومية – الدينية .

٣ – التطور الحرّ للأقليات القومية والمجموعات الإثنية التي تسكن الأرض الروسية .

سوف تصدر مراسيم حالاً حول تكوين لجنة للقوميات .
باسم الجمهورية الروسية :

(مفوّض الشعب لشؤون القوميات)
يوسف دجوغاشفيللي – ستالين
(رئيس مجلس مفوّضي الشعب)
ف . اوليانوف – لينين

ورأساً أعلن مجلس الادارة المركزي في « كييف » جمهورية أوكرانيا المستقلة ، وحذت حذوه حكومة فنلندا بواسطة مجلس الشيوخ في « هلسينغفورس » . وانبثقت « حكومات » مستقلة في كل من سيبيريا والقوقاز. وبسرعة جمعت اللجنة العسكرية البولونية الرئيسية الجنود البولونيين في الجيش الرومي وألفت لجانهم وفرضت عليهم نظاماً حديدياً .

وكان يجمع بين كل هذه « الحكومات » و« الحركات » ميزتان مشتركتان : أنها تحت سيطرة الطبقات المالكة ، وأنها تخشى البلشفية وتكرهها .

وسط فوضى التغيّر المذهل ، أخذ مجلس مفوّضي الشعب يعمل بثبات على تشييد دعائم النظام الاشتراكي فأصدر المراسيم عن الضمان الاجتماعي ، والسيطرة العمالية ، وأنظمة لجان الأرض في « فولوست » وإلغاء الألقاب ، وإلغاء المحاكم وإنشاء محاكم الشعب[٣] ..

وأخذ الجيش تلو الجيش، والأسطول تلو الأسطول، يرسلون الوفود « لتحيي بفرح حكومة الشعب الجديدة . »

وذات يوم، رأيت قبالة « سمولني » فوجاً في حالة فوضى، قدم لتوّه من الخنادق . كان الجنود مصطفين أمام البوابات الكبيرة، نحيلين وسود الوجوه، يتطلعون الى البناية وكأن الله قد حلّ فيها . البعض يشير الى النسور الامبراطوارية ويقهقه ... وخرج بعض الحرّاس الحمر ليأخذوا دورهم في الحراسة . فالتفت الجنود كلهم بحشرية نحوهم وكانوا قد سمعوا عنهم ولكنهم لم يشاهدوهم قط . وأخذوا يضحكون بطيبة ويغادرون الصفوف ليربّتوا على ظهور الحراس الحمر مطلقين ملاحظات ممزوجة بالمزاح والاعجاب ...

الحكومة المؤقتة لم تعد موجودة . وفي ١٥ تشرين الثاني توقف الكهنة عن الصلاة من أجلها في جميع كنائس العاصمة . ولكن « هذا ليس إلا بداية الاستيلاء على السلطة » ، على حد قول لينين « للتسايكا » . المعارضة قد جرّدت من السلاح ، إلا أنها ما زالت تسيطر على حياة البلد الاقتصادية ؛ فأخذت تتعاون على خلق الفوضى مستغلة كل عبقرية الروس للعمل التعاوني ، لتشل السوفييت وتعرقل عملهم وتسيء الى سمعتهم .

كان إضراب موظفي الحكومة منظماً تنظيماً حسناً ، تموله المؤسسات المصرفية والتجارية . وجرت مقاومة لكل خطوة اتخذها البلاشفة للاستيلاء على الجهاز الحكومي .

ذهب تروتسكي الى وزارة الشؤون الخارجية ، فرفض الموظفون الاعتراف به وأقفلوا على أنفسهم في الغرف ، ولما خلعت الأبواب قدموا استقالاتهم . وطلب تسليمه مفاتيح الوثائق ، فلم تعط له إلا بعد أن جاء بعمال ليحطموا الأقفال ثم تبيّن أن نيراتوف ، المساعد السابق لوزير الخارجية ، قد اختفى حاملاً معه الوثائق السرية .

وحاول شليابنيكوف الاستيلاء على وزارة العمل . كان البرد قارساً ولم

يجد أحداً ليشعل له ناراً . وبين مئات الموظفين لم يجد موظفاً واحداً يدلّه على مكتب الوزير ..

أمـا الكسندرا كولانتاي ، التي عيّنت في ١٣ تشرين الثاني مفوضة للانعاش العام ، أي المؤسسة المسئولة عن الأعمال الخيرية والمؤسسات العامة ، فقد استقبلها موظفو وزارتها بإضراب شملهم جميعاً ما عدا أربعين واحداً فقط . وسرعان ما عمّت الحاجة الملحة فقراء المدن الكبرى والمستفيدين من المؤسسات الخيرية ، فأخذت وفود الكسيحين الجياع والأيتام ذوي الوجوه المزرقّة المنكمشة يحاصرون البناية . فأمرت كولانتاي ، والدموع تنحدر من عينيها ، باعتقال الموظفين حتى يسلّموها مفاتيح المكتب والخزينة . ولما حصلت على المفاتيح ، اكتشفت أن الوزيرة السابقة الكونتيسا بانينا قد هربت حاملة معها المال كله ، رافضة تسليمه إلا بأمر من الجمعية التأسيسية .

وجرت حوادث مشابهة في وزارات الزراعة ، والتموين والمالية . أما الموظفون الذين وجهت اليهم دعوات للعودة الى أعمالهم وإلا خسروا مراكزهم وتعويضاتهم ، فلم يعد القسم الاكبر منهم ، أما القسم الذي رجع ، فقد رجع ليخرّب . وبما أن « الأنتلجنسيا » كانت في معظمها معادية للبلاشفة ، فلم تجد الحكومة السوفييتية قطاعاً آخر من الشعب تأخذ منه الموظفين الجدد .

وظلت المصارف الخاصة مقفلة بعناد ، فاتحة أبوابها الخلفية للمضاربين . وكان الموظفون يغادرون المكان عندما يدخل المفوّضون البلاشفة ، حاملين معهم الوثائق والأموال . وإضراب جميع موظفي مصرف الدولة فيما عدا المسئولين عن الخزانة وعن صك العملة ؛ وقد رفض هؤلاء جميع طلبات « سمولني » في حين كانوا يدفعون المبالغ الضخمة ، سرّاً ، للجنة الانقاذ وللمجلس دوما المدينة .

وجاء أحد المفوّضين رسمياً مصطحباً معه سرية من الحرس الأحمر ليصرّ

على تسليم مبالغ ضخمة لمصروفات الحكومة في مرتين متتاليتين . في المرة الأولى، كان أعضاء مجلس دوما المدينة وقادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين، موجودين باعداد هائلة متكلمين عن العواقب الوخيمة التي قد تتأتى عن هذا العمل ، فخاف المفوّض وذهب . وفي المرة الثانية ، جاء ومعه مذكرة أخذ يتلوها على مسمع من الجميع ، إلا أن أحـدهم لفت انتباهه الى أن المذكرة لا تحمل تاريخاً ولا ختماً ، فأجبره الاحترام الروسي التقليدي « للوثائق » على الانسحاب ...

وأحرق موظفو مكتب المعاملات المالية جميع سجلاتهم ، ففقدت بذلك جميع الوثائق عن العلاقات المالية بين روسيا والبلدان الأخرى .

أما بالنسبة للجان التموين ، أي الادارات المسئولة عن المنافع العامة التي تملكها البلديات ، فكانت متوقفة عن العمل أو أن العاملين فيها يخربونها . ولما حاول البلاشفة مساعدة مؤسسات الخدمات العامة أو إدارتها ، تدفعهم الى ذلك الحاجات الملحّة لسكان المدن، أضرب الموظفون حالاً وأغرق مجلس الدوما روسيا بأسرها بالبرقيات عن اختراق البلاشفة « لحرمة الحكم الذاتي البلدي » .

في مقر القيادة وفي مكاتب وزارتي الحرب والبحرية، حيث قبل الموظفون القدماء بالعمل ، كانت لجان الجيش والقيادة العامة تعرقل عمـل السوفييت بجميع الوسائل المتوّفرة لديها ، وقد ذهبت الى حد إهمال القوات في الجبهة . كانت « الفيكجل » (اللجنة المركزية لاتحاد عمال سكك الحديد) معادية ، ترفض نقل القوات السوفييتية ؛ فيضطر السوفييت الى مصادرة قطارات نقل الجنود التي تغادر بتروغراد ، واعتقال موظفي سكك الحديد في كل مرّة ، فتهدد « الفيكجل » بإضراب عام فوري إذا لم يفرج عنهم ..

وكان واضحاً أن « سمولني » بدون قـوة . وقالت الصحف ان مصانع

بتروغراد ستغلق بعـــد ثلاثة أسابيع لعدم توفّر المحروقات ؛ وأعلنت « الفيكجل » أنــه يجب إيقاف القطارات ابتداء من ١ كانون الاول ؛ الغذاء الموجود في بتروغراد يكفيها لثلاثة أيام وقــد انقطعت الامدادات ؛ الجيش يجوع على الجبهة ... أرسلت لجنة الانقــاذ واللجان المركزية المختلفة نداءات الى جميع أنحــاء البلاد تناشد المواطنين فيها أن يتجاهلوا مراسيم الحكومة . أما سفراء دول الحلفاء ، فكانوا إما لامبالين ببرودة ، وإما معادين علناً ..

وكانت صحف المعارضة تحتجب يوماً وتصدر يومـــاً آخر بأسماء جديدة وتمطر النظام الجديد بوابل من السخرية الحادة [٤] . وحــتى صحيفة « الحياة الجديدة » وصفت النظام بأنه « خليط من الديماغوجية والعجز . » وقالت :

« يوماً بعد يوم تغوص حكومة مفوضي الشعب أعمق وأعمق في مستنقعات التسرع السطحية . إن البلاشفة ، وقد استولوا على الحكم بسهولة ، يعجزون الآن عن استعماله ...

وهم الى جانب عجزهم عن ادارة الجهاز الحكومي الحالي ، لا يستطيعون في الوقت نفسه أن يخلقوا جهازاً جديداً يعمل بسهولة وحرية حسب نظرياتهم الاجتماعية الاختبارية .

من مدة وجيزة لم يكن عند البلاشفة العدد الكافي من الرجال لادارة حزبهم الآخذ في النمو ، وهذا لم يكن يتطلب أكثر من المقدرة على الخطابة والكتابة ؛ فأين إذاً سيجدون الرجال المجرّبين ليتحملوا أعباء الحــكم المتعددة والمعقدة ؟

الحكومة الجديدة تعمل وتتوعّد ، وتغرق البـــلاد بمراسيم يكون الواحد منها أكثر جذرية وأكثر «اشتراكية» من السابق . ولكنها ، في تبجّحها بالاشتراكيــة – على الورق – الهادف على

الأرجح الى إذهال أحفادنا ، لا تبدي الرغبة ولا المقدرة على حل المشاكل الراهنة الملحة ! »

في ذلك الحين كانت ندوة « الفيكجل » لتكوين حكومة جديدة تواصل اجتماعاتها ليلاً نهاراً . وكان الطرفان قد اتفقا مبدئياً على أساس الحكومة ، والنقاش يدور الآن حول « مجلس الشعب » ؛ وجرى اختيار تشكيلة وزارية برئاسة تشيرنوف وأدخل البلاشفة اليها ، ولكن كأقلية كبيرة ، بعد ان أقصي لينين وتروتسكي . فاللجنة المركزية للمناشفة وللاشتراكيين الثوريين ، واللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين قررت أنها لن تعارض دخول البلاشفة الى مجلس الشعب « لتفادي الاقتتال بين الأخوة » ، وذلك رغم معارضتها الضارية « لسياسة البلاشفة الاجرامية » .

إلا أن فرار كرنسكي ، والنجاح الباهر الذي أحرزه السوفييت في كل المجالات ، سرعان ما غيّرا الوضع . في اجتماع « التسايكا » يوم ١٦ تشرين الثاني ، أصرّ الاشتراكيون الثوريون اليساريون على ان يشكل البلاشفة حكومة ائتلافية مع الأحزاب الاشتراكية الاخرى ، وإلا اضطروا الى الانسحاب من اللجنة العسكرية الثورية « والتسايكا » . وقال ماكلين : « إن أنباء من موسكو ، حيث يموت رفاقنا على طرفي المتاريس ، قد جعلتنا نصمّم على اعادة طرح مسألة تنظيم السلطة وهذا ليس مجرّد حق لنا وانما هو واجب علينا كذلك ... لقد اكتسبت حق الجلوس مع البلاشفة ، هنا ، بين جدران سمولني والتكلم من على هذا المنبر . بعد الصراع الحزبي المرير سنضطر الى الانتقال الى المعركة العلنية في الخارج اذا رفضتم المساومة ... علينا أن نقترح على القوى الديمقراطية شروط مساومة مقبولة ... »

وبعد استراحة لمناقشة الموضوع ، عاد البلاشفة بالقرار التالي الذي تلاه كامنييف :

« إن « التسايكا » تعتـــبر انه من الضروري أن ينضم الى الحكومة ممثـــلون عن جميع الاحزاب الاشتراكية الموجودة في سوفييت مندوبي العـمال والجنود والفلاحين التي تعترف بمكاسب ثورة السابع من تشرين الثاني — أي : انشاء حكومة سوفييتية ، مراسيم السلم ، والارض ، وسيطرة العمال على الصناعة ، وتسليح الطبقة العاملة . لذا ، فإن « التسايكا » تقرر اقتراح الدخول في مفاوضات حول تشكيل الحكومة على جميع الأحزاب الموجودة في الـوفييت ، وتصرّ على ان تكون الشروط التالية أساساً لهذه المفاوضات .

الحكومة مسؤولة تجاه « التسايكا » . يصبح عـــدد أعضاء التسايكا ١٥٠ عضواً . ويضاف الى ممثلي سوفييت مندوبي العمال والجنود المائة والخمسين ٧٥ ممثلاً عن منظمات سوفييت منـدوبي الفلاحين المنطقية ، و ٨٠ عن منظمات الجبهة التابعـــة للجيش والبحرية ، و ٤٠ من النقابات (٢٥ عن مختلف الاتحادات العامة ، حسب أهميتها ، ١٠ عن « الفيكجل » ، و ٥ عن عمال البريـد والبرق) ، و ٥٠ ممثـــلاً عن المجموعات الاشتراكية في مجلس بتروغراد البلدي . يجب الاحتفاظ بنصف مقاعد الوزارة للبلاشفة كحد أدني . تعطى وزارات العمل والداخلية والخارجيـــة للبلاشفة . تبقى قيـادة حاميتي بتروغراد وموسكو بين أيدي مندوبين عن سوفييت موسكو وبتروغراد .

تتولى الحكومة تسليح عمال روسيا .

تقرّر الإصرار على اشتراك الرفيقـين لينين وتروتسكي في الوزارة . »

وشرح كامنيف موقف البلاشفة قائلا : « سيتكون « مجلس الشعب » المزعوم الذي أنشأته الندوة، من ٤٢٠ عضواً ، بينهم ١٥٠ بلشفي . وسينضم اليه مندوبون عن التسايكا القديمة المعادية للثورة ، و ١٠٠ مندوب تختارهم مجالس الدوما البلدية وكلهم من جماعة كورنيلوف ، و ١٠٠ مندوب عن الفلاحين سيعينهم افاكسانتييف ، و ٨٠ مندوب عن لجان الجيش القديمة التي لم تعد تمثل جماهير الشعب .

« إننا نرفض اشتراك التسايكا القديمة ومندوبي مجالس الدوما البلدية . إن مؤتمر الفلاحين ، الذي دعوناه للانعقاد ، هو الذي سينتخب المندوبين عن سوفييت الفلاحين كما سينتخب لجنة تنفيذية جديدة . إن الاقتراح بإقصاء لينين وتروتسكي هو اقتراح لشق الحزب ونحن نرفضه . أخيراً ، إننا لا نجد أية ضرورة لوجود « مجلس الشعب » في أي حال ؛ إن السوفييت مفتوحة أمام جميع الأحزاب الاشتراكية ، والتسايكا تمثلهم حسب نسب وجودهم الحقيقي في أوساط الجماهير ... »

وأعلن كاريلين،باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، أن حزبه سيصوّت الى جانب قرار البلاشفة ، محتفظاً لنفسه بحق تعديل بعض التفصيلات كتمثيل الفلاحين والمطالبة بالاحتفاظ بوزارة الزراعة للاشتراكيين الثوريين اليساريين . فتم الاتفاق على ذلك ...

وفيما بعد ، أجاب تروتسكي في اجتماع سوفييت بتروغراد ، على سؤال بشأن تشكيل الحكومة الجديدة ، فقال : « إني لا أعرف شيئاً عنه . لست مشتركاً في المحادثات ... إلا أني لا أعتبرها ذات أهمية بالغة على كل حال.. »

في تلك الليلة ، خيم انزعاج عظيم على الندوة . فانسحب مندوبو مجلس دوما المدينة ...

أما في سمولني نفسها ، فقد بدأت تنمو معارضة عنيفة لسياسة لينين داخل الحزب البلشفي. في ليلة ١٧ تشرين الثاني كانت القاعة الكبيرة مزدحمة والجو متوتراً بانتظار اجتماع « التسايكا » .

أعلن لارين ، وهو بلشفي ، أن موعد انعقاد الجمعية التأسيسية قد اقترب ، وأن الوقت قد حان للتخلي عن « الإرهاب السياسي » :

« يجب تعديل الاجراءات التي اتخذت ضد حرية الصحافة . إذا كان لهذه الاجراءات ما يبررها أيام الصراع ، فقد زالت هذه المبررات الآن . يجب أن تكون الصحافة حرة إلا فيما يتعلق بالدعوات الى الاضطرابات والتمرد .»

واقترح لارين القرار التالي ، وسط همهمة وعياط أفراد حزبه :

« يعتبر مرسوم مفوضي الشعب حول الصحافة لاغياً من الآن فصاعداً .

لا يجوز اتخاذ إجراءات القمع السياسي إلا بقرار من محكمة خاصة تنتخبها التسايكا حسب التمثيل النسبي للأحزاب المختلفة الموجودة ، ويحق لهذه المحكمة أيضاً إعادة النظر في إجراءات القمع التي اتخذت سابقاً . »

فاستقبل الاقتراح بعاصفة من التصفيق من الاشتراكيين الثوريين اليساريين ومن بعض البلاشفة .

فسارع أفانيسوف الى الاقتراح ، باسم اللينينيين ، أن يؤجل موضوع الصحافة الى ما بعد الوصول الى نوع من التسوية مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى . فسقط الاقتراح بأغلبية ساحقة . فأكمل أفانيسوف قائلاً : « إن الثورة القائمة الآن لم تتردد في التعرض للملكية الفردية ، وعلينا أن ننظر الى مسألة الصحافة على أنها مسألة ملكية فردية.» ثم تلا القرار البلشفي الرسمي :

« إن إقفال الصحـافة البرجوازية لم تفرضه المقتضيات العسكرية خلال الثورة ولا ضرورة وضع حد للنشاط المعادي للثورة وحسب ، ولكنه ضروري أيضاً كإجراء انتقالي نحو إنشاء نظام جديد للصحافة ، نظام لا يسمح للرأسماليين مالكي المطابع والورق أن يصبحوا محتكري القوة على توجيه الرأي العام .

وفيما عدا ذلك ، علينا مصادرة المطابع وموارد الورق الخاصة ، وتحويلها الى ملكية للسوفييت ، في العاصمة والمناطق ، بحيث يتسنى للأحزاب والمجموعات السياسية أن تستعمل التسهيلات الطباعية حسب القوى الفعلية للأفكار التي تمثل ، وبكلمات أخرى حسب نسبة الناخبين التي تملك .

إن إعادة ما يسمى « حرية الصحافة » ، أي مجرد إعادة المطابع والورق الى الرأسماليين – مسممي عقول الشعب – هو مجرد رضوخ لا نقبله لإرادة رأس المال ، وتنازل عن إحدى أهم مكاسب الثورة ، وبكلمات أخرى سيكون إجراءً لا يوجد أدنى شك في طبيعته المعادية للثورة .

عطفاً على ما سبق، ترفض « التسايكا » بحزم جميع الاقتراحات الهادفة الى إعادة العهد المباد في مجال الصحافة ، وتعلن تأييدها المطلق لوجهة نظر مجلس مفوضي الشعب حول هذه المسألة ضد الادعاءات والتهديدات التي تمليها العُقَد البرجوازية الصغيرة ، أو يمليها الاستسلام الواضح لمصالح البرجوازية المعادية للثورة . »

قوطعت تلاوة هذا الاقتراح بصيحات ساخرة من الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، وبفورات غضب من البلاشفة المتمردين . فانتصب كاريلين محتجاً:

« منذ ثلاثة أسابيع ، كان البلاشفة من أشد المدافعين عن حرية الصحافة ... إن الحجج الواردة في هذا القرار تعيد الى الأذهان وجهة نظر منظمة المئات السوداء البائدة ومراقبي النظام القيصري — لأن هؤلاء كانوا يتحدثون أيضاً عن مسمّمي عقول الشعب . »

وتكلم تروتسكي مطولاً مؤيداً الاقتراح . فميّز بين الصحافة خلال الحرب الأهلية والصحافة بعد النصر : « خلال الحرب الأهلية يكون حق استعمال العنف بيد المضطهدين فقط ... » (صيحات : « من هو المضطهد الآن ؟ همجي ! »)

« إن انتصارنا على أعدائنا لم ينته بعد ، ومـا تزال الصحف أسلحة في أيديهم . إن إغلاق الصحف ، في هـذه الظروف ، هو دفاع مشروع عن النفس ... » ثم انتقل تروتسكي الى مسألة الصحافة بعد النصر فقال :

« إن موقف الاشتراكيين من مسألة حرية الصحافة يجب أن يكون مثل موقفهم من الاقتصاد الحر ... إن الحكم الديمقراطي الذي يجري إنشاؤه الآن في روسيا يتطلب إلغاء سيطرة الملكية الفردية على الصحـافة ، تماماً مثلمـا نلغي سيطرة الملكية الفردية على الصناعة ... إن السلطة السوفييتية يجب أن تصادر جميع المطابع . » (صيحات : « صادروا مطابع البرافدا ! »)

« يجب إلغـاء احتكار البرجوازية للصحافة . وإلا فلا داعٍ لأن نستلم الحكم ! يجب أن تكون المطابع والورق في متناول جميع المواطنين ... إن ملكيـة المطابع والورق يجب أن تؤول أولاً بأول الى العمال والفلاحين ، ثم الى الأحزاب البرجوازية التي تشكل الأقلية ... إن انتقال السلطة الى أيدي السوفييت سوف يحدث تغييراً جذرياً في ظروف الحيـاة الرئيسية ، وسوف يتجلى هذا التغيّر بالضرورة في الصحافة ... إذا كنا سنؤمم المصارف ، فهل سنتسامح مع الصحف التي تمولها المصارف ؟ إن العهد المباد يجب أن يموت ،

هذا ما يجب أن نفهمه للمرة الأولى والأخيرة.. » تصفيق مصحوب بصيحات غاضبة .

وأعلن كاريلين أنه لا يحق « للتسايكا » أن تقر هذه المسألة الرئيسية التي يجب تركها للجنة خاصة . ثم طلب مجدداً ، وبشغف ، أن تكون الصحافة حرة .

ثم جاء دور لينين الهادىء البارد ، وكان جبينه يتجعد وهو يتكلم ببطء مختاراً كلماته ، فتنهال كل جملة كضربة مطرقة : « لم تنته الحرب الإهليـــة بعد ، العدو ما زال موجوداً بيننا ، وبالتالي يستحيل إلغاء إجراءات القمع ضد الصحافة .

« نحن البلاشفة قد صرّحنا دوماً بأننا سنغلق الصحافة البرجوازية عندما نصل الى الحكم . إن السماح بوجـــود الصحف البرجوازيـــة يعني التخلي عن الاشتراكية . ما إن تقوم الثورة حتى يستحيل عليها الجمود في مكانها . فإمـا أن تتقدم وإما أن تتقهقر . إن الذي يتكلم الآن عن حرية الصحافة يتقهقر، ويعيق مسيرتنا نحو الاشتراكية .

« لقد خلعنا نير الرأسمالية ، مثلما خلعت الثورة الأولى نـير القيصرية . واذا كان يحق للثورة الأولى أن تقمع الصحف الملكية ، يحق لنـا إذاً أن نقمع الصحافة البرجوازية . يستحيل فصل مسألة حرّية الصحافة عن مسائل الصراع الطبقي الأخرى . لقد وعدنا بإغلاق هـــذه الصحف وسوف نفي بوعدنا . إن غالبية الشعب الساحقة تقف الى جانبنا !

« الآن وقد انتهت الانتفاضة ، فإننـــا لا نرغب مطلقاً بقمع صحف الأحزاب الاشتراكية الأخرى إلا بمقدار مـا تدعو الى الثورة المسلّحة ، أو الى عصيان الحكومة السوفييتية ، إلا أننـا لن نسمح لهم أن يستغلوا وجود حرية الصحافة الاشتراكية فيحتكرون المطابع والحبر والورق بواسطة دعم

البرجوازية الخفي ... إن هـــذه الحاجيات الاساسية يجب أن تصبح ملكاً للحكومة السوفييتية التي تتولى توزيعها على الاحزاب الاشتراكية حسب قوتها الانتخابية ... »

وجرى التصويت . فهزم اقـتراح لارين والاشتراكيين الثوريين اليساريين بـ ٣١ صوتاً مقابـــل ٢٢ ؛ ونجح اقتراح لينين بـ ٣٤ صوتـاً مقابل ٢٤ . وانضمّ البلشفيان ريازانوف ولوزوفسكي الى صفوف الاقلية ، معلنين أنـــه يستحيل عليهما التصويت مع أي حدّ لحرية الصحافة .

عند ذاك، أعلن الاشتراكيون الثوريون اليساريون أنهم لم يعودوا مسئولين عما يجري بعد ذلك الوقت ، وانسحبوا من اللجنة العسكرية الثورية وجميع المسئوليات التنفيذية الأخرى .

واستقال خمسة أعضاء من مجلس مفوضي الشعب ، وهم: نوغين، ريكوف ، مليوتين ، تيودوروفيتش ، وشليابنيكوف معلنين :

« إننا نؤيد قيـــام حكومة اشتراكية تضم جميع الأحزاب الموجودة في السوفييت . ونعتبر أن قيام مثل هذه الحكومة هو الضمان الوحيد لمكاسب النضال البطولي الذي خاضته الطبقـة العاملة والجيش الثوري . أما الاحتمال الوحيد المتبقي ، في حال عدم قيام هـــذه الحكومة ، فهو تشكيل حكومة بلشفية صرفة بواسطة الإرهاب السياسي . وهـــذا هو الخط الذي يسير عليه مجلس مفوّضي الشعب . إننا لا نستطيع ولا نرضى السير فيه ، لأننا نرى أنه سيؤدي مباشرة الى إقصاء عدة منظمات بروليتارية عن الحياة السياسية ، والى قيام نظام غير مسئول ، والى خراب الثورة والوطن . إننا نرفض تحمّل مسئولية مثل هذه السياسة ، ونتخلى أمام التسايكا عن مسئولياتنا كمفوضين للشعب . »

وانضم اليهم مفوضون آخرون في توقيع هـذا البلاغ ولكن دون أن يستقيلوا من مناصبهم : ريازانوف ، دربيتشيف من قسم الصحافة ، أربوزوف من المطبعة الحكومية ، يورينييف عن الحرس الأحمر ، فيودوروف عن مفوضية العمل ، ولارين أمين سر مكتب وضع المراسيم .

وفي الوقت ذاتـه ، استقال كامنييف وريكوف ومليوتين وزينوفييف ونوغين من اللجنة المركزية للحزب البلشفي ، معلنين عن الأسباب التي دعتهم الى ذلك :

« ... إن تشكيل مثل هذه الحكومة (المكونة من جميع الأحزاب الموجودة في السوفييت) هو شرط لا غنى عنه للحيلولة دون إراقة الدم من جديد ، وهجوم المجاعة ، وسحق جماعة خالدين للثورة ، ولتأمين انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرّر ، والتطبيق الصحيح للبرنامج الذي تبنّاه مؤتمر السوفييت .

إننا لن نتحمّل مسئولية السياسة الهوجاء التي تسلكها اللجنة المركزية ضد إرادة غالبية ضخمة من البروليتاريا والجنود الذين يتوقون الى وضع حد سريع لإراقة الدماء بين مختلف الأحزاب السياسية الديمقراطية ... إننا نعلن تخلينا عن عضوية اللجنة المركزية لكي يتسنى لنا أن نتكلم علناً الى جماهير العمال والجنود ...

إننا نغادر اللجنة المركزية في لحظة النصر ، لأننا نرفض الوقوف مكتوفي الأيدي بينما تؤدي سياسة قادة اللجنة المركزية الى خسارة ثمار النصر والى سحق البروليتاريا ... »

جماهير العمال وجنود الحامية تموج وترسل وفوداً عنها الى سمولني والى

نـدوة تشكيل حكومة جديدة حيث استقبل الانشقاق في صفوف البلاشفة بفرح عظيم .

إلا أن جواب اللينينيين جاء سريعاً لا يرحم . فانصاع شليابنيكوف وتيودوروفيتش الى الانضباط الحزبي وعادا الى مراكزهما . وجرّد كامنييف من صلاحيـاته كرئيس للتسايكا وانتخب سفيردلوف محله . وجرّد زينوفييف من رئاسة سوفييت بتروغراد . وفي صباح الخامس من كانون الاول ، صدرت « البرافدا » حاملة نداء حاراً الى شعب روسيا بقلم لينين ، طبعت منه مئات الآلاف من النسخ وألصق على الجدران في كل مكان ووزع في جميع أنحاء روسيا :

« إن المؤتمر العام للسوفييت أعطى الأغلبية للبلاشفة . لذا ، فإن الحكومة التي يشكلهـا هذا الحزب هي وحدها حكومة سوفييتية . والجميع يعلم أن اللجنة المركزية للحزب البلشفي دعت ثلاثة من القادة البارزين في المجموعة الاشتراكيـة الثورية اليسارية وهم الرفاق كامكوف وسبيرو وكاريلين وذلك قبل بضعة ساعات من تشكيل الحكومة الجديدة وقبل اقتراح قائمة أعضائها على مؤتمر السوفييت العـام ، وطلبت من هؤلاء الاشتراك في الحكومة الجديدة . وانه ليؤسفنا أن يكون الرفاق المدعوون قـد رفضوا لأننا نعتبر ان مثل هـذا الرفض لا يليق بثوريين وبأبطال الطبقة العاملة . نحن على استعداد لإدخال الاشتراكيين الثوريين اليساريين الى الحكومـة في أي وقت كان ؛ ولكن ، بوصفنا الحزب الذي يتمتع بالأغلبية في المؤتمر العام الثاني للسوفييت ، نعلن أنه يحق لنا تشكيل حكومة ، لا بل أننا ملزمون تجـاه الشعب بتشكيلها .

... أيها الرفاق ! إن عدة أعضاء من اللجنة المركزية لحزبنا

ومجلس مفوضي الشعب تركوا هاتين الهيئتين يوم أمس في ١٧ تشرين الثاني . فاستقال زينوفييف وكامنييف من اللجنة المركزية بينما استقـــال نوغين وريكوف ومليوتين وغيرهم من مجلس مفوضي الشعب ...

إن الرفاق الذين تركوا قد تصرّفوا كمرتدين لأنهم لم يهجروا المراكز التي ائتمنوا عليها وحسب ، وانما عصوا كذلك التعليمات الصريحة التي صدرت عن اللجنة المركزية لحزبنا بأن ينتظروا قرارات منظمات الحزب في بتروغراد وموسكو قبل أن ينسحبوا. إننا نشجب مثل هذه الردّة بعنف . ونحن على يقين من أن جميع العمال والجنود والفلاحين المنتمين الى حزبنا او المناصرين له سوف يشجبون تصرف المرتدين كذلك ...

تذكروا ، أيهـــا الرفاق ، ان اثنين من هؤلاء المرتدين ، زينوفييف وكامنييف ، قـد تصرفا كمرتدين ومخربين حتى قبـل انتفاضة بتروغراد ، إذ صوّتا ضـد الثورة في الاجتماع الحاسم للجنة المركزية يوم ٢٣ تشرين الأول ، حتى أنهما بعد أن أقرّت اللجنة المركزية الاقتراح واصلا حملتهما في اجتماع لمناضلي الحزب.. إلا أن الاندفاع العظيم عند الجماهير ، والبطولة الرائعة التي أظهرها ملايين العمال والجنود والفلاحين في بتروغراد وموسكو وفي الجبهة والخنادق والقرى ، ما لبثت ان أزاحت هؤلاء المرتدين جانباً مثلما يبعثر القطار ذرات الغبار ...

عارٌ على ضعيفي الإيمان والمترددين والمتشككين الذين يسمحون لأنفسهم أن يخـافوا من البرجوازية ، او الذين يخضعون أمـام صيحات عملائها المباشرين او غير المباشرين ! لا يوجـد ظل من التردد عند جماهير بتروغراد وموسكو وسائر روسيا ...

... إننا لن نرضخ لأية إنذارات تصدر عن مجموعات من المثقفين المعزولين عن الجماهير ، والذين لا يحظون عملياً إلا بدعم جماعة كورنيلوف وسافينكوف و « التيكرز » ومن كان على شاكلتهم ... »

وجاء جواب البلد كله مثل لهيب عاصفة حارة . كانت هذه المرة الأولى التي يتكلم فيها الثوار « بصراحة الى جماهير العمال والجنود » . فانهالت على « التسايكا » زوبعة من الشجب الشعبي « للمرتدين » وظلت « سمولني » تغص طوال أيام بوفود ولجان غاضبة توافدت إليها من الجبهة ، ومن منطقة « الفولغا » ومصانع بتروغراد : « لماذا تجرأوا على ترك الحكومة ؟ هل دفعت لهم البرجوازية لينسفوا الحكومة ؟ يجب أن يعودوا وينصاعوا لقرارات اللجنة المركزية ! »

وكانت حامية بتروغراد هي وحدها التي لم تكن أكيدة من موقفها . فعقد اجتماع كبير للجنود في ٢٤ تشرين الثاني تكلم فيه مندوبون عن جميع الأحزاب السياسية . وأقرت سياسة لينين بأغلبية كبيرة ، وطلب من الاشتراكيين الثوريين اليساريين الاشتراك في الحكومة[٥] ...

ووجه المناشفة آخر إنذار لهم مطالبين بالافراج عن جميع الوزراء و « النيكرز » ، وبإعطاء حرية كاملة لكل الصحف ، وتجريد الحرس الأحمر من السلاح ووضع الحامية تحت إشراف مجلس الدوما . فأجابت « سمولني » على ذلك مؤكدة أنه قد أطلق سراح جميع الوزراء الاشتراكيين ومعظم « النيكرز » ، وأن الحرية ممنوحة لجميع الصحف فيما عدا الصحف البرجوازية ، وأن السوفييت سيظل يشرف على القوات المسلحة ... في ١٩ تشرين الثاني تفرقت ندوة تشكيل الحكومة الجديدة ، واتجه أفراد المعارضة الواحد تلو الآخر الى « موغيلييف » حيث ظلوا يشكلون الحكومة تلو الحكومة الى ما لا نهاية ، برعاية القيادة العامة .

في ذلك الحين ، كان البلاشفة يجرّدون « الفيكجل » من سلطتها ، فصدر نداء عن سوفييت بتروغراد الى جميع عمـال سكك الحديد يطالبهم بإجبار « الفيكجل » على التخلي عن سلطتهـا . وفي الخامس عشر من الشهر نفسه ، عملت « التسايكا » بالنسبة لعمال سكك الحديد ما عملته بالنسبة للفلاحين ، فدعت الى مؤتمر عـام لعمال سكك الحديد في ١ كانون الاول ، فدعت « الفيكجل » حالاً الى مؤتمر لها ينعقد بعد اسبوعين من ذلك التاريخ . وفي ١٦ تشرين الثاني احتل أعضـاء « الفيكجل » مقاعدهم في « التسايكا » وفي جلسة افتتاح المؤتمر العام لعمال سكك الحديد ، ليلة الثاني من كانون الأول ، عرضت « التسايكا » رسمياً على « الفيكجل » مفوضيـة الطرق والمواصلات فقبلتها ...

وبعد أن انتهى البلاشفة من مسألة السلطة ، وجهوا اهتمامهم الى الادارة العملية . أولاً : يجب إطعام المدينـة والريف والجيش . فأخذت فرق من البحـارة والحرس الأحمر تغير على المخازن ومحطـات سكك الحديد وحتى القوارب فتجد وتصادر الأطنان من المواد الغذائية التي خبأهـا المضاربون . وأرسل مندوبون الى المناطق حيث استولوا على مخازن تجار الحبوب الكبار بالتعاون مع لجان الأرض . وأرسلت بعثات من البحارة المدججين بالسلاح ، في مجموعات من خمسة آلاف رجل للواحدة ، الى الجنوب وسيبيريا للاستيلاء على المدن التي ما تزال بين أيدي الحرس الأبيض ، ولتوطيد الأمن ، وجلب الطعام . وأوقفت قطارات المسافرين على الخط الحديدي عـبر سيبيريا طوال أسبوعين أرسل خلالها ثلاثون قطاراً محمـلة بالأجواخ وقضبان الحديد التي جمعتها لجان المتجر والمصنع ، متوجهين شرقاً وعلى رأس كل واحـد مفوّض ليقايضوا فلاحي سيبيريا بها مقابل الحبوب والبطاطا .

وأصبحت مسألة المحروقـات مسألة ملحة لأن خالدين كان يسيطر على مناجم الفحم في منطقة « الدون » . فقطعت سمولني الكهرباء عن المسارح

والمتاجر والمطاعم ، وخفضت عدد السيارات العمومية وصادرت مخازن الحطب التي يملكها تجار المحروقات ... ولما أشرفت مصانع بتروغراد على الإغلاق لافتقارها الى الفحم ، أرسل بحارة أسطول البلطيق أربعة آلاف طناً من الفحم من البوارج ...

وحدثت عمليات نهب أقبية الخمر في أواخر تشرين الثاني ، مبتدئة بنهب أقبية قصر الشتاء [٦] . طوال أيام كانت الشوارع مليئة بالجنود السكارى ... وتبين أن أعداء الثورة يقفون وراء هذا كله ، فهم الذين وزعوا على الأفواج خرائط أقبية الخمر . بدأ مفوضو « سمولني » بالرجاء والنقاش فلم يساعد ذلك على الحد من الفوضى المتزايدة ، فعقب ذلك معارك ضارية بين الجنود والحرس الأحمر ... وأخيراً ، أرسلت اللجنة العسكرية الثورية سريات من البحارة المزودين بالرشاشات فأطلقوا النار بلا هوادة على المشاغبين وقتلوا العديد منهم ، ثم صدرت الأوامر باجتياح أقبية الخمر ، فدخلها أعضاء اللجان بفؤوسهم يحطمون الزجاجات او ينسفون الأقبية بالديناميت[٧] .

وأخذت سرايا الحرس الأحمر ، المنضبطة والتي تتقاضى أجوراً كافية ، تحل محل الميليشيا في حراسة منظمات سوفييت الأحياء ليلاً نهاراً . وانتخب العمال والجنود « محاكم ثورية » صغيرة في جميع أحياء المدينة لتتولى النظر في الجرائم الصغيرة ...

وحاصر الحرس الأحمر الفنادق الكبيرة حيث يقوم المضاربون بأعمالهم ، وساقوهم الى السجون[٨] .

وبحذر وريبة ، حوّلت الطبقة العاملة نفسها في المدينة الى جهاز تجسس واسع من خلال تنصت الخدم على ما يدور في المنازل البرجوازية ونقل جميع المعلومات الى اللجنة العسكرية الثورية التي تضرب بيد من حديد وبدون رحمة.

وبهذه الطريقة ، جرى اكتشاف المؤامرة الملكية بقيادة بوريشكيفيتش ، العضو السابق في مجلس الدوما ، ومجموعة من النبلاء والضباط للقيام بانقلاب عسكري ؛ وكانوا قد بعثوا برسالة الى خالدين يدعونه فيها للتوجه الى بتروغراد ... وبهذه الطريقة أيضاً ، اكتشفت مؤامرة الكاديت الذين كانوا يرسلون المال والمتطوعين الى خالدين .

وفزع نيراتوف من الغضبة الشعبية التي أثارها هربه ، فعاد وسلّم المعاهدات السرية لتروتسكي الذي شرع في نشرها على صفحات « البرافدا » ويهز العالم بها ...

وازدادت القيود على الصحافة بصدور مرسوم يجعل الاعلانات احتكاراً للصحيفة الحكومية الرسمية فتوقفت جميع الصحف الاخرى احتجاجاً عليه، او خرقته فأغلقت ... ولم ترضخ الا بعد ثلاثة أسابيع .

واستمر الاضراب في الوزارات ، والتخريب الذي يقوم به الموظفون القدماء ، وعرقلة الحياة الاقتصادية الطبيعية . ولم يكن يقف وراء « سمولني » إلا إرادة الجماهير الشعبية الواسعة غير المنظّمة ؛ فاتجه اليها مجلس مفوّضي الشعب متولياً قيادة العمل الجماهيري الثوري ضد أعدائه . واخذ لينين يوضّح أهداف الثورة ، في بيانات بليغة مكتوبة بلغة بسيطة وزّعت في كل أنحاء روسيا ، مناشداً الشعب استلام السلطة وسحق مقاومة الطبقات المالكة والاستيلاء على المؤسسات الحكومية بالعنف . الأمن الثوري ! الانضباط الثوري ! مراقبة دقيقة ! لا إضرابات ! لا تسكّع ! (٩)

في ٢٠ تشرين الثاني ، أصدرت اللجنة العسكرية الثورية الانذار التالي :

« الطبقات الغنية تقاوم سلطة السوفييت المتمثلة في حكومة العمال والفلاحين والجنود . وانصارها يعرقلون عمل موظفي

الحكومة ومجلس الدوما ، ويحرّضون المصارف على الاضراب ، ويحاولون قطع الاتصالات ، أكانت في سكك الحديد أم البريد أو البرق ...

إننا نحذّرهم بأنهم يلعبون بالنار . البلد وجيشه مهددان بالمجاعة . لذا فإن العمل المنتظم لجميع الدوائر ضروري جداً لمواجهة هذه المجاعة . ان حكومة العمال والفلاحين قد اتخذت كل اجراء لازم لتأمين ما يحتاجه البلد والجيش . ومعارضة هذه الاجراءات جريمة ضد الشعب . إننا ننذر الطبقات الغنية وأنصارها بأنهم سيكونون أول من يتأذى أذا لم يقلعوا عن أعمال التخريب والتحريض . سوف يحرمون من حق استلام الغذاء ، سوف تصادر جميع مخزوناتهم . سوف تصادر ملكيات المجرمين الرئيسيين منهم .

لقد قمنا بواجبنا في تحذير الذين يلعبون بالنار .

ونحن على يقين بأن العمال والجنود والفلاحين سوف يمنحوننا كل دعمهم عندما يصبح من الضروري اتخاذ الاجراءات الحاسمة . » [١٠] وفي ٢٢ تشرين الثاني ، ألصقت النشرة التالية بعنوان « بلاغ استثنائي » على جميع جدران المدينة :

« لقد تلقى مجلس مفوّضي الشعب برقية مستعجلة من قيادة الجبهة الشمالية ، هذا نصها :

لا تتأخروا علينا أكثر ؛ لا تتركوا الجيش يموت من الجوع ؛ إن جيوش الجبهة الشمالية لم تستلم كسرة خبز واحدة منذ عدة أيام ، وبعد يومين أو ثلاثة سينفذ ما لدينا من كمك يوزّع حالياً على الجنود من الاحتياطي المخزون الذي لم يمسّ قبل الآن ..

لقد بـدأ مندوبون عن جميع قطاعات الجبهـة يبحثون الضرورة الملحّة لنقل جزء من الجيش الى المؤخرة ، استباقاً لما قد يحدث بعـد بضعة أيام من عمليات هرب جماعية يقوم بهـا الجنود الذين يموتون مـن الجوع ، الذين حطمتهم ثلاث سنوات من العيش في الخنادق ، المرضى ، الذين لا يملكون الكساء الكافي ، الحفـاة ، الذين يدفعون الى الجنون تحت وطأة بؤس لا يطاق .

إن اللجنة العسكرية الثورية تلفت نظر حاميـة بتروغراد وعمالها الى هذا . إن الوضع في الجبهة يتطلب الاجراءات العاجلة الحاسمـة ... ورغم ذلك ، فإن الموظفين الكبـار في المؤسسات الحكومية والمصارف وسكك الحديد والبريد والبرق مضربون يعرقلون عمل الحكومة في تزويد الجبهـة بالامدادات ... إن كل ساعة تأخر قـد تؤدي الى هـلاك آلاف الجنود . إن الموظفين المعادين للثورة هم أشنع المجرمين بحق إخوانهم الجائعين والمحتضرين في الجبهة ...

إن اللجنة العسكرية الثورية توجه لهؤلاء المجرمين الانـذار الأخير . وفي حال أية معارضة أو مقاومة تبدر منهم ، فإن قساوة الاجراءات التي ستتخـذ بحقهم سوف تكون بمستوى شناعة جريمتهم ... »

واستجاب العمال والجنود بموجـة غضب وحشية عمت روسيا بأمرهـا . فأصدر موظفو الحكومة والمصارف ، في العاصمة ، مئات البلاغات والنداءات محتجين ، مدافعين عن أنفسهم . وهذه واحدة منها :

« الى جميع المواطنين ..

مصرف الدولة مقفل ! لماذا ؟

لأن العنف الذي مارسه البلاشفة ضـد مصرف الدولة جعل عملنا مستحيلاً . كان أول عمل قـام به مفوّضو الشعب هو أنهم طلبوا عشرة ملايين روبل ، وفي ٢٧ تشرين الثـاني طلبوا خمسة وعشرين مليون أخرى دون أن يقدموا أي دليل على طريقـة صرف هذا المال ...

نحن الموظفين نرفض الاشتراك في نهب ملكية الشعب. ولهذا توقفنا عن العمل .

أيها المواطنون : إن المال المودع في مصرف الدولة هو لكم ، إنه مال الشعب ، حصلتم عليه بعملكم ، بعرقكم ودمكم . أيهـا المواطنون ! انقذوا ملكيـة الشعب من السرقة ، وانقـذونا من العنف ، فنعود الى عملنا حالاً .

موظفو مصرف الدولة »

وأصدر موّظفو وزارتي التموين والمالية ولجنة التموين الخاصة بلاغـات تقول إن اللجنة العسكرية الثورية أوجدت ظروفـاً يستحيل عليهم العمل في ظلها ، وتطالب السكان بدعمهم ضد « سمولني » ... إلا أن غالبيـة العمال والجنود لم تصدقهم ، فقد كان الرأي العـام الشعبي على يقين من أن الموظفين يخرّبون ويجوّعون الجيش والشعب .. وفي صفوف الإعاشة الطويلة التي أخذت تحتشد في الطرق الشتوية القارسة ، لم يكونوا يلومون الحكومة ، مثلما كان الحال أيام كرنسكي ، وإنمـا كانوا يلومون موظفي الدولة والمخربين ، لأن الحكومـة هي حكومتهم ، والسوفييت سوفييتهم ، وكان موظفو الوزارات ضد هذه الحكومة ..

كان مجلس الدوما ومنظمته المقاتلة — لجنة الإنقاذ — يقف وراء كل هذه

المعارضة ، محتجاً على جميع مراسيم مجلس مفوضي الشعب ، مقرراً المرة تلو الأخرى عدم الاعتراف بالحكومة السوفييتية ، متعاوناً علناً مع « الحكومات » الجديدة المعادية للثورة التي تشكل في « موغلييف » . ففي ١٧ تشرين الثاني مثلاً ، توجهت لجنة الانقاذ الى « جميع الحكومات البلدية والزيمستوفا ، وجميع المنظمات الديمقراطية والثورية التابعة للعمال والجنود والفلاحين وسائر المواطنين » بهذه الكلمات :

« لا تعترفوا بحكومة البلاشفة ، ناضلوا ضدها .

من اللجان المحلية لإنقاذ الوطن والثورة التي ستوحد جميع القوى الديمقراطية لمساعدة لجنة الإنقاذ لعموم روسيا في المهات التي حددتها لنفسها ... »

في ذلك الحين ، كانت انتخابات الجمعية التأسيسية قد أعطت البلاشفة أغلبية كبيرة في بتروغراد ، فأجبر حتى المناشفة الاممون على المطالبة بإعادة انتخاب مجلس الدوما لأنه لم يعد يمثل التوزيع السياسي لسكان بتروغراد[11]. وفي الوقت ذاته ، تدفق على مجلس الدوما سيل من المقررات الصادرة عن المنظمات العمالية والوحدات العسكرية وحتى عن الفلاحين في الريف المجاور ، ناعتة أعضاءه بأنهم « كورنيلوفيون معادون للثورة » ، مطالبة باستقالتهم . كانت أيام الدوما الأخيرة عاصفة : فقد طالب عمال البلدية بزيادة بأجور تكفي لحياة كريمة مهددين بالاضراب ...

في ٢٣ تشرين الثاني ، صدر مرسوم رسمي عن اللجنة العسكرية الثورية يعلن حل لجنة الإنقاذ . وفي ٢٩ منه ، أمر مجلس مفوضي الشعب بحل مجلس الدوما في بتروغراد وإعادة انتخابه :

« نظراً لأن مجلس الدوما المركزي في بتروغراد الذي انتخب في ٢ ايلول ... لم يعد يمثل سكان بتروغراد لتعارضه مع آرائهم

وتطلعاتهم ... ونظراً لأن أعضاء الأغلبية في مجلس الدوما ، رغم أنهم يفتقدون أي أتباع سياسيين ، ما زالوا يستعملون صلاحيات الدوما ليقاوموا ، بطريقة معادية للثورة، إرادة العمال والجنود والفلاحين ، وليخربوا ويعرقلوا عمل الحكومة الطبيعي، فإن مجلس مفوضي الشعب يعتبر من واجبه أن يدعو سكان العاصمة الى محاكمة سياسة الجهاز الممثل للحكم الذاتي البلدي .

لهذه الغاية ، يقرر مجلس مفوضي الشعب ما يلي :

١ — يحل مجلس الدوما البلدي ابتداء من ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ .

٢ — يبقى جميع الموظفين المنتخبين او المعينين من قبل مجلس الدوما الحالي في مراكزهم ويقومون بالمهمات الموكلة اليهم حتى يحل محلهم ممثلو مجلس الدوما الجديد .

٣ — يستمر جميع مستخدمي البلدية بالقيام بمهاتهم ، والذين يغادرون الخدمة باختيارهم يعتبرون مفصولين .

٤ — يحدد يوم ٩ كانون الأول ١٩١٧ موعداً للانتخابات الجديدة لمجلس الدوما البلدي في بتروغراد .

٥ — يجتمع مجلس الدوما البلدي في بتروغراد يوم ١١ كانون الأول ١٩١٧ في الساعة الثانية .

٦ — إن الذين يعصون ما ورد في هذا المرسوم ، والذين يسيئون عن قصد الى ملكية البلدية او يخربونها ، سوف يعتقلون فوراً ويقدمون للمحاكم الثورية ...

اجتمع مجلس الدوما متحدياً قرار الحل ، وأصدر قرارات تقول إنه

« سيحمي موقعه حتى آخر قطرة من دمه » ، وتضرع الى السكان لينقذوا « حكومة مدينتهم التي انتخبوها بأنفسهم » . الا ان السكان كانوا لامبالين او معادين . في ٣١ تشرين الثاني اعتقل المحافظ شرايدر وبضعة أعضاء آخرين ، وحقق معهم ثم أفرج عنهم . وواصل مجلس الدوما اجتماعاته في ذلك اليوم وفي اليوم الذي تلاه ، يقطعها عليهم مراراً الحرس الأحمر والبحارة الذين يطلبون من المجتمعين بأدب أن يتفرقوا . وفي اجتماع يوم ٢٠ كانون الاول ، دخل ضابط وبضعة بحارة « قاعة نيقولاي » بينما كان أحد الأعضاء يلقي خطاباً ، وأمر المجتمعين بمغادرة القاعة وإلا اضطر لاستعمال العنف . ففعلوا ذلك بعد أن أعلن كل منهم احتجاجه ، ثم « رضخوا للقوّة » ...

وكان مجلس الدوما الجديد ، الذي انتخب بعد عشرة أيام ، يكاد يكون مكوناً من البلاشفة وحدهم ، ذلك أن الاشتراكيين « المعتدلين » قاطعوا الانتخابات .

لم تزل هناك عدة مراكز معارضة خطرة ، « كجمهوريتي » اوكرانيا وفنلندا اللتين كانتا تحملان اتجاهات واضحة في عدائها للسوفييت . وكانت الحكومتان ، إن في « هلسنغفورس » أو في « كييف » ، تجمعان قوات يمكن الاعتماد عليها وتخوضان حملات لسحق البلاشفة وتجريد القوات الروسية من أسلحتها وطردها . مجلس « الرادا » الاوكراني يسيطر على روسيا الجنوبية كلها ويقدم لخالدين الامدادات والمؤن . اوكرانيا وفنلندا تفاوضان الألمان سراً ، وقد اعترفت حكومات الحلفاء بهما فوراً وأخذت تمدهما بكميات كبيرة من المال لعملها المشترك مع الطبقات المالكة من أجل انشاء مراكز معادية للثورة تتولى الهجوم على روسيا السوفييتية . وفي النهاية ، عندما انتصرت البلشفية في كلا البلدين ، استنجدت البرجوازية المهزومة بالألمان لكي يعيدوها الى الحكم ...

إلا أن الخطر الأعظم ضد الحكومة السوفييتية كان داخلياً وذا رأسين : حركة خالدين ، والقيادة العامة في « موغلييف » التي يترأسها الجنرال دوخونين .

وعين مورافيوف النشيط قائداً للعمليات ضد القوزاق ، وبدأ بتكوين جيش أحمر من بين عمال المصانع . أرسل مئات الدعاة الى منطقة « الدون » وأصدر مجلس مفوّضي الشعب نداء الى القوزاق يشرح فيه طبيعة الحكومة السوفييتية ، وكيف تحاول الطبقات المالكة وموظفو الحكومة ، وملاّك الأرض ، وأصحاب المصارف وحلفاؤهم ، وأمراء القوزاق والجنرالات أن تحطم الثورة ، وتحول دون مصادرة الشعب لثرواتها .

في ٢٧ تشرين الثاني ، جاء وفد من القوزاق لمقابلة تروتسكي ولينين . وسأل أعضاؤه اذا كان صحيحاً أن الحكومة السوفييتية لا تنوي توزيع أراضي القوزاق على فلاحي روسيا الكبرى . فأجاب تروتسكي بالنفي . وتشاور القوزاق فيما بينهم لمدة ، ثم سألوا : « حسناً ، هل تنوي الحكومة السوفييتية أن تصادر مزارع الملاك القوزاق الكبار وتوزعها على القوزاق الكادحين ؟ » فأجاب لينين : « هذا ما عليكم أن تقوموا به أنتم . نحن سندعم القوزاق الكادحين في جميع أعمالهم ... وأحسن طريقة للبدء هي تشكيل سوفييت للقوزاق ، فيجري تمثيلكم في « التسايكا » ، وتصبح الحكومة آنذاك حكومتكم كذلك ... »

وذهب القوزاق وهم مشغولون بالتفكير . وبعد أسبوعين استقبل الجنرال خالدين وفداً يمثل جنود جيشه ، وسأل الوفد : « هل تعدنا بأن توزع المزارع الكبيرة التابعة للملاك من القوزاق على القوزاق الكادحين ؟ » فأجاب خالدين « لن يجري ذلك ما دمت على قيد الحياة . » وبعد شهر من تلك الحادثة ، انتحر خالدين بعد أن رأى جيشه يتخلّى عنه . وهكذا انتهت حركة القوزاق ...

في ذلك الحين كانت « التسايكا » القديمـــة ، والقادة الاشتراكيون « المعتدلون » – من افاكسانتييف الى تشيرنوف – وقادة لجان الجيش القديمة والضباط الرجعيون مجتمعين في « موغلييف » . وأصرّت قيـادة الجيش على موقفها في رفض الاعتراف بمجلس مفوّضي الشعب ، وجمعت حولها « فيالق الموت » ، « وفرسان القديس جورج » والقوزاق العاملين في الجبهة ، وكانت على اتصال سرّي بالملحقين العسكريين التابعين لدول الحلفاء وبحركة خالدين ومجلس « الرادا » الاوكراني .

ولم تجب حكومات الحلفـاء على مرسوم السلم الصادر في ٨ تشرين الثاني والذي يقترح فيه مؤتمر السوفييت هدنة شاملة ...

وفي ٢٠ تشرين الثاني ، وجّه تروتسكي المذكّرة التاليـــة الى سفراء دول الحلفاء :

« أتشرّف بأن أبلغك ، سيدي السفير ، أن المؤتمر العـــام للسوفييت قـد شكّل ، في ٨ تشرين الثاني ، حكومة جديدة للجمهورية الروسية تدعى مجلس مفوضي الشعب . إن رئيس هذه الحكومة هو فلاديمير أيلييتش لينين . وقد كلفت بإدارة الشؤون الخارجية بصفتي مفوض الشعب للشؤون الخارجية ...

وإني ، إذ ألفت انتباهكم الى النص الذي أقرّه المؤتمر العـام حول اقتراح تحقيق الهدنـــة والسلم الديمقراطي ، بـلا ضم ولا تعويض، على أساس حق الشعوب في تقرير المصير ، أتشرف بأن أطلب منكم اعتبار هذه الوثيقة بمثابـــة اقتراح بتحقيق هدنـة فورية على جميع الجبهات والشروع في مفاوضات عاجـلة للسلم . إن الحكومة الشرعية للجمهورية الروسية قد وجهت هذا الاقتراح

في الوقت ذاته ، الى جميع الشعوب والحكومات المشتركة في الحرب .

وتفضل ، سيدي السفير ، بقبول احترام الحكومة السوفييتية العميق لشعبكم الذي لا يمكن إلا أن يكون راغباً في السلم ، شأنه شأن جميع الشعوب التي أنهكتها وامتصت قواها هذه المجزرة التي لا مثيل لها ... »

وفي الليلة ذاتها أرسل مجلس مفوضي الشعب البرقية التالية الى الجنرال دوخونين :

« ... إن مجلس مفوضي الشعب يرى أنه من الضروري اقتراح الهدنة بلا تأخر على جميع القوى ، أكانت عدوة أم حليفة . ولقد أرسل مفوض الشؤون الخارجية مذكرة بهذا الشأن الى ممثلي حكومات الحلفاء في بتروغراد .

إن مجلس مفوضي الشعب يأمرك ، أيها القائد المواطن ... بأن تقترح على السلطات العسكرية العدوة أن توقف عملياتها العدوانية حالاً وأن تدخل في مفاوضات للسلم . إن مجلس مفوضي الشعب ، إذ يكلفك بهذه المحادثات الأولية ، يأمرك بما يلي :

١ – أن تبلغ المجلس فوراً ، وبواسطة الاتصال المباشر ، بجميع خطوات المحادثات مع ممثلي جيوش العدو .

٢ – أن لا يوقع عقد الهدنة إلا بعد أن يصدّق عليه مجلس مفوّضي الشعب » .

استقبل سفراء الدول الحليفة مذكرة تروتسكي بصمت مزدر رافقته

مقـابلات غير موفقـة في الصحف تنضح بالحقـد والاستهزاء . ووصم الأمر الصادر الى دوخونين علنا بأنه خيانة ...

أما بالنسبة لدوخونين نفسه ، فلم يجب على المذكرة . وفي ليلة ٢٢ تشرين الثاني ، تم اتصال هاتفي معه وسئل إذا كان ينوي إطاعة الأمر . فأجـاب أنه لا يستطيع إطاعته إلا إذا كان صـادراً عن « حكومة يدعمهـا الوطن والجيش . »

فطارت برقية فوراً تبلغه عزله من منصبه كقائد عام ، وعيّن كريلنكو مكانه . تمشياً مع سياسته في التوجه الى الجماهير ، بعث لينين برسالة إذاعيـة الى جميع لجان الألوية والأفواج والفرق ، والى جميع جنود وبحـارة الجيش والأسطول يعلمهم فيها رفض دوخونين ، ويأمر « الأفواج في الجبهة بانتخاب مندوبين عنها للدخول في مفاوضات مع قطعات العدو المقابلة لمراكزهم ... »

وفي ٢٣ منه ، قام الملحقون العسكريون للامم الحليفة ، حسب تعليمات وردت اليهم من حكوماتهم ، بتسليم مذكرة الى دوخونين يحذرونه فيهـا « بعدم خرق شروط المعاهدات التي وقعت بـين قوى الحلفاء » . وجـاء في المذكرة أيضاً أن روسيا « ستجر على نفسهـا العواقب الوخيمة » ، اذا هي وقعت على هدنة من طرف واحد مع المانيـا . فأذاع دوخونين محتويات المذكرة فوراً على لجان الجنود .

وفي اليوم التالي ، أذاع تروتسكي نداء جديداً الى القوات واصفاً مذكرة ممثلي الحلفاء بأنها تدخل سافر في شؤون روسيا الداخليـة ومحاولة خرقـاء « لإجبار الجيش الروسي والشعب الروسي ، بواسطة التهديد ، على مواصـلة الحرب تنفيذاً لمعاهدات وقعها القيصر » .

وتدفق البلاغ تلو البلاغ من « سمولني » مهاجماً دوخونين وزمرة الضباط

المعادين للثورة الملتفة حوله ، وشاجباً السياسيين الرجعيين المجتمعين في « موغليف » ، مثيراً ملايين الجنود الغاضبين المتشككين من أقصى جبهة المئة ميل الى أقصاها [١٢] . وفي الوقت ذاته ، اتجه كريلنكو ، على رأس ثلاث وحدات من البحارة المندفعين ، نحو « ستافكا » ، مهدداً بالثأر [١٣] . فاستقبله الجنود في كل مكان بعواصف من الهتاف ، وكان هذا تقدماً عظيماً . أصدرت اللجنة المركزية للجيش بلاغاً تؤيد فيه دوخونين ، فتحرك للحال عشرة آلاف جندي على « موغليف » .

وثارت حامية « موغليف » يوم الثاني من كانون الأول وسيطرت على المدينة ، واعتقلت دوخونين ولجنة الجيش وخرجت لاستقبال القائد العام الجديد حاملة أعلام النصر الحمراء . وفي صباح اليوم التالي ، دخل كريلنكو « موغليف » ليجد جمعاً غاضباً يحاصر سكة الحديد التي سجن فيها دوخونين . وألقى كريلنكو خطاباً يرجو فيه الجنود أن لا يأذوا دوخونين لأنه سيؤخذ الى بتروغراد ليحاكم أمام المحكمة الثورية . وما أن انتهى من خطابه ، حتى أطل دوخونين فجأة من النافذة وكأنه يريد أن يخاطب الجمع . إلا أن الشعب هجم الى العربة هجوماً وحشياً وجرّ الجنرال العجوز الى الخارج وانهال عليه بالضرب حتى الموت على الرصيف ...

هكذا انتهى تمرد « ستافكا » ...

وبدأت الحكومة السوفييتية تنظم الدولة بثقة ، بعد أن قويت من جراء انهيار آخر معقل هام للقوى العسكرية المعادية في روسيا . وعاد العديد من الموظفين القدماء للانضواء تحت لوائها ، وانضم عدد كبير من أعضاء الأحزاب الأخرى الى الجهاز الحكومي . إلا أن « مرسوم أجور موظفي الدولة » الذي حدد أجر مفوضي الشعب – وهو أعلى أجر – بخمسمئة روبل في الشهر (حوالي خمسين دولاراً) حال دون عودة الطامعين بالكسب المالي... وانهار

إضراب موظفي الحكومة ، بقيادة « اتحاد الاتحادات » ، بعد أن تخلت عنه المصالح المالية والتجارية التي كانت تدعمه . وعاد موظفو المصارف الى أعمالهم ...

ومع صدور مرسوم تأميم المصارف ، وتكوين « المجلس الأعلى للاقتصاد الشعبي » ، وتنفيذ مرسوم الأرض في القرى ، وإعادة تنظيم الجيش على أسس ديمقراطية والتغييرات الجذرية التي حدثت في جميع قطاعات الحكم والحياة — مع هـذه الاجراءات كلها ، التي استمدت فعاليتها من إرادة جماهير العمال والجنود والفلاحين ، بدأت ببطء ، وبأخطاء وزلات عديدة ، عملية بناء روسيا البروليتارية .

لم يستلم البلاشفة الحكم بالمساومة مع الطبقات المالكة أو مع القادة السياسيين الآخرين ، ولا بإرضاء جهاز الحكومة القديم . لم يستلموا الحكم بواسطة عنف منظم مارسته زمرة قليلة العدد . فلو لم تكن الجماهير في جميع أنحاء روسيا مستعدة للثورة ، لأخفقت محاولتهم . إن التفسير الوحيد لنجاح البلاشفة يكمن في أنهم يمثلون الرغبات البسيطة والكبيرة لفئات الشعب الدنيا ، داعين إياهم الى العمل لهدم القديم ، ثم التعاون معاً لتشييد أساس الجديد وسط غبار الخرب المتهاوية...

هوامش

(الفصل الحادي عشر)

١ – حدود هذا الفصل

يغطي هذا الفصل فترة شهرين تقريباً . أي أنه يشمل المفاوضات مع الحلفاء، والمفاوضات والهدنة مع الألمان، وبداية مفاوضات السلم في بريست – ليتوفسك ، والفترة التي تم بها إرساء أسس الدولة السوفييتية .

إلا أني لم أدخل في حساب هذا الكتاب أن أصف وأحلل هذه الأحداث التاريخية الهامة جداً التي تتطلب مجالاً أوسع ...

لذا فقد اقتصرت في هذا الفصل على التعرض لمحاولات الحكومة السوفييتية في تدعيم سلطتها السياسية في الداخل ، ورسمت بخطوط عريضة انتصاراتها المتتالية على العناصر الداخلية المعادية ، هذه العملية التي انقطعت مؤقتاً نتيجة سلم بريست – ليتوفسك المفجع .

٢ – مقدمة اعلان حقوق شعوب روسيا

لقد بدأت ثورة العمال والفلاحين في تشرين الثاني تحت راية التحرر المشتركة .

الفلاحون يتحررون من سلطة ملاّك الأرض ، لأنه لم يعد ثمة حق للملاك على الأرض – لقد ألغي هـذا الحق . الجنود والبحارة يتحررون من سلطة الجنرالات المستبدين ، لأن الجنرالات سوف ينتخبون من الآن فصاعداً ويحق نزع الثقة عنهم . العمال يتحررون من إرادة الرأسماليين وأهدافهم ، لأنه قد تحققت سيطرة العمال على المطاحن والمصانع . إن كل ما هو حيّ وقـادر على الحياة يجري تحريره من الأعباء الكريهة .

ولم يبقَ سوى شعوب روسيا ، التي عانت ومـا تزال تعاني من القمع والتصرّفات الكيفية ، والتي يجب العمل فوراً على تحريرها نهائياً وبحزم .

كان الحكم القيصري يحرّض شعوب روسيا ضد بعضها . ونتائج هـذه السياسة معروفة لدى الجميع : المجازر والمذابح من جهة ، وعبودية الشعوب من جهة أخرى .

لا يمكن ولا يجوز العودة الى هذه السياسة المشينة . بل يجب أن تحـل محلها ، من الآن فصاعداً ، سياسة اتحاد شعوب روسيا الطوعي والصادق .

في فترة الامبريالية ، بعـد ثورة آذار ، عندما انتقلت السلطة الى أيدي حزب الكاديت البرجوازي، حلّت سياسة عدم الثقة الجبانة بشعوب روسيا، وسياسة البحث عن أخطاء وسياسة « حرية » « ومساواة » بدون معنى للشعوب محلّ سياسة الاثارة العلنية . وإن نتائج هذه السياسة معروفة أيضاً لدى الجميع : تزكية العداوة القومية ، والحيلولة دون توثيق عرى الثقـة المتبادلة .

يجب وضع حد لهـذه السياسة الباطلة القائمة على الزيف والريبة والبحث عـن أخطاء والتحريض . ويجب استبدالها ، من الآن فصاعدا ، بسياسة منفتحة صادقة تؤدي الى الثقة المتبادلة الكاملة بـين شعوب روسيا . إن مثل

هذه الثقة هي الشرط الوحيد لوجود وحدة صادقة دائمة بين شعوب روسيا . وكنتيجة لهـذه الوحدة فقط يمكن صهر عمال وفلاحي الشعوب الروسية في قوة ثورية واحدة قـادرة على مقاومة جميع محاولات البرجوازية الاستعمارية التوسّعية .

٣ – مراسيم

حول تأميم المصارف

في مصلحة السير المنتظم للاقتصاد الوطني ، والقضاء النهائي على المضاربة المصرفية ، وللتحرر الكامـل للعمال والفلاحين وسائر الكادحين من استغلال رأس المال المصرفي، ومن أجل إنشاء مصرف وطني واحد للجمهورية الروسية يخـدم المصالح الحقيقية للشعب والطبقات الفقيرة ، تقرّر اللجنة المركزية التنفيذية « التسايكا » ما يلي :

١ – يصبح العمل المصرفي احتكاراً للدولة .

٢ – تدمج في مصرف الدولة جميع المكاتب المصرفية والمصارف المساهمة.

٣ – تعود موجودات وديون المؤسسات التي تُصفّى الى مصرف الدولة .

٤ – يصدر مرسوم خاص يحدّد عملية دمج المصارف الخاصة في مصرف الدولة .

٥ – يوكل مجلس إدارة مصرف الدولة ، مؤقتـاً ، بالاشراف على إدارة شؤون المصارف الخاصة .

٦ – إن مصالح المساهمين الصغار مضمونة .

* * *

حول مساواة جميع العسكريين في الرتب

تنفيذاً لإرادة الشعب الثائر في إلغاء بقايا عدم المساواة في الجيش إلغاء سريعاً وحازماً ، يقرر مجلس مفوضي الشعب ما يلي :

١ – تلغى جميع الرتب والدرجات في الجيش ابتداء من رتبة عريف الى رتبة جنرال ، إن جيش الجمهورية الروسية يتكوّن الآن من مواطنين أحرار ومتساوين ، يحملون اللقب المشرّف : « جنود الجيش الثوري » .

٢ – تلغى جميع الامتيازات المرتبطة بالرتب والدرجات السابقة وتلغى أيضاً جميع علاقات الامتياز الخارجية .

٣ – يلغى استعمال الألقاب عند المخاطبة .

٤ – تلغى جميع الأوسمة ، والأوامر ، ومظاهر الامتياز الأخرى .

٥ – مع إلغاء رتبة ضابط تلغى جميع تنظيمات الضباط المنفصلة .

ملاحظة : يبقى نظام المناوبة سائراً بالنسبة للقيادات العامة والمخازن واللجان وتنظيمات الجيش الأخرى .

فلاديمير أوليانوف لينين (رئيس مجلس مفوضي الشعب)
ن. كريلنكو (مفوض الشعب للشؤون العسكرية والبحرية)
ن. بودفويسكي (مفوض الشعب للشؤون العسكرية)
ن. غوربونوف (أمين سر المجلس)

* * *

حول اعتماد المبدأ الانتخابي وحول تنظيم السلطة في الجيش

١ – إن الجيش ، بحكم كونه يخدم إرادة الشعب العامل ، يرضخ لسلطة هذا الشعب العليا المتمثلة في مجلس مفوضي الشعب .

٢ – تتمتع منظمات السوفييت ولجـــان الجنود بالسلطات الكاملة ضمن حدود الوحدات العسكرية والتشكيلات الأخرى .

٣ – إن مراحل حياة ونشاط الجنود التي تقع حالياً تحت سلطة اللجان توضع رسمياً تحت إدارة هذه اللجان المباشرة . أمـا بالنسبة لتلك القطاعات التي لا تستطيع اللجان العمل فيها ، فتوضع تحت إدارة سوفييت الجنود.

٤ – إن انتقاء الضباط والأركان يتم من الآن فصاعداً بواسطة الانتخاب. ينتخب جميع القادة ، بما فيهم قادة الأفواج ، من قبل الحظائر والفصـــائل والسرايا والفرق والأفواج . وينتخب جميع القادة فوق مستوى قائد الفوج ، بما فيهم القائد الأعلى للجيش ، بواسطة مؤتمرات أو ندوات اللجان .

ملاحظة : كلمة « ندوة » تعني اجتماعاً للجان المعنية بالأمر بالإضافـة الى مندوبين عن اللجـان التي تمثل القطاعات الدنيـا . (مثلاً « ندوة » لجان الأفواج التي يشترك فيها مندوبون عن لجان السرايا – المؤلف) .

٥ – يجب أن تصادق أقرب لجنة عليـا على انتخاب القـادة فوق رتبة قائد فوج .

ملاحظة : في حال رفض لجنة عليـا التصديق على القـائد المنتخب ، مع تبيان أسباب هذا الرفض ، تصبح ملزمـة ، في المرة الثانيـة ، على تصديق انتخاب لجنة أدنى لقائدها .

٦ – قادة الجيوش ينتخبون من قبل مؤتمرات الجيوش . وقـادة الجبهات ينتخبون من قبل مؤتمرات الجبهات .

٧ – بالنسبة للمناصب ذات الطابع التقني ، والتي تتطلب معرفة معينـة أو خبرة عمليـــة (أطبـاء ، مهندسون ، تقنيون ، ضباط إرسال برقي ،

طيارون ، سواق ، الخ .) ، يسمح بانتخاب الذين يتمتعون بالخبرة اللازمة فقط، وتقوم بعملية الانتخاب اللجان التابعة لوحدات الخدمة المعنية بالأمر .

٨ – يجب اختيار رؤساء الأركان من بين العسكريين الذين يتمتعون بالتدريب العسكري الخاص الذي يؤهلهم احتلال هذا المنصب .

٩ – تعين رئاسة الأركان جميع أعضاء القيادة الآخرين ، على أن تصدق المؤتمرات المعنية بالأمر على هذه التعيينات .

ملاحظة : توضع أسماء جميع الذين يتمتعون بتدريب خاص على لائحة منفصلة .

١٠ – يحتفظ مجلس مفوضي الشعب بأن يفصل من الخدمة جميع القادة العاملين الذين لم ينتخبهم الجنود لأي مركز والذين يعتبرون بالتالي أنفاراً عاديين .

١١ – تملأ جميع المناصب الأخرى ، فيما عدا المناصب المتعلقة بالقيادة ، وباستثناء المناصب في الدوائر الاقتصادية بواسطة التعيين من قبل القادة المنتخبين المعنيين بالأمر .

١٢ – سوف تنشر بشكل منفصل التعليمات التفصيلية المتعلقة بانتخابات القادة العسكريين .

فلاديمير أوليانوف لينين (رئيس مجلس مفوضي الشعب)
ن. كريلنكو (مفوض الشعب للشؤون العسكرية والبحرية)
ن. بودفويسكي (مفوض الشعب للشؤون العسكرية)
ن. غوربونوف (أمين سر المجلس)

* * *

حول إلغاء الطبقات والألقاب

١ – تُلغى جميع الطبقات والانقسامات الطبقية ، وجميع الامتيازات والتحريمات الطبقية ، وجميع المنظمات والمؤسسات الطبقية ، وجميع الرتب المدنية .

٢ – تلغى جميع طبقات المجتمع (نبلاء ، تجار ، برجوازية صغيرة الخ)، وجميع الألقاب (أمير ، كونت ، وغيرهما) ، وجميع الرتب المدنية (مستشار خاص للدولة ، وغيره) ، ويحل محلها لقب عام هو : مواطن الجمهورية الروسية .

٣ – تنقل ملكية ومؤسسات النبلاء الى أيدي منظمات الزيمستوفا المستقلة والمعنية بالأمر .

٤ – تنقل ملكية منظمات التجار والبرجوازيين فوراً الى الحكومات الذاتية البلدية .

٥ – توضع كل المؤسسات الطبقية ، مهما كان نوعها ، وملكيتها وأنظمتها الداخلية ، ووثائقها تحت إدارة البلديات والزيمستوفا .

٦ – تعتبر جميع النصوص القانونية الحالية المتعلقة بهذه القضايا لاغية ابتداء من هذا التاريخ .

٧ – يصبح المرسوم الحالي نافذ المفعول يوم نشره ، وتتولى سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين أمر تطبيقه .

لقد أقرت « التسايكا » هذا المرسوم في اجتماعها يوم ٢٣ تشرين الثاني ، ١٩١٧ ، ووقع عليه :

سفيردلوف (رئيس التسايكا)

فلاديمير اوليانوف لينين (رئيس مجلس مفوضي الشعب)

ف. بونش – برويفيتش (منفذ مجلس مفوضي الشعب)

ن. غوربونوف (أمين سر المجلس)

٤ – السخرية على النظام الجديد

عن صحيفة « دروغ نارودا » المنشفية ، في ١٨ تشرين الثاني :

إن قصة « السلم الفوري » الذي يتحدث عنه البلاشفة ، يذكر بفيلم سينمائي مضحك ... نيراتوف يركض وتروتسكي يطارده ، نيراتوف يصعد على جدار وكذلك يفعل تروتسكي ، نيراتوف يقفز الى الماء فيلحق به تروتسكي ، نيراتوف يصعد الى السطح وتروتسكي وراءه ، نيراتوف يختبىء تحت سرير فيحاصره تروتسكي ! لقد قبض عليه ! وطبعاً يجري توقيع معاهدة السلم فوراً ...

كل شيء فارغ وساكت في وزارة الشؤون الخارجية . الرسل يبدون الاحترام ، إلا أن وجوههم تعتليها تعابير فارغة ...

ماذا لو اعتقلنا أحد السفراء ووقعنا معه هدنة أو معاهدة سلم ؟ لكنهم غريبو الأطوار ، هؤلاء السفراء . يلتزمون الصمت كأنهم لم يسمعوا شيئاً . يا عالم ، يا ناس ، يا فرنسا ، يا إنكلترا ، يا ألمانيا ! لقد وقعنا معاهدة هدنة معكم ! هل من المعقول أن لا تعرفوا شيئاً عنها ؟ لقد نشرت في جميع الصحف ، وألصقت على جميع الجدران . لقد وقعنا معاهدة سلم ، بشرفي البلشفي ، إننا لا نطلب منكم الكثير ، ما عليكم إلا أن تكتبوا كلمتين فقط ...

السفراء لا يجيبون . القوى تلازم الصمت . كل شيء فارغ وساكت في وزارة الشؤون الخارجية .

روبسبيير – تروتسكي يقول لمساعده مارا – أوريتسكي : « إسمع . أسرع الى السفارة البريطانية وقل للسفير إننا نقترح عليه السلم ! » .

ويجيب مارا – اوريتسكي : « إذهب بنفسك ، إنه لا يستقبل أحداً » .

– خابره إذاً .

– حاولت . الخط مقطوع .

– أرسل له برقية .

– فعلت ذلك .

– حسناً ، وما النتيجة ؟

ويتنهد مارا – اوريتسكي ولا يجيب. فيبصق روبسبيير– تروتسكي بغضب في إحدى الزوايا ... ثم يقول بعد برهة :

« إسمع ، يا مارا ... كيفما كان الأمر ، يجب أن نثبت أننا ننفذ سياسة خارجية فعالة . كيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟ »

ويجيب اوريتسكي بجدّية : « فلنصدر مرسوماً جديداً ! حول اعتقال نيراتوف » .

فيصيح تروتسكي : « مارا ، أنت تيس ! » وينتصب فجأة ، رهيباً وجليلاً ، وقد بدا مثل روبسبيير ، ثم يقول بقساوة :

« إكتب ، يا يوريتسكي ! إكتب رسالة مسجلة الى السفير البريطاني مع إشعار بالوصول . إكتب . أنا بدوري سأكتب ! شعوب العالم تنتظر سلماً فورياً ! »

لا يسمع غير صوت آلتين كاتبتين في وزارة الشؤون الخارجية الواسعة الفارغة . تروتسكي يشرف بنفسه على سياسة خارجية فعالة ...

٥ – حول مسألة الاتفاق

الى جميع العمال ، الى جميع الجنود .

عقد اجتماع استثنائي لممثلي جميع وحدات حامية بتروغراد

يوم ١١ تشرين الثاني في نادي فوج بريوبراجنسكي .

وذلك بناء على دعوة وجهها فوجا بريوبراجنسكي وسيمينوفسكي لمناقشة الموضوع التالي : من بين الأحزاب الاشتراكية الموجودة أي حزب يؤيد سلطة السوفييت وأي حزب يقف ضدها ! أي حزب يقف مع الشعب وأي حزب يقف ضده؟ وهل بالإمكان الوصول الى اتفاق فيما بين هذه الأحزاب؟

وقد دعي الى الاجتماع ممثلون عن « التسايكا » ، ومجلس الدوما البلدي ، وسوفييت الفلاحين الذي يرأسه افاكسانتييف ، وجميع الأحزاب السياسية من البلاشفة الى الاشتراكيين الشعبيين.

وبعد نقاش طويل ، وبعد الاستماع الى مساهمات جميع الأحزاب والمنظمات ، أقر الاجتماع ، بأغلبية ساحقة ، أن البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين هما الحزبان الوحيدان اللذان يقفان الى جانب الشعب ، وأن جميع الأحزاب الأخرى إنما تحاول ، تحت ستار السعي الى اتفاق ، أن تحرم الشعب من المكاسب التي أحرزها أيام ثورة العمال والفلاحين العظيمة في تشرين الثاني .

وفيما يلي نص القرار الصادر عن اجتماع حامية بتروغراد بأغلبية ٦١ صوت ضد ١١ وامتناع ١٢ :

« ١ — لقد أعلن ممثلون عن « التسايكا » والحزب البلشفي والاشتراكيين الثوريين اليساريين أنهم يقفون بحزم الى جانب حكومة السوفييت ، ومراسيم الأرض ، والسلم ، وسيطرة العمال على الصناعة ، وأنهم على استعداد للاتفاق على أساس هذا البرنامج ، مع جميع الأحزاب الاشتراكية الأخرى .

٢ – وفي الوقت ذاته ، فقد امتنع ممثلو الأحزاب الأخرى (منشافة ، اشتراكيون ثوريون) عن إعطاء أي جواب ، أو أنهم أعلنوا ببساطة أنهم يعارضون سلطة السوفييت ومراسيم الأرض والسلم والسيطرة العمالية .

بناء على ذلك ، يقرر الاجتماع ما يلي :

١ – شجب جميع الأحزاب التي تريد عملياً القضاء على المكاسب الشعبية لثورة تشرين ، بحجة الوصول الى اتفاق .

٢ – أن تعلن ثقتها الكاملة « بالتسايكا » ومجلس مفوضي الشعب ، وأن تعدهم بتقديم دعمها كاملاً .

وفي الوقت ذاته ، يرى الاجتماع أنه من الضروري أن يدخل الرفاق الاشتراكيون الثوريون اليساريون الى حكومة الشعب . »

٦ – اضطرابات الخمر

لقد اكتشف فيما بعد أن الكاديت قد أنشأوا منظمة خاصة لإثارة الاضطرابات بين الجنود . كانت المكالمات الهاتفية ترسل الى الثكنات المختلفة معلنة أن الخمر يوزّع مجاناً في عنوان ما ، وعندما يصل الجنود الى المكان المعين ، يجدون رجلا وضع خصيصاً ليدلهم على موقع القبو ..

وقد عين مجلس مفوضي الشعب مفوضاً للنضال ضد موجة السكر ، الذي عمل على اتلاف مئات الآلاف من زجاجات الخمر بالإضافة الى قمع الاضطرابات المتأتية عن التسابق على الخمر . في البدء أغرقت أقبية قصر الشتاء ، التي تحتوي على خمور نادرة معتقة تزيد قيمتها عن خمسة ملايين دولار ، ثم نقلت الخمور الى كرونستاد حيث أتلفت .

وقد تصرف بحارة كرونستاد، في هذا المجال، بسيطرة حديدية على النفس، ولا عجب، أليسوا هم الذين أسماهم تروتسكي «زهرة القوى الثورية وفخرها؟»

٧ – أمر إجباري

١ – تعلن حالة الحصار في مدينة بتروغراد.

٢ – تمنع جميع الاجتماعات في الشوارع والساحات.

٣ – محاولات نهب أقبية الخمر، أو المستودعات، أو المصانع، أو الحوانيت، أو المتاجر، أو المساكن الخاصة، أو ما شابه، سوف تقمع بنار المدافع الرشاشة دون إنذار.

٤ – يكلف أعضاء لجان المساكن والحجاب ووكلاء البنايات وأفراد الميليشيا بالحفاظ على الأمن الشديد في جميع المنازل والباحات والطرقات. يجب إقفال أبواب المنازل أو مداخل العربات في الساعة التاسعة مساء، وفتحها في السابعة صباحاً. ويسمح للنزلاء فقط بالخروج من البيت بعد الساعة التاسعة تحت رقابة لجان المساكن المشددة.

٥ – إن كل من يوزّع أو يبيع أو يشتري أي نوع من المشروبات الكحولية، وكل من يخرق البندين ٢ و ٤ سوف يعتقل فوراً ويلقى أكثر العقوبات صرامة.

بتروغراد في ٦ كانون الأول، الساعة الثالثة بعد الظهر.

لجنة منع المذابح الملحقة باللجنة التنفيذية
لسوفييت مندوبي العمال والجنود

٨ — المضاربون

وقد صدر الأمران التاليان بالنسبة لهم :

من مجلس مفوضي الشعب
الى اللجنة العسكرية الثورية

إن الفوضى في إمدادات الطعام التي خلقتها الحرب وفقدان النظام آخذة بالتعاظم نتيجة لعمل المضاربين واللصوص وأتباعهم في سكك الحديد ومكاتب البواخر ومكاتب الشحن ، الى آخره .

إن هؤلاء المفسدين المجرمين، يتلاعبون ، لمصلحتهم الخاصة ، بصحة وحياة ملايين العمال والجنود مستغلين أفظع النكبات التي حلت بهذه الأمة .

لا يمكن احتمال مثل هذا الوضع بعد الآن .

إن مجلس مفوضي الشعب يقترح على اللجنة العسكرية الثورية اتخاذ الاجراءات الحاسمة للقضاء على المضاربة والتخريب وإخفاء المؤن وتأخير الشحنات لغايات خبيثة ، الى آخره .

إن جميع الأشخاص المتهمين بمثل هذه الأعمال يجب اعتقالهم فوراً ، بأمر خاص من اللجنة العسكرية الثورية ، وسوقهم الى سجون كرونستاد بانتظار تقديمهم الى المحكمة الثورية .

إن جميع المنظمات الشعبية مدعوة لتوحيد الجهود في المعركة ضد معطلي امدادات الطعام .

ف. اوليانوف — لينين (رئيس مجلس مفوضي الشعب)

تمت الموافقة على تنفيذه ،

اللجنة العسكرية الثورية الملحقة باللجنة المركزية التنفيذية
لسوفييت مندوبي العمال والجنود
بتروغراد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٧

* * *

الى جميع المواطنين الشرفاء ،

تأمر اللجنة العسكرية الثورية بما يلي :

إن المخربين ، واللصوص والمضاربين هم أعداء الشعب ..

تقترح اللجنة العسكرية الثورية على جميع المنظمات العامة ، وعلى جميع المواطنين الشرفاء أن يبلغوها حالاً عن جميع حالات التخريب والسرقة والمضاربة عندما يعلمون بها .

إن الصراع ضد الشر واجب على جميع الناس الشرفاء . واللجنة العسكرية الثورية تتوقع أن تحظى بتأييد جميع الذين تعز عليهم مصالح الشعب .

إن اللجنة العسكرية الثورية ستعمل بلا رحمة على ملاحقة المضاربين واللصوص .

اللجنة العسكرية الثورية
بتروغراد في ٢ كانون الأول ١٩١٧

٩ – ١٠ بلاغان

لينين ، الى شعب روسيا :

أيها الرفاق العمال والجنود والفلاحون – يا جميع الشغيلة !

إن ثورة العمال والفلاحين قـد انتصرت في بتروغراد ، وفي موسكو ... وكل يوم – بل كل ساعة ، تنهـال التحيات على الحكومة الجديدة من الجبهة والقرى ... إن انتصار الثورة ... مضمون ، لأنها تحظى بدعم غالبية الشعب .

إن الرأسماليين والملاك ، والموظفين والمستخدمين المتحـالفين مع البرجوازية ، باختصار : الأغنياء كلهم وجميع المتعاونين معهم يناصبون الثورة العداء ويهددون بوقف عمل المصـارف ويخرّبون أو يعرقلون عمل المؤسسات الأخرى . هـذا أمر بديهي ... إن كل عامل واعٍ يفهم تماماً أننا لا نستطيع أن نتفادى هذا العداء، لأن الموظفين الكبار قد وقفوا ضد هذا الشعب ويرفضون التخلي عن مواقعهم بدون مقاومة . إلا أن الطبقات الكادحة لا تهاب هذه المقاومة في أي حال من الأحوال . غالبيـة الشعب تساندنا . غالبية العمال والمضطهدين في العـالم بأسره تساندنا . العدالة الى جانبنا . لذا ، فإن نصرنا أكيد .

سوف تحطم مقاومة الرأسماليين والموظفين الكبار . لا يحرم أحد من ملكية إلا بقانون خاص حول تأميم المصارف والجمعيات المالية . وهذا القانون قيد التحضير . لن يخسر أي عامل كوبيكاً واحـداً ، بل ، على العكس ، فسوف نمـدّه بالمساعدة . وإذا كانت الحكومة لم تقرر جباية ضرائب جديدة للوقت الحاضر ، فهي تعتبر أن من واجباتهـا الأولية اعتماد المحاسبة والرقابة الشديدة على جباية الضرائب المعمول بها في العهد المباد ...

أيها الرفاق العمال ! تذكروا أنكم أنتم من يقود الحكومـة . لن يساعدكم أحـد إلا إذا نظمتم أنفسكم وتوليتم شؤون الدولة .

إن منظمات السوفييت التابعة لهـا هي الآن أجهزة السلطة الحكومية ... عزّزوها . أقيموا رقابة ثورية صارمة ، اسحقوا بلا رحمة كل المحاولات الفوضوية التي يقوم بها السكارى واللصوص و « النيكرز » المعادون للثورة والكورنيلوفيون .

أقيموا رقابة مشدّدة على الانتاج وعلى حساب المتوجـات . اعتقلوا وقـدّموا لمحكـة الشعب الثورية جميع الذين يسيئون الى ملكية الشعب بواسطة التخريب في الإنتاج ، أو إخفـاء المخزون من الحبوب أو من السلع الأخرى ، أو تـأخير شحن الحبوب ، أو بإحداث البلبلة في سكك الحديد ومراكز البريد والبرق ، أو بواسطة المعـارضة العـامة للعمل الجبار لتحقيق السلم وتوزيع الأرض على الفلاحين ...

أيها الرفاق العمال والجنود والفلاحون – يا جميع الشغيلة !

استلموا كل السلطة المحلية فوراً ... إننا سوف نسير ، خطوة خطوة وبموافقة غالبية الفلاحين ، نحو انتصـار الاشتراكية بحزم ودون تردّد ؛ هذا الانتصار الذي سيدعم مواقع هجوم الطبقـة العاملة في أكثر البلدان حضارة ، ويحقق للشعب سلماً دائمـاً ، ويحرره من جميع ألوان العبودية والاستغلال .

* * *

الى جميع عمال بتروغراد !

أيها الرفـاق ! الثورة في طريق الانتصـار ، والثورة قـد انتصرت . انتقلت كل السلطة الى السوفييت التي تمثلنا . إن أول أسابيع هي أصعبها . يجب سحق الرجعية المهزومة سحقاً نهائياً ، يجب تأمين الانتصار الكامل لمساعينا . يجب على الطبقة العـاملة

أن تبدي ، في هذه الأيام ، أعظم الصلابة والصمود لكي تسهل تحقيق جميع أهداف حكومة الشعب السوفييتية الجديدة . في الأيام القليلة القادمة ، سوف تصدر المراسيم حول مسألة العمل ، وسيكون من أول هذه المراسيم المرسوم حول السيطرة العمالية على الانتاج والرقابة على الصناعة .

إن إضرابات وتظاهرات الجماهير العمالية في بتروغراد لن يكون لها من تأثير إلا الاساءة الى الوضع .

إننا نطلب منكم التوقف فوراً عن جميع الإضرابات الاقتصادية والسياسية والعودة الى العمل بانتظام تام . إن العمل في المصانع وفي جميع فروع الصناعة لهو ضروري لحكومة السوفييت الجديدة لأن أية مقاطعة لهذا العمل لن تؤدي إلا الى صعوبات جديدة لنا ، وعندنا منها ما فيه الكفاية . كل واحد الى مركزه .

إن أفضل طريقة لمساندة حكومة السوفييت في هذه الأيام هي أن يقوم كل واحد منا بعمله .

عاشت صلابة البروليتاريا الحديدية ! عاشت الثورة !

سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود
مجلس نقابات بتروغراد
مجلس لجان المصنع – المتجر في بتروغراد

١١ – نتائج انتخابات الجمعية التأسيسية في بتروغراد

تنافست في بتروغراد تسع عشرة لائحة . والنتائج التي نشرت في ٣٠ تشرين الثاني هي كما يلي :

الحزب	عدد الأصوات
اشتراكيون شعبيون	١٩ ، ١٠٩
كاديت	٢٤٥ ، ٠٠٦
اشتراكيون ديمقراطيون	٣ ، ٧٠٧
بلاشفة	٤٢٤ ، ٠٢٧
اشتراكيون عالميون	١٥٨
العمال الاشتراكيون الديمقراطيون والاشتراكيون	
الثوريون الاوكرانيون واليهود	٤ ، ٢١٩
عصبة حقوق النساء	٥ ، ٣١٠
اشتراكيون ثوريون (مدافعون)	٤ ، ٦٩٦
اشتراكيون ثوريون يساريون	١٥٢ ، ٢٣٠
عصبة إنعاش الشعب	٣٨٥
ديمقراطيون جذريون	٤١٣
الأبرشيات الارثوذكسية	٢٤ ، ١٣٩
العصبة النسائية لإنقاذ الوطن	٣١٨
العصبة المستقلة للعمال والجنود والفلاحين	٤ ، ٩٤٢
اشتراكيون ديمقراطيون (كاثوليك)	١٤ ، ٣٨٢
الاشتراكيون الديمقراطيون المتحدون	١١ ، ٧٤٠
مناشفة	١٧ ، ٤٢٧
مجموعة « يدينستوفا »	١ ، ٨٢٣
عصبة قوات القوزاق	٦ ، ٧١٢

١٢ – نداءات الجبهة ضد دوخونين

... إن النضال من أجل السلام يلقى مقاومة البرجوازية والجنرالات المعادية للثورة... تقول الصحف إن عملاء البرجوازية وحلفائها أمثال فيرفوفسكي وافاكسانتييف وتشيرنوف وغوتز وتسيريتلي وغيرهم يتجمعون في مقر الجنرال دوخونين ، القائد الأعلى السابق . ويبدو أنهم ينوون تشكيل حكم جديد ضد السوفييت .

أيها الرفاق الجنود ! إن جميع الذين ذكرناهم قد سبق لهم أن استلموا مناصب وزارية . وقد عملوا بالاتفاق مع كرنسكي والبرجوازية . إنهم مسئولون عن هجوم ١ تموز ، وعن استمرار الحرب . لقد وعدوا الفلاحين بالأرض ثم اعتقلوا لجان الأرض . لقد أعادوا تسليط عقوبة الإعدام فوق رؤوس الجنود . إنهم يطيعون أوامر الممولين الفرنسيين والانكليز والاميركيين ...

لقد عزل الجنرال دوخونين من منصبه كقائد أعلى للجيش لأنه رفض إطاعة أوامر مجلس مفوضي الشعب ... وقد رد على ذلك بتوزيع مذكرة الملحقين العسكريين للقوى الاستعمارية المتحالفة بين الجنود ، وبمحاولة إثارة ثورة مضادة ...

لا تطيعوا دوخونين ! لا تأبهوا بتحريضه ! راقبوه بحذر والزمرة من الجنرالات المعادين للثورة التي تلتف حوله ...

١٣ – من كريلنكو

الأمر رقم ٢

... يعتبر الجنرال دوخونين ، القائد العام السابق للجيش ، عدواً للشعب لأنه رفض تنفيذ الأوامر ، ولأعماله الإجرامية التي

قد تؤدي الى إشعال حرب أهلية . سوف يقبض على جميع الذين يساعدون دوخونين، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو السياسي أو ماضيهم . سيتولى أناس يتمتعون بصلاحيات خاصة القيام بهذه الاعتقالات . إني أكلف الجنرال مانيخوفسكي بتنفيذ الأوامر المبينة أعلاه . . .

١٢

مؤتمر الفلاحين

كان تشرين الثاني قد بلغ الثامن عشر منه عندما هطل الثلج . استيقظنا في الصباح وحافات النوافذ مغطاة بالأبيض ، ونتف الثلج تزوبع بغزارة بحيث تتعذر الرؤية على بعد أكثر من عشرة أقدام . اختفى الوحل ؛ وفجأة أصبحت المدينة القاتمة بيضاء باهرة . وتحولت العربات الى زلاجات ، تخترق الطرقات بسرعة فائقة وسوّاقها قد تجمّدت لحاهم .. الفرحة تكتسح المدينة مع مجيء الثلج ، رغم الثورة ، ورغم أن روسيا تلقي بنفسها في غد رهيب مجهول . الجميع يبتسم . الناس يركضون في الطرقات ، يرفعون أيديهم للنتف الطريئة المتساقطة ، ضاحكين . اختفت الألوان الرمادية ؛ الحراب والقباب الذهبية والملوّنة وحدها تتلألأ ، ببهائها البربري ، وسط الثلج الأبيض .

حتى الشمس طلعت عند الظهر شاحبة وباهتة اللون . اختفت الرشوحات وآلام العصبي التي كانت سائدة طوال الأشهر الممطرة . طبعت البهجة حياة المدينة ، والثورة نفسها سارت أسرع من السابق ...

جلستُ ذات مساء في حانة لأبناء الطبقات الدنيا تقع قبالة بوابات « سمولني » . كانت واطئة السقف، مرتفعة الضجيج تدعى «حانة العم توم»

يرتادها أفراد الحرس الأحمر بكثرة . وكانوا محتشدين فيها ذلك المساء ، متحلقين حول الطاولات الصغيرة ذات الأغطية الوسخة وأباريق الشاي الكبيرة ، مالئين المكان برائحة الدخان الخانقة بينما يركض الندال في كل الاتجاهات صائحين : « لحظة ! بأمرك ! »

في إحدى الزوايا جلس رجل بزي نقيب يخاطب الجمع الذي كان يقاطعه بعد كل بضعة كلمات . صاح :

« لستم أحسن من الجرمين ! تقتلون إخوانكم الروس في الشوارع ! »

فسأل عامل : « متى فعلنا ذلك ؟ »

« الأحد الماضي .. عندما النيكرز ... »

« ألم يطلقوا هم الرصاص علينا ؟ » قال أحد الرجال وهو يعرض ذراعه في علاقة : « أليس عندي ما أتذكرهم به هؤلاء الشياطين ؟ »

فصاح بصوت مرتفع : « يجب أن تلتزموا الحياد ! يجب أن تلتزموا الحياد ! من أنتم لكي تقضوا على الحكومة الشرعية ؟ من هو لينين ؟ عميل ألماني » .

فجعروا به : « ومن أنت ؟ عدو للثورة ! متآمر ! »

ووقف النقيب لما لم يعد باستطاعته إسماع صوته : « حسناً ؛ إنكم تسمّون أنفسكم شعب روسيا . ولكن لستم أنتم شعب روسيا . الفلاحون هم شعب روسيا . انتظروا حتى يقوم الفلاحون » .

صاحوا : « إي . فلننتظر حتى يتكلم الفلاحون . نعرف ما سيقولون .. أليسوا عمّالاً مثلنا ؟ »

كان كل شيء يعتمد على الفلاحين في نهاية الأمر . كانوا يشكلون أكثر من

ثمانين بالمئة من الشعب الروسي ، ورغم أنهم كانوا متخلفين سياسياً فلا يزالون يتمسكون بأفكارهم الخاصة . كانَ للبلاشفة اتباع قليلون نسبياً بين الفلاحين؛ وقيام دكتاتورية دائمة للعمال الصناعيين في روسيا أمر مستحيل ... الحزب الفلاحي التقليدي هو الحزب الاشتراكي الثوري . ومن بين جميع الأحزاب التي تؤيد الحكومة السوفييتية ، كان الاشتراكيون الثوريون اليساريون الورثة الطبيعيين للقيادة الفلاحية ، والاشتراكيون الثوريون اليساريون ، الواقعون تحت رحمة بروليتاريا المدن المنظمة ، بحاجة ماسّة الى دعم الفلاحين لهم .

في ذلك الاثناء ، لم تهمل « سمولني » الفلاحين . فبعد صدور مرسوم الأرض ، كان من بين أول الأعمال التي قامت بها « التسايكا » الدعوة لمؤتمر للفلاحين من وراء ظهر اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين. وبعد بضعة أيام، صدرت تعليمات مفصّلة للجان الأرض التابعة للبلدة ، عقبتها « تعليمات الى الفلاحين » [1] التي أصدرها لينين والتي تشرح، بلغة بسيطة ، الثورة البلشفية والحكومة الجديدة . وفي ١٦ تشرين الثاني، أصدر لينين وميليوتين « تعليمات الى مبعوثي المناطق » وتولت الحكومة السوفييتية إرسال آلاف النسخ منها الى القرى :

« ١ — عندما يصل المبعوث الى المنطقة المعينة له ، يجب أن يدعو الى اجتماع مشترك للجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين وللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال والجنود . ويقدم تقريراً أمام هذا الاجتماع عن القوانين الزراعية ثم يطلب عقد اجتماع مشترك موسّع لكلا التنظيمين ...

٢ — يجب أن يدرس جوانب القضية الزراعية في المنطقة .

أ — هل تمت مصادرة أراضي الملاك الكبار ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، ففي أي مقاطعات ؟

ب – من يشرف على الأراضي المصادرة : المالك السابق أم لجان الأرض ؟

ج – ماذا حلّ بالآليات الزراعية وبحيوانات المزرعة ؟

٣ – هل ازدادت رقعة الأرض المزروعة ؟

٤ – كيف وبأية كمية تختلف مساحة الأرض المزروعة حالياً عن المساحة التي حددتها الحكومة كحدٍ أدنى ؟

٥ – يجب على المبعوث أن يصرّ ، بعد استلام الفلاحين للأرض ، على ضرورة زيادة مساحة الأرض المزروعة ، وعلى الاسراع في إرسال الحبوب الى المدن لكون ذلك الوسيلة الوحيدة لتفادي المجاعة .

٦ – ما هي الاجراءات المطبقة ، أو المنوي تطبيقها ، لتحويل الأرض من الملاك الكبار الى لجان الأرض والهيئات المماثلة التي يعيّنها السوفييت ؟

٧ – يُفضّل أن تتولى منظمات السوفييت المكونة من المستخدَمين الدائمين إدارة الملكيات الزراعية ، بعد تعيينها وتنظيمها بدقة ، على أن يتمّ ذلك تحت إشراف خبراء زراعيين أكفاء .

موجة من التغيّر تجتاح القرى ساهم في خلقها الأثر الصاعق الذي تركه مرسوم الأرض الى جانب نشاط الألوف من الجنود الفلاحين العائدين من الجبهة بأفكار ثورية ... هؤلاء الرجال هم الذين حيّوا ، بشكل خاص ، انعقاد مؤتمر للفلاحين .

وسارت اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين على خطى « التسايكا » القديمة

بالنسبة للمؤتمر الثاني لسوفييت العمال والجنود، فحاولت أن تحول دون انعقاد مؤتمر الفلاحين الذي دعت إليه « سمولني » . وبعد أن اكتشفت ، مثلما اكتشفت « التسايكا » القديمة ، أن مقاومتها غير مجدية ، أخذت اللجنة التنفيذية ترسل البرقيات الهستيرية التي تأمر فيها بانتخاب مندوبين محافظين . وذهبت الى حد أن تشيع بين الفلاحين أن المؤتمر سينعقد في « موغلييف » فذهب بعض المندوبين الى هناك ؛ ولكن في الثالث والعشرين من تشرين الثاني كان قد اجتمع أربعمائة مندوب في بتروغراد ، وبدأت اجتماعات الأحزاب بالانعقاد ...

عقدت الجلسة الأولى في قاعة الكسندر في بناية الدوما ، وتبيّن من التصويت الأول ان اكثر من نصف المندوبين من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، بينما كان البلاشفة لا يسيطرون على اكثر من الخمس ، والاشتراكيون والثوريون المحافظون على الربع ؛ أما البقية فكانت متحدة فقط في معارضتها للجنة التنفيذية القديمة ، يسيطر عليها أفاكسانتييف وتشايكوفسكي وبيشيخونوف ..

القاعة الكبيرة تغصّ بالناس يهزّها الدوي الدائم ، والمرارة العميقة العنيدة تقسم المندوبين الى مجموعات غاضبة . الى اليمين بعض الضباط والأوجه المهيبة الملتحية للفلاحين المسنين والأكثر أصالة ، وفي الوسط بعض الفلاحين والنقباء والجنود ، والى اليسار معظم المندوبين يرتدون بزّة الجنود العاديين . هؤلاء الأخيرون كانوا الجيل الجديد الذي كان يخدم في الجيش ... كانت الشرفات مكتظة بالعمال ، فالعمال في روسيا ما زالوا يتذكرون أصلهم الفلاحي ..

عند افتتاح الجلسة لم تفعل اللجنة التنفيذية مثل « التسايكا » القديمة ، فلم تعترف بأن المؤتمر رسمي ، وإنما دعت الى انعقاد المؤتمر الرسمي يوم ١٣ كانون الاول . وأعلن رئيس الجلسة ، وسط عاصفة من التصفيق والصيحات

الغاضبة ، أن الاجتماع هو مجرد « ندوة استثنائية » .. ولكن هذه « الندوة الاستثنائية » سرعان ما عبّرت عن رأيها باللجنة التنفيذية بانتخابها ماريا سبيريدونوفا ، قائدة الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، رئيسة للجلسة .

وخصص القسم الأكبر من اليوم الأول لنقاش عنيف دار حول ما إذا كان يجب قبول ممثلي سوفييت الفولوست أو الاكتفاء بمندوبي هيئات المقاطعات . وكما في مؤتمر العمال والجنود ، فقد كانت الغالبية الساحقة تؤيد أوسع تمثيل ممكن . عند ذاك غادرت اللجنة التنفيذية القديمة القاعة ..

وكان واضحاً ، منذ البدء ، أن معظم المندوبين معادون لحكومة مفوضي الشعب . ولما حاول زينوفييف التكلم باسم البلاشفة ، تعالى الزعيق ، فغادر المنبر وسط الضحك وصيحات : « هكذا يقع مفوّض الشعب في بركة وحل ! »

صاح نازارييف ، وهو مندوب عن المقاطعات : « نحن الاشتراكيين الثوريين اليساريين نرفض الاعتراف بما تسمى حكومة العمال والفلاحين الى أن يتمثل الفلاحون بها . ليست ، في الوقت الحاضر ، إلا دكتاتورية العمال.. إننا نصرّ على تشكيل حكومة جديدة تتمثل فيها جميع القوى الديمقراطية ! »

وغذّى المندوبون الرجعيون هذا الشعور بدهاء ، معلنين، وسط صيحات المعارضة المنطلقة من مقاعد البلاشفة ، أن مجلس مفوضي الشعب ينوي أن يسيطر على المؤتمر أو أن يحله بقوة السلاح — فاستقبل الفلاحون هذا الكلام بعاصفة من الغضب ..

وفي اليوم الثالث اعتلى لينين المنبر فجأة . فجنّت القاعة خلال عشرة دقائق . زعقوا : « يسقط ! لن نستمع الى أي من مفوضي الشعب ! لا نعترف بحكومتكم ! »

ووقف لينين بكل هدوء ممسكاً بطرفي المنبر، وعيناه الصغيرتان تراقبان، وهو يفكر ، الجلبة تحته. وأخيراً هدأت التظاهرة بعض الشيء ، عدا الجبهة اليمنى من القاعة .

« لم أجيء الى هنا كعضو في مجلس « مفوضي الشعب » ، قال لينين ، وانتظر مجدداً حتى تهدأ الضجة، « ولكن كعضو في الجناح البلشفي انتُخِب الى هذا المؤتمر . » ورفع أوراق اعتماده لكي يتسنى للجميع رؤيتها .

ثم أردف بصوت ثابت : « ولكن لا أحد ينكر أن الحزب البلشفي قد شكّل حكومة روسيا الحالية » ، واضطر الى الانتظار لحظة ، « فالأمر سيّان إذن ... » هنا انفجرت جلبة مدوية من مقاعد اليمين إلا أن اليسار والوسط كانا متلهفين ، ففرضا الصمت .

كانت حجّة لينين بسيطة : « قولوا لي بصراحة ، يا فلاحون ، يا من أعطيناكم أراضي الملاك الكبار ، هل تريدون حرمان العمال من السيطرة على الصناعة ؟ هذه حرب طبقية . ملاك الأرض يقفون ضد الفلاحين ، والصناعيون ضد العمال ، هذا طبيعي . ستسمحون بشق صفوف البروليتاريا ؟ الى أي جهة ستقفون ؟

« نحن البلاشفة حزب البروليتاريا — البروليتاريا الفلاحية والبروليتاريا الصناعية على حد سواء . نحن البلاشفة حماة السوفييت — سوفييت الفلاحين وسوفييت العمال والجنود على حد سواء . الحكومة الحالية هي حكومة سوفييت ؛ لم ندع سوفييت الفلاحين الى الاشتراك في هذه الحكومة فحسب، وإنما دعونا ممثلين عن الاشتراكيين الثوريين اليساريين الى دخول مجلس مفوّضي الشعب كذلك ...

« السوفييت هي أحسن من يمثل الشعب — العمال في المصانع والمناجم والعمال في الحقول . إن كل من يحاول تحطيم السوفييت يرتكب عملاً معادياً

للديمقراطية وللثورة . وإني أشير بهذا إليكم ، أيهـا الرفاق الاشتراكيون الثوريون اليمينيون – وإليكم أيها السادة الكاديت ؛ إذا حاولت الجمعية التأسيسية تحطيم السوفييت فنحن سنمنعها من ذلك ! »

بعد ظهر يوم ٢٥ تشرين الثاني وصل تشيرنوف مسرعاً من موغلييف ، بعد أن استدعته اللجنة التنفيذية . منذ شهرين فقط كان ثورياً متطرفاً يحبه الفلاحون كثيراً ، وها هو قد استدعي الآن ليضع حداً لانحراف المؤتمر الخطير نحو اليسار . اعتقل تشيرنوف عند وصوله وأخذ الى « سمولني » حيث أطلق سراحه بعد محادثة قصيرة .

كان أول شيء قام به هو أن أنّب بعنف اللجنة التنفيذية لمغادرتها الاجتماع . فوافقت هذه على العودة ، فدخل تشيرنوف القاعة يستقبله تصفيق حاد من الغالبية والزعيق والعياط من البلاشفة .

« رفاق ! كنتُ خارج العاصمة . اشتركت في ندوة الجيش الثاني عشر حول مسألة دعوة موتمر لجميع مندوبي الفلاحين في جيوش الجبهة الغربية ، واني أعرف القليل عن الثورة التي حدثت هنا » .

هبّ زينوفييف صارخاً : « إي . كنت في الخارج – لبضع دقائق ! » جلبة رهيبة . صيحات : « يسقط البلاشفة ! »

واستمر تشيرنوف : « إن التهمة القائلة أني ساعدت في قيادة زحف الجيش على بتروغراد لا أساس لها من الصحة وهي خاطئة تماماً . من أين جاءت هذه التهمة ؟ أرني المصدر ! »

زينوفييف : « من إزفستيا ومن صحيفتك ديلو نارودا – من هناك جاءت ! »

وجه تشيرنوف العريض ذو العينين الصغيرتين والشعر المتاوج واللحية

الشائبة ! يحمرّ ويحتقن غضباً ؛ ولكنه سيطر على نفسه وتابع كلامه : « إني أكرر ، أنا لا أكاد أعرف شيئاً عما جرى هنا ، وإني لم أقُدْ جيشاً إلا هذا الجيش (وأشار الى مندوبي الفلاحين) ، الذين يعود لي القسم الأكبر من الفضل في كونه هنا ! ضحك وصيحات : « برافو ! »

« زرتُ سمولني عند عودتي . ولم توجّه إليّ مثل هـذه التهمة هناك ... غادرتُ المكان بعد محادثة قصيرة ، هذا كل ما في الأمر ! إني أتحدى أياً من الحاضرين أن يوجّه إليّ مثل هذه التهمة ! »

وعقب ذلك جلبة ، فقـد انتصب البلاشفة وبعض الاشتراكيين الثوريين اليساريين معـاً مهددين بقبضاتهم صارخين ، وسائر الحضور يحاول إغراق صراخهم بصراخ أعلى .

« هذه زريبة حيوانات وليست جلسة ! » صاح تشيرنوف وغادر القاعة. ورفعت الجلسة بسبب الضجيج والفوضى ...

في تلك الاثنـاء كان موضوع صلاحيات اللجنة التنفيذية يشغل جميع الأذهان . كانت الغاية من إعلان الاجتماع مجرد « ندوة استثنائية » الحيلولة دون انتخاب اللجنـة التنفيذية . إلا أن هـذا كان سيفاً ذا حدّين : قرّر الاشتراكيون الثوريون اليساريون أنـه إذا لم يكن للمؤتمر سلطة على اللجنـة التنفيذية ، اذن لا سلطة للجنة التنفيذية على المؤتمـر . في ٢٥ تشرين الثاني ، قرر الاجتماع أن تتولى « الندوة الاستثنائية » سلطات اللجنة التنفيذية ، ولا يسمح بالتصويت إلا لأعضاء اللجنة التنفيذية الذين انتخبوا كمندوبين .

وفي اليوم التالي ، ورغم معارضة البلاشفة العنيفة ، عُـدّل القرار بحيث سمح لجميع أعضاء اللجنة التنفيذية ، أكانوا مندوبين منتخبين أم لا ، بالكلام والتصويت في الاجتماع .

وفي السابع والعشرين منـه جرت مناقشة المسألة الزراعية التي كشفت الاختلافات بـين برنامج البلاشفة الزراعي وبرنامج الاشتراكيين الثوريين اليساريين .

كولشينسكي ، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، يرسم تاريـخ المسألة الزراعية . قال إن أول مؤتمر لسوفييت الفلاّحين قد صوّت على قرار محدّد حاسم يؤيد وضع الأراضي بين أيدي لجان الأرض . إلا أن قـادة الثورة والبرجوازيين في الحكومة أصرّوا أنه لا يمكن حلّ المسألة إلا عندما تنعقد الجمعية التأسيسية .. وبدأت المرحلة الثانية من الثورة، مرحلة « المساومة »، مع دخول تشيرنوف الى الوزارة . كان الفلاّحون مقتنعين بـأن الحل العملي للمسألة الزراعية سيبدأ الآن ، إلا أن الرجعيين والمساومين في اللجنة التنفيذية حالوا دون القيام بـأي عمل ، وذلك بالرغم من القرار الواضح الصادر عـن مؤتمـر الفلاحين الأول . فأثارت هـذه السياسة سلسلة من الاضطرابات في المناطق الزراعية ، بـدت كتعبير طبيعي عن نفـاذ صبر الفلاحين وطاقاتهم الملجومة . لقد فهم الفلاحون المعنى الحقيقي للثورة – حاولوا تحويل الأقوال الى أعمال ...

« إن الأحداث الأخيرة لا تشير الى عملية شغب بسيطة ولا الى « مغامرة بلشفية » ، بل على العكس ، إنها انتفاضة شعبية حقيقية يعطف عليها البلد بأسره ...

« لقد اتخذ البلاشفة ، بشكل عام ، الموقف الصحيح تجاه مسألة الأرض؛ ولكنهم ارتكبوا خطـأ فادحاً عندما دعوا الفلاحين الى مصادرة الأرض بالقوة .. منذ الأيام الاولى، أعلن البلاشفة أنه يجب على الفلاحين أن يصادروا الأراضي بواسطة « العمل الجماهيري الثوري » . وهذا ليس إلا فوضى ؛ يمكن مصادرة الأراضي بطريقة منظمة ... مـا يهمّ البلاشفة هو أن تُحلّ مشاكل الثورة بأسرع طريقة ممكنة– ولكنهم لا يهتمّون بكيفية حل هذه المشاكل.

« إن مرسوم الأرض الصادر عن مؤتمر السوفييت مطابق ، في روحه ، لمقررات مؤتمر الفلاحين الأول . لماذا إذن لا تتّبع الحكومة الجديدة الخطط التكتيكية التي حدّدها ذلك المؤتمر؟ لأن مجلس مفوضي الشعب أراد التعجيل في حلّ مسألة الأرض ، بحيث لا يبقى للجمعية التأسيسية أي شيء تقوم به.

« إلا أن الحكومة ارتأت أنه من الضروري أن تتبنّى إجراءات عملية ، فتبنّت ، بدون دراسة كافية، قوانين لجان الأرض خالقة بذلك وضعاً شاذاً. كان مجلس مفوّضي الشعب قد ألغى الملكية الفردية في الأرض ، ولكن القوانين التي سنّتها لجان الأرض كانت مبنيّة على الملكية الخاصة ... ولكن لم ينجم أي ضرر عن ذلك ، لأن لجان الأرض لا تأبه بمراسيم السوفييت ، وانما تطبّق قراراتها العملية — هذه القرارات المعتمدة على إرادة غالبية الفلاحين الساحقة ...

« إن لجان الأرض هذه لا تعتمد الحلّ التشريعي لمسألة الأرض ، لأن هذا من اختصاص الجمعية التأسيسية وحدها ... ولكن هل سترغب الجمعية التأسيسية في تنفيذ إرادة الفلاحين الروس ؟ هذا ما لا يمكن أن نكون واثقين منه ... كل ما نحن واثقون منه هو أن تصميم الفلاحين الثوري قد أثير ، وإن الجمعية التأسيسية سوف تجبر على حلّ مسألة الأرض حسبما يريد الفلاحون ... ان الجمعية التأسيسية لن تجرأ على معاندة ارادة الشعب ... »

وتبعه لينين ، فاستمعوا اليه آنذاك باهتمام بالغ : في هذه اللحظة لا نحاول حلّ مشكلة الأرض فقط ولكن مسألة الثورة الاجتماعية ليس في روسيا وحسب وإنما في العالم أجمع . لا يمكن حلّ مشكلة الأرض بمعزل عن المشاكل الأخرى للثورة الاجتماعية ... إن مصادرة أراضي الملاّك ، مثلاً ، لن تثير مقاومة ملاّك الأرض الروس وحسب وإنما رأس المال الأجنبي أيضاً الذي يرتبط ملاّك الأراضي الكبار به بواسطة المصارف ...

« إن ملكية الأرض في روسيا هو أساس أشنع عمليـــة اضطهاد ، ومصادرة الفلاحين للأراضي أهم خطوة في ثورتنا . ولكن لا يمكن عزلها عن الخطوات الأخرى ، وهو ما تؤكده بوضوح المراحل التي اضطرت ثورتنا الى المرور بهـــا . كانت المرحلة الأولى هي مرحلة سحق الحكم الفردي وسلطة الرأسماليين الصناعيين وملاّك الأراضي ذوي المصالح الوثيقة الارتباط بـه . وكانت المرحلة الثانية هي مرحلة تدعيم السوفييت والمساومة السياسية مــع البرجوازية . إن خطأ الاشتراكيين الثوريين اليساريين يكمن في أنهـم لم يعارضوا سياسة المساومة ، في ذلـك الوقت ، لأنهم كانوا يتمسكون بنظرية تقول أن وعي الجماهير لم يتبلور بما فيه الكفاية بعد ...

« اذا كان يمكن تحقيق الاشتراكية فقط عندما يسمح بذلك تطوّر الشعب الفكري ، فإننا لن نرى الاشتراكية الا بعـــد خمسمائة سنة على الأقل ... الحزب السياسي الاشتراكي – هذا هو طليعة الطبقة العاملة ؛ ولا يجب أن يسمح لفقدان التعلم عند الجماهير أن يوقف مسيرته ، بـــل يجب أن يقود الجماهـير مستعملاً لذلك السوفييت كأجهزة للمبادرة الثورية ... ولكن لكي تتمكن من قيادة المترددين ، يجب على الرفاق الاشتراكيين الثوريين اليساريين أن يتجاوزوا ترددهم ...

« في تموز الماضي حدثت سلسلة من الخلافات بـــين الجماهير الشعبية « والمساومين » ؛ أمـــا الآن ، في تشرين الثاني ، فالاشتراكيون الثوريون اليساريون ما زالوا يمدون يدهم لافاكسانتيف الذي يجرّ الشعب بخنصره ... إذا استمرت المساومة اختفت الثورة . لا مساومة ممكنة مـع البرجوازية ؛ يجب سحق قوّتها سحقاً كاملاً ...

« نحن البلاشفة لم نغيّر برنامجنا بالنسبة للأرض ، لم نتخلّ عن إلغـــاء الملكية الخاصة في الأرض، ولا ننوي ذلك. لقـــد تبنينا قوانين لجان الأرض

والتي لا تقوم على الملكية الخاصة أبداً — لأننا نريد تنفيذ الإرادة الشعبية بالطريقة التي قرّرها الشعب نفسه ، بغية تمتين تحالف جميع العناصر المناضلة من أجل الثورة الاجتماعية .

« إننا ندعو الاشتراكيين الثوريين اليساريين الى الانضمام الى هذا التحالف مصرين ، مع ذلك ، على أن يقطعوا عن الالتفاف الى خلف ، وأن ينفصلوا عن « المساومين » في حزبه ...

« أما فيما يتعلق بالجمعية التأسيسية ، فصحيح ما قاله الخطيب السابق من أن عمل الجمعية التأسيسية يعتمد على تصميم الجماهير الثوري . إني أقول اعتمدوا على هذا التصميم الثوري ولكن لا تنسوا مسدساتكم ! »

ثم تلا لينين مشروع القرار البلشفي :

« إن مؤتمر الفلاحين ، إذ يعلن دعمه الكامل لمرسوم الأرض الصادر في ٨ تشرين الثاني ... يوافق على الحكومة المؤقتة للعمال والفلاحين في الجمهورية الروسية التي شكّلها المؤتمر العام الثاني لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين ...

إن مؤتمر الفلاحين ... يدعو جميع الفلاحين بدون استثناء لتأييد هذا القانون ، ولتولّي تطبيقه بأنفسهم فوراً ؛ وهو يدعو الفلاحين ، في الوقت ذاته ، أن يعيّنوا في المراكز والمناصب المسؤولة فقط أولئك الذين أثبتوا ، بالأعمال وليس بالأقوال ، اخلاصهم التام لمصالح العمال والفلاحين المستغَلين ، وعلى رغبتهم ومقدرتهم على الدفاع عن هذه المصالح بوجه أي مقاومة تصدر عن ملاك الأرض الكبار والرأسماليين وأنصارهم وشركائهم.

وفي الوقت ذاته ، يعبر مؤتمر الفلاحين عن اقتناعه بأن

التحقيق الكامل لجميع الاجراءات التي يتكوّن منها مرسوم الأرض لا يمكن أن ينجح إلا من خلال انتصار ثورة العمال الاجتماعية التي بدأت يوم السابع من تشرين الثاني ١٩١٧ ، لأن الثورة الاجتماعية هي وحدها التي تضمن انتقال الأرض للفلاحين الكادحين ، بدون إمكان انتزاعها منهم ، ومصادرة المزارع الأنموذجية ووضعها بيد الجماعيات الفلاحية ، ومصادرة الآليات الزراعية التي كانت ملكاً لملاك الأرض الكبار ، وحماية مصالح العمال الزراعيين بواسطة إلغاء عبودية الأجور إلغاء تاماً ، والتوزيع المنهجي المنتظم لمنتوجات الزراعة والصناعة على جميع مناطق روسيا ، ومصادرة المصارف (التي لا يمكن أن يتم امتلاك الشعب كله للأرض بدونها بعد إلغاء الملكية الخاصة) ؛ وجميع أنواع المساعدة التي تقدمها الدولة للعمال ..

لهذه الأسباب يمحض مؤتمر الفلاحين ثورة السابع من تشرين الأول دعمه الكامل ... لكونهـا ثورة اجتماعية ، ويعبّر عن إرادته الحازمة في الشروع بالتحويل الاجتماعي للجمهورية الروسية بدون أي تردّد وبعد إجراء التعديلات اللازمة ..

إن الشروط التي لا غنى عنها لانتصار الثورة الاجتماعية ، الكفيلة وحدها بضمان دوام النجاح والتنفيذ الكامل لمرسوم الأرض ، هو الاتحاد الوثيق بين الفلاحين الكادحين والطبقة العاملة الصناعية وبروليتاريا جميع البلدان المتقدمة . من الآن فصاعداً يجب على إدارة الدولة وتنظيمها من فوق الى تحت ، في الجمهورية الروسية ، أن تعتمد على هذا الاتحاد . فإن هذا الاتحاد هو وحده الكفيل بانتصار الاشتراكية في العالم كله بسحقه جميع المحاولات المباشرة أو غير المباشرة ، الظاهرة أو الخفية ، للعودة

الى سياسة المساومة مع البرجوازية – سياسة المساومة مع قادة السياسة البرجوازية التي لعنتها التجربة ..

لم يعد يجرأ الرجعيون في اللجنة التنفيذية على الظهور علناً . ومع ذلك فقد تكلم تشيرنوف أكثر من مرة بحياد متواضع جذّاب . دُعي الى الجلوس على المنصة ... في الليلة الثانية لانعقاد المؤتمر ورد الى الرئاسة اقتراح من مجهول يطالب بجعل تشيرنوف رئيساً فخرياً . قرأ يوستينوف الاقتراح بصوت عالٍ فانتصب زينوفييف فجأة زاعقاً إن هذه مؤامرة من اللجنة التنفيذية القديمة للسيطرة على الاجتماع ، وبلحظة تحوّلت القاعة الى كتلة صائحة من الأذرع الملوّحة والأوجه الغاضبة في كلا الجانبين ... ومع ذلك فقد ظل تشيرنوف شعبياً جداً ...

خلال النقاشات العاصفة حول مسألة الأرض واقتراح لينين ، أشرف البلاشفة على مغادرة القاعة مرتين ، وفي كلا المرتين كان قادتهم يردعونهم عن ذلك .... وبدا لي كأن المؤتمر قد وصل الى طريق مسدود لا مخرج له .

ولكن لم يكن أحد منا يعلم أن سلسلة من الندوات السرية تُعقد بين الاشتراكيين الثوريين اليساريين والبلاشفة في « سمولني » . في البدء طالب الاشتراكيون الثوريون اليساريون بحكومة تضمّ جميع الأحزاب البلشفية داخل السوفييت وخارجها تكون مسؤولة أمام مجلس الشعب المكوّن من عدد متساوٍ من المندوبين الذين يمثلون منظمات العمال والجنود ، ومنظمات الفلاحين يضاف إليهم ممثلو الزيمستوفا ومجالس دوما المدينة ، يُقصى لينين وتروتسكي ، وتُحلّ اللجنة العسكرية الثورية وأجهزة القمع الأخرى .

وتوصل الطرفان الى اتفاق في صباح الاربعاء في ٢٨ تشرين الثاني بعد نزاع رهيب طوال الليل . أُضيف الى « التسايكا » المكونة من مئة وثمانية

أعضاء ؛ نفس العدد يجري انتخابهم من مؤتمر الفلاحين، ومائة مندوب ينتخبون مباشرة من الجيش والأسطول ، وخمسون عضواً يمثلون النقابات (٣٥ عن الاتحادات العامة ، ١٠ عن عمال سكك الحديد ، و ٥ عن عمال البريد والبرق) . أسقطت مجالس الدوما والزيمستوفا . وبقي لينين وتروتسكي في الحكومة واستمرت اللجنة العسكرية الثورية في عملها .

تعقد جلسات المؤتمر الآن في بناية كلية الحقوق الامبراطورية ، ٦ شارع فونتانكا ، مقر سوفييت الفلاحين . وهناك تجمع المندوبون بعد ظهر يوم الأربعاء في قاعة الاجتماعات الكبيرة . كانت اللجنة التنفيذية القديمة قد انسحبت وعقدت اجتماعاً طارئاً خاصاً بها في غرفة أخرى من البناية نفسها حضره المندوبون المنشقون وممثلو لجان الجيش .

تشيرنوف ينتقل من اجتماع لآخر ، مراقباً الاجراءات بدقة ، كان يعلم ان الاتفاق مع البلاشفة قيد البحث ، ولكنه لم يكن يعلم أنه قد تم فعلاً .

خاطب الاجتماع الطارىء قائلاً : « الآن ، وقد أصبح الجميع يؤيد تشكيل حكومة تضم جميع الاشتراكيين ، ينسى الكثير من الناس الوزارة الأولى ، التي لم تكن وزارة ائتلافية والتي لم يكن فيها إلا اشتراكي واحد — كرنسكي ، وزارة كانت تتمتع بشعبية عظيمة في أيامها . الآن يتهم الناس كرنسكي ولكنهم ينسون أن الذي أوصله الى الحكم لم يكن السوفييت وحدها وإنما الجماهير الشعبية أيضاً ..

« لماذا تغيرت نظرة الرأي العام الى كرنسكي ؟ المتوحشون ينصبون الآلهة ويصلّون لها ولكنهم يعاقبونها إذا لم تلبّي إحدى صلواتهم ... هذا ما يجري الآن ... بالأمس كرنسكي ، واليوم لينين وتروتسكي ، وغداً يأتي غيرهم . .

« لقد اقترحنـــا على كرنسكي والبلاشفة أن ينسحبا من الحكم . قبـل كرنسكي ، وأعلن اليوم من مخبئه أنه قد استقال من منصبه كرئيس وزراء ، ولكن البلاشفة يريدون البقاء في الحكم ومع ذلـــك فإنهم لا يعرفون كيف يحكمون ...

« إن مصير روسيا لن يتغير أنجح البلاشفـة أم أخفقوا ، القرى الروسية تعرف بالضبط ماذا تريد وهي تنفذ إجراءاتها الآن .. القرى هي التي ستنقذنا في النهاية .. »

في تلك الأثناء كان يوستنيوف قد أعلن ، في القاعة الكبيرة ، الاتفـاق المعقود بين مؤتمر السوفييت و « سمولني » ، فاستقبله المندوبون بفرح عظيم . فجأة ظهر تشيرنوف وطلب الكلام :

« سمعت أن اتفاقاً قد عقد بين مؤتمر السوفييت وسمولني . هذا الاتفـاق غير شرعي نظراً لأن مؤتمر الفلاحـــين الحقيقي لن يجتمع إلا في الأسبوع القادم ...

« وما هو أكثر من ذلك ؛ فإني أريـد أن أحذركم الآن بأن البلاشفة لن يقبلوا شروطكم بأي حال من الأحوال ... »

قاطعته عاصفة من الضحك ، ولما أدرك سخافة وضعـــه نزل عن المنبر وغادر الغرفة حاملاً معه بقايا شعبيته ...

عشيّة الخميس في ١٦ تشرين الثـــاني اجتمع المؤتمر في جلسة استثنائية ، الجو جوّ أعياد ، والبسمات تعلو جميع الوجوه ... أنهى بسرعة ما تبقى من عمل أمام المؤتمر ، ثم قام ناثانسون العجوز ، شيخ الجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين ذو اللحيـة البيضاء ، وقرأ التقرير عن « زواج » سوفييت الفلاحين مع سوفييت العمال والجنود بصوت متقطع وعينين دامعتين. كل مرة ترد فيها كلمة « وحدة » يتعالى تصفيق منتشٍ ... وفي النهـاية أعلن يوستنيوف عن

وصول وفد من « سمولني » يرافقـــه ممثلون عن الجيش الأحمر ، فاستقبلوا بعاصفة من الهتاف. وتعاقب على المنبر عامل وجندي وبحار وحيوا الاجتماع .

ثم جـاء بوريس راينشتين ، مندوب حزب العمال الاشتراكي الأميركي : « إن يوم الوحدة بين مؤتمر الفلاحين وسوفييت مندوبي العمال والجنود لهو يوم من أعظم أيام الثورة . إن العـــالم كله سيردّد صداه ، في باريس ، في لندن ، وفي نيويورك عبر المحيط . إن هـذه الوحـــدة ستملأ قلوب جميع الكادحين بالسعادة .

» لقد انتصرت فكرة عظيمة . كان الغرب وأميركا يتوقعان من روسيا، من البروليتاريا الروسية أعمالاً جبارة..إن البروليتاريا في العالم تنتظر الثورة الروسية ، تنتظر المنجزات العظيمة التي تحققها ... »

وحيّاهم سفيردلوف، رئيس « التسايكا ». ومع صيحة « تعيش نهاية الحرب الأهلية ! تعيش الديمقراطية الموحدة ! »، تدفق الفلاحون خارج البناية .

كان المساء قد حل ، وعلى الثلج المغطى بقشرة من جليد يتلألأ نور القمر والنجوم الشاحب . على ضفـاف القنـــال اصطف جنود فوج بافلوفسكي مع جوقتهم التي أخذت تعزف « المارسلييز » واصطف الفلاحون بدروهم ، وسط صراخ الجنود ، ورفعوا علم اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين لعموم روسيا، وكان هـذا العلم الأحمر الكبير قد كُتب عليه حديثـــاً بالذهب : « عاشت وحدة الجمـاهير الثورية الكادحة ! » ثم توالت أعلام أخرى : من سوفييت المناطق من مصنع بوتيلوف تقول : « إننـا ننحني لهـذا العلم لنحقق أخوّة جميع الشعوب ! »

وظهرت المشاعل من مكان ما ، ضوء برتقالي يشع في الليل وينعكس على الجليد، يتصاعد دخانه فوق الجمع السائر على ضفاف الفونتانيكا وهو ينشد ، وسط جموع مباغتة صامتة :

« عاش الجيش الثوري ! عاش الحرس الأحمر ! عاش الفلاحون ! »

هكذا سار الموكب متعرّجاً وسط المدينة ، يزداد عدداً ويرفع أعلاماً حمراء جديدة كُتب عليها بالذهب . فلاحان عجوزان ، أحنى ظهريهما الكدح ، يسيران يداً بيد ووجهاهما يضيئان بحبور طفولي .

قال أحدهما : « أريد أن أراهم يحاولون انتزاع الأرض منا الآن ! »

عند « سمولني » اصطف الحرس الأحمر على جانبي الطريق وقد امتلكتهم فرح عظيم . قال الفلاح العجوز الثاني : « لست تعباً . كنتُ أطير طول الطريق ! »

عند درج « سمولني » تجمّع حوالي مئة من مندوبي العمال والجنود حاملين علمهم وقد بدوا ككتلة دكناء قبالة شعلة النور المتسلّلة بين القناطر . واندفعوا كموجة يعانقون الفلاحين ويقبّلونهم ؛ وتدفّق الموكب من البوابة الكبيرة وصعد الدرج بصوت كالرعد ...

كانت « التسايكا » تنتظرهم في قاعة الاجتماعات البيضاء الشاسعة ومعها كل سوفييت بتروغراد وألف من المشاهدين ، بتلك الجدية التي ترافق اللحظات الواعية العظيمة في التاريخ .

أعلن زينوفييف الاتفاق المعقود مع مؤتمر الفلاحين ، فتعالى صخب مدوٍ ارتفع وتحوّل الى عاصفة راعدة عندما صدح صوت الموسيقى في المبنى وأطلت مقدمة الموكب . وقف أعضاء مجلس الرئاسة على المنصّة وأفسحوا مكاناً لمجلس رئاسة الفلاحين وهم يتعانقون ؛ وقد تشابك وراءهم العلمان على الجدار الأبيض فوق إطار فارغ انتزعت منه صورة القيصر ...

ثم افتتحت « الجلسة المظفّرة » . بعد بضع كلمات ترحيب من سفيردلوف ، اعتلت ماريا سبيريدونوفا المنبر ، نحيلة ، شاحبة تبدو كمعلمة ـ تلك هي أحبّ امرأة الى قلوب الروس وأقوى امرأة في كل روسيا .

« ... الآن تنفتح أمام عمّال روسيا آفاق لم يعرفها التاريخ من قبل . إلا أن الحركة الحالية حركة أممية ، ولهذا السبب فهي لا تقهر . لا يوجد قوّة في العالم تستطيع أن تخمد نار الثورة ! العالم القديم ينهار ، العالم الجديد يبدأ ... »

ثم جاء دور تروتسكي ، تروتسكي المحشو ناراً : « مرحباً بكم أيها الرفاق الفلاّحون ! لقد جئتم الى هنا ليس كضيوف وإنما كسادة هذا البيت الذي يحوي قلب الثورة الروسية . إن إرادة ملايين الكادحين قد تجمّعت الآن في هذه القاعة ... الآن يوجد سيّد واحد للأرض الروسية ، إنه اتحاد العمال والجنود والفلاّحين ... »

ثم شرع يتكلم، بسخرية لاذعة ، عن دبلوماسيي بلدان الحلفاء التي كانت ، حتى ذلك الوقت ، تزدري دعوة روسيا الى الهدنة التي وافقت عليها القوى المركزية .

« ستولد إنسانية جديدة من هذه الحرب ... في هذه القاعة نتعهد أمام شغّيلة العالم كلّه بأن نلازم مواقعنا الثورية . إذا هزمنا فلن يكون ذلك إلا دفاعاً عن علمنا ... »

وعقبه كريلنكو شارحاً الوضع علىالجبهة حيث كان دوخونين يجهّز عملية مقاومة مجلس مفوّضي الشعب . « ليعلم دوخونين والذين معه أننا لن نعامل برفق أولئك الذين يسدّون طريق السلام ! »

حيّا ديبنكو الجمع باسم الأسطول؛ قال كروشنكي، عضو « الفيكجل » : « ابتداءً من هذه اللحظة التي تحققت فيها وحدة جميع الاشتراكيين الحقيقيين، كل جيش عمال سكك الحديد يضع نفسه تحت تصرّف الديمقراطية الثورية ! ». ثم جاء لوناتشارسكي ، وكان مشرفاً على البكاء ، وبروشيان ، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، وأخيراً ساماراشفيلي ، باسم الاشتراكيين — الديمقراطيين

الأمميين المتحدين الذين يضمّون جماعة مارتوف وجماعة غوركي ؛ فأعلن :

« غادرنا « التسايكا » بسبب رفض البلاشفة المساومة ، ولإجبارهم على التنازل لكي تتحقق وحدة جميع قوى الديمقراطية الثورية . الآن وقد تحققت هذه الوحدة ، نعتبر أن أقدس واجب علينا هو أن نعود الى احتلال مقاعدنا في « التسايكا » ... نعلن أن جميع الذين انسحبوا من « التسايكا » يجب أن يعودوا الآن . »

ستاشخوف ، فلاح عجوز وقور من مجلس رئاسة مؤتمر الفلاحين ، ينحني أمام زوايا القاعة الأربع : « احييكم بعمادة حياة وحرية جديدتين في روسيا! »

غرونسكي ، باسم الاشتراكيين الثوريين البولونيين ؛ سكريبنيك ، باسم لجان المصنع والمتجر ؛ تيفونوف ، باسم الجنود الروس في سالونيكا ؛ وآخرون وآخرون الى ما لا نهاية يفرغون ما في قلوبهم بتلك البلاغة السعيدة التي تولد عن آمال تحققت ...

في أواخر الليل قدّم مشروع القرار التالي ، فأقرّ بالاجماع :

« إن التسايكا » المتحدة في جلسة استثنائية مع سوفييت بتروغراد ومؤتمر الفلاحين ، تصادق على مرسومي الارض والسلام الذين أقرهما المؤتمر الثاني لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين ، وتصادق كذلك على مرسوم السيطرة العمالية الذي أقرته التسايكا .

« إن الاجتماع المشترك للتسايكا ولمؤتمر الفلاحين يعبّر عن إيمانه الراسخ بأن وحدة العمال والجنود والفلاحين ، هذه الوحدة الأخوية التي تربط جميع الكادحين وجميع المستغَلّين، سوف تدعم السلطة التي استولوا عليها ، وتتخذ كل الاجراءات الثورية اللازمة للتعجيل بانتقال السلطة الى يد العمال في البلدان الأخرى ، فتضمن بذلك التحقيق الكامل للسلم وانتصار الاشتراكية » [١٢] .

هوامش

(الفصل الثاني عشر)

١ – الى الفلاحين

ردا على عـدة استفسارات وردت إلينا من الفلاحين ، نريد أن نفسّر إن كل السلطة في البلد هي ، من الآن فصاعداً ، بيد سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين . إن الثورة العمالية آخذة بالانتصار الآن في جميع أنحاء روسيا بعد انتصارها في بتروغراد وموسكو . إن حكومة العمال والفلاحين تحمي مصالح جماهير الفلاحين الفقراء ، وهي تقف الى جانب غالبية الفلاحين والعمال ضد ملاك الارض وضد الرأسماليين .

وهكذا ، فإن سوفييت مندوبي الفلاحين ، وبخاصة سوفييت المنـاطق وبالتالي سوفييت المحافظات هي هيئات تمثل سلطة الدولة في مجال عملهـا وتتمتع بكافة الصلاحيات ، وهذا الأمر ، يصبح ساري المفعول من الآن الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية . لقد ألغى المؤتمر العام الثاني للسوفييت جميع سندات تملك الأرض التي في حوزة ملاك الأرض الكبار . وقد صدر مرسوم متعلق بالأرض عن الحكومة المؤقتة الحالية للعمال والفلاحين . وينص هـذا

المرسوم بأن تنتقل الأراضي التي كانت بحوزة الملاك حتى الآن الى أيـــدي سوفييت مندوبي الفلاحين . إن لجـــان الأرض التابعة لكل « فولوست » (الفولوست هو مجموعة من القرى) مدعوة الى مصادرة أراضي الملاك الكبار فوراً ، وأن تحصيها بدقـــة ، وتحافظ على الأمن ، وأن تحمي الأرض نظراً لأن جميع الملكيات الخاصة قد أصبحت ، من الآن فصاعداً ، ملكية عامة ولذا يجب على الشعب نفسه أن يحميها .

إن جميع الأوامر التي تصدر عن لجان الأرض في « الفولوست » تنفيذاً للمرسوم الذي صدر عن السلطـــة الثورية والتي يتبناهـــا سوفييت مندوبي الفلاحين في المناطق ، هي شرعيـــة ويجب الشروع في تنفيذهـــا حالاً وبدون تلكؤ .

إن حكومة العمال والفلاحين التي عينها المؤتمر العام الثاني للسوفييت يطلق عليها اسم مجلس مفوّضي الشعب .

إن مجلس مفوضي الشعب يدعو الفلاحين الى استلام السلطة في كل منطقة.

إن العمال سيعملون على دعم الفلاحين دعماً كاملاً غير مشروط ، ويوفرون لهم جميع مـــا يحتاجونه من آلات وأدوات ؛ وهم يطلبون من الفلاحين أن يساعدوهم ، في المقابل ، على نقل الحبوب .

رئيس مجلس مفوضي الشعب
ف . أوليانوف (لينين)
بتروغراد في ١٨ تشرين الثاني ، ١٩١٧

---

٢ – اجتمع مؤتمر سوفييت الفلاحين ، الذي يتمتّع بالسلطات كافـــة ، بعـــد أسبوع من تاريخه وظلّ منعقداً طوال أسابيع . وقصته ما هي إلا نسخة موسّعة عن قصة « الندوة الاستثنائية » . كانت غالبية المندوبين معادية

للحكومة السوفييتية في البدء ، ودعمت الجناح الرجعي . ولكن بعد مضي بضعة أيام دعمت الجمعية الجناح المعتدل الذي يمثله تشيرنوف. وبعد ذلك بأيام، كانت غالبية المؤتمر تصوّت مع جناح ماريا سبيريدونوفا ، وأرسلت ممثلين عنها الى سمولني ... آنذاك انسحب الجناح اليميني من المؤتمر ودعا الى مؤتمر خاص به ظل يتناقص عددياً يوماً بعد يوم الى أن حُلّ في النهاية ...

تصحيح

ورد في هامش صفحة ١٢٧ : « أن المخطط الرئيسي لستراتيجية الثورة هو تروتسكي ... » وذلك في معرض تصحيح قول ريد الذي يعتبر بودفويسكي واضع ستراتيجية الثورة. والواقع أني انسقت مع ريد في استعماله غير الدقيق، وغير الماركسي ، لكلمة « ستراتيجية » بمعنى خطة الاستيلاء على السلطة . فالأصح أن نقول إذن إن تروتسكي هو المخطط الرئيسي لتكتيك الانتفاضة البلشفية ، أي للخطة التي اعتمدت للاستيلاء على السلطة في ٧ تشرين الثاني ، ١٩١٧ . وبديهي أن واضع ستراتيجية الثورة هو لينين : إمكان ربط الثورة بإنهاء الحرب ؛ الاستفادة من الحرب وتصارع القوى الكبرى الذي يحول دون تحالفها للقضاء على الثورة ؛ إمكان مواصلة حرب أهلية لمدة طويلة نسبياً بسبب اتساع روسيا وسوء حالة المواصلات فيها ، وجود حركة ثورة ديمقراطية — برجوازية بين الجماهير الفلاحية تدعم الثورة البروليتارية .

المترجم

الفهرس

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التى تفجرت فى ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية، ولما كان تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبى والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التى تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة ، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطنى، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين ، ولتصلهم بتراث الفكر المصرى الحديث والمعاصر، والتراث العالمى على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيى ثورة الشباب فإنها
تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزى -
ومعرفيا يذكى معارك النهضة والتحرر ب
لنبنى معًا مصر جديدة وطنا للحرية والع
كما كانت عبر تاريخها المجيد


دار الكتب والوثائق القومية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة